علاقة العقيدة بفلسفة العلم

تأليف
الأستاذ الدكتور
محمد حسيني موسى محمد الغزالي
أستاذ العقيدة والفلسفة بجامعة الأزهر
وعميد المركز الثقافي الإسلامي بالشرقية

الطبعة السادسة
١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى صاحب الأيادي البيضاء

الأستاذ الدكتور محمود حمدي زقزوق

وزير الأوقاف

مع أطيب أمنية

الدكتور / محمد الغزالي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة السادسة

الحمد لله الذي يرفع أهل العلم به درجات ، ويجعلهم بين الناس كأنهم التيجان فوق الهامات ، ويبسط لهم في نفوس أصحاب الوفاء مالا يدرك من المسافات ، بل أنهم ربما شغلوا في عقول هؤلاء أكبر المساحات ، فله جل شأنه ، الفضل والمنة ، ومزيد الشكر لما هو أهله ، وبما هو به أولى .

والصلاة والسلام على نبينا الخاتم ، سيدنا محمد بن عبد الله ، صاحب الشفاعة العظمى ، والسراج المنير ، والحوض المورود ، رحمة الله تعالى للعالمين ، كانت حياته هداية للناس، في دينهم ودنياهم، وبعد إنتقاله بقى الميراث الإلهي الثابت في قوله ﷺ ﴿ تركت فيكم ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبدا ، كتاب الله وسنتي ﴾

وأرض اللهم عن آل بيته الطاهرين ، وأصحابه الغر الميامين ، وتابعيهم أهل العرفان بالله رب العالمين ، وأكرم اللهم العلماء العاملين ، ونجنا بفضلك وجودك وكرمك من زلات القلب واللسان ، واحفظنا في كل أمرنا يا كريم يارحمان ، وإنصرنا على أنفسنا ، وارحم والدينا ، وأكرم أولادنا وبناتنا وأهلينا ، إنك سميع الدعاء .

أما بعد

فقد تكررت طبعات هذا الكتاب في شكل رسمي ، وأُخَر غير رسمي [١]، ولم أكن أجد من الوقت فرصة المراجعة ، غير أنني مع هذه الطبعة قد عدلت في بعض النتائج ، وقدمت بعض ما يظن جديدا بالنسبة لطرائق البحث ، بجانب بعض المصادر ،ومن ثم فقد حظيت ذات الطبعة بنوع من المراجعة التي لم يتيسر أمرها لأي من الطبعات التي سلفت ، وذلك من فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

---

(١) المراد بالرسمي ما تمت طباعته ، وقد سجلت معها سنة الطبع ، أما إذا لم لم تسجل سنة الطبع فإني اعتبرها غير رسمية .

كذلك أتيحت لي فرصة الرجوع للعديد من المصادر التي لم أكن وقفت عليها من قبل ، فمنحني هذا الرجوع العديد من الفرص الفنية لمراجعة ما كنت قد انتهيت منه ، وهذا من شأنه إتاحة المزيد من الدراسة للعديد من الأفكار ، بجانب تلقيح ما يمكن الإستفادة به ، على النحو الذي يحقق المصلحة العلمية ، ويمكن الباحث حتى يقدم العديد من النتائج الإيجابية .

ولئن كانت هذه الزيادات قد جاءت لصالح ذات الطبعة ، غير أن النقص البشري الذي هو سمة الكثيرين من أمثالي ، وإن لم يكن مقصودا ، إلا أنه يبقى علامة مميزة على أن ما صنعه الله هو الكمال المطلق ، لأن فاعله هو الله تعالى ذو الكمال ، وما وضعه الإنسان - مهما أوتى من مكانة علمية - فإنه متى راقبه بعيدا عن نزعات التعالى الذاتي ، وقف على إن به نوع قصور ، وأي قصور .

وتبقى بعد ذلك مهمة أنوه إليها ، وهي أن العلم لا يعرف الكلمة الأخيرة ، والبحث العلمي لم يتوقف لأن الأمر به جاءت رسالات السماء آمرة به ،حاثة عليه ، وكل إنسان يؤخذ من قوله ويرد عليه إلا صاحب العصمة الإلهية سيدنا محمد ﷺ الذي قال الله فيه وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى .

والله أسأل أن يمدني بمدد من عنده ، وينزلني المنزل الذي يرضيه
إنه نعم المولى ونعم النصير

أ. د. / محمد حسيني موسى محمد الغزالي
فجر الجمعة - الثالث والعشرين من رمضان ١٤٢٨ هـ
الموافق الخامس من أكتوبر سنة ٢٠٠٧ م.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، خلق الإنسان وأمره أن يكون سليم العقيدة ، صحيح الدين ، قال تعالى ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ (١) .

وبين ، جل شأنه ، أن صحة العقيدة فيه جل شأنه هي أصل حياة المسلمين ، وأن أجزاء العقيدة الإلهية تتلاقى في قلب المؤمن فترفعه إلى أعلى مراتب اليقين ، ومن يحاول أن يتخلى عنها فليس من المسلمين قال تعالى ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٢) .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، منّ علينا بالهدى ، وجعلنا مسلمين ، لا نماري في الحق ، ولا نجادل في صحيح الدين ، ولا نقول على الله إلا الحق الذي جاءنا في كتابه العظيم ، وعلى لسان رسوله النبي الخاتم الكريم ، لقوله ﷺ ﴿ تركت فيكم ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبدا ، كتاب الله وسنتي ﴾ .

وأشهد أن سيدنا محمدا بن عبد الله خاتم رسل الله ، كشف الله له من خزائن أسراره ما فيه صلاح الناس في الدنيا والدين ، وأمره إبلاغ الخلائق أن العلم النافع من انوار رب العالمين ، وأن العلماء بالله هم الأقرب في محبة الله تعالى ، والأكثر خشية له ، فقال تعالى﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة الزمر : الأيتان ٢ ، ٣ .
(٢) سورة آل عمران : الآية ٨٥ .
(٢) سورة فاطر : الآية ٢٨ .

الله صلي وسلم وبارك على سيدنا محمد الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير ، وأرض اللهم عن آل بيته الأكرمين ، وأصحابه الذين كانوا أنجما تنير ظلمات الليل البهيم ، وأتباعه من العلماء العارفين ، وأهل المحبة لله رب العالمين ، وارحم اللهم بفضلك علماءنا العاملين ، ووالدينا ، وأكرم ذرارينا ، وإجعلنا عندك في مقعد صدق يا أكرم الأكرمين ٠

أما بعد ،،،،،

فقد كنت قد أصدرت كتابا تحت عنوان " قراءات في العقيدة وفلسفة العلم " [١]، ولم تتهيأ لي الأسباب حتى أراجع ذلك الذي كتبت ، فأعدل فيه وأزيد عليه ، ثم جدت الشواغل ، ورأيتني أدرس هذه المادة لطلاب قسم العقيدة والفلسفة ، فقررت قراءة الكتاب الذي أشرت إليه ، ولكني رأيت أن الزيادة عليه ، أو التعديل ، لا يكفي أحدهما تعبيرا عن وجهة نظري [٢] ، أو حملا للآراء الجديدة التي باتت هينة لدى ٠

بيد إنني وجدت من الأنسب بحث العلاقة بين العقيدة الإلهية وفلسفة العقيدة بالمعنى الفني ، لأن ذلك من وجهة نظري أجدى في البحث العلمي ، بأن هو أيسر مقالا وإن كان أصعب منالا [٣] ، لذا جعلت عنوان هذا الكتاب هو " علاقة العقيدة بفلسفة العلم " ، وقد حاولت أن يكون العنوان هو ذاته الجزئيات البحثية ، حتى أكون متوافقا مع قاعدة ضرورة تطابق الوصف العنواني ٠

ربما يقال أن ظاهر العنوان يوحي بإلتماس العقيدة مكانا لها في فلسفة العلم ، أو محاولة إيجاد نسب تكون العقيدة هي الساعية إليه ، ولكن العكس هو الذي أردته ، أما

---

(١) كانت طبعته الأولى عام ١٩٩٥ ، ثم تكررت طبعاته ، وما تزال تطبع إلى الآن وتدرس ٠

(٢) لأن الزيادة قد تمثل ثقافة جديدة ، والتعديل قد يعبر عن التناول لفكرة سبق عرضها في صورة أخرى ، وقد يقع تنازل عن بعض الأفكار التي سلف القول بها ٠

(٣) هو أيسر مقالا من حيث التمني ، فما أيسر أن نقول ونتمنى ، وأصعب منالا من حيث البحث العلمي والدراسة المتأنية التي يرجى من ورائها الوقوف على شاطيء الحقيقة إن لم يبلغها كاملة ٠

لماذا؟ فلأن العقيدة الإلهية مصدرها هو الله تعالى[٤] ، وهي في ذات الوقت ، تعبر أصدق تعبير عن فهم العبد المؤمن ما يجب عليه نحو خالقه العظيم ، جل علاه ، من معرفة تامة بما له ، جل علاه ، من الجلال والجمال والكمال والإكرام [١] ، وما يجب له تعالى من الإلتزام بالمأمورات وإجتناب المنهيات .

أما فلسفة العلم فهي نسق معرفي ، يعتمد على التحليل الواعي لمفاهيم العلم الحادث وبحث العلاقات القائمة بين مبادئه ومناهجه ، لبيان ما إذا كانت نظرياته قد بلغت به الأهداف التي يسعى إليها ، وهل امكن للعلم الإفادة من تراث السلف ، حتى يمكن أن تقدمه هدية للخلف [٢]، وهذا من شأنه أن يوقف المفكر على ضرورة تبعية فلسفة العلم لكل من الفلسفة والعلم بالمعنى الفني ، وضرورة خضوع هذه وتلك للعقيدة الإلهية .

ليس علم فلسفة العلم بعيدا عن العقيدة الإلهية ، وإنما هي الحاكم عليه ، فما كان صوابا يخدم البشرية ويحقق قضية الاستخلاف في الأرض ، طبقا لما أمر به رب البرية، فهو مقبول ، وما كان مخالفا لهذه القاعدة الإستخلافية ، فإنه لا يكون ذا قيمة تذكر [٣]، إذ المعيار الذي تقبله وترفضه ويشاركنا فيه كل العقلاء هو أن ما يحقق مصالح البشرية ، بما يرضي رب البرية ، هو الذي يجب التمسك به ، بل الذي يجب أن يصار إليه .

وإذا كانت الفلسفة العلمية تسترشد بنتائج العلم أينما كانت تلك النتائج ، وقد أدى بها ذلك إلى إنكار الميتافيزيقا التأملية لإعتقاد أصحابها بأنه لا وجود لأي نشاط فلسفي

---

(٤) والمبلغ بها هو القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة الصحيحة، ومن ثم فقد تلاقى مصدر التنزيل ومصدر التبليغ ومصدر التكليف في موقع واحد ، فسبحان الله رب العالمين .

(١) وكلما كانت العقيدة الإلهية متمكنة من قلب العبد المؤمن ،استطاعت أت تقذف فيه من أنوارها، حتى أنه ربما بلغ درجة القرب التي عبر عنها القرآن الكريم بقوله تعالى ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ سورة القمر الآيتان ٥٤ و ٥٥

(٢) سيجدني القارئ قدمت لفلسفة العلم عدة تعريفات على الجوانب المختلفة و بعضها من ناحية الموضوع ، والآخر من ناحية الغاية والهدف ، وبعض ثالث جاء من ناحية الصياغة العلمية ، وكلها تعاريف تقريبية يدركها من له إلمام بعلم المنطق .

(٣) قاعدة الإستخلاف في المعنى العام أشارت إليها بعض آيات الذكر الحكيم ، منها قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ سورة البقرة الآية ٣٠

خارج نطاق تحليل نتائج العلم[٤] ، فإن فلسفة العلم التي تراجع نتائج العلم وتستوثق من صحتها عن طريق التحليل الواعي ، والنقد البناء ، بجانب الرغبة في الوصول إلى فوائد تحدد قيمة العلم في الحياة العملية ٠

من هنا كانت الإشارة إلى أن العقيدة الإلهية قلبية [١] ، وأن فلسفة العلم معرفية ، وكل منهما له إتصال بالآخر على وجه يمكن الوقوف عليه متى كان ذلك الراغب في ذات الوقوف من ذوي الإتجاهات الصحيحة ، والأفكار السوية ، ولديه على قمة هذه وتلك ، عقيدة سليمة في الله رب العالمين ٠

بيد أن هذه العلاقة لا تتضح من تلقاء ذاتها ، وإنما لا بد من بيان مفهوم العقيدة وفلسفة العلم ، بجانب الإلمام بتاريخ كل من ، تاريخ العلم وتاريخ فلسفة العلم . لأن العقدة الإلهية فطرية ، فتاريخها هو ذاته تاريخ خلق الإنسان الأول ، بل إنها تسبق وجود هذا الإنسان ، حيث تمتد إلى أول مخلوق خلقه الله تعالى[٢] ، سواء عرفناه من خلال الأخبار الصحيحة التي نقلت ذلك ، أم لم نعرفه ، وإنما نفوض الأمرفي حقيقته إلى الله تعالى ٠

غير خاف أن بحث هذه العلاقة يخدم قضية الدين بوجه عام ، كما يخدم العقيدة الإسلامية على وجه الخصوص ، من حيث أن تقرير العقيدة الإيمانية في النفوس فرض عين يقوم به الفرد المؤمن المتأمل في ملكوت الله تعالى ، والقادر على بذل المجهود في كل ما يتحقق به شكر نعمة المولى الكبير المتعال المعبود ٠

كما أن الدفاع عن العقيدة الإيمانية بالله رب العالمين فرض هو الآخر ، إذ التقرير عمل داخلي ، أما الدفاع فعمل خارجي يتم فيه الضغط على الأفكار الشيطانية داخل النفس البشرية ، وهو كذلك عمل خارجي حينما يقوم به المرء مع الآخرين ، ما دام قادرا عليه ، ويمكنه القيام به في ثقة وإقتدار ٠

---

(٤) راجع للدكتور / حسين على : مفهوم الإحتمال في فلسفة العلم المعاصرة ، صـ ٢٥ / ٢٦ ، مكتبة جامعة عين شمس ، سنة ١٩٨٩ ٠

(١) العقيدة الإلهية فطرية ، ومن ثم فهي قلبية ، والإستدلال عنها يتم بالطريقة العلمية ٠

(١) فكرة المخلوق الأول نفوض الأمر فيها إلى الله تعالى ٠

ولما كانت فلسفة العلم فيها إتجاه نحو البحث العلمي في الميدان التجريبي بأوسع معاني الكلمة ، وهي في ذات الوقت تتجه نحو البحث النظري في مسائل العلم المختلفة ، فقد صارت بهذين الإتجاهين على مقربة من العقيدة الإلهية ، إن لم نقل أنها اتخذت من بعض قضايا العقيدة الإلهية موضوعا بحثيا ، وهنا تكمن الخطورة ، إذ يجب أن تكون فلسفة العلم تابعا لسلطان العقيدة ، وأن تمضي شوطها في رحابها لا تحيد عنها ، ولا تخرج أبدا عليها ٠

في نفس الوقت ، فإن الإتجاه بفلسفة العلم نحو البحث الدقيق الذي يقوم على مراقبة ما تأمر به العقيدة الإلهية ، يضمن لذات الفلسفة النجاح والإستمرار ، بل والتفوق على غيرها ، لإنها تكون في ركب الدين تسير ، ومن خلال هديه تستمر ، وعلى قواعده تنتظم وتقوم ، وهذا أهم عامل تقوم عليه آية أفكار بشرية٠

وإذا حققت فلسفة العلم هذا الهدف ، وإنتظمت فيه ، صارت بمثابة الشارح لنصوص الدين ،أو المفسر لما يمكن أن يكشف عن الجوانب التي تحتاج المزيد من التأمل[١]، والكثير من الدرس ، ونحن من جانبنا نرى أنه متى خدمت فلسفة العلم العقيدة الإلهية أمكن لها أن تبز غيرها من العلوم ، بل وتسبق العديد من المعارف ، وفي ذات الوقت تكون جوانبها صحيحة ، ونتائجها سليمة إذ لا شطط ، ولا غلو ، كما لا إهمال أو تفريط ، ولا تشدد أو إفراط ، وإنما العدل الذي شرعه الله ، والحب الذي أمر به جل علاه ٠

أجل ، تركز فلسفة العلم على نتائج العلم ومناهجه ، وفي نفس الوقت ، فإن علم تقرير العقيدة الإسلامية بالمعنى الإصطلاحي لا يستبعد نتائج البحث العلمي من ميدانه[٢]، كما لا يجعل المناهج والنظريات والمبادئ العلمية ذات خصوصية ، وإنما يرى ضرورة الإستفادة بها في تقرير هذه العقيدة والدفاع عنها ، ومن ثم ، فهو يحافظ على طبيعته الخاصة ، ومع ذلك يمكن أن يبسط يديه على فلسفة العلم فيكون موجها وهاديا ، وذلك مما يميز علم العقيدة الإسلامية عن غيره ٠

---

(١) إذا ظهر أن فلسفة العلم هي الشارح للدين ، فقد ثبت أنها مقبولة شرعا ٠
(٢) أنه يستفيد منها ، ويوجه إليها ٠

لقد أكدت مرات عديدة في الدراسات التي قمت بها ، على ضرورة خضوع الأفكار الجديدة إلى ميزان الشرع الشريف،حتى تكون تحت مراقبته،فإذا كانت فيها فوائد أخذ بها أهل الإسلام وغيرهم ، وإن لم تكن فيها فوائد فلا داعي للأخذ بها ، وبذل الوقت أو المال فيها ، إذ النفس الإنسانية السليمة قد ألفت التمسك بما فيه الفوائد المشروعة واهمال غيره •

وسوف يجد القارئ في هذا الكتاب مفردات ربما لم يألفها ، وقد تلاقيه مصطلحات لا تجري له على مشرب ، وربما طاوعته نفسه في قبولها، وقد تنازعه الخطر إليها لكنها على كل الأحوال من ضرورات البحث في هذا الميدان كمصطلحات الأفكار الراسية والتحليل الرأسي ، والتحليل الأفقي ، النسبية الكيميائية ، أنطولوجية التعين في العالم اللاحتمي ، الماكروكوزم ، نقد الوقائع اللاحتمية ، نقد القوانين ، نظريات ، نقد المبادئ إلى غير ذلك مما هو قائم في ذات العلم •

ولئن طاب لي الحديث عن المنهج الذي أقوم عليه في هذه الدراسة ، فهو المنهج التقريري في كل ما يتعلق بالعقيدة الإلهية ، لأنها من عند الله جاءت ، وفي النصوص المحكمة يمكن الرجوع إليها ، وهذا أمره من شأن عقيدة المسلم الذي يعرف قيمة النقل المنزل ، أما في جانب الإستدلال عليها ، فإن الباحث حر يختار من المناهج ما يؤدي به إلى غايته ، ويبلغ معه غرضه •

وفي جانب فلسفة العلم ، فإن المنهج التحليلي النقدي هو الذي تكون له السيادة ، لأن الأفكار التي تتحاور بها ليست لها علاقة بالنقل المنزل في الصياغة والتركيب ، كما ان المفردات التي تتعاطاها ليست محل اتفاق بين الدارسين ،وبالتالي يكون المنهج التحليلي النقدي هو الأقرب إلى القبول ، والأكثر رجحانا عند المقابلة •

أما عندما نريد وضع علاقة العقيدة الإلهية بفلسفة العلم على محك النظر ، فلا بد من منهجين يتآزران معا ، أحدهما منهج المقارنة التقابلية الذي نرجح من خلاله ما نراه راجحا ، ثم منهج الأطر النفسية ، حتى إذا إنتهينا إلى سيادة العقيدة على فلسفة العلم ،

وضرورة خضوع الأخيرة للأولى ، كنا قد مهدنا النفس لتقبل ذات النتيجة ، وإعتبارها قاعدة إجتماعية ، وأخلاقية أيضا ، ومن ثم ، تعددت المناهج التي أعول عليها .

ولا يغرب عن دارس منصف ان المحتويات التي سأتناولها في هذا الكتاب سوف تلاقى القارئ استحسانا ، أو يقابلها هو في سفورها وتدللها ، وهذا يوفر على مثلي ذكرها في المقدمة طالما سيلاقيها القارئ ،أو تلاقيه من خلال ما يروقه النظر فيه،أو يعن له التوجه إليه .

أما أنا فلا أدعي أن هذا الكتاب قد بلغ المنتهى ، أو قاربه ، وإنما هي أفكار عرضتها تحمل من الصواب بقدر توفيق الله تعالى،وفيها من القصور بقدر ما لدي من ضعف إنساني.

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا

والحمد لله رب العالمين

دكتور / محمد حسيني موسى محمد الغزالي

غزالة الخيس - مركز الزقازيق - شرقية

فجر ٣ / ١١ / ١٩٩٥



أولا : تعريف العقيدة وعلم العقيدة

ثانيا : علم العقيدة

ثالثا : علاقة العقيدة بعلم العقيدة

رابعا : مصطلح فلسفة العلم



تمهيد :

لفظ العقيدة من الألفاظ اللغوية ذات الدلالات المتميزة (١) ، لأنها ما أن ينطق المرء بها وتعانق السمع حتى يجد المرء نفسه مقبلا عليها ، إقبال الغريق إلى شواطيء النجاة، وإندفاع الرضيع إلى صدر أمه الحانية، حيث يقع له التكامل بها، والتآلف المستمر معها ، وفوق ذلك ،فإن المرء العاقل متى صافحت عقله حروف لفظ العقيدة الإلهية ، فإنه يلمس أثرها الفياض داخل وجدانه ، أما لماذا ؟ فلأنها طريقة للوقوف على ما في فطرته ، وحينئذ يتعرف ذاته من جوانبها المختلفة ، كما يكتشف ذاته من ذاته ، ويتعرف بذاته على ذاته ·

كما أن مصطلح العقيدة الإلهية يمثل نوعا من أنواع التراكيب اللغوية ، إذ هو عبارة عن علاقة قائمة بين النعت والمنعوت ، أو الصفة والموصوف (٢)، أما دلالته من الناحية الما وراء اللفظية فهي أكبر من أن يحيط بها عقل عاقل ، إو يجمع معانيها فكر مفكر إنها فوق هذه جميعها ، أما يكفي أنها تعبير عن الذات الإلهية ، ودلالتها في النفوس بجانب تأثيرها على العقول والقلوب ، بدرجاتها المختلفة ·

بيد أن تناول لفظ العقيدة من الناحية المعرفية يتخذ أنماطا متعدة داخل التفكير الإنساني ، كما يستخدم العديد من الوسائل ، بجانب حزمة المناهج التي يتوصل بها إلى ذات الغاية (٣) وهي مسألة مهمة جدا ، وتستغرق الكثير من الجهود ، وهذا ما يعني حرص كل فرد من مفكري أهل الإسلام على إبراز ملكاته ، حتى تقع الإستفادة من إمكانياته في خدمة العقيدة الإلهية تقريرا لها، ثم عرضا متواصلا ، وأخيرا يجيء دور الدفاع عنها·

---

(١) هذا ما يتعلق بالألفاظ اللغوية المنطوقة ، وهي مهمة لا بد من النظر إليها بعين الإعتبار بل يمكن للباحث أن ينهض لها ، على جانب اللغة فيحقق العديد من الأهداف المتميزة ·

(٢) كما يعرف بالمركب التوصيفي ، نظرا لإرتباط العلاقة القائمة بالطرفين ، من خلال وجود نسبة إيجابية ، بحيث يصير الطرفان كأنهما شيء واحد ·

(٣) تعدد المناهج قد يرتبط بالغايات ، وقد ينفصل عنها حين يجهتد في الوصول إليها من طريق يقيني أو برهاني ، وكلما كانت المناهج متسقة مع المطروحات الفكرية جاءت النتائج بعيدة عن الإختلاف ، متجاوزة إشكاليات عديدة من أبرزها التباين·

في نفس الوقت ، برزت فلسفة العلم على أنها نوع من أنواع البحث العقلي التطبيقي سواء من الناحية التجريبية العملية ، أو من الناحية التحليلية التي تعتمد المنطق الاستقرائي ، أو المنطق الاستنباطي بمعناه العام ، والميدان التجريبي بإعتبار النتائج المترتبة عليه [١] وهي مسألة معرفية ، ذات جذور عقلية ، لها ارتباطات وثيقة بالقواعد البحثية متى نهضت في أصول دلالية ، واعتمدت المعارف السالفة ، بعد تخليصها من الشوائب التي تكون قد لحقت بها في وقت من الأوقات ، أو ظرف من الظروف ذات التأثيرات الفعالة .

من المعلوم أن فلسفة العلم بهذا المعنى صارت علما مستقلا ،له تعريفه وموضوعه بجانب وسائل البحث فيه ، وأخيرا غاياته التي يسعى جاهدا في الوصول إليها [٢] صحيح قد يبلغ هذا العلم غايته البحثية ، ولكنه لا يحقق النتائج الإيجابية من كافة الجوانب ، وحينئذ تكون الأهداف قد وضعت مسبقا ، حتى تكن المقدمات مؤدية إليها ، ومهيأة للوصول بهاالأهدافها .

ولما كانت المسائل المقررة بين العلم وفلسفته قد تتداخل إلى حد الاختلاط ، والقضايا العقدية هي الأخرى قد يخفق في واجباته المقرر لها والمدافع عنها [٣] - كعلم نظري - عند ملاحظته تأثيرها في القلوب والعقول ، فقد بات من الضروري تحديد المصطلحات والمفاهيم المقصودة في هذا البحث حتى يكون الناظر إليهما معا قد وقف على الأصول الضرورية ، أو التي لا بد منها ، وهو ما سوف أحاول القيام به على النحو التالي :

---

(١) راجع كتابنا :التفكير الإنساني أصوله ومستوياته ، صـ ١٢٧ ، حيث أن المجال التطبيقي العام يشمل جوانب كثيرة ، ولا يكون مقصورا على جانب بعينه ، ولذا فهو يقدم للباحثين العديد من الفرص العلمية والمعرفية ، والكثير من أوجه الامتياز

(٢) يعتقد كثير من الباحثين أن فلسفة العلم علم مستحدث ، ولهم على ذلك أدلة ، ويخالفهم باحثون ذات الرأي ، حيث يذهبون إلى أنه علم قديم ، نما في أحضان الفلسفة العلمية ، بينما ذهب فريق ثالث إلى غير ذلك ، ولكل وجهه ، راجع كتابنا : قراءات في العقيدة وفلسفة العلم صـ ٤٥ ، ط. ثالثة .

(٣) هذا الاخفاق منه راجع لكونه لم يكن مستعدا لها ، أو قادرا على القيام بأعبائها، لأنه لو كان قادرا على ذلك ، ما وقع في الإخفاقات المتوالية .

أولا : تعريف العقيدة وعلم العقيدة

العقيدة :

العقيدة الصحيحة ، هي التي جاءت من عند الله تعالى ونقلها أمين الوحي جبريل إلى النبي الصادق المبعوث من الله تعالى للخلق ، حتى يعرفهم بالخالق العظيم جل علاه ، وما له من الجلال والكمال ، بجانب الجمال والإكرام ، تعريفا دقيقا بحيث لا يبقى معه غموض ، وتقريرا رائعا حتى تنتقض كل شبهة ، بل صار المعتقد لها المستنير بها ، كأنه المصباح الذي إمتلأت جنباته بالأنوار ، فمن آية ناحية أضاء ، ومن آية جهة نظر إليه استضيء به ، لأن هذه العقيدة الإلهية الصافية تجعل صاحبها نورا يمشي بين الناس ٠

والعقيدة الصحيحة هى الإلهية ، لأن مصدرها هو الله تعالي ، ومضمونها وموضوعاتها من عند الله جل شأنه ، والمترتب عليها يرضى عنه الله ، ومن ثم فهي متميزة بإعتبار الإسم والموضوع ، كما هي متميزة الدلالة والنتائج ، مرتبطة أشد الإرتباط نتائجها بالمقدمات ، وفوق ذلك فإنها تجعل المعتقد لها في سعادة بالغة ، تعبر عنها حركاته وسكناته كما تتنافس عند التعريف بها الفاظه ومفرداته ، حتى وإن لم تنطق بها شفتاه ، من ثم فقد وجب تعريفها في كل من ، اللغة والإصطلاح على النحو التالي :

أ - في اللـغة

وردت مادة الكلمة - ع ق - د - في سور القرآن الكريم حوالي سبع مرات[١] وكذلك جاءت في لغة العرب على العديد من المعاني ، أبرزها ما يلي :

الأول : التآلف والالتئام

تقول العرب تآلفت أجزاء الزهر ، وتضامت أجزاؤه حتى انعقدت ، وصار ما بينها محكما [٢] وبالتالي فالعقيدة هي التي تجمع المرء من أطرافه بحيث تجعله منتصبا أمام

---

(١) راجع للأستاذ : محمد فؤاد عبد الباقي - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، صـ ٤٦٨ ، حيث ذكر مواضع وجودها في القرآن الكريم ٠

(٢) راجع العلامة مجد الدين الفيروزابادي - القاموس المحيط ، باب الدال ، فصل العين وما يثالثهما ، وقطر المحيط ، جـ ٣ مادة عقد ٠

شرع الله تعالى لا يقصر في أدائه ، ولا يتهاون عند القيام به ، والعلاقة بين هذا المعنى والعقيدة الإلهية واضحة جدا ، لأنها تدفع المرء بعيدا عن المحرمات ، وتجعله متآلفا مع المشروعات ، كأنها الأصل الذي يقوم عليه .

الثاني : الولاية المتميزة [١]

من المعروف ان هناك ولاية عامة وهي الخلافة التي تتعلق بالنواحي السياسية والدينية ، ويقوم بها الملك أو الرئيس بإعتباره خليفة رسول الله ﷺ [٢] ، وهناك ولاية خاصة تبدأ من كل راع في بيته ، بل كل إنسان في حدود ما ولاه الله تعالى [٣] حتى تمتد إلى المرأة في بيت زوجها ، والفلاح في الحقل الذي يعمل به ، والعامل فيما يوكل إليه ، كما تشمل الأداء مع الجودة والاتقان .

والعقيدة هي الولاية القلبية ، تقول العرب هذا الأمر له فيه ولاية ، ومعناه أنعقد عليه ، فلم يعد له انفكاك منه أو هروب عنه [٤] ، وعلاقة العقيدة بهذا المعنى أنها تكون لها الولاية القلبية فلا تتصرف الجوارح إلا من خلالها ، ولا تتحرك بعيدا عنها ، متى كان لها التمكن في القلب والعقل ، بجانب الضمير والوجدان ، ومن ثم يكون الانطلاق منها على ناحية مقصودة ، تحرسها الأصول الصحيحة .

الثالث : البناء المحكم

تقول العرب هذا بناء معقود على أتم ما يكون ، ومعناه أن أطرافه وصلت ببعضها ماجعلها قوية يصعب إختراقها ، كما لا يكون من السهل هدمها [٥] ، والعلاقة بين العقيدة وهذا المعنى ، هي أن المرء متى تمكنت منه العقيدة الإلهية جعلت سلوكياته تنضبط على ما

---

(١) هي غير الولاية بالمعنى القلبي أو الصوفي ، لأن لها مدلولات أخرى كثيرة ، وتتعلق بها صفات أكثر العلماء من ذكرها ، راجع كتابنا : الموسوعة الغزالية في التصوف والصوفية .

(٢) راجع كتابنا : الفكر السياسي بين الغزالي والأنظمة الحديثة ، حيث تعرضت لها أثناء الحديث عن جوانب النظرية السياسية .

(٣) ومن هنا كان تعددها وتنوعها حتى أن الكثيرين من العلماء يعتبرونها داخلة في باب المسئولية من ناحية ، ومن باب القيم والآداب من ناحية أخرى .

(٤) العلامة ابن منظور – لسان العرب ، باب العين ، فصل القاف ، هـ ٣ ، صـ ٦١٥ .

(٥) العلامة ابن فارس - معجم مقايس اللغة ، باب العين ، وراجع المنجد في اللغة والآداب والإعلام تجد هذه المعاني مشتركة بينها .

يكون ، ثم تتجه به نحو الأهداف العليا والغايات المثلى ، فلا يكون من السهل عليه الوقوع في المهاوى ، أو الاستجابة لنزوات الشيطان أو نزعاته ·

الرابع : القاعدة المحكمة ، والعقدة المتماسكة

قالت العرب : هذه عقيدة قوية ثابتة ، وقاعدة محكمة متقنة ، يمكن الحمل عليها ، والتمسك بها مع اعتبارها أصلا لا يمكن تجاوزه أو التخلي عنه ، ويقال عقد الرجل الحبل فجمع أطرافه ، وجعلها عقدة واحدة يصعب التعرض لها ، ونقض أطرافها [١] ، والعلاقة بين العقيدة وهذا المعنى هي أن صاحب العقيدة الصحيحة يقف في أمورها كلها على قاعدة قوية وأساس متين ، لا يخشى الخطوب ولا يهاب المواقف ، مهما كانت قوتها أو قسوتها ، إنه قد أمن بالله تعالى ، وصدق بما جاء من عنده جل علاه، وهو على يقين بأن ما قدره الله سيكون ، وحينئذ يتصرف في أمور الدنيا من خلال الحيلة المشروعة تاركا الأمر كله لله رب العالمين ·

الخامس : التاج العظيم

تقول العرب : هذه عقيدة قائمة على رأس صاحبها ، ومعناه أنها تاج يغطي رأسه ، ويقال هذا عقده ، ومعناه تاجه الذي وضع فوق رأسه حتى يشملها من كل جانب ويزكيها على كل ناحية [٢]، والعلاقة بين العقيدة وهذا المعنى واضحة ، في أنه لما كان التاج هو الذي يدل على كون صاحبة ملكا ، فقد صار المتمكن من العقيدة الإلهية القائمة في قلبه هو ذاته الملك المتوج ، لأنه ملتزم شرع الله تعالى ، قائم في كونه بما أمر الله عز وجل ·

السادس : ما لا يقع الشك فيه أبدا

ذكرت مصادر العربية أن العقيدة هي ما لا يشك معتقده فيه ، كوجود الله تعالى ، وبعثة الرسل [٣] ، واليوم الآخر ، وما يتعلق بهذه الجوانب التي جاءت بها رسالات السماء

---

(١) العلامة الزمخشري : أساس البلاغة ، باب العين ، صـ ٤١٩ ، ط. دار الشعب ، وراجع التهذيب والمنجد في اللغة ·

(٢) العلامة ابن منظور- لسان العرب ، باب العين ، وراجع للفيومي : المصباح المنير، صـ ٢١٦ والمنجد في اللغة والآداب والإعلام ، صـ ٨٧٥ ·

(٣) المعجم الوجيز ، باب العين ، صـ ٤٢٧ ، المعجم الوسيط ، باب العين ، والأساس ، باب العين ، فصل القاف ·

عن الله تعالى ، وهي العقيدة الإلهية ، بكل ما يترتب عليها من مصالح تحقق السعادة في الدنيا والنجاة عند الله تعالى في الآخرة ٠

مما سلف ذكره اتضح ان كلمة العقيدة لها معان كثيرة من الناحية اللغوية ، ويمكن إيجاد تعريف لغوي يجمع هذه المعاني ، وحينئذ تعرف العقيدة من الناحية اللغوية بأنها الأجزاء المتآلفة ذات البناء المحكم ، والقاعدة الثابتة على قلب المرء وعقله ، حتى تكون لها الولاية عليه ، وتصير التاج العظيم المميز له الذي لا يستغنى عنه ، ولا يشك في وجوده(١)، والعقيدة الإلهية هي التي لها ذلك الإمتياز ، وتتحقق معها نفس الخصوصية ٠

على أن العقيدة الإلهية متى تمكنت من القلب ، خضع لها العقل ، وإنقادت الجوارح إنقياد الأسد الهصور للقناص الذي يدرك قدرته الجيدة ، ويعمل من خلال منظومة تدريبية لها إمتياز خاص (٢)، لأن العقيدة الإلهية هي نداء الفطرة ، وإلهام القلب النوراني ووحي العقل الرباني ، وفوق ذلك فهي نجوى الفؤاد يستلهمها سعادته ، ويودع فيها أماله وأمانيه ، كما يلتمس عندها تحقيق أحلامه ، وهي الدين القيم الحنيف الذي لاقيام للمرء بدونه ٠

قال تعالى " فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ " (٣)، وقال تعالى " فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ " (٤) ، قال القاضي عبد الجبار ، هو خطاب للكل وإن كان لفظه خاصا ، والمراد بالوجه نفس الإنسان فكأنه ، قال

---

(١) هذا المعنى يمكن الوقوف عليه من خلال مراجعة المعاني اللغوية ، وجمع اطرافها المختلفة ، وتلك مسألة مهمة ٠

(٢) الدليل على ذلك أن سيدنا عمر بن الخطاب ، لما أسلم تحول بسرعة من عدو لدود للإسلام إلى مدافع عنه بكل ما أوتي من قوة ومال ، بل هان أمامه الولد والمال والحياة بأسرها حينما أعلن على الملا :من أراد أن تثكله أمه وييتم ولده ، وترمل زوجته فليتبعني خلف هذا الوادي راجع للشيخ محمود فوزي الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ، صـ ٥٣ ، الطبعة الأولى سنة ١٣٠٥ هـ ٠

(٣) سورة الروم : الآية ٣٠ ٠

(٤) سورة الروم : الآية ٤٣ ٠

فأقم نفسك للدين القيم ، حتى لا تحول عنه ولا تزول ، فلا تأمن في كل وقت من الاخترام فإذا ثبت على الاستقامة كنت من الفائزين " (١) .

ب - في الإصلاح

لما كان الإصطلاح يمثل الإتجاه الذي يسعى إليه أصحابه ، فقد صار مفهومه هو اتفاق جماعة بعينها ، او طائفة بذاتها ، على أستخدام ألفاظ مخصوصة ، في معان محددة حتى تكون علامة مميزة ، وصورة فارقة لهم عن غيرهم ، ولما كان اللفظ الواحد له جوانب عديدة ، ويجيء على معان كثيرة ، فقد أمكن للبعض استخدامه من اتجاه بذاته أو جانب بعينه ، ثم يأتي غيرهم إليه من الجانب أو المعنى الآخر ، ولا يمانع قوم آخرون في هذا الاستعمال ما دام اللفظ الواحد يحتملها ، وبناء عليه صارت القاعدة الشهيرة - لا مشاحة في الإصلاح - بمثابة الوضع القانوني الثابت الذي لا يجوز لأحد تناسيه أو القفز فوقه ، وإلا أعتبر مخالفا للقاعدة الأساسية التي لا يمكن الخروج عنها ، فلا يسمع إليه ، ولا ينصت أحد لقوله ، ومن هنا فسأعمل على إلتقاط بعض التعاريف الإصطلاحية للعقيدة الإلهية (٢) على النحو التالي :

١ - هي النور الرباني الذي يضيء قلب العبد الصالح ، ويستولي على أمره كله ، حتى لا يرى في الكون سوى طاعة الله تعالى ، بحيث إذا جاء بعيدا عن الطاعة شعر بالتعرى فحاول الاستتار ، وحينئذ يعود إلى روضة الإيمان بالله الواحد القهار (٣) ، ويسعى لرضوان الله تعالى بكل ما لديه من قوة .

٢ - هي الإتجاه القلبي نحو غاية عليا، لها السيطرة التامة على الكون ،

---

(١) القاضي عبد الجبار بن أحمد : تنزيه القرآن عن المطاعن ، صـ ٣٢١ ، ط، دار النهضة الحديثة .

(٢) لن أنشغل بالعقائد الفاسدة ، لإني ذكرت ذلك في مواضع متعددة من كتبي ، منها حفيف الأفنان في الملل والنحل والأديان ، حيث تحدثت عن أنواع العقائد الفاسدة وتعريفاتها على وجه تفصيلي .

(٣) هذا التعريف وضعته من مراقبة أحوال أصحاب الاعتقادات الصحيحة ، وبخاصة إذا تمت معايشتهم في حياتهم على وجه تفصيلي .

وفوق الجميع إرادتها ، ومحيط بالكل علما ، وبعد ذلك يقع العود إلى هذه الغاية التي تمثل إرضاء الله جل علاه ، فالعقيدة الإلهية فيها الإتجاه التام نحو الخالق الأعظم رب العالمين [١] .

٣ - **إنها أسمى علاقة يحافظ عليها المخلوق** ، حتى يبقى موصولا بالخالق العظيم جل علاه ، ولذا فهو يدعمها بأسباب التقوى ، كما يحيطها بألوان البر ، وممارسة الخيرات ، إنها سياج متى أحاط بالمرء نقله من الإلحاد للإيمان ، ومن الضلال للهدى من الظلام للنور ، إنها مما تعجز العبارات عن بيانها ، ولا تكفي فيها المفردات حتى تبلغها على حقيقتها [٢] ، ويكفي أنها العقيدة الإلهية .

٤ - **إنها تتعلق بالله سبحانه وتعالى ، ذاتا وصفات وأفعالا** ، على الوجه المشروع من قبل الله تعالى في كتابه الكريم وسنة رسوله الخاتم الأمين ، حيث تشمل الاعتقاد الجازم الصحيح بوجود الله تعالى ، وما يجب له من صفات الجلال والكمال ، والجمال والإكرام ، وما يشيع ذلك كله من الإيمان بالملائكة، والكتب ، وجميع الرسل واليوم الآخر ، وكذلك القضاء والقدر[٣].

٥ - **إنها العقيدة التي بلغ بها جميع الأنبياء وكل المرسلين** ، سهلة في التعرف عليها سلسه عند مراجعتها ، ميسورة لكل من يريدها ، لا تفرقه فيها بين وزير وأجير ، التائه في أعماق الصحراء ، والمقيم بناطحات السحاب والسماء ، بين ساكني القبور أو ساكني القصور ، ولا نجاة للمرء إلا بها اعتقادا وبما جاءت تمسكا والتزاما [٤] .

---

(١) هذا التعريف رأيت وضعه من خلال متابعة أحوال أصحاب الفكر العقلي الذين قد تضطرهم ظروفهم للعودة إلى العقيدة الإلهية، وهم الذين كانوا أعلنوا تخليهم عنها ، أو عدم أحتياجهم إليها .

(٢) رأيت وضع هذا التعريف كنتيجة للمارسات القلبية مع أصحاب الأذواق والأشواق الذين يحاولون الإمساك عن التعبير ، ثم تكشف عقيدتهم تعلقاتهم المتواصلة بها المتجهة على الدوام نحوها .

(٣) هذا التعريف رأيت وضعه هنا لبيان أجزاء العقيدة الإلهية التي تتمثل فيها أصدق تمثيل طبقا لما جاءت به آيات القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة .

(٤) رأيت هذا التعريف ممايصلح من باب التوصيف لها ، إذ أن تلك المسألة تجعلها فارقا بين العقيدة الإلهية ، والعقائد الفاسدة .

قال تعالى ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (١) .

يقول الإمام فخر الرازي " أعلم ان هذه الآية قد دلت على أن معرفة هذه المراتب الأربعة من ضرورات الإيمان ، الأولى هي الإيمان بالله سبحانه وتعالى ، والثانية أنه سبحانه وتعالى إنما يوحي إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بواسطة الملائكة ، الثالثة الكتب وهي الوحي الذي يتلقفه الملك من الله تعالى ويوصله إلى البشر، الرابعة الرسل وهم الذين يقتبسون انوار الوحي من الملائكة ، فيكونون متأخرين في الدرجة عن الكتب ، فلهذا السبب جعل الله تعالى ذكر الرسل في المرتبة الرابعة ، ثم يقول وأعلم أن في ترتيب هذه المراتب الأربعة على هذا الوجه أسرارا غامضة ، وحكما عظيمة ، لا يحسن إيداعها في الكتب ، والقدر الذي ذكرناه كاف في الشريعة (٢) .

أما أصول العقيدة الإلهية ونصوصها ، فهي ما جاء من عند الله تعالى في كتابه ، وعلى لسان رسوله متعلقا بأدلة إثبات وجود الله تعالى ، وسائر صفاته ، بجانب ما يجوز عليه وما يجب له ، وما يستحيل أن يوصف به ، بجانب الملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر ، بما فيه من ثواب أو عقاب ، وجنة ونار ، إلى غير ذلك مما كان طريق معرفته النقل المعصوم ، عن الصادق المصدوق ﷺ .

من ثم فإن نصوص العقيدة الإلهية قد جاءت محددة في الفاظها ومعانيها ، كما هي واضحة الدلالة في مفاهيمها ومبانيها ، بل أنها جاءت في السنة المطهرة مفصلة ، من حيث الأجزاء ، دليل ذلك ما روى عن رسول الله ﷺ أنه قال الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره (٣) .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٨٥ .

(٢) العلامة الفخر الرازي : مفاتيح الغيب ، المجلد الرابع ، الجزء السابع صـ ٣٦ ، بتصرف يسير ط. دار الغد العربي سنة ١٤١٢ هـ ، ١٩٩٢ م .

(٣) وهذا الحديث يعرف بحديث جبريل ، كما يعرف بحديث عمربن الخطاب أو ابن عمر رضي الله عنهما ، وقد جاء فيه الإيمان والإسلام والإحسان ، وكذلك السؤال عن اشراط الساعة أو إماراتها ، وهو مخرج في الصحاح .

والواضح أن اجزاء العقيدة الإلهية تأتي على سبيل التوالي الذكري ، مع الترتيب القولي عند النطق بها ، أما من جانب الاعتقاد فهي واحدة ، كل لا يتجزأ ، وحدة ذاتية لها كيان مستقل ، ووجود متواصل ، ولا يمكن إعتبار المؤمن بالله تعالى كامل الإيمان أو صحيح العقيدة الإلهية إلا إذا آمن بالله تعالى ، ذاتا وصفات وأفعالا ، وآمن بالملائكة [١] ، والكتب الصحيحة التي أنزلها إليه تعالى على أنبيائه ورسله [٢] وصدق بما فيها ، وآمن بجميع الرسل الذين بعثهم الله تعالى ، وأنهم خلق من خلقه اصطفاهم ليكونوا حملة الرسالة الإلهية إلى من أرسلوا إليهم ، فكانوا هداة البشرية [٣] إلى ما يريد رب البرية .

وأن يؤمن باليوم الآخر ، وأنه حقيقة شرعية ، وعقيدة دينية ، وقد وقع البعث الجزئي في دار الدنيا ، وأنه ممكن الوقوع من خلال حالات عديدة ، ثم يأتي البعث الكلي يوم الدين ، قال تعالى ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [٤] ، وأن يؤمن بالقضاء والقدر ، فهذه الأجزاء الستة تتكامل مع بعضها لتكون العقيدة الإلهية ، فمن آمن ببعضها وكفر بالبعض الآخر فلا يكون مؤمنا .

كما أن العقيدة الإلهية قد تطلق على الإعلان باعتقاد الله تعالى ووحدانيته ، ثم تأتي باقي الأجزاء على سبيل التبع أو التضمين ، دليل ذلك قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ [٥] .

---

(١) الإيمان بالملائكة لا يقتصر على ناحية بعينها ، أو جانب بذاته ، وإنما يشمل كل ما يتعلق بهم مما ورد ذكره في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة المطهرة .

(٢) راجع كتابنا : الإيمان بالغيب وأثره على الفكر الإسلامي ، فقد تناولت هذه الأجزاء على ناحية تفصيلية استغرقت صفحات كثيرة .

(٣) والرسول محمد ﷺ النبي الخاتم قال : إنما أنا رحمة مهداة ، فدل الأمر على أن جميع الأنبياء وكل المرسلين هداة لمن استجاب لهم من أممهم ، أما من صد عنهم وإنصرف، فلا عبرة به .

(٤) سورة المجادلة : الآية ٦ .

(٥) سورة الأعراف : الآية ١٧٢ .

قال العلامة ابن كثير في معنى الآية الكريمة ، أخد الله تعالى منَ ظهر آدم ، كما يؤخذ بالمشط من الرأس ، فقال لهم الست بربكم ، قالوا بلي ، حيث قالت الملائكة شهدنا ، فجاءت شهادة الملائكة كأنها الشهادة القائمة على الجميع ، وقال رسول الله ﷺ أن الله خلق آدم عليه السلام **ثم مسح ظهره بيمينه ، فاستخرج منه ذرية ، قال خلقت هؤلاء للجنة ، وبعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح ظهره فإستخرج منه ذرية، قال خلقت هؤلاء للنار ، وبعمل أهل النار يعملون ، فقال رجل يا رسول الله ففيم العمل ، قال رسول الله** ﴿ إذا خلق الله العبد للجنه إستعمله بأعمال أهل الجنة حتى يموت ، على عمل من أعمال الجنة، فيدخل به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بأعمال أهل النار ، حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار ﴾ (١) •

من مظاهر العقيدة الإلهية في قلب المؤمن ان تتحول الأقوال المجردة إلى أفعال مشروعة (٢) ، وأن تجيء القضايا المعرفية في نتائجها داعية إلى نفس ما هو الغاية بالنسبة للعقيدة ، بل كذلك الحال مع الأخلاق ، فإذا لم تكن الأقوال والقيم والأخلاق والسلوك والآداب قائمة على ناتج ما تتطلبه ذات العقيدة الإلهية (٣) ، فلا يكون مظهرا لها ، كما لا يصح حسبانه دالا عليها •

أخلص مما سبق إلى القول بأن العقيدة الإلهية نور رباني يلاقيه قلب رحماني ، تظهر أثاره على جسد نوراني من خلال سلوكيات عملية في أنماط بشرية ، يمكن التعامل معها في الحياة اليومية ، وتبقى نتائجها نبراسا يدل على صاحبها بين الناس ، كأن الله تعالى يقول عن صاحبها ، أجعل له في الظلمة نورا ، وفي الجهالة حلما ، ومثله في خلقي الصالحين كالفردوس في الجنة (٤) •

---

(١) الإمام ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، صـ ٢٦٣ ، والحديث رواه أبو داود عن القعنبي ، وأخرجه النسائي •

(٢) هذا التحول لا يكون قائما على الألية ، والتقليد ، وإنما مصدره التأمل القلبي ، واليقين الاعتقادي ، وتاريخ الإسلام فيه المظاهر العديدة على ما نحن بصددة •

(٣) دليل المخالفة لا يكون لصالح ذوي هذه الإتجاهات ، بل يعتبر من الشواهد على أنهم أصحاب اعتقادات فاسدة ، لا عقيدة إلهية •

(٤) هنا إقتباس من حديث قدسي أوله إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتي ... راجع النفحات السلفية بالأحاديث القدسية ، صـ ٢٣٥ •

ثانيا : علم العقيدة

هو العلم الذي تتقرر به العقيدة الدينية في العقول والنفوس والقلوب عرضا لها ، وبيانا لأجزائها ، وإقامة أدلتها على الوجوه المختلفة، ثم الدفاع عنها ، وذلك بتناول الشبه التي ترد عليها ، ومناقشتها ، وبيان أوجه القصور التي تحتويها ، فكان هذا العلم يقوم بأمرين في وقت واحد أحدهما تقرير العقيدة ، وثانيهما الدفاع عن ذات العقيدة ، وبناء عليه ، فقد تعددت تعريفات العقيدة طبقا للجوانب التي جاء كل تعريف من ناحيته •

ويطلق الإمام محمد عبده عليهما معا أسم " علم تقرير العقائد " ، وبيان ما جاء في النبوات ، ويؤكد أنه كان معروفا عند الأمم قبل الإسلام ، حيث ظهر في كل أمة ، وكان القائمون بأمر الدين يعملون لحفظة وتأييده [١] ، فلا يقتصر علم العقيدة على مجرد عرض القضايا العقدية بأدلتها النقلية والعقلية ، وإنما دوره متجدد يلاحق شبهات الخصوم ثم يناقشها [٢]، ويبين فسادها ، كما يسبق إلى بيان طرائق الدفاع عن العقيدة الإلهية ، قبل أن تجيئها الضلالات ، التي يعتمد عليها المنحرفون[٣] ، ويتفانى في ذكرها المعاندون والمبطلون الذين لا هم لهم سوى الخروج على دين الله رب العالمين ، وتكذيب أخبار المرسلين، وإنكار يوم الدين •

كما يعرف بأنه العلم الذي يتعلق بالبحث في الألهيات والنبوات والسمعيات ، من ناحية عرضها وطرايق إثباتها ، وإقامة الدلائل المتعددة عليها[٤]، وهو لهذا علم تقريري

---

(١) الأستاذ الإمام / محمد عبدة : رسالة التوحيد ، صـ ٦ بتصرف يسير ، طبعة المنار ، الطبعة الثامنة عشر ، ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م. •

(٢) هذا دور المفكر المسلم ، لأنه المعنى بهذا الجانب من النواحي المختلفة ، كما أن نصوص الدين تطلب منه ذلك ، بل وتلزمه به مادام قادرا عليه ، قال تعالى " وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ " سورة التوبة الآية ١٢٢ •

(٣) ويعرف هذا في الإصطلاحات الحديثة باسم الدفاعات الوقائية ، لأنها تعتمد على إقامة أوجه الدفاعات الجيدة ، قبل وقوع الهجوم ، من باب قوله تعالى " وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ " سورة الأنفال الآية ٦٠ •

(٤) هذا التعريف مما أراه نافعا في المسألة، لكنه على جانب الموضوع ، ويمكن تعريفه به ، نظرا لتعدد التعريفات والجوانب التي تجيء عليها •

معرفي يمكن تعلمه واكتسابه ، كما يمكن توظيف الأجزاء المتعلقة به على النواحي المختلفة والوجوه المتعددة ٠

وهو لذلك ، علم معياري ، يمكن لمن أتقنه على ناحية معرفية القيام به في أدق صوره ، يستوى في ذلك أن يكون القائم به من أهل الإسلام ، أو من غيرهم ، الذين يعنون بدراسة علم العقيدة على الناحية المعرفية ، من غير أن يكون لذلك أدنى إرتباط بما هو قائم في القلب ، والفطرة [١]، وحينئذ تكون دراسته كدراسة علوم الطبيعة ، وعلوم الرياضة ، بل وسائر العلوم التي توضع لها مناهج دراسية لا تتعدى مفهوم كونها مناهج معرفية ٠

ولما كان علم العقيدة من العلوم المعيارية ، فقد كثرت جهود العلماء حوله من كل ناحية ، دليل ذلك انهم في تناولهم لتعريفه جاؤا عليه من ناحية الموضوع تارة والغايات تارة أخرى ، والأثر المترتب تارة أخيرة ، يحسن التقاط بعضها على النحو التالي :

١ - عرفه الإمام الغزالي بأنه علم ينظر في ذات الله تعالى وصفاته ، وأحوال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والأئمة من بعدهم ، والموت والحياة ، والقيامة والبعث والحساب ورؤية الله تعالى [٢] ٠

وبالتالي فعلم العقيدة يكون مرادفا لكل من علم الكلام ،وعلم التوحيد في المعنى والمفهوم ، طبقا للوصف العنواني العام،وهو تعريف بالموضوع لقيامه على الجوانب العقدية ٠

٢ - ذهب الإمام المرعشي إلى أن علم العقيدة ، هو علم يبحث فيه عن ذات الله تعالى وصفاته ، وأحوال الممكنات من المبدأ والمعاد على قانون الإسلام [٣] ، من حيث الأدلة التي يقوم عليها والقضايا التي يقررها ، ثم النتائج التي يمكن التوصل إليها ، وبناء عليه ، فعلم العقيدة الإلهية يتعلق بذات الموضوعات من الناحية الشرعية التي هي

---

(١) لأنه لو ارتبط بالفطرة أو القلب النوراني ، لكان عقيدة ، ولم يكن علم عقيدة ، والفرق بينهما ظاهر ، لمن تأمل تعريفات العقيدة ، وعلم العقيدة ٠

(٢) الإمام الغزالي : الرسالة اللدنية ، صـ ٧، ضمن مجموعة مؤلفات الإمام الغزالي، ط. بيروت ٠

(٣) العلامة المرعشي الشهير بساجقلي زاده : نشر الطوالع ، صـ ٥ ، المطبعة العصرية ٠

عماد أمر عقيدة المؤمن وأساس تفكيره ، والبناء الذي يرفع فوقه أمره كله ، وهو كسابقه تعريف بالموضوع والجزئيات التي يتناولها •

٣ - وعرفه الإمام البيضاوي بأنه ، علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج عليها ، ودفع الشبه عنها ، والمراد بالعقائد ما يقصد به نفس الاعتقاد دون العمل [١] ، فكل ما كان يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية الإلهية فإنه يدخل في نطاق علم العقيدة ، لكن بإعتبار الغاية لا بإعتبار الموضوع وملامح دخول التعريف في علم العقيدة كثيرة ، من أبرزها :

أ - أنه وسيلة الإقتدار على إثبات العقيدة الدينية بالأدلة المختلفة [٢] .

ب - أنه يحمل الأدلة والحجج التي يسوقها المستدل على صحة العقيدة الإلهية [٣] .

جـ - أنه وسيلة دفع شبه الخصوم، وبيان أنها مجرد ظنون وتخمينات [٤] ، لا تقوم على شيء صحيح •

د - يوضح علاقة العقيدة الإلهية ، بالعمليات الشرعية [٥] .

هـ - يهيء الرأي العام لتقبل العقيدة الصحيحة ، من غير إنتظار لشيء آخر [٦] يترتب عليه مايتعلق بالثواب أو العقاب •

---

(١) الإمام البيضاوي : طوالع الأنظار ، صـ ١٣ ، وراجع نشر الطوالع صـ ٤ ، وكتابنا : المدخل التام لعلم الكلام ، صـ ٦٧ ، الطبعة الثالثة ، سنة ٢٠٠١ .

(٢) وبناء عليه ، فعلم العقيدة وسيلة من وسائل إثبات العقيدة الإلهية أو أدلتها ، وتأكيدها في النفوس ، بحيث تبلغ المبلغ اللائق بها في قلب المؤمن وعقله ووجدانه أيضا .

(٣) راجع كتابنا : الغزاليات في الإلهيات ، حيث تعرضت لذات المسائل على العديد من الجوانب العقلية والنقلية بجانب التجريبية أيضا .

(٤) توصيف شبه الخصوم وتصنيفها من الناحية العلمية يكشف عن أوجه القصور فيها ، حينئذ يتفادى المرء إخطاءها ولا ينزلق إليها أو ينخدع بها .

(٥) على أساس أن التكاليف العملية هي التي تكشف عن صدى العقيدة القلبية الإيمانية وأثرها في النفوس ، وكلما كان القيام بالعمليات سليما أمكن الحكم على العقيدة بالسلامة في قلب مدعيها بدليل قوله ﷺ " لو سكن قلبه سكنت جوارحه " .

(٦) هذا الأمر يصلح القيام به متى أمكن تجديد الخطاب الديني ، بحيث يكون الواقف على العقيدة العالم بها ،عارفا بالأصول التي يمكنه الاستفادة منها .

و- طرح الاعتقادات الفاسدة ، وبخاصة إذا كان المتلقي لذات العقيدة حديث عهد بعقيدة الإسلام •

وربما عرف علم العقيدة بالأثر الناتج عنه ، حيث ذكر صاحب المسامرة أن علم العقيدة الإلهية هو معرفة النفس ما عليها من العقائد المنسوبة إلى دين الإسلام من الأدلة علما في أصولها ، وظنا في البعض منها ، وهذا الإتجاه قائم على أساس أن الدين وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم المحمود إلى الخير بالذات [١] •

بيد أن الملاحظ هو عناية أهل الإسلام بهذا الجانب من الناحية النظرية عناية متميزة ، فالإمام أبو حنيفة النعمان يقرر ، أن علم العقيدة هو معرفة النفس ما لها وما عليها من أصل التوحيد ، وما يصح الاعتقاد عليه ، وما يتعلق منها بالاعتقاديات ، ويسميه الفقه الأكبر [٢] •

من ثم ، فعلم العقيدة غير العقيدة ، ومع هذا فهو خادم لها معني بها ، بدليل ماذهب إليه العلامة ابن خلدون من أن علم العقيدة هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية ، بالأدلة العقلية ، والرد على المتبدعة في الاعتقاد على مذهب السلف ، وأهل السنة [٣] ، وهو الذي تحصل به السعادة في الدنيا ، والسعادة مع النجاة في الآخرة •

والعلامة الهروي ذكر أن علم العقيدة ، هو معرفة النفس ما هي عليه من العقيدة ، ولمن تنسب ، والأدلة التي تؤدي إلى المعرفة ، سواء أكانت معرفة يقينية برهانية ، أم كانت عن طريق الظن الغالب ، وإذا تواردت الأدلة أفادت التواتر [٤] ، بناء عليه ، ثبت أن العقيدة الإلهية يمكن أن يخدمها علم العقيدة من الناحية الشرعية ، على الجوانب العقلية ، التقليدية ، والمستجدة أيضا •

---

(١) العلامة الكمال بن أبي شريف : المسامرة بشرح المسايرة ، صـ ١٠ •
(٢) راجع للإمام أبي حنيفة : الأصول المنيفة ، صـ ٢٧ / ٣٠ ، بأصل كتاب إشارات المرام من عبارات الإمام ، تحقيق الشيخ يوسف عبد الرازق •
(٣) العلامة ابن خلدون : المقدمة ، صـ ٣٨٢ ، ط. القاهرة •
(٤) العلامة أحمد بن يحي الهروي الحفيد : الدر النضيد ، صـ ١٣٦ ، مطبعة التقدم •

أخلص مما سلف ، إلى أن العقيدة تتعلق بالقلب وأعماله ، بينما علم العقيدة يتعلق بالمعرفة الإنسانية ، وطرائق استفادة ذلك من النصوص الشرعية تارة ، والقدرات العقلية تارة أخرى ، كما يمكن لعلم العقيدة أن يفيد من كافة المستجدات العلمية في المجالات النظرية ، والسلوكية ، بل والتجريبية على إختلاف أنواعها ومراتبها ٠

كما أن علم العقيدة له موضوع ومنهج ، وطرائق معالجة ، تختلف من جماعة إلى أخرى ، ومن قوم لأخرين ، طبقا لمنهج البحث ، أو الظروف الوقتية التي يكون لها وجود أبان التأليف والمعالجة ، ويحدث في علم العقيدة التطور المستجد ، طالما كان علما ، وهذا الفرق جوهري بين العقيدة القلبية الإيمانية ، وعلم العقيدة المعرفي العقلي ، من ثم فلا بد من ضرورة الإلتفات إلى هذه المسألة على وجه الخصوص ٠

ثالثا : علاقة العقيدة بعلم العقيدة (١)

سبق تعريف كل من العقيدة وعلم العقيدة على النحو الذي سلف ، وبان أنهما ينفصلان عن بعضهما من حيث أن العقيدة قلبية إيمانية ، وعلم العقيدة مسألة معرفية تقريرية ، فيكون كل منهما ذا طبيعة استقلالية ، وربما وقع لهما التلاقي على صورة من الصور ، لكن الدراسة المتأنية قد تنتهي إلى وجود صورتين من صور هذه العلاقة ، بحيث يمكن اعتبار كل منهما مظهرا مستقلا يدفع لتناولها من جديد على النحو التالي :

الصورة الأولى : التباين

ومعناه ان العقيدة ليست هي علم العقيدة أبدا رغم أنه يتحدث عنها من كافة جوانبها ،بل و من جهات عديدة ، أبرزها مايلي :

١ - الاختلاف الأسمى :

فالعقيدة اسم يطلق على هذا النور الرباني الفطري ، الذي يتمدد داخل قلب المرء المؤمن (٢) ، وتحرك عقله ، كما يرسم ملامح وجدانه ، ويجعل ضميره في حالة من الصحو

---

(١) بحث هذه العلاقة مهم ، لأنه يكشف الفوارق الدقيقة بين العقيدة الإيمانية القلبية ، التي عليها محل الإيمان بالله رب العالمين ، وعلم العقيدة التقريري الذي يمارسه كل من يتمكن منه ، ويسمى علم العقيدة النظري ٠

(٢) راجع كتابنا :المدخل التام لعلم الكلام ، صـ ٧٣ ٠

التام ، واليقظة التي لا تعرف الغفلة أو الانفلات ، بل متى وقع المرء في الغفلة أيقظته الصحوة وإذا غشيه السبات العميق أنقذته من وهدته الأمال الكبيرة والأحلام العظيمة[١] بل وتأخى مكنونه بظاهرة فتصير خوافيه مع بواديه طريقا واحدا نحو رضوان الله رب العالمين ، ولذا فإن سلطان العقيدة الإلهية على العقول والقلوب والنفوس والضمير ، بل والوجدان أعظم من أن يحاول متنطع إنكاره ، كما أن هذا السلطان الظاهر يختلف من شخص لآخر طبقا لدرجة التمكن التي يكون للعقيدة الإيمانية [٢] .

أما علم العقيدة فإسمه " علم العقيدة " ، وهو علم معياري ، يقوم في مباحث ثلاثة هي الإلهيات ، النبوات ، ثم السمعيات ، ومن يتمكن منه على وجه دقيق فإنه يستطيع القيام به من غير اعتبار لشيء آخر ، إنه كعلم الفقه والرياضة ، وكذلك الفيزياء والهندسة ، من حيث أنه علم له قواعد تتم دراسته من خلالها [٣] ، ولذا ظهر في المستشرقين بل والجامعات الأوربية من يقوم بتدريس علم العقيدة ، رغم أن الذي يدرسه قد لا يكون مسلما أصلا ، وماذلك إلا لأن هذا القائم بالتدريس متمكن من موضوعات العقيدة كعلم فقط ، من ثم فالعقيدة وعلم العقيدة بينهما إختلاف في الإسم ، بل أن عمليتي الإضافة والتركيب تدلان على هذا الإختلاف الذي يمكن دخوله داخل نطاق الإختلاف في الوصف العنواني على أقل تقدير .

٢ - التباين الأداني

العقيدة الإيمانية مقرها القلب ، بل من مأثورات العوام وتدوينات العلماء أن العقيدة في القلب ، ولما كان القلب فيه نور روحاني فإنه إذا انشغل بالله استضاء[٤] ، فإن

---

(١) راجع كتابنا:الغزاليات في الإلهيات ، صـ ٢١، وكتابنا: لماذا إنتشر الإسلام ، جـ ٢، صـ٧٥ .

(٢) لأن الفروق القلبية التي تتحكم فيها العقيدة يقع فيها إختلاف وتباين ، فليس كل الناس على درجة واحدة من الإيمان القلبي والاستقرار النقدي ، والواقع المعاش والصور الحياتية من الشواهد عليه .

(٣) لذا فلا تعجب إذا وجدت مؤلفات عديدة كتبها غير مسلمين ، تحمل أسماء علم العقيدة الإسلامي لكن حذار من قبول ما جاء بها دون اعتبار لمؤلفه ، فقد يضع السم في العسل .

(٤) راجع كتابنا : ذكر الله بين المثبتين والنافيين ، صـ ٣٧ / ٤٠ ، وكتابنا : أوراق مطوية في التصوف والصوفية ، صـ ١٤١ .

العقيدة الإلهية هي التي تجعل أنوار القلب تعلوا ، حتى تكون لها كامل السيادة على جميع الحواس بحيث تصدر عنها أفعالها في سهولة ويسر ، مصدقة لما هو بالقلب ، ولذا عرف الإيمان بأنه ما وقر في القلب وصدقه العمل [١] .

ولأن العقيدة الإلهية قلبية نورانية ، فإنها كلما كانت متمكنة من هذا القلب آخذة به من أقطاره جميعها ، فإنها تطرد منه ما يضادها ، لما هو معروف من أنه لا يجتمع حب الله تعالى وحب غيره في قلب العبد المؤمن أبدا ، وبناء عليه تظل العقيدة الإلهية صاحبة السلطان الذي لا منازع ، والمقام الأعلى داخل ذات القلب ، حيث تصدقه الحواس في خضوعها له ، واستسلامها بين خفقاته وسكناته [٢] . فطوبى لقلب اشتغل بالله ، حتى تجلى له مولاه ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب .

أما علم العقيدة فمكانه في العقل ، لأنه جملة من المعارف المترتبة على ناحية بذاتها عند ممارستها [٣] ، بادية بالإلهيات ، ثم النبوات ، وفي النهاية تجيء مباحث السمعيات ، وهذه كلها معارف دينية ذات صياغة استقلالية ، يؤخذ فيها حينا بالدليل العقلي [٤]، وغالبا ما يكون طريق الإستدلال هو العقل ، وما من دارس لعلم العقيدة بالشكل الذي نراه في المؤلفات الكلامية آلا ويدرك أن علم العقيدة مكانه العقل .

بدليل أنه تحدث فيه اختبارات تحريرية،وأخرى شفوية ، ويتم تقويم المختبر فيها من خلال درجات تقديرية ، إذا حصل المطلوب من الدرجات أعتبر ناجحا فيه ، وإذا لم يحقق المطلوب صار راسبا فيه،لأنه لم يحط به علما يكفي لحصوله على الدرجات المطلوبة.

---

(١) هذا التعريف للإيمان منصب على الحال التي يكون عليها المؤمن ، وليس منصبا على الجزئيات التي تمثل العقيدة الإيمانية ، وبالتالي فهو تعريف مفيد من هذه الناحية .

(٢) راجع كتابنا : الموسوعة الغزالية في التصوف والصوفية ، جـ ١ ، المقدمات ، صـ ٤٥٧ وما بعدها .

(٣) الترتيب المألوف لدى المؤلفين في هذا العلم قد يخالفة البعض ، بحيث لا يتناول الأمر عنده سوى مسألة واحدة ، او جزء قضية من قضايا علم العقيدة .

(٤) هذا الأخذ بالدليل العقلي عند الاستدلال وليس عند العرض،لأن الأخير طريقه الألفاظ والمفردات اللغوية التي يتم التعامل معها على ناحية خاصة .

ولو أردنا أن نذكر مثالا تطبيقيا ، نجد العوام لديهم عقيدة فطرية سليمة - اللهم أرزقني إيمان العوام[١] - تفرض ذاتها على سلوكياتهم حتى تجعلها أعلى ما تكون رقيا ومراقبة لله تعالى[٢] ، وما ذلك إلا لأنهم استضاءت قلوبهم بأنوار العقيدة الإلهية ، ولو طلبت من أحدهم تعريف مبحث الإلهيات مثلا والحديث عن الجزئيات التي يتناولها لم يجب بكلمة واحدة ، إلا إذا كان مثقفا على ناحية معرفية .

وإذا أمسكت بمستشرق مثلا ، يجيد علم العقيدة على الناحية المعرفية ، وجدته ملحدا في الله وآياته ، منكرا أن يكون لهذا الإله العظيم أي وجود ، وأن يكون له سلطان على القلوب [٣] ، ولا تغرب بعيدا ، بل أنك قد ترى في أعرق المدارس الدينية أو المؤسسات الإسلامية من يجيد تدريس علم العقيدة من الناحية المعرفية ، حتى إذا اختبروا فيه حققوا أعلى الدرجات ، لكنهم من ناحية العقيدة الإلهية ، يصعب اعتبارهم مسلمين إلا من خلال النطق بالشهادتين .

بدليل أنهم يمارسون الكذب مع أن الله تعالى نهى عنه ، ويسعون حتى يبلغوا الثراء المادي من أي طريق ، مع معرفتهم أن هذا مما تجري به المقادير الإلهية ، ويخافون الموت مع ان معرفتهم به ، وأنه حكم الله وهو نافذ لا محالة [٤] ، ولا تستعجب مماأحكي لك أو أقص ، فالحال واضح ، والفعل فاضح ، بينهم سارق جهود غيره، ثم يأكل ويشرب ، ويلبس ويجري ويلعب ، ومع هذا فهو يزعم أنه مسلم ، وبالتالي تحكم مباشرة بأنه يعرف علم العقيدة من الناحية المعرفية، وليست لدية عقيدة صحيحة من الناحية القلبية الإيمانية ، وفي الحديث لو سكن قلبه لسكنت جوارحه .

---

(١) نسبت هذه العبارة للأمام الفخر الرازي، ولها مورد ومضرب ، فراجعها في مكانها تظفر بها.

(٢) وتاريخ الإسلام مليء بهذه النماذج الإيمانية الرائعة في الحياة العامة ، وفي الجهاد ، بل في كل الأمور التي يكون الفيصل فيها اتجاه العقيدة الإيمانية ، ومظهرها كيفية توجيه العقيدة على السلوكيات ، بل والدوافع والانفعالات .

(٣) كالحال مع المستشرق الإنجليزي " مونتجمري وات " ، وكذلك المستشرق الأيرلندي " جون هوفر " ، والمستشرق البلجيكي " إدوارد هيف " ، ... وغيرهم .

(٤) هذا التخوف من الفقر أو المرض والموت مصدره فقدان العقيدة الإيمانية لمركز الزعامة أو القيادة ، وكذلك فقدان هذا المرء القدرة على فهم الأمور الشرعية ، راجع كتابنا : القضاء والقدر وأثرهما في حياة المسلم ، صـ ٤٧ / ٦٥ .

٣ - الاستقرار والتكرار :

العقيدة الإيمانية استقرارية ، بمعنى أن أنوارها إذا دخلت في قلب العبد الصالح استقرت به وطردت ما عداها ، ولا يمكن أن تخرج عن هذا الإطار إنها زاد القلوب المطمئنة بها[١]، الناظرة إليها ، المفطورة عليها ، المتمسكة بها ، المدافعه عنها ، ولها تذكار متواصل ، يجمع أطراف القلب إليه على الدوام ، لأن صاحب العقيدة الإلهية يجعل نفسه دائما حيث يراه الله في مقام الإحسان ، وهو أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، وهو مقام عظيم لمن تأمله ، وقام على إلتزاماته ٠

اما صاحب علم العقيدة المعرفي ، فإنه يخضع لمجرد التكرار المتواصل حتى لا تتفلت هذه الأجزاء المعرفية من استحكامات العقل النظري التجريدي ، وبالتالي فالدارس لعلم العقيدة المعرفي المجرد ربما نسي بعض الأجزاء ، فيكون تكرارها على لسانه أحد عوامل تذكره لها ، وإذا لم يتذكرها وقع له نسيانها ، بدليل وقوع الإختبارات - الإمتحانات - التحريرية والشفهية على دارسيه ، حتى يظلوا مستذكرين له ، كقواعد العلوم النظرية التجريبية والسلوكية أيضا ٠

٤ - الثبات والإضافة

العقيدة الإلهية قلبية ثابتة ، من حيث انها لا تقع لها الزيادة ، ولا يتبادلها التذكر والنقصان [٢] ، فإن زادت على الأصول الإلهية فسدت ، وإن نقصت عنها ضاعت ، لإنها جميعا متكاملة في الأجزاء ، ثابتة في القلوب ، متزايدة الأنوار ، مترابطة الأدوار ، لا يختلف حولها ساكن الصحراء أو المقيم بجوار القبور ، يستوى في التعلق بها ساكن القصور مع ساكن القبور ، والمقيم بالصحراء مع المقيم بناطحات السماء[٣] ، إنها عقيدة إلهية قلبية نورانية ثابتة من كل ناحية ، سالكة داخل القلب بأعلى مكان ٠

---

(١) دليل ذلك قوله تعالى " الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب " سورة الرعد الأية ٢٧

(٢) لأن أجزاء العقيدة الإيمانية ستة ثابتة تمثل الحقائق المشتركة بين رسل الله تعالى ، وهي أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، وتقر باليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره ٠

(٣) راجع كتابنا : الإيمان بالغيب وأثره على الفكر الإسلامي ، وكتابنا : تأملات غزالية في القضايا الكلامية ، صـ ١٥٣ ٠

أما علم العقيدة ، فإنه غير ثابت من الناحية الدراسية ، بدليل اختلاف الدارسين له في الجهة التي يتناولونه بالدراسة منها ، سواء في مباحثة أم في جزئياته ومسائلة ، وقد يرى البعض إضافة بعض التفريعات إلى الأسس الموجودات ، وقد يطلب حذف بعض الصيغ والدلالات [١] ، المهم أن كل دارس يعتبر نفسه صاحب رأي، بل قد يرى في نفسه القدرة على الإضافة لمباحثه ، فيضيف ، ويبحث لذلك المضاف عن دليل ، كالحال مع أفعال العباد ، وقد يحذف منه ويكتفي بما يراه قادرا على الوفاء بحاجة العلم كالحال مع حذف الزمان المقدر من المباحث المتعلقة بعلم العقيدة ٠

٥ - الاستخدام الوسائلي

العقيدة الإلهية وسيلتها التأمل المجرد في الملكوت ، تفكروا في آلاء الله ، ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا ، ومعقل هذا التأمل المجرد القلب النوراني ،ولذا فإن كل ذي قلب هو صاحب عقيدة إيمانية ، متى بقي على فطرته ، لقوله ﷺ ﴿ ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه او ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل ترون فيها من جدعاء ﴾ ٠

أما علم العقيدة فإن وسائله عديدة ، منها العبارة ، والإشارة ، والكتابة ، والتأليف والمراجعة ، ومعقل هذا كله العقل الذي يستخدم الحواس في إكتساب ذات المعارف ، ومتى تخلفت وسيلة سقطت الجزئية التي تتعلق بها من الناحية المعرفية القلبية فقط [٢] ، ومن هنا تظهر الوسيلة في العقيدة محددة ، داخل نطاق إمكانيات القلب النوراني وحده ، الذي يهتدي بنور الله جل شأنه ، وهذا ما يجعلها قوية مركزة ، قادرة على طرد ما سواها ، من قلب صاحبها ، متى خلصت نيه صاحبها أو سعى لهذه الغاية بنفس راضية وقلب مطمئن ٠

---

(١) والصور أو النماذج في هذا الشأن عديدة ، بل أن المؤلفات في علم العقيدة تجري فيها هذه المسائل بصورة واضحة ، لا تخفي على ذي عقل أو تفكير ٠

(٢) وكل علم معرفي يقع له الاكتساب عن طريق الوسائل المعرفية ، إذا تخلف من هذه الوسائل شيء اختل التوازن ، وظهر التباين في الموضوع المعرفي لا في غيره ٠

أما صاحب علم العقيدة المعرفية التذكارية ، فإنه يستخدم وسائل متعددة يقع لبعضها القصور الأداني الوظيفي[١] ، ومن ثم يجيء معها النسيان الجزئي أو الكلي ، وهو ما يعرف باسم النسيان والتذكر النوعي ، أو النسبي[٢] ، ولا ينكر هذه المفاهيم من التمس جملة المعارف الصحيحة من المصادر الأصلية ، وكان نداؤه الداخلي " ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا مرشدا " •

رابعا : مصطلح فلسفة العلم

مما لا شك فيه أن الحال مع مصطلح - فلسفة العلم - سيكون كالحال في مصطلح علم العقيدة من الناحية اللغوية ، على أساس أن كلا منهما يتكون من مركب إضافي ، أو من كلمتين تم وضعهما في إطار معين ، وعلى صورة بذاتها [٣] ، وحيث عرضت لمركب أو مصطلح علم العقيدة ، فمن المناسب الحديث عن مصطلح فلسفة العلم على النحو التالي :

أ - كلمة فلسفة

الواضح لدى الدارسين أن لفظ الفلسفة من الألفاظ التي لم يتم وضع تعريف إصطلاحي محدد لها ، بحيث يكون جامعا مانعا [٤] ، وإنما هي مجموعة من التعريفات التي راقت لأصحابها سواء وقعت عليها الموافقة من الآخر ، أم لم تقع ، ومن ثم فليس من الصواب

---

(١) نظرية القصور الأداني الوظيفي ، غير نظرية القصور الذاتي ، لأن الأولى تتعلق بالقدرات العقلية والفروق الفردية ، بينما الثانية لها إرتباط بالمباديء الفيزيائية والقوانين العلمية التجريبية ، فالفرق بينهما كبير من كافة النواحي •

(٢) نظرية التذكرالنوعي من النظريات الحديثة في مجال دراسات علم النفس، راجع لأنطوني لاف أرتباط المدارس النفسية بالاتجاهات الفلسفية الحديثة ، صـ ١٧٣، ترجمة محمد صابر •

(٣) هذه المشابهة متعلقة بالتركيب من الناحية اللغوية فقط ، على أساس أن المركبات الأصلية ثلاثة: أ - وصفي أو توصيفي : وهو الذي يكون المحمول فيه وصفا كاملا للموضوع ، كقولنا: الكتاب المفيد ، فإن المفيد نعت للكتاب ، وهو مركب توصيفي ، ب - مزجي : وهو الذي يتكون من كلمتين تم نحت كلمة ثالثة منهما كقولنا : بعلبك وحضرموت وسمى مزجيا لأنه متى انفصل أحدهما عن الآخر أختل المعنى ولم يعد هناك وجود لهذا المركب ، جـ - مركب إضافي وهو الذي يتكون من المضاف والمضاف إليه ، كقولنا فلسفة العلم ، أو علم العقيدة فإن الثاني يضاف إلي الأول •

(٤) التعاريف الحدية تكون دائما فيما له جنس وفصل ، ويتم التعامل معه على أساس الذاتيات فيكون التعريف حديا وألا فهو تعريف بالرسم ، راجع كتابنا : النديم في المنطق القديم ، صـ ٤١٥ •

التمسك بتعريف واحد لها وإعتباره جامعا مانعا ، والنظر إليه على أنه الصواب وما عداه خطأ ، أما لماذا ؟ فلما يلي :

١ - إن الكثير من هذه التعريفات قد جاءت على الموضوعات الفلسفية ، من الوجود أو المعرفة أو القيم ، وبعضها عني بالغاية من البحث الفلسفي الخالص ، ولم ينظر لشيء آخر خلف هذه الغاية ، وبعض التعاريف جاءت على ناحية الأثر المترتب أو الناتج عن العمليات الفلسفية المتعددة ، حتى أن الناظر إلى هذه التعريفات ربما غلبه التصور بأن هذه التعريفات بعضها يضرب الآخر[1]، أو يعانده أو يناقضه على سبيل المقابلة ، مع أن المسألة أبسط من ذلك وأكثر يسرا وسهولة ٠

٢ - أن الفلسفة تختلف من ناحية التناول ، وهذا يجعل المرء في حيرة من أمره عندما يريد تقديم تعريف محدد للفلسفة ، إذ أن البعض قد يتناولها من ناحية البناء الأداتي ، بينما يسعى أخر لتقديم تعريف من الناحية المتعلقة بالأشكاليات البحثية التي تنتظم حولها ، في ذات الوقت قد يجيء تعريفها من ناحية الأنفصال الموضوعي ، أو الاتصال العضوي[2]، وهي كلها مسائل يصعب تقديم تعريف حصري لها ، كما ليس من السهل إيجاد تعريف حدي بالنسبة لها حتى يكون مقبولا من الجميع أو غير متنازع فيه ٠

٣ - إن كلمة فلسفة في اللسان الذي وردت كمفرد من مفرداته ، تساوى في العربية الحكمة تارة ،او محبة الحكمة تارة أخرى ،فإن تعلقت بالحكمة دلت على أن تناولها يجب أن يكون في إطار الحكمة العلمية والعملية ، أو النظرية والتجريبية [3]، من غير مراعاة لشيء أخر ، وإن تعلقت بمحبة الحكمة فقد انحصرت داخل دائرة ضيقة لها إهتمام

---

(١) هذا الشعور ينتاب من يقرأ الفلسفة ، أو يحاول الوقوف على تعريفاتها في صورها المتعددة ، او من خلال عهودها المختلفة ، ولذا ، نعتت الفلسفة من قبل خصومها بأنها أبحاث غير ذات قيمة ٠

(٢) كل منها يخالف الآخر من ناحية الأصل الذي يقوم عليه ، لكنه يتلاقي مع الآخر بحيث تتحقق المنظومة العضوية والموضوعية ، وهو طبيعية الأبحاث الميتافيزيقية ٠

(٣) المعروف أن الفلسفة العامة إنقسمت إلى نظرية وعملية ، والنظرية تنوعت إلى طبيعية ورياضيه والهية ، وأن العملية تنوعت إلى مدنية ومنزلية وخلقية ، راجع كتابنا : ملامح الحكمة الإسلامية في المغرب ، صـ ٢٧٥ ، ط. ثالثة ٠

بالجانب العقلي أو العلمي المعرفي [١]، لكن في حدود ضيقة جدا ، إذ لا معنى للحكمة سوى موافقة العلم العمل ، أو مطابقة الجانب التجريبي الخالص الجانب النظري الدقيق ، وهذا المعنى لا يعطي فرصة الإنطلاق نحو الميتافيزيقا التأملية [٢]، إلا بقدر يسير جدا .

٤ - أن كلمة فلسفة قد ينصرف الذهن عند سماعها إلى مايتعلق بالأمور الماورائية أو ما وراء الطبيعة ، وحينئذ يتقوقع المرء داخل إطار من التجريب الخالص ، الذي يظهر في صورة تجريدية غامضة ، أو تتسم بقدر من الوضوح متى كان ذلك موضوعا مرادا، أما إذا كان غير مراد ، فإن عملية الماورائية تظل آخذة بزمام الآخر وهذا معناه إنحصار الفكر الفلسفي تحت غطاء العالم المشاهد الماوراني بالنسبة للمدرك نفسه ، بحيث يبقى الموضوع المدرك أو المطروح للإدراك في دائرة ضيقة منحصرة ، عمادها المحسوسات النسبية .

ومن ثم ينعدم المطلق ، ويرجع الأمر إلى الفكر المادي ، ومهما أحيط هذا الفكر بالعمليات التجريدية ، فإنه لا محالة متى حاول الخروج عنها إلى القمة ، فإنه ما يلبث أن ينحدر إلى القاعدة التي إنطلق منها ، بدل الصعود ناحية القمة التي ينشدها .

على أن الذي يعنينا هو تقديم صورة لماهية كلمة فلسفة بوجه عام ، من غير احتياج إلى إضافة أو وصف ، ومن هنا يمكن القول بأن كلمة فلسفة تعني :

١ - نقد الفكر بموضوعية إنطلاقا من محبة الحكمة ، وتحقيقا لمبدأ الحكمة [٣] .

٢ - كما تعرف بأنها الإنصات الجيد للرأي الآخر ، ومعالجة ما فيه من قصور ، حتي يكون البناء قويا [٤] ويشب عملاقا .

---

(١) كل منهما هو ذاته الآخر فالجانب العقلي هو الحانب المعرفي، ولذا فهما يردان على معنى واحد

(٢) الميتافيزيقا التأملية مصطلح يقصد به ما يتعلق بالله تعالى وصفاته ثم الغيب بوجه عام .

(٣) إنطلاق التعريف من نقد الفكر بموضوعية اعتراف صريح بأن الفلسفة ليست بعيدة عن المشكلات الحياتية ، فإذا وقع لها ذلك البعد فقدت الأرضية التي يمكن أن تنطلق منها ، كما انهارت القواعد التي يظن أنها تقوم عليها ، راجع كتابنا : التفلسف ، صـ ١٤٥ .

(٤) البناء القوي هو الذي يقوم على أسس سليمة وقواعد صحيحة ، والبحث الفلسفي لا بد له من هذين الأمرين ، فإذا خلا عنهما ، لم ينل حظه من القبول .

٣ - أنها الإتجاه الفكري ، ناحية القضايا المعروضة ، بحيث يتناولها في موضوعية تامة ثم ينتقدها ، مع بيان أوجه القصور ، وطرائق الإستكمال ، كما يبحث عن ما يمكن إعتباره من قبيل القضايا التي لم تنل حظها من الدراسة [١] على أساس أن الفلسفة لا تعطي إجابات نهائية ، بقدر ما تفتح الطريق أمام الأفكار الجديدة الراغبة في الإنطلاق ، وتضع كذلك العلامات الخضراء أمام المجتازين طريق الأمل ، الحالمين بلوغ السعادة ٠

وفوق ذلك ، فإن الفلسفة تتحول مع ذي العقل النابه إلى حركة نقدية واعيةتنطلق من أفكار ثبتت صحتها ، إلى فحص أفكار ما تزال بحاجة إلي التأكيد على أنها أفكار مقبولة يمكن الاستفادة منها في معالجة أخطاء الماضي [٢]، ورسم خطوط المستقبل ، مع تحقيق أعلي قدر من الأمان ، وبأفضل طرق الاستثمار ٠

٤ - إنها عملية فكرية متقدمة تعني ببحث العلاقات المتبادلة بين الموجودات ، وصولا إلى معرفة حقائقها الأولية ، وكيفية توظيفها على وجه يحقق السعادة للفرد والجماعة من خلال معايير ثابتة ، وقواعد عامة ، ذات صبغة دلالية ٠

٥ - إنها حركة العقل الواعي التي تتناول المباديء ، والانساق العلمية ، بالفحص الشامل مع التدقيق المتواصل ، ثم معرفة النتائج التي تنتهي إليها، والنظريات العامة التي تتولد عنها ، مع التوصل لصيغ جديدة [٣]، بجانب فحص المفاهيم العلمية وتحليلها حتى تكون المساهمة التي تقدمها مفيدة في تحقيق إنجازات عديدة تنسب للمعرفة الإنسانية ، معبرة عن إطرها المتميزة ، كما تزحف بأطروحاتها التقدميـة نحو الأمام على الدوام ٠

---

(١) راجع تفصيل هذه المسألة في كتابنا : ملامح الحكمة الإسلامية في المغرب ، صـ ٣٧، كتابنا: المدخل لدراسة الحكمة الإسلامية ، صـ ٩٥ ٠

(٢) معالجة أخطاء الفكر القائم تعتبر من فوائد الفلسفة ، لأنها في الأصل باحث عن الحقيقة ، تطوف معها وتسعى خلفها حتى تدركها ، وحينئذ تكون قد أدت بعض الفوائد المنوطة بها ، أو الوظائف التي لا تكون فلسفة ، إلا إذا قامت بها على الوجه الأكمل ٠

(٣) فإذ لم تتوصل إلى صيغ جديدة ، أو لم يكن لها ارتباط واضح عند تناول المباديء والانساق العلمية بالفحص الشامل فلا تعتبر فلسفة من الناحية الفنية ٠

ب - لفظ العلم

١ - في اللغة

هو من الألفاظ اللغوية المنطوق بها ، وردت مادته - ع ل م - في القرآن الكريم حوالي أربعمائة مرة تقريبا [١] ، كما جاءت مادة الكلمة في لغة العرب على العديد من المعاني ، بإعتبار أن الألفاظ هي الأثواب التي تبدوا فيها المعاني ، بحيث يمكن التعرف عليها والتعامل معها ، بما يفيد السامع و المتكلم ، ويقدم خدمات علمية متواصلة .

وبناء عليه نلاحظ أن مادة الكلمة - ع ل م - جاءت على معان كثيرة من أبرزها :

أ - المعرفة التامة

تقول العرب : فلان علم الأمر علما أكيدا ، ومعناه عرفه معرفة نافية للجهالة من كافة الجوانب ، حتى بلغت معرفته به أقصى الدرجات [٢] ، ومنه قوله ﴿ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ ﴾ [٣]، ومن ثم فالمعرفة التامة الكاملة والعلم المحيط الشامل هو الذي يتصف به الله سبحانه وتعالى الذي وسع كل شيء علما .

ب - الخبر الصحيح

يقال هذا خبر أكيد ، ومعناه علمه نافع مفيد ، فكل علم مفيد هو خبر صحيح ، يجب الوقوف عنده والاستفادة به ، في الصور التي يجيء عليها [٤] ، وكانت العرب تقول على ذوي الأخبار الصادقة ، أهل العلم النافع ،حتى لو كانوا من أصحاب القافة ، أو من جملة قاصي الأثر [٥] .

---

(١) راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، باب العين ، حيث تناول مادة الكلمة في صورها المختلفة ، كما ذكر مواضعها من السور والآيات القرآنية .

(٢) راجع : قطر المحيط ، باب العين ، والقاموس المحيط ، باب الميم ، فصل العين ، وما يثالثهما والتهذيب ، باب العين .

(٣) سورة الأنفال : الآية ٦٠ .

(٤) العلامة الزمخشري : أساس البلاغة ، باب العين ، صـ ٣٧٥ ، ط. الشعب ، وراجع لسان العرب : مادة علم ، والمصباح المنير : باب العين ، صـ ١٩٥ .

(٥) لأن القيافة تتبع الآثار حتى الوصول إلى النهاية ، وكانت مهنة قديمة ذات فوائد عديدة ، بل اعتبرت حرفة من الحرف في الأزمنة القديمة .

جـ - الأمارة الواضحة

تقول العرب ، هذه إمارة واضحة ، وعبارة صريحة ، يقصدون العلم الذي يمكن إكتسابه ، وتصح نسبته إلى أصحابه ، كما يجوز أن يسبق به غيره (١) ، والعلاقة بين هذا المعنى والعلم إعتباره هو العلامة التي تنصب في الطريق فيهتدي إليها الطالبون ، ويأوى إليها الخائفون ، وكل علم مفيد ، فإنه يمثل نقطة الابتداء التي يتم من فوقها الإنطلاق (٢) ويظل الأمر هكذا حتى يبلغ التطوير والانتهاء .

د - الإحاطة من كل ناحية

قالت العرب ، هذا وقعت له الإحاطة بالشيء من كل جانب ، يقصدون أن العلم به جاء من كل ناحية(٣) ، فلا يبقى جانب منه إلا وهو واف به ، مستوف جميع أركانه وخصائصه

هـ - الإدراك التام

تقول المعاجم العربية العلم هو إدراك الشيء بحقيقته ، إدراكا تاما ، ومن ثم فكل إدراك تام من كل الجوانب يمكن أن يسمى معرفة وعلما (٤) ، كما يصح القول بأنه إدراك تام لكونه قد جاء من كافة النواحي .

ولما كانت هذه المعاني متباعدة في الظاهر ، تحتاج تعريفا يجمعها على الناحية اللغوية ، فقد أمكن تعريف العلم بأنه المعرفة التي تجيء مع الخبر الصادق ، حتى يكون أمارة على العمل النافع ، بحيث يحيط به من كل ناحية ، ويقع له به الإدراك التام ، وكل هذا لا يتعلق إلا بالعلم النافع الذي ينجي صاحبه في دار الدنيا ، ويرفع درجته عند الله تعالى في الآخرة ، لقوله تعالى ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (٥) .

---

(١) راجع محيط المحيط : باب العين ، صـ ٢٧٤، ومعجم مقاييس اللغة : باب العيم ، صـ ٣٨٣ .
(٢) هذه العلاقة واضحة تحتاج فقط المراجعة ثم ضبطها على القواعد العلمية من جوانبها المختلفة .
(٣) راجع للعلامة الفيروزابادي: القاموس المحيط ، باب الميم ، فصل العين ، وكذلك المنجد في اللغة والآداب ، صـ ١٤٥ وما بعدها ، وكتابنا : المعرفة عن ابن رشد ، صـ ٩٣ .
(٤) المعجم الوسيط : باب العين ، صـ ٣١٥ ، والمعجم الوجيز : باب العين ، صـ ٤٣٢ .
(٥) سورة المجادلة : الآية ١١ .

٢ - في الإصطلاح

تتعدد التعريفات الإصلاحية للعلم الحادث تعددا يصعب حصره ، بإعتبارات مختلفة بدليل أن الذين نظروا إليه بإعتبار الجانب التطبيقي إنتهوا إلى أن العلم هو ما يتعلق بدراسة محددة ذات موضوع معين ، من خلال منهج ثابت أمكن الوصول إليه بطائفة من المبادىء والقوانين ، كما أنه يركز على القضايا الكلية ، ويعتمد على الحقائق العامة التي تقوم داخل الوقائع الجزئية ، إو هي التي تكون مستمدة منها " [١] ، وهو تعريف يمثل نوعا من الإصطلاح الخاص نظرا لإرتباطه بنوع من أنواع العلم التجريبي في مجال الفيزياء والكيمياء ٠

كما يعرف بأنه ما تقع به المعرفة التامة في العلوم والفنون والآداب ، ويغطي انماط الحياة المختلفة [٢]، لكنه لا يتطرق إلى القضايا الغيبية التي يعتبرها موضوعا من موضوعاته ، لأنها لا تخضع للقوانين التجريبية ، وبناء عليه يكون التعريف غير واف بالمعرفة التامة ، كما لا يمكن إعتباره ممثلا لها ، وتلك نقطة بحثية مهمة جدا ، أو على قدر كبير من الأهمية ٠

ولفظ العلم ، متى أطلق من غير إضافة أو وصف ، فإنه يكون لفظا عاما يتساوى مع المعرفة الإنسانية ، وربما تخطاها إلى كل ما تقع به المعرفة ، أو يمكن أن يطلق عليه لفظ المعرفة ، أما إذا إضيف أو وصف فإن الوضع يختلف ، وذلك يحتاج بحث علاقة العلم بالمعرفة [٣] ، كما يتناول مفهوم الإدراك ، والمعرفة من النواحي المختلفة ٠

والعلم بالإطلاق العام ، قسمان ، قديم : وهو علم الله سبحانه وتعالي المحيط الشامل المتعالي على الجميع ، الذي له كافة الكمالات ، ولا يوصف بأنه حضوري أو حصولي أو كسبي كمالا يوصف بأنه نقلي أو عقلي أو إلهامي ، وإنما هو علم الله تعالى ، والثاني حادث وهو يتنوع بإعتبار الضروري البديهي والنظري الكسبي ، كما يتنوع بإعتبار المصدر

---

(١) روبرت هيلز : العلم منهج وغاية ، صـ ٩٤ ، ترجمة حنان فخري ، ط. مؤسسة فرانكلين سنة ١٩٨٧ ٠

(٢) إدوارد فوكر : البساطة العلمية ، صـ ٣٥، ترجمة إيناس عابدين ،ط . الثانية سنة ١٩٧٥ ٠

(٣) أرى ان العلاقة بين لفظي العلم والمعرفة فيها العموم والخصوص ، كما يجيء معها التبادل الموقعي والارتباط الموقفي ، بحيث تكون المعرفة أعم من العلم ، وإحيانا يحدث العكس ، بإعتبارات مختلفة ، وقد يقع بينهما الترادف ، فيكون كل منهما يعنى مايراد من الآخر ، راجع كتابنا : التفكير الإنساني أصوله ومستوياته ، صـ ١٨٥ ٠

الى حسي وعقلي وإلهامي ونقلي وحي ، لأن مصدره النقل المنزل ، ويتنوع كذلك بإعتبار اليقين والظن الي يقيني وظني إحتمالي •

جـ - تعريف فلسفة العلم

مصطلح يقصد به الحركة العقلية المتنامية التي تتناول النظريات والنتائج العلمية بالنقد الواعي ، والفحص الدقيق ، من خلال البديهيات والمسلمات ، بجانب المبادىء والقوانين ذات الإنساق العلمية ، ملتزمة المنهج العلمي ذاته [١]، غايتها الوقوف على طبيعة العلم ، ومكانتة من المنظومة العقلية ، ولذا فهي تميزه عن فروع العلم الأخرى ، أو تبين الفواصل الدقيقة بين أنواع العلوم النظرية والتجريبية وغيرها •

كما تعرف بأنها إتجاه نقدي منهجي في دراسة القضايا المعرفية التجريبية والتطبيقية ، من خلال منهج منطقي تجريبي ، عماده الاستقراء[٢]، وغايته تقديم أفضل النتائج في الميدان العلمي ، مع الأخذ بعين الإعتبار إمكانية وضع منهج استمراري يشمل الجوانب التجريبية كلها ، ولا مانع من تطبيقه على كافة العلوم العقلية أيضا •

وقد تعرف بانها حركة عقلية نقدية واعية ، تعني بدراسة النتائج البحثية ، وتهدف إلى إقامة بناءات علمية صحيحة ، بعيدا عن تأثير الأحكام السبقية ، بحيث تحقق النجاحات المتوالية في العلوم والمعارف ، وتساهم في البناء الحضاري ، وتفتح الأبواب لمزيد من البحث العلمي الموضوعي الهادف •

وفلسفة العلم بالمعنى العلمي ، ظاهرة في النصوص الإسلامية [٣]، والآيات القرآنية كما أنها قائمة خلال نصوص الأحاديث النبوية [٤] ، بل أنها سارية في المؤلفات الأصولية

---

(١) هذا مما أراه ينطبق على فلسفة العلم في معنى من معانيها ، أو مرحلة من مراحلها •

(٢) هذا التعريف يجيء من ناحية غير التي جاء منها سابقه ، لإعتبارات يمكن الوقوف عليها في سهولة ويسر لمن أراد ذلك •

(٣) النقل الإسلامي هو القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة الصحيحة ، أما الفكر الإسلامي فهو مايتعلق بالنصوص الإسلامية من ناحية خدمتها ببيان مراد الله منها أو تفسيرها ، وأوجه تطبيقها ، ولذا فالفكر قد يقع فيه الإتفاق مع أهداف النص ، وحينئذ يكون صحيحا ، وقد يخالفة فيكون فاسدا، فالعبرة عند الحكم على صحة الفكر أو فساده هي موافقة النص المنزل أو مخالفته له •

(٤) راجع في هذا الشأن كتابنا : المدخل لدراسة الحكمة الإسلامية ، أثناء الحديث عن الحكمة الطبيعية والإجتماعية والإقتصادية وغيرها ، حيث شمل الحديث عنها ما يزيد عن مائة صفحة وكتابنا : لماذا إنتشر الإسلام ، جـ ٢ ، صـ ٩٧ / ١٨٤ •

والكلامية ، لا تحت عنوان فلسفة العلم ، وإنما تحت مفاهيم تحمل ذات الدلالة والمعنى ، وبالتالي فالوجود السبقي لفلسفة العلم قام في إشارات متعددة داخل الفكر الإسلامي أيضا، وتحت أسم الحكمة الإلهية ، والحكمة القرآنية ، والحكمة النبوية إلى غير ذلك ، مما جاء تحت ذات المسمى ، أو في نطاق هذا المفهوم ٠

ولما كانت التسمية - فلسفة العلم - مستحدثة من الناحية الإصطلاحية ، فقد ظن الكثيرون من العجلى أنها نتاج جديد من حيث الدلالة والمفهوم ، والأمر بعكس ذلك تماما، لأن حداثة العنوان لا تعني حداثة الموضوع ، إذ من الممكن أن يكون الموضوع تم تناوله قديما في أشكال متعددة ، إما المستحدث فهو ما يتعلق بالوصف العنواني فقط [١] ، وربما طريقه التناول ، نظرا لقاعدة إعتماد اللاحق على السابق بالأطروحات العلمية ، أو المصطلحات الفنية ٠

من ثم ، فسأذكر بعض التعريفات الإصطلاحية لفلسفة العلم على هذه الناحية المستحدثة ، مع ملاحظة أن ذكرها في المصادر الحديثة ليس معناه استقلالها بها ، وإنما معناه أنها أيضا قد عنيت بفلسفة العلم ٠

١ - عرفه المعجم الفلسفي بأنه دراسة خاصة ذات موضوع محدد ، وطريقة ثابتة ، ومنهج يوصل إلى طائفة من المباديء والقوانين ، ثم ينصب مفهومه على القضايا الكلية ، والحقائق المستمدة من الوقائع الجزئية [٢] ، وبالتالي فهو يقوم بدورين كل منهما يتفاعل مع الآخر ولا ينفصل عنه ، وأعني بهما وضع منهج موصل لطائفة من المباديء [٣] ، بجانب الوقوف على القضايا الكلية والحقائق العامة ٠

٢ - هو العلم الذي يبحث العلاقات القائمة بين الظواهر البحثية ، بغية الوصول إلي حقائق الأشياء في مراحلها المختلفة مع وضع جملة من المباديء والقوانين التي تصلح

---

(١) هناك فروق عديدة بين الوصف العنواني ، والوصف الموضوعي ، لأن الأول يتعلق بعنوان الكتاب أو البحث ، بينما الثاني يتعلق بالجزئيات المدروسة ٠

(٢) مجمع اللغة العربية :المعجم الفلسفي ، صـ ١٢٣ / ١٢٤ ، ط. القاهرة،الهيئة العامة للكتاب ٠

(٣) يمكن الوقوف على هذه الجوانب من الإشارات القائمة في نصوص الشريعة ، بل أن المفكرين المسلمين القدامى كانت لهم جهود كبيرة ومتعددة بهذا الشأن ، راجع للإمام الفخر الرازي : أسرار التنزيل وأنوار التأويل ٠

للتطبيق عليها ، بحيث تكون هي العلامة الدالة ، والعلاقة القائمة في الميدان التجريبي [١] ، ومن ثم فهذا العلم ينحصر داخل إطار ضيق شديد التحديد ، أو على الأقل يمكن القول بأنه يتعلق بالجانب التطبيقي من العلوم الإنسانية ٠

أجل كانت المباحث الفلسفية في الماضي تجعل العلم قرين المعرفة ، أو هو توءمها ، بدليل أنهم كانوا إذا تحدثوا عن المعرفة استخدموا لفظ العلم ، وإذا تحدثوا عن العلم استخدموا لفظ المعرفة ، وقد ظل هذا التوارد سائدا لدى مفكري اليونان ذوي الأصول والنزعات الإغريقية ، حيث قبسوا هذا التبادل من ثقافة المصريين القدماء ، كما ظهر لدى مفكري الصين الأقدمين ، بدليل أن الفلسفة الجانتينية لم تشر إلى المعرفة ، وإذا ذكر لفظ العلم على سبيل العرض ، فلم يكن سوى لفظ بدليل للمعرفة [٢] ٠

في نفس الوقت ، ظهرت عملية الإختلاط والتبادل في الفكر الفارسي القديم من خلال المأثور عنهم في الفكر الفلسفي ، كما بان لدى اهل كل من الكلت والكلدانيين ، بل والأشوريين وسكان بابل الذين نظروا للفلسفة على أنها الأم ، والمعرفة هي الوسيلة ، ثم اعتبروا لفظ العلم بديلا قويا ، ومعبرا متميزا عن المعرفة [٣] ، وقد جادلوا في ذلك المعنى ، ولم تكن لديهم رغبة التنازل عنه أو التسامح فيه عند الإستخدام ٠

صحيح بدأت فكرة فصل الفلسفة العلمية عن الفلسفة العملية منذ المراحل التفكيرية الأولى ، ولكن هذا الفصل لم تنشأ عنه مصطلحات جديدة ، إنما كان يكتفى بالإشارة إليه أثناء الحديث عن تقسيم الفكر الفلسفي إلى علمي نظري يجب أن نعلمه ، ولا يجب أن نعمل به ، وعملي تجريبي يجب أن نعلمه وأيضا نعمل به [٤] ٠

---

(١) هذا التعريف قائم على اساس أن العلم هو المعرفة التجريبية التي يتم التعامل معها في نطاق المنهج التطبيقي التراكمي ، مع السعي لنقد هذه الجوانب نقدا تجريبيا أيضا ٠

(٢) راجع كتابنا : الجانتينية عقائدها وفلسفتها ، حيث تناولنا ذلك عندهم أثناء الحديث عن المعرفة التي وضع قواعدها معلمهم " ماهافيرا " ٠

(٣) راجع كتابنا : المدخل لدراسة الحكمة الإسلامية ، صـ ٣٧ ، وكتابنا الفلسفة العامة ، أثناء الحديث عن التفكير الفلسفي في مرحلة ما قبل التدوين ، أو مرحلة التفلسف قبل التفلسف ، وكذلك كتابنا : التفلسف دوافعة وبواعثه ، صـ ٧١ ٠

(٤) فكرة نعلمه ولا نعمل به من الصعب التمسك بها لدى الفلاسفة الذين يميلون إلى انه لا يعتبر الفكر فلسفيا ما لم يقبل التطبيق العملي ، ويرفضها التجريبيون وجانب كبير من المثاليين أيضا ٠

وكان أبن سينا من أكثر الذين أولوا هذه المسألة عناية كبيرة ، بدليل أنها ظهرت في مؤلفاته علي سبيل الاستقلال والتفاصيل(١)، ومن ثم أعتبرت هذه المسألة من بنات أفكاره ، بل يمكن القول بأنها من أبكار أفكاره ولهذا رأيت إمكانية تعريف فلسفة العلم من خلال ذلك التفسير بأنها التي تبحث في العلوم الطبيعية والرياضية وعلاقتها بما يجيء في الفلسفة الإلهية (٢) ، نظرا لتقسيم ابن سينا .

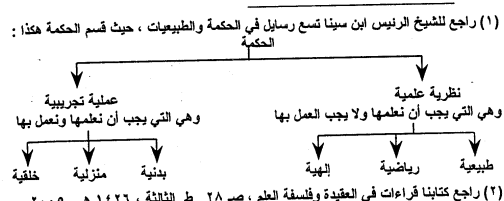
لا شك أن هناك تعريفات كثيرة لفلسفة العلم ، من الناحية الإصطلاحية ، ولست هنا أقدم حصرا إحصائيا للتعريفات ، وإنما الذي يعنيني هو إثبات أن فلسفة العلم لها تعريف خاص ، يفصلها عن باقي أنواع الفلسفة ، كما يشير إلى إمكانية استقلال هذا العلم في تعريفه وموضوعه وغايته ، ولا مانع من استقلاله بالمنهج أيضا .

د - علاقة العلم بالفلسفة

قد يظن أن فلسفة العلم هي الفلسفة العملية ، ولكن هذا الظن ليس بصواب ، أما لماذا ؟ فلآن كلا منهما له مفهوم معين ، ومنهج بحثي مختلف عن الآخر بجانب الموضوعات التي يتناولها ، والغايات التي يسعى للوقوف عليها ، والأهداف التي وضع في حسبانه ضرورة الوصول إليها (٣)، وفي نفس الوقت فليس كل منهما مختلفا عن الآخر ، وإنما هناك منطقة يمكن التلاقي بينهما ، أو هي العلاقة التي يمكن توظيفها لخدمة هذين العلمين ، ويمكن كذلك تصنيفها في إحدى دوائر التصنيف والدلالات ،بإعتبار العموم أو الخصوص،

---

(١) راجع للشيخ الرئيس ابن سينا تسع رسايل في الحكمة والطبيعيات ، حيث قسم الحكمة هكذا :



(٢) راجع كتابنا قراءات في العقيدة وفلسفة العلم ، صـ ٢٨ ـ ط. الثالثة ، ١٤٢٦ هـ ـ ٢٠٠٥م.

(٣) هذه الفوارق لابد من مراعاتها ، ومتى تم ضبطها على القاعدة الأساسية في كافة العلوم أمكن الوقوف علي وجه الانفصال الدقيق بينها، ومساحة التلاقي التي يمكن الوقوف عليها .

أو بإعتبار الأصل والفرع[١]، كما يتم التعامل معها من خلال الواقع المعاش ، بجانب العملي المشاهد •

يقول " بيوتر " [٢] ، أن كل نظرة يمكن البرهنة عليها فلسفيا لا تكون علمية بالضرورة تماما ، كما أن كل نظرية لا تكون علمية بالضرورة ، فإن الطابع النظري هو في الغالب سمة تميز شكل تنظيم المعرفة ، كما أن النظرة إلى العالم التي يمكن التدليل عليها فلسفيا ونظريا تصبح علمية ، وفي نفس الوقت فالسمة الأساسية للنظرة العلمية تتمثل في أنه يجري تطويرها على أساس تعميمم فلسفي للمعطيات التي حصل عليها العالم والاستنتاجات اللاحقة التي يخرج بها [٣]، وبالتالي فهذا الفرق يوضح أن فلسفة العلم غير الفلسفة العلمية [٤] ، بل يلفت الأنظار إلى أن هذه الغيرية قاعدة في كل العلوم أو فروع العلم التي يعتقد أن البينية فيها غير قائمة •

ثم أن هدف الفلسفة العلمية وغايتها الأساسية تقوم على ضرورة خلق الظروف الضرورية للعمل المثمر ، والراحة بجانب حماية صحة الإنسان ورفاهية الأجيال الحالية ، والمقبلة بدرجة كبيرة من النواحي الاقتصادية والاجتماعية [٥] ، وهذا الهدف قد يحدد مصير الفلسفة العلمية ، لكن لا يمكنه ممارسة ذلك مع فلسفة العلم ، رغم التقارب الظاهري بينهما ، أما لماذا ؟ فلما يلي :

---

(١) هذه الإعتبارات لا بد من مراعاتها عند تناول أو بحث آية علاقة يمكن أن تكون بين شيئين أو أكثر ، طالما كانت هناك قواسم مشتركة ، وأوجه إنفصال وتباين •

(٢) هو بيوتر فيد وسييف ، أحد الفلاسفة أو المفكرين الشيوعيين الذين يعتقدون أن الفلسفة الماركسية اللينينية هي الأساس المنهجي والنظري العام للمعرفة العلمية لكل من قوانين الطبيعة والتطور الإجتماعي ، كما أنها الأصل الذي يعول عليه في كل نظرة مادية متقدمة تتعلق بالعالم ، وأن هذه الفلسفة الماركسية تمثل الموقف الفكري الإيجابي بالنسبة للحياة ، والسلاح القوي الفعال ضد الأيدولوجيات الرجعية ، ويعتقد أن الفلسفة لا قيمة لها إلا عندما تتحول أفكارها النظرية إلى الواقع العملي ، بحيث تقدم الممارسة الجادة والمعرفة العلمية ، وقد صدرت له مؤلفات إنصبت كلها في خدمة ذات الهدف •

(٣) بيوتر فيد وسيف : الفلسفة أو المعرفة العلمية ، صـ ١٥ ، ترجمة حمدي عبد الجواد ، مراجعة سعد الفيشاوي ، ط. دار العالم الجديد بالقاهرة سنة ١٩٨٩ •

(٤) ويغلب على تقديري أن هذا الإختلاف يجيء في التسمية والإطلاق ، بجانب التعريف ،وما يجيء بعده في كافة الفروع او الجوانب البحثية المختلفة •

(٥) بيوتر فيد وسييف : الفلسفة أو المعرفة العلمية ، صـ ١٤٢ ، بالتالي فالفلسفة العلمية عنده هي التي تتعلق بالجوانب الاقتصادية والاجتماعية •

١ - التسمية

من الملاحظ أن اسم الأولى هو فلسفة العلم ، بينما الثانية الفلسفة العلمية[١]، وإختلاف كل منهما في الإطلاق اللغوي حاكم بأن كلا منهما ليس هو الثاني وإلا كنا كمن يطلق اسمين على مسمى واحد ، فيكون ورودهما من باب التكرار المراد به التأكيد ، وهو ليس مطلوبا من ذوي الإتجاهات البحثية ولا يتناسب مع أصحاب المعارف العلمية ، ومادام كل منهما غير الثاني من حيث التسمية ، فقد تأكدت المقابلة ، وانعدمت المشاكله ٠

٢ - المفهوم الدلالي

عرفت فلسفة العلم بأنها إتجاه نقدي منهجي ، في دراسة القضايا التجريبية والتطبيقية ، من خلال منهج تجريبي خاص ، عماده الاستقراء العلمي في أضيق الحدود ، وغايته تقديم أفضل النتائج التجريبية في المجال العلمي التطبيقي ، ولا مانع من تجاوزه إلى باقي العلوم العقلية

وتعرف الفلسفة العلمية بأنها نمط معرفي يبحث العلاقة القائمة بين النظم الإجتماعية والإقتصادية ، بغية تقديم أفضل النتائج في المحافظة على كيان الدولة متمثلا في المؤسسات والأفراد ، بجانب مصادر الإنتاج ، وكيفية استثمارها بأقصى طاقة ، بحيث لا يكون خلف ذلك شيء يمكن الوقوف عليه ، وغايتها استمرار الثورة التحررية في مواجهة الامبريالية والرجعية [٢] ٠

بيد أنه من الملاحظ وجود تقابل بالتضاد بين الفلسفة العلمية - في رؤس أصحابها - والفلسفة النظرية ، بحيث يمكن القول بأن وجود الفلسفة العلمية يمثل حالة خاصة ، بدليل أنهم يعرفون الفلسفة العلمية بأنها العلم الخاص بالقوانين الأكثر عمومية لتطور الطبيعة والمجتمع والتفكير ، وحول هذا المضمون لمفهوم الفلسفة تحدث مؤسسو الماركسية اللينينية [٣] الذين يطلقون عليها اسم الفلسفة العلمية ، في مقابل الفلسفة النظرية

---

(١) هذا الفرق مهم جدا ، ولا بد من إعادة النظر إليه ، ففي ذلك فوائد متعددة ، بل قد لا تحصى٠

(٢) ممن ذهب إلى هذا الرأي ، وليم ديفيد ولش في كتابه الثورة والفلسفة ، صـ ٧٧ ، وإنطوان هارفي ، راجع كتابه الثورة والعلم والفلسفة ، صـ ٣٤ ، وجورج سرانيف في كتابه الفلسفة العلمية أو المعرفة الفلسفة ، صـ ٥٣ / ٥٤ ٠

(٣) بيوتر فيد وسييف : الفلسفة أو المعرفة العلمية ، صـ ٣٠ ٠

التي قال بها اليونانيون الأقدمون ، وعرفت باسم الفلسفة اليونانية •

٣ - منهج البحث

منهج البحث في فلسفة العلم تجريبي عملي ، في أغلب النتائج التي تحتاج إعادة الدراسة ، أما تلك التي تكون نتائجها قد تم التأكد من صحتها ، فإنه يلتزم المراجعة بحيث يكون منهجا نقديا ، وبناء عليه ، فهو يستخدم الطريقة التي تناسب الموضوعات المطروحة، لأنه يجعل لكل تصنيف علمي المنهج الذي يتلاءم معه (١)، لذا قالوا أن المنهج في فلسفة العلم يتسع للعديد من المناهج التي تضيق عن التعامل معها فلسفات عديدة أو علوم مختلفة (٢)، إنه منهج متعدد الجوانب ، متسع الجنبات ، فيه العموم والشمول •

أما منهج الفلسفة العلمية فهو التفكير المنطقي ، وهو سلاحها الوحيد ، ويمكن القول بأنه سلاحها القوي ، لأنه يتناول أكثر المفاهيم والمقولات ، كما يشمل القوانين العامة ولا يتوقف عند مجرد عرض الحقائق الخاصة (٣)، ثم أن منهج الفلسفة العلمية يعتمد على تعميم المعرفة (٤)، ويكشف عن المباديء العامة التي تكمن خلفها •

يقول " سيبف " أن الفلسفة تحل محل المعلومات المتناثرة والأساطير والتشبيه الساذج للعالم الموضوعي بالعلاقات بين الأفراد ، وذلك من خلال إكتشاف الصفات والصلات الكامنة في الطبيعة والإنسان بصورة ما ، بحيث تصبح أكثر الأفكار عمومية عن الطبيعة والمجتمع والإنسان ، وقواعد السلوك البشري ، التي وضعتها هذه الأشياء موضع دراسة نظرية وتحليل ، وانتقاء واع يثري النظرة إلىالعالم بمحتوى جديد ، ووسائل جديدة

---

(١) تلك مسألة مهمة جدا ، وقد تناولها الكثيرون من الباحثين ، سواء في المعرفة العلمية أم في فلسفة العلم ، لكن كل منهم تناولها بالشكل الذي أمكنه الوقوف عليه من جانبه •

(٢) راجع لفليب شومخر : فلسفة العلم الأصول أو المباديء والتطورات ، صـ ١٣٥ ، ترجمة ناهد شوقي ، سنة ١٩٨٨ •

(٣) ومادام عمل منهج الفلسفة العلمية هو التفكير المنطقي بالمعنى العام ، فقد يظن أنه يماثل فلسفة العلم ، ولكنهما متباعدان إلى حد بعيد •

(٤) التعميم في الفلسفة العلمية هو معرفة الصلات التي تزداد عمقا وبالظواهر القائمة ، وليس ببساطة بحيث يمكن وصفها ببساطة مجرد عملية كمية،فالتعميم هو إنتقال الفكر من مجرد مستوى للعلاقات المتبادلة الموضوعية إلى مستوى عام ومختلف وأكثر عمقا ، راجع : الفلسفة أو المعرفة العلمية ، صـ ٣٣ •

لفهم العالم والإنسان نفسه [١] .

من ثم يمكن القول بأن منهج البحث في الفلسفة العلمية خاص ، ينطوي بين حنايا منهج فلسفة العلم ، وهو جزء من أجزائها ، وبالتالي فيمكن القول بأن فلسفة العلم ذات منهج عام ، بينما الفلسفة العلمية ذات منهج خاص [٢]، وتلك مسألة متى روعيت أبعادها كانت النتائج دقيقة ، وأمكن الوقوف على الفروق الجوهرية بين كل من فلسفة العلم والفلسفة العلمية .

٤ - الموضوع

موضوع أي علم هو ما يبحث فيه عن أصوله بجانب عوارضه الذاتية ، التي هي مسائله العامة ، من خلالها يتعرف عليه ، وعن طريقها يتم الوصول إليه ، وكل موضوع يمثل الأسس العامة لخصوصيات ذات العلم ، ومن ثم يمكن تعريف أي علم من العلوم ، أو فن من الفنون بموضوعه ، حتى قيل أن موضوعات العلوم هي ميادين الامتيازات و على جهة من الجهات [٣] .

ولما كان موضوع فلسفة العلم هو دراسة ما يتعلق بنتائج العلوم السلوكية والتطبيقية أو العملية والنظرية العلمية ، فإنه يتسع ويتعدد بما يسمح للقول بأنه شامل لما يجيء البحث فيه على الناحية الذاتية أو الناحية العرضية ، على أساس أن كلا منهما يمثل وجهة قد تتكامل مع الأخرى [٤]، ولكن قد لا يستقل كل منها بذاته عن غيره إذا كانت هناك ضرورة لذلك .

---

(١) بيوتر فيد وسييف : الفلسفة أو المعرفة العلمية ، صـ ١٤ .

(٢) عموم المنهج أو خصوصه يمثل فارقا كبيرا ويعبر عن وجود حدود عالية بين كل منهما ، فليس من الصواب تجاهل هذا الفارق لصالح أي منهما على حساب الآخر .

(٣) ويذهب كثير من العلماء إلى أن تعريف الشيء بموضوعه أمر معمول به ، فمثلا يعرفون علم التوحيد – على جهة الموضوع – بأنه العلم الذي يبحث في الإلهيات والنبوات والسمعيات ، وهي في ذات الوقت أجزاؤه الموضوعية ، فلا يكون لعلم التوحيد وجود إذا لم يتناول هذه المسائل الثلاثة .

(٤) ويسمى التكامل النوعي على أساس أن كلا من النوعين بحاجة إلى الآخر ،عندما يكون المراد هوالتكامل ،أما حينما يكون المراد هو الاستقلال فقد تصير هذه الحاجة ثانوية لا أساسية .

أما موضوع الفلسفة العلمية فهو جملة الحوادث التي يتنبأ بها ويفسرها ، من حيث أنها وقائع يمكن مشاهدتها ، على أساس أن المشاهدة هي الأساس الذي نعتمد عليه في قبولنا أو رفضنا لأية نظرية ، وهذا الأساس المشاهد هو العنصر المشترك بين علوم الطبيعة وعلوم الإنسان[١] ، ولا يدخل في موضوع الفلسفة العلمية مايكون قابلا للمشاهدة فحسب ، وإنما لا بد فيه من عبارة تكون قابلة لأن تدحض بواسطة حادث مايمكن الحدوث ، ذي مكان وزمان محددين، ومن ثم فموضوعها أضيق من موضوع فلسفة العلم ٠

يقول " بوبر " العبارات العلمية هي التي تنكر على شيء ما يمكن تصوره تصورا منطقيا ان يتحقق بالفعل ، وتبعا لذلك لا يكفي لكي تعد العبارة علمية أن تكون هناك بينة من المشاهدات التي تؤيدها، بل لا بد لمثل هذ العبارة أن تكون قابلة لأن تدحض بواسطة حادث ما آخر ممكن الحدوث ، وهو حادث لو وقع لجاء مثلا على إمكان لا يندرج تحت تلك العبارة ، وهذه السمة هي التي تميز العلم عن الميتافيزيقا ، [٢] ٠

قد يظن أنهما شيء واحد ، ولكن هذا الظن ليس راجحا أو قائما على أصول سليمة، لأن فلسفة العلم تتمدد في الكثير من العلوم ، أو على الأقل تراقب بالدراسة على المباحث العلمية الطبيعية ، أو الفلسفة العلمية ، وكذلك تتناول جانب البحث في العلوم الإنسانية والعلوم الإجتماعية بما تشتمل عليه من مناهج وطرائق نقد وتحليل لصورة المجتمع بجانب علمي السياسة والتاريخ [٣] ، بما يتفق مع وجهات البحث في عصر العلم الذي نحياه ٠

٥ - الأهداف والغايات

لما كانت الأهداف تمثل الأغراض التي يتجه إليها المفكر بفعله ، بحيث يصل إليه في سهولة ويسر [٤] ، فإن الغايات هي المعبر عن الوصول للفائدة المقصودة [٥] ، بحيث تصير هذه الأهداف كأنها الوسائل للغايات ، أو المقدمات الضرورية لها ، وبناء عليه ، فإن العلاقة بينهما هي ذاتها علاقة السابق باللاحق ، أو المبتدأ والمنتهي ٠

---

(١) كارل بوبر : منطق الكشف العلمي ، صـ ١٣ ، ترجمة خالد زكريا ٠
(٢) راجع للدكتور أحمد الصادق : فلسفة العلوم ، صـ ١ ، ط. أولى سنة ١٩٩٣ ٠
(٣) K. popper– the logic –of scientific – discovery . P. 17- o
(٤) راجع تهذيب اللغة ، باب الهاء ، قطر المحيط و باب الهاء ، فصل الدال وما يثالثهما ٠
(٥) راجع القاموس المحيط : باب الياء ، فصل الغين ، وأساس البلاغة : باب الغين ، فصل الياء ٠

وبمراجعة الأهداف والغايات وعلاقاتها بفلسفة العلم ، والفلسفة العلمية ، اتضح أن فلسفة العلم أهدافها استدراك اوجه القصور في النتائج البحثية التي تم رصدها وإعادة دراستها ، بينما هي بالنسبة للفلسفة العلمية منحصرة في إدراك التجارب المشاهدة ، وانسجامها مع المنطق العقلي ، ومن ثم تكون الأهداف في فلسفة العلم أعم أو أكثر شمولا ، وهذه مسألة تحتاج المزيد من التأمل والكثير من الدراسة ٠

كما ان الغايات المرتبطة بفلسفة العلم تعبر عن كيفية الوصول للفائدة بسهولة ويسر ، أما لماذا ؟ فلأنها تحدد أهدافها بدقة ، ثم يقوم الباحث بحصرها على ناحية القوائم التنظيمية ، وهذا يمكن له في سرعة إنجاز الأبحاث المقترحة ، بجانب استخراج نتائج متوازنة ، ومع هذا تكون سريعة وحاسمة ٠

أما الفلسفة العلمية بالمعنى العام ، فإن الغايات لديها متفاوته إلى حد التباين[١]، وهذا يحتاج ضرورة استحضار النتائج السالفة في الذهن ، ثم أعدادها إعدادا علميا هائلا، وفي النهاية يقف الباحث بين هذا الكم الهائل في لحظات من الدهشة والاستغراب ، وربما الحيرة التي قد تتجاوز حدود القلق ، وفي النهاية يتملكه الفزع ، وربما يضطر إلىإعادة النتائج الإحصائية من جديد، لمجرد سيطرة عناصر الشك على قلبه ، واستيلائها على إمكانياته العلمية ، وبالتالي يكون الوصول للأهداف والغايات أمرا غير وارد فعلا [٢]، بل يستغرق العديد من السنين ٠

٦ - النتائج البحثية

فلسفة العلم متى وصل الباحث فيها إلى نتائج علمية صحيحة ، فإنه يختزنها كلها ، ثم يختزلها في عبارات قليلة ، ويجعلها ضمن أرصدته الفكرية ، يسحب منها عندما تكون الحاجة داعية إليها ، ولأنها عامة ذات طبيعة تدقيقية ، فإن النتائج المرصودة تمثل هي

---

(١) الغايات المتفاوتة مظهرها النتائج ذات الاحتمال الواقعي ، والأخرى ذات اليقين النسبي ، وكذلك تبدو في تباين النتائج الصحيحة والآخرى التي ثبت فسادها ٠

(٢) وهذه الصور القصورية مما رميت به الفلسفة النظرية فترات من الزمان ، حتى قالوا أن الباحث فيها كالباحث عن قطة سوداء لا وجود لها في غرفة مظلمة في ليلة حالكة السواد ، ومع هذا فالقطة التي يبحث عنها لا وجود لها ، ولكن الفلسفة العلمية قد تختلف كثيرا عن مدلول هذا المثل على الأقل من وجهة نظر أصحابها٠

الآخرى نوعا من العموم للعلوم التي تمكن الباحث من فلسفة العلم من التعامل معها[١]، لما هو معروف من أن كل علم يصح إطلاق اسم العلم عليه ليس بلازم أن يصلح للتعامل معه من خلال الفكر الانتقادي الذي تمارسه فلسفة العلم .

من هنا ، أمكن القول بأن النتائج البحثية لدى فلسفة العلم هي الأرصدة الحرة التي يسحب منها متى شاء ، وعند الاستفادة منها يمكن أن ينتقل بها من موضوع إلى آخر ، ومن علم ذي صفة تخصصية إلى علم او علوم تحمل الصبغة العامة ، أو الصفة ذات الوجهة العمومية ، يقول "فولت"من السهل استخدام الأرصدة البحثية للنتائج التي يحتفظ بها الباحث في فلسفة العلم ، لأنه يتعامل معها من ذات المنطق ، ولايمكن أن تحدث إنتكاسة استخدامية[٢] .

أما النتائج البحثية في الفلسفة العلمية فإنها ذات صبغة خاصة ، لأنها هي ذاتها محدودة في موضوعاتها ومسائلها ، كما أن النتائج التي تصل إليها يجري فيها الاحتمال المتواصل ، ويظل آخذا بها حتى تبلغ القانون العلمي ، حينئذ تتحول العلاقة بينهما إلى نوع آخر ،وهو مايعرف بإسم علاقة القانون بالظاهرة البحثية .

وقد نبه " فيشر " إلى هذه الفرضية ، حيث قال من الصعب عقد مقارنة بين النتائج البحثية في كل من فلسفة العلم والفلسفة العلمية ، لأن الأولى عامة شاملة ، بينما الثانية خاصة مقيدة ، أنها محددة بحدين يضافان إلى جملة الحدود القائمة ، وأعني بهما حدى الزمان والمكان [٣]، ويمكن أن تضاف إليهما حدود أخرى كمية ، أو تتعلق بالكيفية ، ويكون تعلقها بها من الناحية الاعتبارية التي تضاف إلى طبيعة المشكلات البحثية المستجدة .

---

(١) هناك فرق بين الأرصدة التي تختزن للتعامل معها ، أو تختزل للإحتفاظ بها ، كالحال مع فلسفة العلم ، وبين الأرصدة التي يسعى الجميع للتنحي عنها نظرا لتخلفها عن الفوائد التي تصور البعض اقترانها بها ، ثم بان أنهما لا يجتمعان أبدا .

(٢) جورج فولت : الفلسفة والعلم ، صـ ٥٣ ، ترجمة صابر لطقي ، ونفس الفكرة ذكرها " جيمس هنري وايت " في كتابه : فلسفة العلم من منظور فيزياني ، صـ ١١٥ ، ترجمة ناصر ذكي ، الطبعة الأولى ، سنة ١٩٨٧ .

(٣) جيمس لاند فيشر : الإتجاهات الحديثة في دراسة الفلسفة العلمية ، صـ ٧١ ، ترجمة أدهم خاطر ، سنة ١٩٩٧ .

من الصواب القول بأن فلسفة العلم ، غير الفلسفة العلمية ، لما سبقت الإشارة إليه ، كما أن البحث العلمي الهادف يمكن أن تتردد فيه هذه الأوجه الاختلافية بحيث تظهر أمام ناظريه ، وحينئذ تبلغ حد التعدد ، ومن هنا ترصد ظاهرة جديدة لا تضاف إلى إشكاليات البحث العلمي ، ولكنها تكون أحد أدواته البحثية التي لا يتنازل عنها ، ولا يساوم بشأنها ومتى قست عليه أدوات البحث واستعصت النتائج فلا مجال لليأس ، لأن الأمل والتفاؤل من سمات الباحث العلمي ذي التوجهات الإيجابية ٠

أهم المصادر والمراجع [1]
للفصل الأول
حسب ورودها بأسفل الصفحات

١ - القرآن الكريم
٢ - السنة النبوية المطهرة
٣ - التفكير الإنساني أصوله ومستوياته — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي.
٤ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم — الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي .
٥ - القاموس المحيط — العلامة محمد الدين الفيروزابادي .
٦ - الفكر السياسي بين الغزالي والأنظمة الحديثة — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي .
٧ - لسان العرب — العلامة ابن منظور .
٨ - معجم مقاييس اللغة — العلامة ابن فارس .
٩ - الموسوعة الغزالية في التصوف والصوفية — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي .
١٠ - أساس البلاغة — العلامة الزمخشري .
١١ - الخليفة الثاني عمر بن الخطاب — الشيخ محمد فوزي .
١٢ - تنزيه القرآن عن المطاعن — القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني .
١٣ - مفاتيح الغيب — العلامة الفخر الرازي .
١٤ - تفسير القرآن العظيم — العلامة الحافظ ابن كثير .
١٥ - النفحات السلفية بالأحاديث القدسية — الشيخ عبد الغني سالم .
١٦ - رسالة التوحيد — الأستاذ الإمام محمد عبده .
١٧ - الرسالة اللدنية — الإمام أبو حامد الغزالي .

---

(١) المصدرُ مايؤخذ منه مباشرة ، والنصوص التي تؤخذ منه تكون مسبوقة بعلامات التنصيص ومنتهية بها ، إما المرجع فهو ما يؤخذ منه الفكرة وليس النص ، وبالتالي فالإحالة عليه تكون بصيغة راجع ، أو أنظر ، إذ المطلوب الإحالة عليه للوصول إلى ما قصد من الفكرة التي تم الوقوف عليها أو الإستفادة بها .

١٨ - نشر الطوالع — العلامة المرعشي الشهير الساجقلي زاده .

١٩ - طوالع الإنكار — الإمام البيضاوي .

٢٠ - المدخل التام لعلم الكلام — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي .

٢١ - الغزاليات في الإلهيات — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي .

٢٢ - المسامرة بشرح المسايرة — العلامة الكمال بن أبي شريف .

٢٣ - الأصول المنيفة — الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان .

٢٤ - المقدمة — العلامة عبد الرحمن بن خلدون .

٢٥ - الدر النضيد من مجموعة الحفيد — العلامة أحمد بن يحي الهروي .

٢٦ - لماذا انتشر الإسلام — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي .

٢٧ - أوراق مطوية في التصوف والصوفية — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي .

٢٨ - ذكر الله بين المثبتين والنافين — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي .

٢٩ - عقيدة القضاء والقدر وأثرها في حياة المسلم — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي .

٣٠ - تاملات غزالية في القضايا الكلامية — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي .

٣١ - الإيمان بالغيب وأثره على الفكر الإسلامي — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي .

٣٢ - أرتباط المدارس النفسية بالإتجاهات الفلسفية الحديثة — المستشرق أنطون لافي .

٣٣ - النديم في المنطق القديم — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي .

٣٤ - ملامح الحكمة الإسلامية في المغرب — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي .

٣٥ - التفلسف - مفهومه - بواعثه - خصائصه — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي .

٣٦ - نظرية المعرفة عند ابن رشد — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي .

٣٧ - العلم منهج وغاية — روبرت هيلر .

٣٨ - البساطة العلمية — ادوارد فوكر .

٣٩ - المعجم الفلسفي — ط. - مجمع اللغة العربية – القاهرة .

٤٠ - اسرار التنزل وأنوار التأويل — الإمام فخر الدين الرازي .

٤١ - الجانتينية ـ عقائدها وفلسفتها — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي.

٤٢ - قراءات في العقيدة وفلسفة العلم — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي.

٤٣ - الفلسفة او المعرفة العلمية — بيوتر فيدوسيف .

٤٤ - الثورة والفلسفة — ويلم ديفيد ولش .

٤٥ - فلسفة العلم الأصول أو المبادئ والتطورات — فيليب شو مخر.

٤٦ - منطق الكشف العلمي — كارل بوبر .

٤٧ - فلسفة العلوم — الدكتور أحمد الصادق .

٤٨ - الإتجاهات الحديثة في دراسة الفلسفة — جيمس لاند فيشر .

٤٩ - الفلسفة والعلم — جورج فولت .

هذا بخلاف العديد من المصادر التي لم تذكر ، ويمكن للقارئ الكريم الوقوف عليها ف صفحات ذات الفصل .



الفصل الثاني
تاريخ
العقيدة وعلم العقيدة

أولا : تاريخ العقيدة

ثانيا : تاريخ علم العقيدة



العقيدة الإلهية سابقة على جميع الكائنات في وجودها ، بإعتبارها المعبر الوحيد عن الله تعالى ، المدلول عليه من خلال أياته جل شأنه ، وأحكامه التي سبق بها قضاؤه [١]، وصارت مرتبطة التنفيذ بالقدر الألهي [٢]، ثم هي ملازمة للكائنات منذ خلقها الله تعالي على سبيل التكليف بها ، من غير إرتباط بشيء آخر ، دليل ذلك قوله تعالى ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [٣].

قال العلامة " الفخر " في معنى الآية أتيا على ما ينبغي ان تأتيا عليه من الشكل والوصف ، بأرض مدعوة قرارا ومهادا ، وسماء مقببة سقفا لهم ، ومعنى الإتيان الحصول والوقوع على وفق المراد ، كما تقول أتى عمله مرضيا ، وجاء مقبولا ، ويجوز أن يكون المعنى لتأتي كل واحدة منكما صاحبتها الإتيان الذي تقتضيه الحكمة والتدبير من كون الأرض قرار للسماء ، وكون السماء سقفا للأرض[٤].

ولا شك أن إتيانهما على سبيل الطوع دليل على قبول التكليف والمسارعة في تنفيذ ما هو مطلوب ، ولا يكون ذلك إلا ترجمة عملية لعقيدة صحيحة إلهية ، وإلا ما أطاعتها لأن شأن القادر على قبول الإطاعة والكره ، أن يتساوى لديه أمرهما ، مع علمه اليقيني أن مراد الأمر نافذ لا محالة ، وأن عملية الإختيار قد أنحصرت في شكل الإتيان لا في حقيقته التي ستقع على أية صورة من الصور ، وهي مسألة عظيمة تترتب عليها غاية كريمة .

كما أن إتيانهما طوعا إنما جاء على صورة تطبيقية عملية ، وبالتالي فما وقع منهما كان تعبيرا عن العقيدة السليمة، وربما يتم الاستئناس لهذا، أو الاستشهاد له بقوله تعالى

---

(١) القضاء الإلهي : هو تدوين ما في علم الله الأزلي ، وكتابته حتى يكون موفيا على كافة ما كان وما هو كائن وماسيكون ، وإرتباط ذلك في تنفيذه بالقدر .

(٢) القدر الإلهي هو تنفيذ ما في علم الله الأزلي المكتوب في القضاء الإلهي ، بحيث يكون ذلك التنفيذ مقترنا بوقته الذي أرتبطت به الإرادة الألهية على سبيل النخصيص والقدرة الإلهية على سبيل الإيجاد أو الإعدام ، راجع كتابنا : الإيمان بالغيب وأثره على الفكر الإسلامي ، وكتابنا : القضاء والقدر وأثرهما في حياة المسلم ، صـ ١٧٥ .

(٣) سورة فصلت : الآية ١١ .

(٤) العلامة الفخر الرازي: مفاتيح الغيب ، المجلد الثالث عشر، جـ ٢٦، صـ ٦١٠، ط. دار الغد العربي بالقاهرة عام ١٩٩٢ .

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ [١].

قال العلامة " البروسوي " تسبيح السماوات والأرض بلسان الحال ، الدال على وجود الخالق العظيم وقدرته وحكمته ، وتسبيح من فيهن من الملائكة ، والجن ، والإنس المقال الناطق بما يسمع منهم ، على أن المراد بالتسبيح معنى منتظم لما ينطق به لسان المقال ولسان الحال ، وما من شيء قيد الأشياء حيوانا كان أو نباتا ، إلا وهو يدل على الصانع وقدرته وحكمته ، فإنها تنطق بذلك التسبيح ، ولكن لا تفهمون تسبيحهم لإخلالكم لكم بالنظر الصحيح الذي يفهم به التسبيح والله حليم غفور لم يعاجلكم بالعقوبة ، مع ما انتم عليه من الأعراض عن التدبير في الدلائل ، والإنهمال في الإشراك [٢] .

وقال الشيخ " على السمرقندي " في بحر العلوم ذهب السلف الصالح إلى أن التسبيح في الآية القرآنية محمول في المحلين على حقيقتة ، وهو الأصح فإنه إن كل كلام الجماد مسلما ، فينبغي أن يكون تسبيحه أيضا مسلما [٣]، قال رسول لله ﷺ إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم على قبل أن أبعث ، آني لأعرفه الآن[٤]، وعن ابن مسعود ﷺ قال كنا نسمع تسبيح الطعام بين يديّ رسول الله ﷺ وهو يأكل [٥] .

من ثم فسأعرض لتاريخ كل من العقيدة وفلسفة العلم ، في إطار ما تسمح به الأمور مع ملاحظة أن تناول هذا التاريخ لا يعني القيام بمسح شامل أو حصر دقيق ، وإنما سأقدم مايعينني الله عليه ، ويوفقنى الله إليه ، في حدود مايلي :

---

(١) سورة الإسراء : الأية ٤٤

(٢) الشيخ اسماعيل حقي البروسوي : تنوير الأذهان من تفسير روح البيان ، جـ ٢ ، صـ ٣٤٧ ، ط. دار الصابوني ٠

(٣) الشيخ على السمرقندي الشيعي ، بحر العلوم ، نقلا عن تنوير الأذهان ، جـ ٢، صـ ٢٩٧ ٠

(٤) الإمام مسلم ، صحيح مسلم : كتاب الفضائل ، جـ ٧ ، صـ ٥٨ ، وراجع للسيوطي : الخصائص النبوية الكبرى ، جـ ١ ، صـ ١٩٧ ٠

(٥) تسبيح الطعام والحصى وتسليم الحجر والشجر إلى غير ذلك من خوارق العادات التي كانت من معجزاته ﷺ كثيرة ، راجع كتابنا : حصاد الاقتصاد في الاعتقاد ، جأ ٤ ، صـ ٢٣ ، ط. الخامسة ٠

أولا : تاريخ العقيدة الإلهية

تاريخ العقيدة الإلهية قديما ضارب فيما قبل الزمان ،حين كان الله تعالى ولا شيء معه ، وكان عرشه على الماء ، بل قبل أن يكون عرش أو ماء ، وذلك مما لايمكن لأحد إنكاره كما لا يستطيع أحد من الخلائق الوقوف عليه ، من حيث الكنه والحقيقة ، طالما كانت العقيدة في الله تعالى ، هي معرفة ذاته جل شأنه ، بحيث تصير العقيدة الإلهية هي الدال على هذه الحقيقة الإلهية .

وإذا تتبعنا تاريخ العقيدة الإلهية في الكائنات المتقدمة كلها ، تبين أنها جميعا ناطقة بها ، معتقدة فيها ، متمسكة بما جاءت به ، بدليل أنها تمارس هذه العقيدة الإلهية من الجوانب العملية والسلوكية أيضا [١]، يستوى أن يكون ذلك في الكائنات العلوية ، بل والسفلية ، وغيرها من الخلائق التي يعلمها الله تعالى ، ولا نعلمها نحن ، أو نعلمها ولا نستطيع الوقوف على حقيقتها .

فمثلا ، حركات الشمس والقمر المتوالية لم تتوقف ، لأنها تمارس العقيدة العملية ولو توقفت طوعا ، لأجبرت على الحركة قسرا وكرها ، قال تعالى ﴿ هُوَ الَّذي جَعَلَ الشَّمْسَ ضيَاء وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [٢] .

ثم أن هذه الحركة المتوالية مضطردة وليست عكسية ، بمعنى أنه قد جرت سنن الله الكونية على ان يكون كل من المتسابقين في دروة كاملة محددة ، قال تعالى ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [٣].

---

(١) عندي أن هذه الكائنات عاقلة ومدركة حساسة ومكلفة ، لكن من حيث لا ندري نحن حقيقة ذلك كله ، لقوله تعالى " تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً " سورة الإسراء ، الآية ٤٤ .

(٢) سورة يونس : الآية ٥ .

(٣) سورة يس : الآيات ٣٨ / ٤٠ .

فإي حركة هذه إذا لم تكن السنن الكونية هي المعبر الأكثر وضوحا بالنسبة للعقيدة الإلهية ، بل أن عملية التسابق ما تزال قائمة بين كل من الليل والنهار ، فيكون أحدهما سابقا ، والثاني لاحقا [١]، بحيث يتكور كل منهما على الآخر [٢]، ويتوالج كل منهما في الآخر [٣]، لهي من الدلائل الكونية على أن هذه الكائنات تمارس العقيدة الإلهية من الناحية العملية ، وفي أشكال ومظاهر لايمكن لأي عاقل إنكارها .

بل على العكس من ذلك ، إنها تدفع الجميع لإعتقاد صحتها ، وسلامة دورانها في أفلاكها ، إمتثالا لما هو قائم فيها من عقيدة صحيحة ، نحو الخالق العظيم جل شأنه ، وكذلك الحال مع الجبال التي يظنها الناس جامدة ، بينما هي حية متحركة ، قال تعالى ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ **وهي في ذات الوقت مسبحة الله مع نبي الله ، داود عليه السلام ، قال تعالى** ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ [٤] .

بل يمكن فهم الأمانة المعروضة على السماوات والأرض والجبال من قبل قبل الله تعالى بانها العقيدة الإلهية ، وما تستلزمه من تكاليف عملية ، بدليل أن هذه الملوكات العظيمة ، سارعت إلى إعلان التصديق ، وسرعة القبول ، مع الإندفاع إلى الإمتثال من عير تأخر أو إبطاء ، يدل على ذلك قوله تعالى ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ [٥]،

فإذا أمكن للعقل أن يطير إلى الماضي البعيد ، ويقلب بين أرجاء الزمان المقدر في علم الله الأزلي ، والزمان الفلكي ، بل والزمان الخلوي ، أمكن له القول بأن كافة هذه المخلوقات مخلوقة الله تعالى ، عقيدتها صاخبة ، وإتجاهاتها نحو الخالق العظيم متنامية ،

---

(١) قال تعالى "وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ "سورة الأنبياء:الآية ٣٣ .

(٢) قال تعالى ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾ سورة الزمر : الآية ٥ .

(٣) قال تعالى ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ سورة فاطر:الآية ١٣ .

(٤) سورة ص : الآية ١٨ .

(٥) سورة الأحزاب: الآية ٣٣ .

لا يقع لها التداني أو التدني ، إنها متعالية فوق الجميع ، ولا يمكن أن تهبط إلى مستوى تقع فيه المساومة بدليل أن الزمان المقدر في علم الله تعالى يحوي كميات هائلة من الموجودات المخلوقة ، لم يضن عليها ، أو يقع له الشكوى منها ، بدليل على ذلك قوله ﷺ قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة [١] .

والمعروف أن هذا الزمان المقدر هو عبارة عن مدة زمنية في علم الله تعالى ، قبل خلق الكون الذي تعرفه ، لا يعرف حقيقته إلا الله جل علاه ، وهو مايتعلق بالعلم والقضاء والقدر الإلهي ، ويخاطبنا الله تعالى عنه ، بما يمكن أن تفهمه عقولنا أو نستوعب موضوعاته ، أو اسطيع أن تجد مكانا له في المعارف والمفاهيم ، لأن ما لا تقوى عليه العقول لا يكلف الله الخلائق به ، لقوله ﷺ أن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدودا فلا تتعدوها ، وحرم أشياء فلا تقربوها ، وسكت عن أشياء من غير نسيان رحمة بكم فلا تسألوا عنها[٢] .

فحقيقة الزمان المقدر في عالم الله تعالى ، مما لا يتسطيع عقولنا الوقوف عليها من حيث الحقيقة ، ومن ثم لم يكلفنا الله تعالى بمعرفة ذلك معرفة على الحقيقة ، وإنما تكفي فيها المعرفة الإجمالية ، أو التي لها إرتباط بالموضوع من حيث هو مدرك معرفي ، وهو المدة الزمانية ، كقوله تعالى خمسين ألف سنة ، فأهل العلم يفهمون العدد الوارد فيلفظ خمسين ، كما يفهمون مدلول لفظ سنةِ ، مما هو مألوف لهم ، لكن حقيقة العدد ، وحقيقة السنة مما يعلمة الله تعالى لقوله تعالى ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [٣]، **وقوله تعالى** ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [٤].

---

(١) الإمام النووي : صحيح مسلم بشرح النووي ، المجلد السادس ، جـ ١٦ ، صـ ٢٠٣ ، ط. دار الرايات .

(٢) الإمام البيهضي : السنين الكبرى ، جـ ١٠ و صـ ١٢ ، وراجع لأبي نعيم حلية : الأولياء وطبقات الأصفياء ، جـ ٩ ، صـ ١١ ، ط. دار الكتب ، بيروت .

(٣) سورة الحج : الأية ٤٧ ، وقوله تعالى " يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون " سورة السجدة : الآية ٥ .

(٤) سورة المعارج : الأية٤

بيد أن مما يحسن الإلتفات إليه هو أن هذا الزمان المقدر في علم الله الأزلي ، هو الآخر صاحب عقيدة إلهية ، أليس هو من فضل الله تعالى ؟ ، ثم أليس هو من المقدرات في علم الله جل جلاله ، وبعد ذلك ألا يكون هذا الزمان تجري المقادير فيه هو ذاته محل العقيدة الإلهية ، وقائم عليها بأحسن ما يكون وأكمل مايكون ، بل ويجيء في أتمه طبقا لقضاء الله تعالى وقدره ٠

من نافلة القول بأن هذه العملية العقدية يدخل في نطاقها كل شيء حتى المعدوم ، إذا سمي شيئا ، لقوله تعالي ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ [١] ، والشيء ما دام مخلوقا، فإنه يكون من ذوي الإتجاهات القائمة على التمسك بالعقيدة الإلهية ، بل أن المعدوم هو الآخر طالما كان في عدمه فإنه قائم بأمر الله تعالى [٢] ، مهما بالغت العقول في جحد هذه المفاهيم لعدم قدرة أصحابها على تفهمها ، فإن ذلك يكون من الدلائل على أن العقيدة الإلهية قائمة ، وتاريخها قديم أيضا ٠

وإذا قلبنا صفحات التاريخ الكوني العام ، وجدنا الملائكة ذوي العقيدة الإلهية وبجانبهم مؤمنو الجماعات القديمة كالجن والبن بجانب الان [٣] ، ثم يأتي دور الثقلين من الجن الذين كلفهم الله الامتثال لهذه العقيدة الإلهية والتمسك بها ، لكن منهم المؤمنون الذين إلتزموا وكانوا من أهل الإيمان والورع ، ومنهم أهل العصيان الذين حاولوا إنكار هذه العقيدة الإلهية ، وإصطناع عقائد لهم تكون بديلة لما جاء من عند الله ٠

---

(١) شينية المعدوم فيها كلام طويل ، أبرز أصحابه قدراتهم العقلية وملكاتهم الفكرية ، ويعتبر أحد المعالم الهامة في الفكر الإسلامي ، لأنه تناولوا كل الموجودات بالبحث والدرس ، حتى لو كان ذلك من باب الترف العقلي ، المهم أنهم كانوا يمارسون بحوثهم العلمية على أوسع نطاق زمان تقدم المعارف وإنتصارها بأيدي علماء المسلمين ، رحمهم الله تعالى وألحقنا بالصالحين منهم في جنات النعيم ٠

(٢) وعقيدتي التي ألقي الله تعالى عليها ، أن كل شيء إنما هومن الله ، سواء هذا الشيء موجودا نعرفه او لا نعرفه ، وسواء أكان معدوما أم غير معدوم ، فإنه قائم بأمر الله لا يخرج عنه أبدا ، لأن الله وحده الخالق لكل شيء ، لا يغرب عنه أي شيء ٠

(٣) هذه الجماعات أشار إليها الكثيرون من أهل الإسلام أثناء تفسيرهم لقول الله تعالى أن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ، وكلها أقوال مرسلة ، والأولى تفويض الأمر لله رب العالمين ٠

من المؤكد أن العقيدة الإلهية في الكائنات التي نحسبها جمادية من الجبال ، يحسبها ألفاظ إليها قائمة ثابتة لكنها في الحقيقة متحركة ناطقة مسبحة أما كونها متحركة فدليله قوله تعالى ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ [١]**، ومن ثم فهي قديمة في الكائنات الحية ، سواء أكانت من ذوات الأرواح المدركة الحساسة ، ومنها الإنسان والجان والملائكة والحيوان ، أم كانت من الكائنات الدقيقة التي ليست لها تركيبات خلوية كاملة ، وإنما هي جزئيات كونية كالفيروسات** [٢]**، التي مازات الأبحاث العلمية جارية بشأنها ، فإنها جميعا تعرف العقيدة الإلهية ، وتلتزم بها في غير تأخير أو تعطيل •**

يدل على ذلك أن الطير الذي خاطبه نبي الله سليمان ، وحكى امره القرآن الكريم كان يسارع إلى الإستجابة ويتمسك بالعقيدة الإلهية ، من هذه الدلائل ، قوله تعالى ﴿ وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين ، وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ [٣] •

قال العلامة " الفخر الرازي " إن الله تعالى جعل كل هذه الأصناف من جنود سليمان ولا يكون كذلك إلا بأن يتصرف على مراده ، ولا يكون كذلك إلا مع العقل الذي يتضح معه التكليف ، أو يكون بمنزلة المراهق الذي قارب حد التكليف ، فلذلك قلنا أن الله تعالى جعل الطير في ايامه مما له عقل ، وليس كذلك حال الطيور في أيامنا[٤] •

كما أن الحشرات الصغيرات أعلنت صفاء العقيدة الإلهية ، والآخذ بها مع التمسك بما يجيء معها ، يدل عليه بيانه تعالى في شأن النملة مع نبي الله سليمان ، كيف كانت

---

(١) سورة النمل : الآية ٨٨ ، ذكرالقرطبي قول الن عباس وهو أن الرائي للجبال يحسبها قائمة ثابتة في مكانها ، مع أنها تسير سيرا حثيثا ، فهي في رؤية العين كالقائمة وهي تسير ، وكذلك كل شيء عظيم ، هو جمع كثير ، يقصر عنه النظر لكثرته ، وبعد ما بين أطرافه ، وهو في حسبان الناظر كالواقف وهو يسير ، الإمام القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، المجلد السابع صـ ٥١٢٧ ، ط. دار الغد العربي بالقاهرة •

(٢) والعلماء يقولون أنها جزيئات خلوية ، وليست خلية أو نصف خلية ، ومن ثم فمازال العلماء يبحثون عن كيفية مواجهة هذه الفيروسات وبخاصة الكبدية C , b ، لأنها لو كانت ذات خلية لأمكن التغلب عليها من الناحية العلمية بإنتاج أمصال وقائية ، أو دوائية •

(٣) سورة النمل : الأيتان ١٦ و ١٧

(٤) العلامة الفخر الرازي : مفاتيح الغيب ، المجلد الثاني عشر ، جـ ٢٣ ، صـ ١٨٥ •

عاقلة قادرة قوية في إنقاذ بني جنسها من القوات المتحركة أرضا ، وتلك المنقوله جوا ، ثم الضاربة في فيافي الأرض ، لتمثل القوة الكامنة التي تنفذ أدق التعليمات ، في أسرع الأوقات وبأعلى الأمكانيات ، ومهما تطلبت هذه التكليفات من السرية أو بذل الطاقات ٠

يدل على ذلك قوله تعالى ﴿ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت على وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ﴾ (١) ٠

ثم أن الهدهد لما كان صاحب عقيدة إلهية صحيحة ، فقد دفعه ذلك إلى القيام بما كلف به على أحسن إلنظام ، وأتم الأعمال ، بغضّ النظر عن كون نبي الله سليمان مراقبا له، أو غير مراقب ، إنها السلوكيات الحاسمة الدقيقة التي تبدوا فيها مظاهر العقيدة الإلهية من الناحية العملية ، التي لا تحتاج إلى دليل آخر ، حتى ينهض شاهدا لها (٢) ، ولنيت هؤلاء الأفراد الخارجين على العقيدة الإلهية يراجعون مواقفهم مع أنفسهم ويحاولون إجراء موازنة بين فعالهم الخبيثة وما قام به الهدهد ذلك الطائر الضعيف المهدد من قبل نبي الله سليمان بالعواقب المتعددة ٠

إن الهدهد أعلنها مدوية كمظهر حضاري عندما يراد التعبير عن حرية التفكير (٣) ، وحرية الإفضاء والتعبير ، يدل على ذلك قوله تعالى ﴿ وتفقد الطير فقال

---

(١) سورة النمل : الآيتان ١٨ / ١٩، قال العلامة القرطبي " سميت النملة بذلك لتنملها ، وهو كثرة حركتها ، وقلة قرارها ، وأن هذه النملة قامت تمشي وهي عرجاء تتقاوس وتنصح قومها، وان نبي الله سليمان سمع كلامها مع بني جنسها من ثلاثة أميال ، وأنها كانت ناصحة أمينة لنفسها وبني قومها ، القرطبي :ا لجامع ، جـ ٧ ، صـ ٥٠٥٢ ٠

(٢) وقد ذهب كثيرون من العلماء إلى ذكر حيوانات الجنة وعددها ، ومنها هدهد سليمان ، وكلب أهل الكهف ، وحوت يونس ، والحمار الذي مر على قرية وهي خاوية على عرشها والنملة وطيور إبراهيم ، ومنهم من زاد عليها أو اقتصر ، ولكل وجهة

(٣) حرية التفكير هي حركة فكرية يقوم بها العقل في تأمل ما يحيط به وما لا يحيط به ، بل كل ما يمكن أن يصل إليه العقل ، إلا ذات الباري جل علاه ، فإن التفكير يكون في مجال الاستدلال عليها أما البحث فيها فلا ، لقوله ﷺ " تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا " ، أما حرية التعبير فتكون بالعبارة الناطقة أو الصورة الواضحة ، والإشارات المفهمة إلى غير ذلك من الوسائل لكن بغير أسفاف أو خروج على العقيدة والقيم والآداب العامة ، فأن فعل ذلك خرج من حرية التعبير إلى جرائم التدمير ، وهو ما لايوافق عليه أحد ٠

مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين لأ عذبته عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين ﴾ [١].

ورغم ما في سياق الآيات القرآنية من أسلوب يحمل التهديد والعقوبات المتنوعه، التي جرت في صدر نبي الله سليمان نحو تقصير الهدهد ، إلا أنه يساق على سبيل القصص القرآني المعجز الآخاذ ، بحيث يتسلل إلى النفوس المريضة حتى يستخرج منها ما يمكن استخراجه ، نظرا لكون العقيدة الإلهية هي المعيار الدقيق الذي يحكم على صاحبه بأنه مقبول عند الله تعالى أو مرفوض .

على كل،لم يكن الهدهد سوى طائر من مخلوقات الله تعالى تمكنت العقيدة الإلهية منه[٢] ، ولذا سارع إلى إعلان موقفه الدقيق ، وكشف عن عقيدته الدينية السليمة التي فطره الله تعالى عليها ، وقد صور القرآن هذا الموقف ، وحدد ذات العقيدة الإلهية داخل هذا الطائر المتواضع في حجمه ، الكبير في تمسكه بالعقيدة الإلهية ، قال تعالى ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ • وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾[٣] .

ثم هتف الهدهد مبينا عقيدته الدينية الإلهية ، مؤكدا أن هذه العقيدة لا يمكن المساومة عليها بأي حال من الأحوال ، بل أحال المواقف المضادة لهذه العقيدة إلى عدم رجحان العقل ، أو إنطماس أنوار الإيمان من القلوب [٤]، بجانب وقوع هؤلاء في أرض زلزال، تعصف بهم من كل ناحية ، وبخاصة أن حقيقة الأمور يجب أن توجه إلى الله تعالى

---

(١) سورة النمل : الآيتان ٢٠ و ٢١ .

(٢) تطلق كلمة طائر على كل ذي جناحين ، حتى وإن لم تكن طبيعته استمرار الطيران ، بحيث يشمل الصقر والنسر والدجاج والبط والآوز ، بجانب النعام وغيرها، إذ العبرة في هذا الإطلاق على الحيوان كونه من ذوي الأجنحة .

(٣) سورة النمل : الآيات ٢٢ / ٢٤ .

(٤) المواقف المضادة للعقيدة الإلهية تتسم بالكفر والإلحاد ، ولذلك فإن أصحابها يساومون على الثابت الصحيح بالمضطرب الذي لا قيمة له ، فالثابت هو العقيدة الإلهية الصحيحة ، والمضطرب هو الأفكار المتنامية في الفساد ، والعقائد الإلحادية .

قال جل شأنه مصورا موقف الهدهد ، قال ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (١)

من ثم ، لم تكن هذه العقيدة الإلهية فطرية في الكائنات العاقلة وحدها ، وإنما هي فطرية حتى في المخلوقات التي تصنف على أنها غير عاقلة ، ومنها الحيوان ، بدليل أن كلب أهل الكهف اتبع الفتية الذين أمنوا بربهم ، ثم جاء ذكره معهم عندما يراد معرفة عددهم ، وبالتالي فإضافته إليهم ليست إضافة فرد من أفراد الحيوان ذي الأربعة ، إلى نفر من البشر (٢) ، إنما الإضافة تتعلق بالعقيدة الإلهية ٠

ومعنى ذلك استمراء هذا الكلب الإنطلاق في الدور التنفيذي ،لإعلان تعلقه بذات العقيدة الواضحة إلى حد التشبع الذي صارت معالمه واضحة في سلوكيات الحيوان (٣) قال تعالى ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاء ظَاهِراً وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَداً ﴾ (٤) ،

بل أن تاريخ العقيدة الإلهية في الجماعات الإنسانية - بني آدم - قديم أيضا ، حين كانوا مجرد أرواح في عالم الذر ، الذي لا يعلمه إلا الله تعالى ، حينذاك ، خاطبهم الله تعالى بما لهم ، وهو العليم بهم ، وأخذ العهد عليهم وأمرهم أن يكونوا من ذوي العقيدة الألهية ، وألا يكونوا من أصحاب العقائد الشيطانية ، قال تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ (٥) ٠

---

(١) سورة النمل : الآيتان ٢٥ / ٢٦ ٠

(٢) هذا الفارق يجب الإنتباه إليه ، لأنه معيار دقيق يظهر به من يؤمن ومن لا يؤمن ، بحيث يكون دليلا على كل منهما وحده ، وعلامة مميزة لا يمكن التغاضي عنها ، وكل أفضال الله تعالى لا حدود لها ، قال تعالى وأن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ٠

(٣) أود لو أن باحثا قام بإعداد رسالة علمية حول قصص الحيوان في القرآن الكريم ، ففي ذلك خير كثيرا إن شاء الله تعالى ، ويمكن إعداد رسالة حول قصص الحيوان بين العهد القديم والقرآن الكريم ، دراسة مقارنة٠

(٤) سورة الكهف : الآية ٢٢ ٠

(٥) سورة الأعراف : الآية ١٧٢ ٠

قال " العلامة الزمخشري " ومعنى ذلك انه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها فيهم ، وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى ، فكأنه أشهدهم على أنفسهم وقررهم ، وقال لهم ألست بربكم ، وكأنهم قالوا بلى أنت ربنا ، شهدنا على أنفسنا وأقررنا بوحدانيتك [١] .

وكيف لا أدعى أن تاريخ العقيدة الإلهية قديم قدم الإعتقاد نفسه ، وقدم المعتقد له ، بل وأتمسك بهذا الإدعاء إلى حد الاعتقاد فيه ، والدفاع عنه ، والله عز وجل يقول عبدي إني بحقك لك محب ، فبحقي عليك كن لي محبا [٢]، أليست هذه المحبة الإلهية التي تتوجه نحو العباد ماثلة في أنواع من النعم والمنافع ، دليلا على استبقاء هذه العقيدة الإلهية في القلوب ، وإنغماسها داخل النفوس ، بجانب سيطرتها على العقول الإنسانية في كل حال من الأحوال .

من الواضح أن تاريخ العقيدة الإلهية في بني الإنسان كان يجيء متوازيا مع وجود هذا الإنسان ، بحيث يمكن القول بانه متى وجد الإنسان وجدت معه هذه العقيدة في أصولها وملامحها وأشكالها ومظاهرها ، بل ما يتعلق بها هو أيضا ، قد جاء مع القاعدة العامة من الناحية التطبيقية والسلوكية .

على أساس أن هذه الجوانب تمثل النواحي العملية ، وعليها جاءت التكاليف الشرعية [٣]، بجانب القيم العامة والأخلاق الفاضلة ، بل والآداب التي تحتوي جملة الفضائل ، وكلها تؤكد أن العقيدة الإلهية عمل القلب المستنير بنور الله جل علاه ، وأنها فطرية ، قديمة قدم الخالق العظيم ، قائمة في النفوس حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

ثانيا : تاريخ علم العقيدة

ما من أمة إلا وقد جاءها النذيرون من قبل الله تعالى ، وبعث فيها الأنبياء والمرسلون ، كما قد تكون أنزلت فيها الكتب ، و الصحف ، أو كانت الألواح هي الموجودة

---

(١) العلامة الزمخشري : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، المجلد الثاني ، صـ ١٧٦ ، ط. دار الريان

(٢) الشيخ الفشني : شرح الأربعين النووية ، صـ ١٧٥ ، وللدكتور عبدالحليم محمود : مقدمة المنقذ من الضلال ، صـ ١٢٥ .

(٣) يدخل في التكاليف الشرعية كل من العبادات والمعاملات ، ويمكن أن يدخل في هذا المفهوم العادات ، وذلك مما لا يمكن تجاهله لأن دين الله تعالى علم وشامل .

المعبرة عن نصوص الشريعة الإلهية ، و من المعلوم أن العقيدة الإلهية تمثل الدين الإلهي في جانبه النظري ، على أساس أن العقيدة بأجزائها الستة هي القاسم المشترك بين رسل الله تعالى ، لقوله ﷺ ﴿ أنا معاشر الأنبياء اخوة لعلات أمهاتهم شتى ، ودينهم واحد ﴾ (١) .

يقول الإمام " ابن القيم " الشرائع كلها في أصولها ، وإن تباينت ، متفقة ، مركوز حسنها في العقول ، ولو وقعت على غير ما هي عليه لخرجت عن الحكمة والمصلحة والرحمة بل من المحال أن تأتي بخلاف ما أتت به (٢) ، وربما يتساءل المرء قائلا من الواضح أن رسل الله تعالى يشتركون في أصول العقيدة الإلهية ، فلماذا كانوا يختلفون في أغلب الشرائع من الناحية العملية ، مع أن مصدرهم جميعا واحد ، هو الله تعالى .

والجواب : أن العقيدة الإلهية واحدة تتمثل في أجزائها المذكورة في قوله ﷺ ﴿ الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وتؤمن باليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ﴾ (٣) ، وكل نبي من أنبياء الله تعالى قد جاء مبلغا بهذه العقيدة ، وأكد عليها بإستمرار منذ بعثته حتى نهاية أمره بينهم ، والأدله على ذلك من الكتاب الكريم ، والسنة النبوية المطهرة الصحيحة أكثر من أن تحصى .

ثم أن الأنبياء والمرسلين السابقين على النبوة الخاتمة - نبوة سيدنا محمد ﷺ - لما كانوا ذوي نبوات خاصة ، حيث كان كل نبي يبعث إلى قومه بذاتهم (٤) ، فقد كانت مهمة الرسول مع هؤلاء الذين يبعث فيهم ، تجيء في ثلاثة أمور تتكامل مع بعضها :

الأول : استنقاذهم مما هم فيه من الرذائل والمناقص ، حتى يتم لهم الاستخراج من الظلمات إلى النور ، وكل ما كان من هذا القبيل ، فإن النبي يقوم به ، تعليما وإبلاغا ، ثم ممارسة وسلوكا (٥) ، لأنه الطبيب وهم المرضى ، وهو المرسل فيهم ، وهم المتابعون له ،

---

(١) العلامة الزبيدي: مختصر الزبيدي ، صـ ٧٣ ، وشرح العلامة الفشني : على الأربعين النووية ، صـ ٤٥ .

(٢) الإمام ابن القيم : مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ، جـ ٢ ، صـ ٦ ، المكتبة التوفيقية .

(٣) والحديث تعددت رواياته، وكذلك أجزاء العقيدة الإلهية جاءت بها العديد من الآيات القرآنية .

(٤) والآيات القرآنية والأحاديث النبوية المتحدثة عن النبوات الخاصة كثيرة ، وكذلك التي تحدثت عن النبوة الخاتمة ، العامة الدائمة التامة ، التي جاء بها سيدنا محمد ﷺ ، راجع تفاصيل ذلك في كتابنا : الغزاليات في السمعيات ، جـ ٦ .

(٥) ويقع التكامل بين العلم والعمل ، بدليل أن رسول الله ﷺ يقول" صلوا كما رأيتموني أصلي" .

وتتم هذه التعاليم كلها من خلال تعريفهم بمشكلاتهم وتخليصهم منها[١]، فليس من السهل على أمة من الأمم الاستمرار في طريق الهلاك ، إلا إذا كانت أمورهم قد أغرقت بها سفينة النجاة ، فلم يعد لهم سوى اليأس والقنوط ٠

الثاني : تقديم أوجه العلاج للأمراض التي يعانون منها ، ومحاولة إصلاح ما هم فيه من سوء يضغط عليهم بأشكاله المختلفة ، لأن الطبيب إذا توقف دوره عند مجرد تشخيص الداء ، ولم يضع في مقابله ما يصلح له من دواء ، لم تكن له نتائج إيجابية ذات تأثير كبير [٢]، أما إذا أقترن ذلك التشخيص بتقديم العلاج الناجح المفيد ، فإن الثقة فيه تكون كبيرة ، ثم يجيء بعد ذلك الإقبال عليه الذي يظل آخذا في النمو والتزايد حتى يبلغ في نفوسهم المبلغ اللائق به ، حيث المتابعة به تكون هي الغاية والهدف ٠

الثالث : وضع خطط مستقبلية يمكن تطبيقها من الناحية العملية ، ولأن الرسول بين الناس هو القدوة ، ولهم فيه خير الأسوة ، وبناء عليه ، فهو لا يكتفي بمجرد وضع الخطط ، وإنما يمارسها معهم ، وإلا كيف يضعها لهم ولا تطبق عليه ، دليل ذلك قوله تعالى ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾ [٣] ٠

يقول الشيخ " الجزائري " لقد كان لكم أيها المؤمنون في رسول الله محمد ﷺ أسوة حسنة، وقدوة صالحة فإقتدوا به في جهاده وصبرة وثباته ، فقد جاع حتى شد بطنه بعصابة ، وقاتل حتى شج وجهه ، وكسرت رباعيته ، وحفر الخندق بيديه ، وثبت في سفح سلع أمام العدو قرابة شهر، فاتسوا به في الصبر والجهاد والثبات ، وكل ما قام به [٤]٠

وقال جل شأنه ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ

---

(١) لأن تعريفهم بالأمراض وحدها ، يمثل جانبا سلبيا ، وإنما لا بد من تعريفهم بطرق تفادي هذه المشكلات ، وكيفية الخروج من ذات الظلمات ، ومعالجة أوجه القصور المختلفة في حدود ما يأمر به الله جل علاه ٠

(٢) وكذلك النبي ، إذا لم يكن معه من وسائل العلاج ، ما يغطي احتياجات هؤلاء الذين بعث فيهم فإن الإستجابة له تكون ضئيلة ، وهذا ليس من شأن رسل الله الصادقين ٠

(٣) سورة الأحزاب : الآية ٢١ ٠

(٤) الشيخ أبو بكر الجزائري : أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، جـ ٣ ، صـ ١٩٤٤ ، مكتبة لينة بدمنهور ٠

وَالْبَغْضَاء أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّه وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيه لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ" [١] .

الرابع : تبصيرهم بما هو لازم لهم ، حتى تظل رعاية الله لهم قائمة تحذرهم من مخالفة أمر الله ، وهو ما يعرف باسم الترغيب والترهيب ، بحيث تبقى الأمة آخذة بعهد الله لا تتوقف عنه ، ولا تبتعد من حواليه [٢] ، **وهي مسألة مهمة داخلة في نطاق مهام المرسلين لقوله تعالي** ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً ﴾ [٣] .

ومتى قام فيهم الترغيب والترهيب ، حتى بلغ من عقولهم مبلغ اليقين ، ونما داخل وجداناتهم حتى صار الأمل الدائم والخوف المستمر ، فإن عملية الترغيب تؤدي دورها المنوط بها ، وتؤتي ثمارها على أتم ما يكون ، بل أفضل ما يرتجي [٤] ، **يدل على ذلك قوله تعالى** ﴿ وَيَا قَوْمِ هَـذِه نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ [٥] .

وقوله تعالى ﴿ وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ [٦] ، **حتى إذا أعاد النفوس الهائجة إلى مواطن الهدوء، وأمضى فيها قاعدة الحق ، وثبت داخلهم على مقام التقوى ، فإنهم يسارعون إلى الحق لا يتجاوزونه ، وإلى الباطل حتى ينصرفوا عنه ، وهي مهمة من مهام بعثة المرسلين ، أو إحدى فوائد بعثة الأنبياء ، و ما يتعلق بأعمال المرسلين من خلال الإرشاد إلى**

---

(١) سورة الممتحنة : الآية ٤ .
(٢) فالنبي في قومه قائد يدفعهم للخيرات ، ويأخذ بحجزهم عن الشرور والآثام ، وهو يقذف ذلك بوجه صاحبة ، خبرة عملية إلهية ، ورؤية بشرية يمكن تطبيقها على بني البشر الذين بعث فيهم بطريقة ميسورة ، ومن ثم فالترغيب والترهيب لكل منهما أمر مهم جدا .
(٣) سورة نوح : الآيات ١٠ - ١٢ .
(٤) هذا كله متى كانت القلوب سليمة في توجهاتها، صحيحة من ناحية قبولها الترغيب والإستعداد للترهيب ،أما إذا كانت قلوبا مظلمة فلا ينفع فيها شيء ،وأوعي القلوب ما كان شاغله الله عز وجل ، بوجوده وعلمه وقدرته ، بل وما له من صفات الجلال والجمال والكمال والإكرام .
(٥) سورة هود : الآية ٦٤ .
(٦) سورة هود : الآية ٨٩ .

قاعدتي الواجب والحق ، مع ضرورة تقديم الحق على الواجب ، حتى تستقيم المسألة ·

ثم أن كل أمة لها خصوصية مكانية ، وطبيعة إجتماعية ، وتركيبة سكانية ، بجانب إتجاهات فكرية ،وأنماط ثقافية ، وفوق ذلك تظهر لهم ميول معرفية ، والنبي الذي يبعث فيهم يسعى دائما إلى تنمية هذه الجوانب ، بحيث يزكي منها ما يتفق مع الشريعة الإلهية في أعلى مراتبها ، وأكمل صورها ، واجمل معانيها ، وأتم مبانيها(١) ، من ثم فهو يراعي فيهم هذه الخصوصيات ، ثم يزيد عليها العديد من صور التزكية لما يصلح والإقتلاع أو الاستئصال لما لا ينفع ·

الخامس : أن النبي المرسل يعلم الذين بعث فيهم ألوان المنافع التي لا غنى عنها في حياتهم الدنيوية ، ويدلهم على الحرف والمهن التي لا تسقط شيئا من مروءاتهم ، ولا تنقص من أقدارهم (٢) ، بل على العكس من ذلك ، أنه يرشدهم إلى المهن الجادة ، والحرف النافعة ، بجانب الصناعات التي لا غنى عنها بغض النظر عن طبيعتها أو نوعها (٣) ، المهم أنها مما يرضى الله تعالى عنه ، وتقدم مصالح عديدة لكل القائمين بها ، وحياة الإنبياء والمرسلين فيها من هذه الصور ما إمتلآت به المؤلفات التي عنيت بهذه الجوانب عرضا لها ، وتقريرا شرحا وتفصيلا ·

ولما أنتهي أمر البشرية إلى خاتم الأنبياء سيد المرسلين سيدنا محمد ﷺ ، برسالته العامة الخالدة الدائمة للإنس وا لجن جميعا ، فقد أنتهي أمر التخصيص ، وباتت سلسلة الأنبياء مكتملة في حلقاتها ، متميزة بالنسبة لكل حلقة منها (٤) ، يقول ﷺ إنما

---

(١) لأن الرسول مبلغ عن الله تعالى ، قائم بشريعة مولاه ، ومن كان هذا شأنه ، فلا بد أنه متوجه بكل أمانيه نحو هذه الغاية ، وهو المقصود بأعلى المراتب، وأكمل الصور والمظاهر ، وأجمل المعاني بجانب أتم المباني ، راجع هذه الفكرة لدى الإمام الشاطبي في الموافقات ، جـ ١و٢ ·

(٢) لأن هذه الجوانب تمثل صورة الحياة في شكلها الإيجابي ، بحيث يقع التشارك والتفاوت بين الجميع ، ويكون الكل تحت هذه الراية على قدم المساواة ، راجع للأستاذ / أنور الجندي : موسوعة العلوم والمناهج ·

(٣) راجع كتابنا : لماذا إنتشر الإسلام ، فسترى ذلك واضحا أثناء الحديث عن العمل اليدوي والمهني ، وكيف كان النبي ﷺ يدفع إليه ، ويشجع على ممارسته ، طالما كان في حدود ما شرع الله ·

(٤) والملاحظ أنها لم تكتمل إلا ببعثة سيدنا محمد ﷺ فهو النبي الخاتم الذي جمع الله في رسالته كل ما في الرسالات السابقة ، بحيث وأوفي عليها من كل ناحية ، راجع كتابنا : لماذا إنتشر الإسلام ، جـ ٢ ، صـ ٥٧

مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأكمله وجمله ، إلا موضع لبنة في زاوية من زواياه ، فصار الناس يتعجبون ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة ، فأنا اللبنه ، وأنا خاتم الأنبياء[١] .

يمكن القول بأن تاريخ تقرير علم العقيدة الإلهية قديم ، قدم الرسالات الإلهية ذاتها ، حيث كان القائمون بأمر الدين من أتباع المرسلين يعرضون هذه العقيدة عرضا يتفق مع إمكانياتهم ، بما يتناسب وقدرات المتلقين لهذه العقيدة ، بل بات أمر تلقي العقيدة قائما في النفوس والعقول على قدر سواء ، غاية ما في الأمر أن الأوائل كانت لهم القدرة على صياغة وسائلهم في إبلاغ هذه العقيدة [٢] .

ثم جاء اللاحقون لهم فلم يكونوا على قدر من التسامح والدقة في التعامل مع الآخر ، عندما يريدون عرض قضاياهم العقدية ، ومن هنا لجأوا إلى إضافة تقريراتهم وشروحاتهم لقضاياهم العقدية، حتى وقع الاختلاط بين ما هو من أصول العقيدة وما هو مضاف إليها ، على أنه من جهود هؤلاء المتابعين لمن سبق ، ثم خلف في كل أمة من بعده متقدميهم خلف ، لم يكونوا على وعي تام بالمهام التي يقومون بها [٣] ، ومن ثم وقعوا في مشكلات عديدة ، أثناء تقريرهم للعقيدة الإلهية - بعضها خلط بين الأجزاء العقدية والتكاليف الشرعية ، وبعض آخر لم تتضح له هوية أو طبيعة بجانب الفضائل والآداب التي يتعرضون لها [٤] ، وبناء عليه ، ظهرت جملة اخلاط جديدة ، نتج عنها وجود أمشاج عديدة من الأفكار والعقائد التي صارت غالبة بين هذه الاتجاهات ، أخذت على عاتقها تقرير العقيدة ، من وجهة نظر محدودة .

---

(١) عقيدة ختم النبوة لسيدنا محمد ﷺ أدلتها كثيرة في الكتاب ، والسنة ، وفيها رسائل جامعية جاءت على سبيل الإستقلال .

(٢) وهذه القدرة الصياغية تمثل صورة أولى من صور تقرير العقيدة ، وتدل في نفس الوقت على التاريخ الذي ظهرت فيه ، من غير ارتباط بشيء آخر .

(٣) ولا شك أن هذه الجهود لم تكن على قدر واحد ، كما لم تنل حظها من الدراسة المتأنية ولذلك وقع الخلط فيها من كل ناحية .

(٤) راجع كتابنا : لماذا إنتشر الإسلام ، جـ ٢ ، صـ ١٨٧ .

غير أن هذه التقريرات للعقيدة الدينية لم تقف عند حد ، كما لم يقتصر أمرها على مجتمع دون غيره ، أو ينحصر دور التقرير على بعض من الأفراد ، وإنما برزت جماعات عديدة كلها تتحدث عن الجانب العقدي ، الذي أطلق عليه تارة أسم علم العقيدة ، وأخرى علم الكلام ، وثالثة علم التوحيد ، ورابعة علم أصول الدين[١] ، إلى غير ذلك من التسميات التي أطلقت من غير اعتبار لشيء آخر .

على أن ما يلفت الأنظار ، هو ظهور بعض الإتجاهات التي تقرر العقيدة الدينية من خلال الفكر اليهودي والسياسي معا [٢] ، بل وضح ذلك لدى الطوائف والمذاهب المسيحية ، حتى أن البعض منهم استعمل في هذا الجانب التقريري لغة المجاز تارة[٣] ، والجدل تارة أخرى ، حتى ظهرت مدارس ذات صبغة جدلية كلامية ، لها ارتباطات مذهبية ، أو تتعلق بالفرق البينوية[٤] ، التي برزت في اشكال مختلفة وصور متباينة .

من المؤكد أيضا أن الفرق والمذاهب التقريرية للعقيدة الإلهية قد سلكت مسالك عديدة ، تعبر كلها عن اتجاهات أصحابها ، بدليل أنها أصطبغت بأرائهم ، وحملت أفكارهم ، حتى خرجوا بها عن معانيها الحقيقية ، وفوائدها العملية - عند التطبيق - إلى دوائر التجسيم تارة ، والتشبيه أخرى ، وإنطلق بها بعض إلي التمثيل أو التعطيل[٥] ، فصنعوا مشكلات لم يكن لها وجود أصلا ، حتى صارت أفكارهم حول هذه العقائد مصدر إضطراب وقلق ، وبات التمسك بهذه الأفكار من عوامل التفرقة بين أفراد الأمة الواحدة ، والتباين

---

(١) راجع كتابنا : المدخل التام لعلم الكلام ، صـ ٤٧ .

(٢) الفكر الديني اليهودي تتمثل أصوله في التوراة والصحف والألواح ، أما الفكر اليهودي السياسي فمصادره : العهد القديم ، ثم التلمود ، والبروتوكولات ، راجع كتابنا : أثر الوثنية في اليهودية ، صـ ٧٣ وما بعدها .

(٣) ومنها مؤلفات عوض سمعان ، والقس أنور جورجي ، وغيرهما ممن اشتغل بهذه الكتابات تحت اسم اللاهوت .

(٤) لمعرفة تفاصيل هذه الفرق ، راجع كتابنا : أثر الوثنية في اليهودية ، وكتابنا حفيف الأفناق بين الملل والنحل والأديان ، صـ ١٧٣ وما بعدها .

(٥) هذه المشكلات ليست وليد عصر بذاته ، وإنما هي قاسم مشترك بين أغلب المتناولين علم العقيدة الإلهية بالتأليف ، دون أن يكون لديهم خبرة كافية أو ثقافة مفيدة .

في المعطى الأدائي ، وكذلك الانفلات من إلزامات التكاليف الشرعية الضرورية ، والتعامل بها صار يمثل لديهم مخالفة شرعية •

من ثم يمكن تقسيم دارسة تاريخ علم العقيدة إلى حقب ، أو جملة من المراحل ، يقع للبعض التقدم بينما يكون من نصيب بعض آخر التوسط ، وكما يكون هناك فريق آخر يطلق عليه أسم المرحلة المتأخره [١] ، وهو ما سوف أشيرإليه •

المرحلة الأولى : وهي التي كان يقوم بها أتباع الأنبياء والمرسلين الذين حملوا الرسالات الإلهية الخاصة ، كالحال مع قوم سيدنا يونس ﷺ [٢] وقوم هود ، وبخاصة عاد الثانية[٣]، بل وقوم شعيب ، لأنهم كانوا يقررون العقيدة الإلهية بما يتناسب مع إمكانياتهم ، ويحقق النتائج المرتبطة بهم[٤]، ولا يمكن إنكار هذه المرحلة، لأن مظاهرها متعددة ، والحديث عنها تدعمة دلائل عديدة كلها تخدمه ، وتوضح صوره •

المرحلة الثانية : وهي التي كان يقوم بها المؤلفون في هذه العقائد ، إذ أنه بعد إنتقال النبي يكثر الحديث حول العقائد التي جاء بها ذات النبي ، بل قد تمتد أوجه الجدل إلى ذات النصوص الدينية ، التي نقلت بخصوص هذه العقائد[٥] ، ثم يعمد هؤلاء إلى وضع صور تقريرية يتم فيها عرض العقائد ثم الدفاع عنها ، ويمكن أن يطلق عليهم أسم جماعة المؤلفين في تقرير علم العقائد من الناحية البحثية الخالصة ، أو الكلامية بالمعنى غير الفني ، لأنه لم يكن له وجود واضح في هذه الآونة ، وتحت ذات المسمى •

من الواضح أن علم الكلام ، أو علم التوحيد بالمعنى الفني المعروف عندنا نحن

---

(١) يمكن متابعة هذه المراحل ذات المؤلفات الكلامية الإسلامية ، بل وما يمكن أن يطلق عليه اسم المؤلفات العقدية لدى أصحاب الديانات الأخرى من باب التجاوز •

(٢) يمكن مراجعة الآيات التي تتحدث عن قصة سيدنا يونس ﷺ وهو ما يعرف بالتفسير الموضوعي ، فمراجعة القصة من جوانبها المختلفة أمر مهم •

(٣) هي غير عادا الأولى ، التي جاء الحديث عنها في قوله تعالى وأنه أهلك عادا الأولى •

(٤) المقصود بالإمكانيات هنا ما يمكن لعقولهم أن تستوعبه ، وتتفهم مراميه ، لأن الله تعالى لا يكلف الناس إلا ما يطيقون •

(٥) راجع للإستاذ الإمام محمد عبده : رسالة التوحيد ، صـ ١٦ / ١٧ ، وكتابنا : المدخل العام لعلم الكلام ، صـ ٧٤ •

المسلمين إنما نشأ في البينة الإسلامية ، ومن ثم ظهرت له أسماء عديدة ، وأكثروا من ذكر تعليل كل تسمية على سبيل الإستقلال ، وهو ما يعرف باسم الدراسة الفنية بالمعنى الدقيق[١] •

المرحلة الثالثة : وهي التي يقوم فيها هؤلاء الأفراد بإعداد جملة من الشروح لذات النصوص التي تركها المؤلفون ، فكأنهم يقومون بعملين في وقت واحد ، لا تنفصل جزئياتهما إلا عند بحث معالم كل منهما ، وهذان العملان هما :

١ - محاولة فهم ماسجله الأقدمون ، ثم إضافة الخيال الخصب في كافة جوانبه إلى ذات النصوص[٢] ، وإضافة كل هذه الأمور إلى بعضها حتى تصير كالخليط الواحد ، وحينئذ لا يظهر أصل من إضافة ، وحينئذ تكون مهمة الكشف عن كل منهما مسألة صعبة •

٢ - تصدير هذه المخلوطات ذات الصبغة الإزدواجية إلى الغير ، على أنها العقائد الدينية ، وهنا تجيء فرق أخرى لها آراء مناهضة لهذه الآراء ، ولا يقع لها قبول ، فتتصدى لذات الأفكار التي سلمت لدى أصحابها ، ويكون تعديلها من خلال الطعن عليها وإثبات بطلانها[٣] ، بحيث ينصرف الناس عنها ، أو تفقد جوانب القبول لها •

من الملاحظ أن تاريخ تقرير العقيدة الدينية داخل البينة الإسلامية بعد سيدنا محمد ﷺ يؤكد أن جملة الخلفاء الراشدين مارسوا هذه المهام علي ناحية جزئية [٤] ،

---

(١) راجع في هذه الجوانب كتابنا : المدخل التام لعلم الكلام : ص ٢٥ / ٧١ ، وكلها محل دراسة بين العلماء •

(٢) هذه المحاولة يقع فيها التفاوت بينهم ، نظرا للإختلاف الثقافي والناتج الفكري ، بجانب الاتجاهات العقلية ، وبناء عليه تكون هي المنطقة التي يقع فيها الإضطراب ، أو تصير المرحلة الهامة في ظهوره•

(٣) وهذا التصدي ليس لكون الأفكار المطروحة فاسدة ، وإنما لأن الذين قالوا بها لم يكونوا على وفاق مع المناهضين لها ، ومن ثم تظهر عمليات التصفية للآخر من خلال تصيد الأخطاء لأفكاره ، ثم تحميلها لوازم لم تصدر عنها •

(٤) وبالتالي فالتأليف في علم تقرير العقيدة الدينية الإسلامية قد ظهرت بواكيره في عهد الصحابة رضي الله عليهم ، وإذا سلمت هذه المقدمة أمكن القول بأن المسألة واجب شرعي ، وإلا ما كان الخلفاء الراشدون قد قاموا بها ، راجع كتابنا : المدخل التام لعلم الكلام أثناء الحديث عن حكم دراسة علم الكلام •

بدليل أن أبا بكر الصديق ﷺ كتب رسالة في الرد على أهل الجدل في القدر ، ويسجل الخليفة العادل عمر بن الخطاب رسالة طويلة في الرد على منكري القضاء والقدر ، ولم يتخلف الإمام على بن أبي طالب عن هذه المسألة ، بدليل أنه ألف في الرد على القدرية الأولى ، والجبرية المقنعة [١] ، وكذلك رد على أصحاب الأثنينية وغيرهم .

وفي نهايات القرن الأول الهجري ، كان الإمام أبو حنيفة ينسج عدة مؤلفات تتعلق بتقرير العقيدة الإلهية ، وهو ما يؤكد القول بأن الأحناف كانوا الأسبق بعد المعتزلة للتأليف في علم العقيدة [٢] ، وأنهم ظلوا فرسان هذا المجال فترة من الزمان ، حتى جاء الماتريدية حاملين هذه الأفكار التقريرية ، ثم أضافوا إليها وفرعوا عنها ، كما حاولوا العودة المتتالية إليها ، من هنا أمكن القول بأن المذهب الحنفي في الفروع كان رجاله الأسرع في وضع قواعد تقريرية بالنسبة للأصول على الناحية التاليفية [٣] .

صحيح ، ظهرت بعض الأصول لدى الخوارج ، والمرجئة ، والقدرية ، بجانب الشيعة الأوائل ، قبل ظهور المذهب الحنفي ، ولكن لم تكن لهم جهود تأليفية متسعة ، وذات نمط محدد ، ومنهج واضح ، وخطة بحث ، كالحال الذي برز لدى الأحناف ، وبالتالي فلا يمكن القول بأنهم - السابقون في الوجود على الأحناف - كانت لهم جهود أكثر وضوحا مما قام به الإمام أبو حنيفة ، ومن سار على دربه من بعده .

في غمرة هذه التساؤلات ، كان رجال المعتزلة الأوائل ،هم أيضا يقررون العقيدة الدينية ، ويتحدثون عن علم تقرير العقيدة ، من خلال رصد الأفكار المعارضة ، والجهود التأويلية ، والنتاجات التي اتخذت طابعا فلسفيا حادا في كثير من الأحيان ، ثم وضع هذه المرصودات في دائرة محددة ، بحيث يتم التعرض لها بالنقد والمناقشة ، وبيان أوجه القصور[٤] .

---

(١) راجع إشارات المرام للعلامة البياضي ، ففيه إشارات متعددة حول هذه المسألة ، وقدعولت عليه في ذكر بعضها ، راجع كتابنا : المدخل التام لعلم الكلام ، صـ ٤٦١ .

(٢) راجع للشيخ / أكمل الدين البابرتي كتاب: شرح الوصية ، ففيه تأكيد على هذه المسألة ، كما أن مؤلفات الإمام أبي حنيفة من الأدلة على أنهم كانوا سابقين إلى علم التأليف .

(٣) لمزيد من التفاصيل ، راجع للدكتور / يحي هاشم فرغل ، نشأة الأراء والمذاهب الكلامية ، وللشيخ محمود عثمان ، المذاهب الكلامية والفرق الإسلامية .

(٤) صحيح أن إنفصال واصل بن عطاء عن مجلس الحسن البصري ، كان في مطالع القرن الثاني الهجري ، لكن هذا الإنفصال ظهرت له آثار شفوية من خلال تكوين مجلس علمي يوازي مجلس الحسن البصري ، أما عملية التأليف فلم تظهر إلا بعد ذلك بكثير .

لقد كان المعتزلة الأوائل صيحة عالية ، جاءت مدوية ، ذات تأثير قوي فعال ، فأيقظت المسلمين من أحلامهم اللذيذة ، ونبهتهم إلى الواقع المؤلم ، حيث ظهرت تيارات معادية للإسلام ، وهي في ذات الوقت تعيش داخل البيئة الإسلامية ، بل ربما كان لأصحابها نصيب من التسميات الإسلامية ، وممارسة بعض الشعائر والتكاليف التشريعية في الجوانب العملية والعبادية[١] ، مع أنهم في الأصل أعداء الإسلام ، خصوم ألداء للمسلمين ٠

إنهم خرجوا من عبادة الإلحاد الرسمية بالتسميات الإسلامية ، ثم دخلوا في أعماق الإلحاد من الناحية الفعلية ، بدليل أنهم لم يتركوا إصلا من أصول الإسلام إلا تناولوه بالتأويل المسرف ، أو حكموا فيه بالتجسيم والتشبيه [٢] وراحوا يبثون هذه الأفكار السلبية داخل المجتمع المسلم بكل ما يملكون ، على أنها تساؤلات مشروعة ، ولم تكن سوى تشكيكات مقصودة ، تنفذ من خلال خطة مرسومة ٠

إنتفض رجال المعتزلة الأوائل في وجه هذه الحملات الشرسة ، كالصقر الذي وجد خصما تسلل إلى مخدعه ، فراحوا يردون هذه الإفتراءات في وجود أصحابها بعقلانية متميزة ، بل أنهم استطاعوا في فترة وجيزة إختزال أفكار الخصوم في جمل قليلة، وعبارات محددة ، ثم تولوا الرد عليها[٣]، ومن ثم كانوا يقررون العقيدة الدينية، أو يؤرخون لعلم تقرير العقيدة على ناحية واضحة ذات منهج تقريري استقرائي نقدي أيضا ٠

وقد أثبت التاريخ الفكري لهم هذه الجهود المتميزة، ومهما أنكرها عليهم خصومهم فمازالت مؤلفاتهم الفكرية تحمل هذه الجوانب التقريرية ، وتعبر عن نضج فكري مبكر

---

(١) لأن مقياس الإيمان في هذه الفترة كان هو ممارسة الشعائر الإسلامية على ناحية علنية ، فمن قام بها أمام الناس حسبوه من أهل الإيمان ، وكان المنافقون ، وأعداء الإسلام الذين يكيدون له يمارسون ذلك على أوسع نطاق ، كما فعل ابن سلول قبل أن ينكشف أمره ، كذلك صنع ابن سبأ قديما ، راجع كتابنا : المدخل التام لعلم الكلام ٠

(٢) والمؤسف له أن البعض مازال يتحدث عن التجسيم والتشبيه ، ويتمسك بهما تحت ذعم نفي التعطيل ، تاركا التنزيه ونفي المثلية ، كأن ذلك لا وجود له ، وقد تناسى هؤلاء أن نواياهم الحسنة لا تكفي في هذا الميدان ، وإنما لا بد من المحافظة الدقيقة على الأصول العامة ٠

(٣) ملامح ذلك واضحة في مؤلفات رجال المعتزلة الأوائل ، كما يمكن تلمس آثارها داخل المؤلفات الإعتزالية اللاحقة ، كما هو موجود في مؤلفات القاضي عبد الجبار ، وبخاصة تنزيه القرآن عن المطاعن ، ومتشابه القرآن ، وأخيرا موسوعة المغني في أبواب التوحيد والعدل ٠

بجانب قدرة إبداعية عند التعامل مع الآخر، مع مراعاة الاعتبارات المختلفة.

أجل ، إن حركة التاريخ الفكري لم تتوقف ، بدليل ظهور العديد من الجماعات ، والفرق والمذاهب التي إنتشرت في بلاد الإسلام ، وغيرها متخذة كلها الدين ميدانا لها سواء بإعتباره أهم الوسائل التي تصل بهم إلى أغراضهم السياسية(١) ، أم بإعتباره وسيلة العلو على الآخرين ، والقفز فوق أكتاف الآمنين ، أو كان ذلك لأغراض علمية وتاريخية وإجتماعية ، المهم أن كل واحد من هؤلاء صارت له جماعة وأتباع ومتابعون ، كلهم يتحدثون في علم العقيدة ، ويجادلون به أو يتجادلون فيه .

بدليل ظهور الإشاعرة الذين كانوا أول أمرهم يقررون العقيدة الإلهية من خلال النصوص النقلية(٢) ، وإذا تعرضوا لها من الناحية العقلية فإنما يكون ذلك في مرحلة لاحقة ، وعلى سبيل التعميم لا على سبيل الأصل ، حتى عرف أمرهم ، بإنهم أصحاب تقديم المنهج النقلي على المنهج العقلي(٣)، والدليل على ذلك مؤلفات أبي الحسن الأشعري نفسه ، وبخاصة الثمرة المرضية ، وكذلك كتابه الأبانه في أصول الديانة بجانب اللمع ، فكلها لا يجد المرء فيها سوى الإستدلال بالنقل الخالي من أية جهود تأوليه عقلية ، إلا في تنظيم الأدلة بجانب توجيه الدليل ، لأن أبا الحسن نفسه كان ميالا لمذهب السلف الصالح، رضوان الله عليهم أجمعين ، وبالتالي ، فكانت مؤلفاته على طريقتهم .

والواضح أن هذا المنهج الأشعري في تقرير العقيدة الإلهية ، قد تغير كثيرا بعد الإمام الأشعري على الناحية الإجرائية التاليفية، بدليل بروز الاتجاه العقلي لدى

---

(١) يعرف هذا باسم الإسلام السياسي تارة ، وباسم أسلمت السياسة تارة أخرى ، وفي العصر الحديث ألحقوا تسميات أخرى ، منها الإسلاموفوبيا ، وغيرها ، ممايدل على أن أقواما عديدة اتخذوا الدين وسيلة الوصول لأغراض سياسية فقط .

(٢) ومؤلفات الإمام أبي الحسن شاهدة على أنهم كانوا أقرب صورة إلى السلف الصالح ، راجع اللمع، والابانه للأشعري ، وتجريد مقالات أبي الحسن للشيخ ابن فورك ، ترى ذلك بوضوح .

(٣) هذا التقديم عند التعامل مع الأدلة ظهر لدي الجويني والرازي ، بجانب الأمدي ، ولكن في أغلب الأحوال تجد العقل له الغلبة ، كالحال مع الغزالي في مؤلفاته الكلامية الخالصة .

الأشاعرة المتأخرين ، وبخاصة الأمدي في أبكار الأفكار ، والبيضاوي في طوالع الأنوار[١] ، وامتد هذا التيار الأشعري حتى هذا اليوم ، حيث تظهر النزعة العقلية في أشكالها المتعددة على الجوانب اللغوية والعقلية •

من اليسير القول ، بأن علم تقرير العقيدة الإلهية ، قد خطا على أيدي الأشاعرة المتأخرين خطوات واسعة ، تمت الموازنه فيها بين الدليل العقلي والنقلي ، وأخيرا أستقر الرأي على الأخذ بهما معا ، وبترجيح طريقة الأشعري فيما يمكن استعمالها فيه ، وغلبة طريقة المتأخرين عند الجدال والمنازعة[٢] ، من باب ضرورة اختيار الوسائل الفعالة والمناهج ذات الصيغ الأستبدالية متى كان ذلك ضروريا •

وفي نفس الإتجاه التقريري ، كان منحى السلفية المتأخرة ، أو دعاة السلفية المتأخرين الذين اعتبروا أنفسهم ممثلين لهذا التيار ، حيث تم أعلان التمسك بالنصوص الواردة ، مع إلتزام الأخذ بظاهرها ، ثم تفويض الأمر في حقيقتها إلى الله تعالى [٣] ، بجانب الأخذ بعين الإعتبار عدم إهدار دورالدلالة اللغوية في معانيها القريبة أو التي لا تحتاج قرينة مرشحة أو مرجحة •

لقد سار ابن الجوزي وابن تيمية وابن القيم و من بعدهم ، مسيرة واضحة المعالم في بعض الأحيان ، غير محددة الأهداف في بعض آخر ، فمثلا شيخ الإسلام ابن تيمية يقرر

---

(١) فالجويني والرازي وغيرهما ، كانوا في أول تناول القضايا المعروضة تظهر أدلتهم النقلية ، ثم بعد ذلك تجيء القدرات العقلية •

(٢) لا يمثل ذلك ارتدادا عن المذهب أو تخليا عن المنهج ، وإنما هو عملية توظيف للإمكانيات بما تمليه الظروف ، وهو أمر واضح في المؤلفات الكلامية الأشعرية ، ومن ينكر هذه النتيجة فله مراجعة النصوص أولا ثم إصدار الحكم ثانيا •

(٣) وهذه الدعوى لم تأخذ طريقها الصحيح ، بدليل أن ابن الجوزي كان يستعمل الدليل العقلي بكل ما وسعه ، وابن تميمة ، بل أن ابن القيم هو الأخر يفعل أكثر منهما ، ومن يراجع لأبن الجوزي أراءه الكلامية في تفسيره زاد المسير يجد ذلك ، ومن يطالع مؤلفات ابن تيميه وبخاصة درء تعارض العقل يواجه هذا الأمر عيانا و أما من يذهب لمؤلفات ابن القيم وبخاصة شفاء العليل واعلام الموقعين ، وشرح أسماء الله الحسنى وغيرها ، فإنه يجد هذه النزعة غالبة عليهم ، ولا يمثل ذلك أي عيب فيهم ، وإنما ذكرت ذلك من باب تقرير الحقيقة حسبما وقفت عليها •

مسائل علم العقيدة على غير مألوف السلف من تفويض الأمر في الحقيقة إلى الله وحده ، بدليل أنه يعرضها على النواحي العقلية الخالصة ، من خلال ألفاظ اعتبرها ذات صاغة دينية ولو وقف هو مع اتجاهه ، لوجد أن النزعة العقلية لها السيطرة [١]، وإن النصوص النقلية كانت لها السيادة الشكلية أو الصورية عنده •

بدليل أننا اذا استعرضنا كتابه مجموع فتاوي ابن تيمية الجزء التاسع ، العاشر ، لوجدناه يسوق قضايا العقيدة في صياغة منطقية عقلية خالصة ، ثم يقتبس من آيات القرآن الكريم والحديث الشريف ، ويجعل ذلك قانما من خلال عملية اختلاطية ، ليس من الصواب الوقوف عليها في سهولة ويسر[٢]، فهو أحيانا كثيرة يعرض المسألة العقدية على الجوانب العقلية المختلفة ، وربما هاجم أدلة سابقيه مع أنه قد يعتنقها أوينتمي إليها •

صحيح كانت ظروف ابن القيم من قلة المطاردة ، و كثرة الإستقرار النفسي ، أحد العوامل الفارقة في فكر الرجلين من الناحية التاليفية ، لأن ابن القيم قد استفاد منها إلى أبعد حد[٣]، بدليل أنه صاغ قضاياه في عبارات مشوبة بالمسحة العقلية في مطالعها ، واقتباساته النقلية متزايدة إلى الحد الذي يجعل الواقف عليها ربما سارع إلى الحكم ، بل والقول ، بأنها قريبة من أتجاهات السلفية الوسطية على مقياس التصنيف •

كما أن ابن القيم استطاع تحريك الظروف المحيطة به ، تحريكا اتسم بالعقلانية ثم استطاع توظيفها لصالحه أثناء عرض أرائه الكلامية ، وتناول مشكلاته المعرفية ، وقد حقق في ذلك العديد من النجاحات المتميزة [٤] بحيث يمكن القول أنه رمم الجدار الذي

---

(١) يمكن تلمس طريقة الشيخ ، على اساس أنه كان يعرضها على المخالفين ، وهو يريد التعامل معهم من خلال ألفاظهم التي يعولون عليها ، ولكن هذه الدفوع إذا ظهرت في مؤلفاته الوعظية فانها لا تظهر في المؤلفات الكلامية أو الأخرى الجدلية •

(٢) ويطلق دعاة السلفية على هذه الطريقة اسم السهل الممتنع ، ولو لم يقولوا ذلك ما نعى عليهم أحد ، ويمكن إلتماس اسباب أخرى للرجل ، بأن الفتاوي تمثل أسئلة وأجوبة ، وهو مضطر للتعامل معها من خلال ظروفها •

(٣) ويمكن للباحث القيام بدراسة أكاديمية حول فكر الرجلين ، تحت عناوين كثيرة منها ، طرائق إثبات العقيدة بين ابن تيمية وابن القيم ، أو النزعة العقلية بين ابن تيمية وابن القيم •

(٤) يرجع ذلك إلى أمور عديدة ، منها الظروف الاستقرارية ، والقدرات العقلية ، والاستفادة من جهود شيخه ابن تيمية بجانب التركيبة الإجتماعية ، وفوق ذلك رغبة الرجل في إيجاد عملية تعويضية تكون بجوار الفكر التيمي تعضده ، أو تدفع الآراء المناهضة له •

أوشك أن ينقض ، ثم أقامه، ولم يطلب عليه إجرا ، ثم أن المؤلفات التي ضمنها آراءه الكلامية من الشواهد القوية على ما ذهب إليه ، كالحال مع شفاء العليل ، ومفتاح دار السعادة ، بجانب إعلام الموقعين ، وغيرها مما حمل آراءه .

ونقلت هذه المؤلفات لكل من القاصي والداني معبرة عن فكر فيه الرقي الأدبي والتحقيق العلمي ، بجانب رصانة أفتقدت لدى غيره ، ومن العجيب أن ابن القيم جعل تقرير العقيدة الإلهية ينساب داخل مؤلفاته المختلفة حتى التي لم تكن عناوينها كلامية، كالحال مع كتابه " اجتماع الجيوش الإسلامية " ، " ومدارج السالكين " [١]، " وزاد المعاد " وغيرها ، مما يؤكد أن الرجل كان يهدف إلى غاية قد وضعها في ذاكرته أولا ، قاصدا الأهداف التي يسعى إليها ، ولم يكن قادرا على إخفائها ، أو التعديل فيها ، وهو أحد ممثلي الاتجاه السلفي المتأخر ، حسب تصنيف الذين يعتبرونه كذلك .

من الملاحظ أن علم تقرير العقيدة إمتد إلى يومنا هذا ، من خلال حزمة ، أو جملة مناهج لم تقتصر على الجوانب النظرية المألوفة ، وإنما تعدتها إلى أخرى عملية وتطبيقية ، بل كان منها جوانب إحصائية ،تجيء كلها في باب إثبات العقيدة الإلهية ، ثم تنسحب على باقي أجزاء العقيدة الإسلامية من كافة النواحي ، وكان الاستاذ وحيد الدين خان من ذوي الاتجاهات التي نحت بالمسألة ناحية لم تكن سائدة ، أو لها سلطان كبير وامتداد واسع عريض[٢] ، حتى وأن كانت لها سابقات أرهاصية ، كالذي ظهر لدى الإمام الفخر الرازي في كتابه " أسراء التنزيل وأنوار التأويل " .

صحيح لم يكن الرازي يقصد بأسرار التنزيل تقرير العقيدة الإلهية بقدر ما كان يهدف إلى بيان الإعجاز القرآني ، ولكن الأهداف التبعية قد تكون لها قيمة الأهداف

---

(١) ومع ان عناوين هذه المؤلفات قد يظن الواقف عليها أنها بعيدة عن القضايا الكلامية ، إلا أن الرجل كان ينقل إليها كل ما يريده ، في أي فرع معرفي ، طالما وجد الفرصة متاحة ، حتى وإن أوقعه ذلك في دائرة التكرار الممل في بعض الأحيان .

(٢) والاستاذ / وحيد الدين بثقافته هذه قد نجح في خوض غمار معارك كثيرة جاءت لصالحه كمفكر مسلم ، ولصالح المسلمين في شبه القارة الهندية ، ثم امتد هذا إلى المسلمين في العالم بعد ترجمة مؤلفاته إلى اللغات الأخرى ، كالإسلام يتحدي،الدين في مواجهة العلم ، وغيرها .

الأصلية ، بخاصة إذا كان صاحبها علم من الأعلام البارزة في الميادين العلمية المختلفة ، كالامام الفخر الرازي أو الإمام أبي حامد الغزالي[١] ، ومن هنا أستطيع القول بأن علم تقرير العقيدة الألهية في العقيدة الإسلامية له تاريخ قديم ينحدر في نفس الوقت بدليل ظهوره قديما ، واستمراره بيننا حتى اليوم .

يقول الإمام " محمد عبده " ، علم تقرير العقائد ، وبيان ما جاء في النبوات ، كان معروفا عند الأمم قبل الإسلام ، ففي كل أمة كان القائمون بأمر الدين يعملون لحفظه وتأييدة ، وكان البيان من أول وسائلهم إلى ذلك ، لكنهم كانوا قلما ينحون في بيانهم نحو الدليل العقلي ، وبناء أرائهم ومعتقداتهم على ما في طبيعة الوجود ، وما يشتمل عليه نظام الكون[٢].

بل كانت منازع العقول في العلم ، ومضارب الدين في الإلزام بالعقائد وتقريبها من مشاعر القلوب على طرفي نقيض [٣]، وكثيرا ما صرح الدين على لسان رؤسائه أنه عدو العقل نتائجه ومقدماته ، فكان جل ما في علم الكلام تأويل وتفسير واهاش بالمعجزات ، أو الهاء بالخيالات ، يعلم ذلك من له إلمام بأحوال الأمم قبل البعثة الإسلامية[٤] .

من المناسب القول بأن تاريخ تقرير العقيدة الإسلامية كان له منهج متميز عن تقريرات العقيدة في الأمم السابقة عن النبوة الخاتمة، لأن المنهج في الأمم السالفة كان

---

(١) الهدف الأصلي يكون استباقيا وبالتالي تظهر له الصدارة ، أما التبعي فيكون لاحقا ، ولكنه قد يساويه في الفائدة ، وربما تجاوزه لما هو معروف في الدرجات العلمية من وجود نتائج لم تكن قصدية أدت إلى إنجازات عالية لم تقم في المقدمات القصدية ، راجع كتابنا : مناهج البحث بين التقليد والتجديد .

(٢) لأن الإتجاه نحو الدليل العقلي فيه إحترام لهذه الملكة التي خلقها الله تعالى ، وطالب الإنسان إحترمها والتمسك بها ، بدليل أن المخاطب في الإنسان عقله بالدرجة الأولى ، وهو في ذات الوقت محل التكليف ، راجع كتابنا : النفكير الإنساني أصوله ومستوياته ، صـ ٢٩٧ .

(٣) يعرف ذلك من له إلمام بكتب العقائد التي كانت سائدة في الأمم التي وجدت قبل الإسلام ، وما العصور الوسطى ببعيدة ، راجع كتابنا : قضايا حبيسة في الفلسفة الحديثة ، صـ ٩٥ ، وكتابنا خواطر حثيثة في الفلسفة الحديثة ، صـ ٤٣٢ ، الطبعة العاشرة .

(٤) الاستاذ / محمد عبدة : رسالة التوحيد ، صـ ٦ / ٧ ، تحقيق الشيخ رشيد رضا ، ط. القاهرة السابعة عشرة

يعتمد على الاستهلاك العشواني للأفكار ، وهو ما يمكن تسميته الإنفجار الإ ستهلاكي الفكري ، لأنه يقدم مسائل العقيدة في مفاهيم غير مقبولة ، ومن خلال صيغ متهالكه تعتمد على الخيال بجانب الإكراه والأجبار ، ولا تسمح بالتأمل والاختيار العقلي .

لقد كانت الأفكار الشعبية التي ترسم عقائدهم الدينية ، ثم تأتي جهودهم العقلية تابعة لها ، بل وتسعى لإقامة علاقات صورية بينها معذ عدم التعرض لما هو مدرج ضمن الثوابت الإسطورية ، ومن ثم كانت تقريراتهم تتسم بالإسطورة والخيال بل قد تبلغ حد الخرافة [١]، وما ذلك إلا لأنهم عاشوا فراغات روحيا من الناحية الوجدانية القلبية ، وإن لم يكن موجودا من الناحية العقلية أو المعرفية ، أو على الأقل يمكن القول بأن علم تقرير العقيدة يرجع إلى تاريخ قديم ، وإن اختلفت الصورة التقريرية التي قامت به .

وكلما كانت النفس صافية ، أمكن لها تقرير العقيدة الإلهية على جانب من الصفاء كما قيل بالإعتبار تظهر الأسرار ، وبتقديم الإختبار يصح الاختيار ، ومن ساء نظره لنفسه قل نصحه لغيره ، وكما تنظف الآنية من وسخ ما جاورها ولابسها ، ووضر ما خالصها ودنسها لتشرب فيها ، وتنظر إليها ، وتستصحبها وتحفظها ، ولتكون غنيا بها ، ولا تريدها إلا طاهرة نقية مجلوة [٢]، فإن تقرير العقيدة لا بد أن تقوم به نفس صافية ، عن الأكدار ، راقية عن التدني وعوامل الإنهيار .

بيد أن مسألة تقرير العقائد الإيمانية أتخذت شكلا محددا ومنهجا واضحا عندما أنزل القرآن الكريم ، إنه منهج واضح المعالم ، محدد الأهداف ، يقول الإمام محمد عبده : جاء القرآن فنهج بالدين منهجا لم يكن عليه ما سبقه من الكتب المقدسة ، منهجا يمكن لأهل الزمن الذي أنزل فيه ، ولمن يأتي من بعدهم أن يقوموا عليه[٣] ، فلم يقصر الإستدلال على نبوة النبي ﷺ بما عهد الإستدلال به على النبوات السابقة[٤]، بل جعل

---

(١) لمزيد من بحث هذه المسألة راجع كتابنا : الجانتينية عقائدها وفلسفتها ، صـ ٢٧٥ ، الطبعة الأولى ، وكتابنا : تأملات غزالية في الفلسفة الشرقية ، صـ ٤١ ، الطبعة الأولى .

(٢) العلامة أبو حيان التوحيدي : المقايسات ، صـ ١١٩ ، المقايسة الأولى تحقيق الدكتور حسن السندوبي ، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ٢٠٠٦ .

(٣) وهذا مما يؤكد أن المنهج الذي جاءت به النصوص الشرعية معياري ، يمكن لكل من سلك هذا المنهج الوصول إلى حقائق ثابتة ، والإنتهاء إلى نتائج قابلة للتطبيق في شتى الجوانب .

(٤) لأنها كانت نبوات خاصة ، وبالتالي فالمناسب لها أن تستدل على ذلك النبي فقط ، أما النبوة الخاتمة فإنها تظل عاملة إلى يوم الدين ، ومن ثم جاءت أدلتها مستوعبة الأزمان والأمكنة بل والخلائق إلى يوم الدين .

الدليل في حال النبي مع نزول الكتاب عليه في شأن من البلاغة يعجز البلغاء عن محاكاته فيه ، ولو في مثل أقصر سورة منه [١].

وقص علينا من صفات الله ما أذن الله لنا ، أو ما أوجب علينا أن تتعلم ، لكن لم يطلب التسليم له ، لمجرد أنه جاء بحكايته ، ولكنه أقام الدعوى ، وبرهن ، وحكى مذاهب المخالفين وكر عليها بالحجة ، وخاطب العقل ، واستنهض الفكر ، وعرض نظام الأكوان ، وما فيها من الأحكام والاتقان على أنظار العقول ، وطالبها بالامعان فيها لتصل بذلك إلى اليقين بصحة ما أعداه ودعا إليه •

حتى أنه في سياق قصص أحوال السابقين ، كان يقرر للخلق سنة لا تتغير ، وقاعدة لا تتبدل ، فقال تعالى ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ [٢]، وصرح بأن ﴿ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ [٣] فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [٤] •

واعتضد بالدليل حتى في باب الأدب ، فقال ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [٥]، وتآخي العقل والدين لأول مرة في كتاب مقدس على لسان نبي مرسل ، بتصريح لا يقبل التأويل [٦]، من ثم يمكن القول بأن تاريخ تقرير العقيدة الإيمانية قديم على النحو الذي سلفت الإشارة إليه ، وقد بان أن تقريره على الناحية التي جاء بها القرآن الكريم هي الأقوم سبيلا ، والأولى بالإعتبار ، بل أنها مدعاة للمتابعة والاقناع ، ففي ذلك لخير لمن يتمكن منه ، وعلى الله قصد السبيل •

---

(١) دليل ذلك ، قوله تعالى ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ سورة البقرة : الآيتان ٢٣ ، ٢٤ •

(٢) سورة الفتح : الآية ٢٣

(٣) سورة الرعد : الآية ١١

(٤) سورة الروم : الآية ٣٠

(٥) سورة فصلت : الآية ٣٤

(٦) الاستاذ الإمام محمد عبده : رسالة التوحيد ، صـ ٨ ، وقد نقلته لك مع ما به من طول نظرا لما فيه فوائد عديدة ، فراجعه تظفر بها •

أهم المصادر والمراجع للفصل الثاني

حسب ورودها بأسفل الصفحات

١ - القرآن الكريم

٢ - مفاتيح الغيب — العلامة الإمام الفخر الرازي .

٣ - الإيمان بالغيب وأثره على الفكر الإسلامي — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي .

٤ - تنوير الأذهان من تفسير روح البيان — الشيخ اسماعيل البروسوس .

٥ - بحرالعلوم — الشيخ على السمرقندي الشيعي .

٦ - صحيح مسلم — الإمام مسلم .

٧ - الخصائص النبوية الكبرى — العلامة جلال الدين السيوطي .

٨ - حصاد الإقتصاد في الإعتقاد ، جـ ٤ — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي .

٩ - السنن الكبرى — الإمام البيهقي .

١٠ - حلية الأولياء وطبقات الإصفياء — العلامة ابو نعيم .

١١ - الجامع لأحكام القرآن — للإمام القرطبي .

١٢ - شرح الأربعين النووية — الشيخ الفشني .

١٣ - مختصر الزبيدي — العلامة الزبيدي .

١٤ - مفتاح دار السعادة — الإمام ابن القيم .

١٥ - الغزاليات في السمعيات — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي .

١٦ - أيسر التفاسير — الشيخ أبو بكر الجزائري .

١٧ - لماذا انتشر الإسلام ؟ — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي .

١٨ - أثر الوثنية في اليهودية — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي .

١٩ - حفيف الأفنان بين الملل والنحل والأديان — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي .

٢٠ - رسالة التوحيد الأستاذ الإمام محمد عبده ٠
٢١ - المدخل التمام لعلم الكلام الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي ٠
٢٢ - إشارات المرام من عبارات الإمام العلامة البياضي ٠
٢٣ - شرح الوصية الشيخ أكمل الدين البابرتي ٠
٢٤ - نشأة الأراء والمذاهب الكلامية الدكتور يحي هاشم فرغل ٠
٢٥ - متشابه القرآن القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني ٠
٢٦ - موسوعة المغني في أبواب التوحيد والعدل القاضي يحي عبد الجبار بن أحمد الهمداني ٠
٢٧ - خواطر حثيثة في الفلسفة الحديثة الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي ٠
٢٨ - قضايا حبيسة في الفلسفة الحديثة الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي ٠
٢٩ - المقايسات العلامة أبو حيان التوحيدي ٠

هذا عدا المصادر والمراجع التي سقطت سهوا ، أو من باب التخفيف على صفحات المصادر ٠



الفصل الثالث
تاريخ العلم
وفلسفة العلم

أولا : تاريخ العلم

ثانيا : تاريخ فلسفة العلم

أولا : تاريخ العلم

المعلوم أننا هنا نتحدث عن تاريخ العلم البشري ، لا عن تاريخ علم الله تعالى ، لأن علم الله تعالى قديم ، وهو صفة من صفاته جل شأنه ، ونحن لا نؤرخ له ، إنما إذا تم بحثه فعلى ناحية إثبات الصفة الإلهية ، وبيان أن هذا العلم الإلهي عام وشامل لا حدود له وسع كل شيء علما ، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء •

أما حديثنا هنا، فعن العلم الإنساني، العلم البشري ، العلم المخلوق ، العلم الحادث، على أية ناحية ، تم الإطلاق أو جاءت التسمية ، فإن المراد به هو العلم الذي يتداوله الناس ، وبه يتعاملون فيما بينهم ، كما لا نؤرخ للعلم والمعرفة النقلية التي تجيء من عند الله تعالى على السنة الرسل والأنبياء رضوان الله عليهم أجمعين ، إلا في حدود ما ترتبط به المعرفة أو العلوم الإنسانية بإعتبارها متولدة عن بعضها ، او هي وليدة لأرشاداتها في إحدى صورها ، من ثم فسأحاول تناول تاريخ العلم من هذين الجانبين :

الأول : العلم النقلي النظري

هو الذي جاء به الأنبياء والمرسلين في الكتب التي أنزلها الله عليهم ، والمفاهيم التي ألهمها الله قلوب الأنبياء وعقول المرسلين ، ولها تعلق بأنظمة الحياة اليومية من مطعم ومشرب ، وتعاملات إلزامية لا تخلوا منها التعاملات اليومية ، بجانب ما له إرتباط تأثيري في المهن والحرف ، مع الكثير من الوسائل المتعلقة بالصناعة في مراحلها الأولى والتجارة ، وكذلك التعاملات التي تجيء في ميدان المعارضة ، ولنبدا من النقطة الأولى :

١ - اللغة (١)

هي الوسيلة التخاطبية والتعبيرية القائمة في جملة من الأصوات والحروف والكلمات المكتوبة، ذات الدلالة المفهومة التي يستخدمها كل قوم في تعاملاتهم ، وتحقيق أغراضهم(٢)، وهذه اللغة قديمة لأنها مما علمه الله تعالى آدم عليه السلام في قوله تعالى وعلم

---

(١) يلاحظ أن مادة الكلمة في معاجم العربية هي ل غ ت ، وتجيء تابعة لمادة لغو ، لأنها دالة على اختلاف الحروف والكلمات من حيث أنها لا تكون جميعا مركبة من حرف واحد ذي نسق بعينه ، وبالتالي تشترك لغت مع لغو في هذا المنطوق اللغوي •

(٢) هذا التعريف هو الذي وضعته للغة ، وأراه ينطبق عليها من غير احتياج لشيء آخر •

آدم الأسماء كلها ، والمفردات اللغوية في أصولها الأولى من جملة العلم النقلي الذي علمه الله تعالى لآدم عليه السلام ، ومن ثم فيمكن القول بأن أصول اللغات نقلية ، أو هي توقيفية ، وذهب آخرون إلى أنها إصطلاحية ، وذهب فريق ثالث إلى أن بعضها نقلي والآخر أصلاحي ٠

قال السيوطي عرف أبن جني اللغة بأنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم [١]، وذهب ابن فارس [٢] إلى أن لغة العرب توقيفية من عند الله تعالى مستدلا عليه بقوله تعالى وعلم آدم الأسماء كلها ، فكان ابن عباس رضي الله عنه يقول علمه الأسماء كلها وهي هذه الأسماء التي يتعارفها الناس ، من دابة وأرض ، سهل وجبل ، جمل وحمار ، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها ، وأحتجوا لذلك بوجوه :

أحدها قوله تعالى وعلم آدم الأسماء كلها ، فالأسماء كلها معلمة من عند الله بالنص ، وكذا الأفعال والحروف لعدم القائل بالفصل ، ولأن الأفعال والحروف أيضا أسماء ، لأن الأسم ما كان علامة، والتمييز من تصرف النحاة لا من اللغة ، ولأن التكلم بالأسماء وحدها متعذرة [٣].

ثانيهما قوله تعالى ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم ﴾ [٤]، فقد ذم الله تعالى قوما في إطلاقهم أسماء غير توقيفية ، وذلك يقتضي كون الأسماء التي أنزلها الله تعالى ، أو التي لم تقع تسميتها من أبائهم توقيفية ٠

ثالثها قوله تعالى في سورة الروم ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾ [٥]، ولا شك أن الإختلاف ليس وارد في لحمة اللسان ، وبالتالي فهو ليس مرادا، إنما المراد اللغات واللهجات التي تترتب عليها.

---

(١) العلامة السيوطي : المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، جـ ١ ، صـ ٧ ، ط. دار التراث ، تحقيق الأساتذة محمد أحمد جاد ، محمد أبو الفضل ، على محمد البجاوي ٠

(٢) هو العلامة أبو الحسين أحمد بن فارس ، صاحب التصانيف المفيدة ، منها فقه اللغة ٠

(٣) الإمام السيوطي : المزهر في علوم اللغة ، جـ ١ ، صـ ١٧ ٠

(٤) سورة النجم الآية : ٢٣

(٥) سورة الروم : الأية ٢٢ ٠

رابعها وهو ـ دليل عقلي ـ لو كانت اللغات إصطلاحية لا حتيج في التخاطب بوصفها إلى إصطلاح آخر من لغة أو كتابة ، ويعود إليه الكلام ، ويلزم إما الدور أو التسلسل في الأوضاع ، وهو محال ، فلا بد من الإنتهاءِ إلى التوقيف [١] ٠

ولما كانت هذه اللغة بهذا الاعتبار ، فقد دل الأمر على أن تاريخ اللغة قديم ، ويبدأ منذ وجد الإنسان الأول ، لأنها وسيلته في التخاطب والمشافهة والتعبير ، ويعلل الكيا الهراس كون اللغة قديمة بإحتياج الإنسان إليها ، فيقول إن الإنسان لما لم يكن مكتفيا بنفسه في معاشه ، ومقيمات معاشه ، لم يكن له بد من أن يسترفد المعاونة من غيره [٢]، ولهذا اتخذ الناس المدن ليجتمعوا ويتعاونوا [٣]، وهذا الإجتماع والتعاون لا بد فيه من وسيلة يتم التفاهم بينهم من خلالها ، وهذه الوسيلة هي اللغة ، ولذا كانت أسبق العلوم ، بل هي أقدم العلوم كلها ٠

صحيح ، قد تتفق مع الرأي القائل بأن أصل اللغة توقيفية عن طريق الوحي الألهي ، لكنا نقرر أن الذي زاد على هذه الأصول اللغوية من الاصطلاحات الاستحداثية مما لا يمكن إنكارها ، بل من الصواب القول بأنها زيادات قد أضيفت إلى الأصول ، أو ارتبطت بها ، ثم صارت من جنسها [٤]، كما أن عمليات النحت اللفظي والنقل اللغوي ، بجانب كل من الاشتقاق والتركيب ، إذا إضيفت إلى الأصول النقلية ، فمن المؤكد القول أنها جميعا تتمثل فيها اللغة ، وما تزال الإضافات المتوالية قائمة إلى يومنا هذا [٥].

---

(١) العلامة السيوطي : المزهر في علوم اللغة ، جـ ١ ، صـ ١٨ ، ولمزيد من الفائدة ، راجع ذات الكتاب بنفس الجزء حتى صـ ٣٢ ، لتعرف الآراء المطروحة في المسألة على ناحية تفصيلية ٠

(٢) استرفاد المعاونة ، يعني طلبها على وجه دقيق ، حيث يقال : رفد كذا معناها دعمه به ، واسترفده طلبه عطاءه ، راجع للويس المعلوف : قطر المحيط ، باب الراء ، صـ ٣٧٥ ، والمعجم الوجيز ، باب الراء ، صـ ٢٧٠ ٠

(٣) العلامة السيوطي : المزهر في علوم اللغة ، جـ ١ ، صـ ١٩ ، وللشيخ نجيب صبري : الفكر الإنساني وعناصره الاجتماعية ٠

(٤) يؤكد هذا ما نراه اليوم من وجود علاقات متواصلة بين اللغة الأصلية والإضافات التي طرأت عليها ، وهذه العلاقة تدرس من خلال مظاهر عديدة في الوقت الحاضر ٠

(٥) ومن ينكر هذه المسائل الدقيقة ، فليس من الصواب التعامل معه . على أنه واحد من ذوي العقول السليمة ، لأنه بمثابة من ينكر الأمور البديهية ٠

بدليل ظهور أسماء عديدة تتواءم مع المستجدات العلمية ، والمنتجات الصناعية ، وغيرها ، كالثلاجة ، والبوتاجاز ، والانترنت ، والهاتف ، والهندسة الوراثية ، والجينات ، إلى غير ذلك مما يحتاج إلى مصنفات عديدة حتى تذكره على سبيل الاستقلال •

٢ - العقل النابه - القوي الإدراكية

اللغة لا تنقل العلوم بذاتها ، لأن حركتها ليست ذاتية ، إنها متحركة من داخلها ، متى تم التعامل معها - في حدود بعينها - من حيث انها لا تنتقل من الأفواه إلى الآذان ، أو من الألسنة إلى المدركات العقلية وحدها - وإنما يحملها من فم المتحدث إلى اذن المستمع وعقله، مادة جديدة ذات صور حركية هي سرعة الصوت ، أما لماذا ؟ فلأن اللغة ألفاظ تتمثل في أعراض نطقية سيالة تنتهي بمجرد النطق بها [١]، ولا يبقي سوى آثارها ، وبالتالي فهي بحاجة إلى ناقل لها ، يتحرك بها في الإتجاهات المختلفة ، وهذا الناقل هو الصوت المعبر عنها ، ومن ثم قالوا أن لهذا الصوت سرعة ، أمكن قياسها ، بل والوقوف عليها من خلال موجات طولية وعرضية ، وأخرى قصيرة أو متوسطة •

على أن عملية نقل الحروف والكلمات على الجانب اللغوي وتحويلها إلي مادة صوتية، تحتاج الناطق لها ، ولا بد أن يكون عاقلا ، لأن الذي يقوم بعملية النقل من الحروف إلى المادة الصوتية [٢]، لا يكفي أن يكون عاقلا فقط ، وإنما لا بد مع ذلك من علم ولو نسبيا ، أو محدود يمكنه من الخوض في الدلالة المنطوقة ، حتى يكون فاهما لما ينقل ، فلا يقلب الحروف ، ولا يقدم بعضها على بعض ، إلا من خلال الأصول العامة التي تحكمها قواعد ثابتة في أصول اللغة ، أو علم فقه اللغة [٣] •

---

(١) راجع هذه التعاريف المتنوعة في المؤلفات الكلامية والمنطقية عند مفكري المسلمين ، ففي ذلك بيان واضح وحجه ما تزال دفوعها قائمة ، بل وأسانيدها قوية •

(٢) فإذا لم يكن عاقلا ، أو سليم الحواس ، لم يكن قادرا على ممارسة هذه المهام الدقيقة ، راجع كتابنا : التفكير الإنساني أصوله ومستوياته ، صـ ٣٧١ •

(٣) في الوقت الراهن ، صار كل منهما علما مستقلا ، له أصوله التي يعرف بها ، وقواعده التي يظهر من خلالها ، بل صارت كلها في الكليات العلمية أقسام تحمل كل منهما وحدة ، أوهما معا •

بيد أنه لما كانت اللغة المنقولة في أصوات تحتاج إلى المتلقي الذي يأخذها ويقوم بتوظيفها ، فلا بد أن يكون هذا المتلقي لها فاهما ، لما يلقي إليه ، عارفا به ، قادرا على توظيفه ، بحيث يحدد الأهداف والمعايير القائمة داخل الأصول التوقيفية بجانب المفردات او الأصول التبعية[١]، ومن ثم تحتاج اللغة إلى طرفين ، هما الناقل المتلفظ ، والمنقول اليه المتلقي ، بل يمكن القول بأن العناصر صارت بعد ذلك متعددة في :

أ ـ اللغة : التي تتمثل في المفردات من الحروف والكلمات [٢]، أو باعتبارها الصوري والمادي ، والتراكيبي أيضا ٠

ب ـ الأصوات : هي التي تحمل فيها المفردات والكلمات [٣]، من خلال مادة صوتية يمكن استقبالها والتعامل معها ٠

جـ ـ المتكلم : وهو الذي يمكنه معرفة المفردات ، ثم يقوم بتحويلها إلى مادة صوتية مفهومة [٤]، ولا بد أن يكون عالما قادرا على نطقها والاستفادة منها ٠

د ـ المتلقي المستقبل : ولا بد فيه من سمع صحيح ، ويمكن أن يكون نسبيا ، لأنه الذي تنقل إليه الألفاظ من خلال المادة الصوتية ، وأن يكون فاهما لما يلقى إليه ، وهو ما يعرف بوحدة اللغة بين المتكلم والسامع ، وأن تكون هذه الألفاظ المنقولة واضحة المعاني في ذهنه ، محددة الأهداف ، بحيث لا تكون دلالتها من المشتركات اللفظية ، وإلا فإن توظيفه لها لن يكون على وجه صحيح ، ولذا فإن الألفاظ المشتركة في الدلالة تحتاج إلي قيد التخصيص الاستعمالي ، وهو ضرورة محورية [٥]، تدور في لغة الحوار ، كما تدور في لغة التحاور والتأليف ٠

---

(١) التوفيقية : هي التي تجيء من عند الله تعالى ، أما الأصول التبعية : فهي التي تتعلق بالإضافات على ناحية من النواحي ، أو من خلال إضافة من الإضافات ٠

(٢) هذه المسألة وقع الحسم لها من زمن بعيد ، على أساس أن المفردات اللغوية هي أثواب المعاني ، وحيث لا توجد لغة ، فلا يمكن التعرف على المعاني ٠

(٣) المادة الصوتية صارت لها دراسات مستقلة عرفت باسم علم الأصوات ، الذي صار هو الآخر له قواعد ومناهج بجانب الغايات والنتائج ٠

(٤) على أساس أن كلا من لغة الإشارة ، ولغة العبارة ، يمكن أن تقع لها عملية التلاقي في صورة من الصور ، وهذا مما يعطي المتكلم متسعا أكبر ٠

(٥) راجع كتابنا / التفكير الإنساني أصوله ومستوياته ، صـ ٢٤٥ ٠

هـ - الاستعمال الدلالي : وهو الصورة التي تجيء عليها الحروف والكلمات من الناحية الترتيبية ، الإنتقائية ، الاستقامية ، كالحال في لفظ " محمد " مثلا ، فإنه متى استعمل في حروفه المرتبة على الطريقة المنطوق بها ، فهم أنه العلم الدال على شخص بعينه[١]، وأما إذا قلبت في صورته هكذا " دمحم " فإن هذا القلب الحرفي الصوري ، جعل اللفظة غير مفيدة ، وبالتالي سقط استعمالها ، وصارت من الألفاظ المهملة[٢]، لما هو معروف من أن اللفظ المستعمل هو الذي يفيد فائدة يمكن الاستفادة منها ، لكل من السامع والمتكلم إما إذا لم يفد ، فإنه يكون لفظا مهملا •

يدل على ذلك أن النحاة ابتدأوا كتاباتهم في علم النحو بقولهم كلامنا لفظ مفيد[٣]، ثم قسموا هذا اللفظ المفيد إلى إسم ، وفعل ، وحرف ، والمناطقة هم الآخرون ذكروا أن اللفظ المفيد هو الذي يحسن استعماله [٤]، فذا لم يكن مفيدا فلا يكون له إعتبار مقبول من الناحية الاصطلاحية عندهم •

ومن ثم ، فلا بد من وجود القوى العقلية الإدراكية وسلامتها في كل من الناقل - المتلفظ - والمنقول إليه السامع ، لإنه إذ لم توجد هذه القوى العقلية الإدراكية السليمة في الناقل للألفاظ ، فإن عملية النقل تنعدم ، بل لا يكون هناك لغة منطوقة أصلا ، وإذا لم توجد في المتلقي فلن تقع بها استفادة على ناحية من النواحي ، أو وجه من الوجوه [٥]، بل أرى أن العملية الإدراكية ضرورة تسبق الكتابة ورسم الحروف ، لإن الإدراك السليم يمكنه جعل غير الناطق قادر عن التعبير عن ما يريد من خلال إشارة متفق عليها ، أو حركة يمكن أن يتواضع المتعاملون معها بشأنها •

---

(١) وهذه المسألة تتعلق بدلالة الكلمة على المعنى من خلال الصورة التي يتم التعامل معها من خلالها ، وليس ذلك براجع إلى أمر آخر بعيد عن ذات المعنى •

(٢) اللفظ المهمل هو الذي لا يؤدي إلى فائدة بالنسبة للسامع مع المتكلم ، ومن ثم فإهماله لكونه غير مفيد ، وعدم إفادته قد ترجع لعدم إنضباطه من الناحية الترتيبية ، أو التركيبية ، على ما هو مدون في المؤلفات التي تعني بهذا الجانب •

(٣) قال العلامة ابن مالك في ألفيته : كلامنا لفظ مفيد كاستقم واسم وفعل ثم حرف الكلم •

(٤) راجع كتابنا : الغزاليات في منطق التصورات ، ص ١٧١ •

(٥) فوحدة اللغه عليها عامل يتعلق به أمر قبول الفكرة من عدمها على كافة النواحي •

لكن القوى الإدراكية السليمة ، يجب أن تكون هى الآخرى متكاملة ، حيث أنها التي تتلاقى فيها المعارف والاستعدادات ، أو الملكات والإمكانيات ، حتى تكون هي المدخر لها ، إو على الأقل تصير هي المساحة التي تتقارب فيها المفاهيم والمعارف ، وتتلاقى داخلها المعاني والحروف والكلمات ، وهو ما يمكن أن نطلق عليه اسم " قاعدة التلاقي البياناتي مع الملكاتي " [١]، أما لماذا ؟

فإن البيانات هي المعارف السابقة التي يمكن الاستفادة بها ، أو توظيفها عند الإستعامل اللغوي ، فتكون الجمل محددة الأهداف ، قائمة داخل موضوع بعينه ، بعيدة عن الغموض والشطح ، ذات وحدة هدفية لا تخرج عنها ، متفق بشأنها ، ثم تأتي الملكات ، وهي هبات من الله تعالى قائمة بالعقل ، توجه من خلال قدرات كامنة في الخلايا المخية تعرف بأسم " البؤر " [٢]، وكلما كانت الملكات البؤرية سليمة كانت قدرتها على توظيف أرصدتها واكتساب الجديد قوية ، وإذا حدث خلل بؤري أدى إلى تضاؤل الناتج في البذل والاستقبال، وهي مسألة توشك الدوائر العلمية أن تجتمع عليها ، وتعتبرها قاعدة ثابتة ٠

٣ - العوائق والمشكلات

الإنسان مدنى ، هكذا خلقه الله تعالى ، فهو ميال إلى الدعة والراحة ، مقبل على اكتشاف ما يحيط به ، فإذا وجد ما يمنعه من الراحة أعتبره عائقا عنها ، وإذا ظهر ما يحول بينه ومعرفة مايحيط به ، نظر إليه على أنه مشكلة قائمة ، فإذا كانت هذه المعوقات المنعية عن بلوغه راحته بسيطة ، قفز فوقها وتخطاها دون عناء[٣]، أما إذا كانت مركبة ، فإنه ينظر إليها نظرة مختلفة من جهات عديدة ، ولا يفعل ذلك إلا أصحاب القوى الإدراكية السليمة ٠

---

(١) هذا الإطلاق أراه ممكنا على ما هو قائم ، من وجهة نظري ، ويتفق مع المباديء العامة والمعايير الكلية ، ومن لديه دليل أفضل ، فله أن يفيدني به ٠

(٢) راجع كتابنا : التفكير الإنساني أصوله ومستوياته ، صـ ٢٧٨ ، وكتابنا : نظرية المعرفة عند ابن رشد ، صـ ٩٧ ٠

(٣) راجع كتابنا : التفكير الإنساني أصوله ومستوياته ، صـ ٢٤٤ ، وكتابنا : حلف الفضول عند العرب وأثرة في العصر الحديث ، صـ ٩٣ ٠

ثم أن وجود الإنسان على هذه الخلقة ، أظهر جوانب النقص والتحدي داخل ملكات الإنسان البؤرية [١]، وبناء عليها ، لم ينظر إلى العوائق والحوائل على أنها مشكلات لا حدود لها ، وإنما اعتبرها محددة وعليه تجاوز هذه الحدود لمعرفة ما يختبيء خلفها، وهذا ما صاحب للإنسان منذ خلقته الأولى ، لأن الله تعالى خلق الإنسان والدواب ، بل كل شيء من زوجيه تقع في بعضها عمليات بيولوجية ظاهرة ، كالإنسان والحيوان[٢]، وفي بعضها بيولوجية غير ظاهرة ، كالنبات ، وفي بعضها الآخير زوجية تكاملية من خلال صور تماثلية كالأرض والسماء ، والليل والنهار ، بحيث أذا ذكر أحدها طرأ الثاني على الذهن مباشرة ، يدل على ذلك قوله تعالى ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[٣].

ولما كانت العوائق التي تحول بين الإنسان وسعادته ، تمثل حجر الزاوية في المشكلات الحياتية ، فقد سعى هذا الإنسان لإيجاد حلول لها ، كما حاول تغيير اتجاهاتها ، وهو ما يعرف باسم تقديم الحلول الممكنة للمشكلات القائمة [٤]، ونظرا لكون هذه العوائق متعددة الصور والمظاهر ، فمن الواجب اتخاذ التدابير المناسبة لها ، وهو ما يعرف باسم التدابير النوعية للعوائق والمشكلات الالجائية ، ومن ثم كثرت الحيل بكثرة المشكلات ، وصارت الحاجة أم الاختراع في كل الحلول المقترحة .

بيد أن الإنسان قد خلقة الله تعالى ، وجعل له قدرات عقلية ذات نطاق واضح محدد ، وأعانه على استخدام هذه القدرات العقلية ، ويسر له أسباب الاستخدام من كافة النواحي التي يرنو إليها ذات الإنسان [٥]، بحيث تنسب إليه ، ويحاسب عليها ، ومنحه

---

(١) راجع للدكتور فاروق حسن عدلي : الفروق الفردية والمشكلات الجوهرية ، صـ ١٣٤ ، وراجع للدكتور احمد سيد أحمد : القدرات العقلية ، صـ ٢١٣ .

(٢) وعمليات التناسل بينهما ظاهرة من النواحي المختلفة ، وهو ما يعنى إمكانية تطبيق الجوانب الإحيائية في الكائنات الحية ، ومنها الإنسان والحيوان ، بجانب التطورات التي لا حقتها وصارت قائمة فيها إلى أبعد مدى .

(٣) سورة الذاريات : الآية ٤٩ .

(٤) راجع للدكتور خيري محمد صابر : المشكلات العامة والحلول ، صـ ٨٤ ، وراجع كتابنا : الحثيث في المنطق الحديث ، صـ ٢٩٥ .

(٥) راجع كتابنا : التفكير الإنساني أصوله ومستوياته ، صـ ٣٢٢ ، ففي هذه المسألة تظهر مشكلات تحتاج التغلب عليها ، ولا بد من القيام له في كافة المظاهر .

قدرات متزايدة ، بها يمكنه إجتياز المشكلات وتحويلها إلى أسباب تبعية ، وأصلية ، حينئذ تكون نتائج أولية ، ومقدمات بعدية ، تتحقق معها منافع أو مخاوف ارتباطية ، من غير النظر إلى ما فيها من قبلية أو بعدية[١] ٠

من الواضح أن الإنسان في بحثه عن الحلول يواجه صعوبات عديدة ، ومن ثم فمن ألطاف الله تعالى أنه بعث الأنبياء والمرسلين ، حتى يعلموا الناس طرائق المنافع فيهرعوا إليها ، منافذ الشيطان حتى يغلقوها ويهربوا منها ، بدليل أن الأنبياء والمرسلين علموا من بعثوا فيهم كيفية إدراك المنافع وتوظيفها على الوجه اللائق ، بجانب تصويرها في صور إيجابية انتقائية ذات ارتباطات تواردية تصلح بها العيوب[٢]، وتغطي الإحتياجات ، كما تتحقق معها جملة من المصالح متعددة الجوانب ، متنوعة الأهداف ، ولعل هذه المسائل من وجوه حاجة البشر إلى الرسالة ٠

ولا يبعد عن ذي بال ، أن العوائق حول بلوغ هذه السعادة قد تكون نسبية ، بعضها نفسي عملي ، وبعضها عقلي شرعي ، وبعض آخر قمعي يرتبط بسلوكيات ذات طبيعة غير مقنعة ولا مألوفة [٣]، وبعضها منعي بغرض تحديد شهوات النفس وتهذيبها ، ثم محالة التغلب عليها ، والظفر بها على الوجه الأمثل ٠

لقد ضرب الأنبياء الأمثال للناس في مناهج عملية، وصور تجريبية تدريبية ، ومظاهر تطبيقية عملية ، نقلتهم عند استعمالها من دوائر الشك والقلق إلي اليقين والطمأنينة ، وجعلتهم يجتازون المشكلات في مظاهرها المتعددة ، وصورها الترابطية ، حيث قدموا لهم النماذج المتكررة ومعها الحلول المتعددة [٤]، ولولا ما جاء به الأنبياء والمرسلون لوقف الناس حيارى لا يتقدمون للإمام خطو واحدة ، إلا تراجعوا إلى الخلف خطوات ، وإلا فمن الذي دل الإنسان على مافي أغذيته من منافع بحيث يقترب منها ويتمسك بها ، وما

---

(١) فكرتا القبلية والبعدية ، لها إرتباطات عديدة ، ومن ثم فلا يمكن النظر إلي كل منهما على ناحية بعينها ، وإلا فإن النتائج تكون سلبية على كافة النواحي ٠

(٢) راجع كتابنا : مناهج البحث بين التقليد والتجديد ، صـ ١٧٤ ٠

(٣) فكرتا المنع والقمع ، لهما اتجاهات عديدة ، تبدو في الإخلاق والقانون والسلوكيات ٠

(٤) حيث كان الانبياء والمرسلون هم الذين يمارسون هذه العملية من الناحية الدينية الشرعية ٠

بها من مضار حتى ينصرف عنها ولا يقترب منها [١]، ولو أن الأنبياء لم ينقلوا هذه المفاهيم لأممهم ما نجت الأمم أبدا من هذه المشكلات ، بل ولكانوا ضحايا التجارب التي لا تنتهي والعلم الذي لا يفيد ٠

٤ - التطورات المتلاحقة

العلم النقلي يضع الأصول ، ويوضح الأسس التي تقوم عليها النهضة وترتفع فوقها الحضارة ، كما يرسم الغايات ، ثم يحدد الأهداف ، كل ذلك يتم بصورة تنظيمية ، ثم تأتي إشارات نقلية أيضا ، ذات أبعاد دلالية مهمتها دفع العقل البشري إلى متابعة التأمل في المقدمات التي سبق الوصول إليها ، ثم محاولته إحداث العديد من الصور التطورية في ذات الأصول ، وهو ما يعرف بإسم البناء فوق النتائج الاستبقانية[٢].

يدل على ذلك ما قام به نبي الله نوح عليه السلام من صنع الفلك ، ونبي الله داود عليه السلام من صنع الدروع وغيرها ، وتوجيه نبي الله سليمان عليه السلام للجن حتى يعملوا له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات [٣]، ثم تطورت هذه البذور النهوضية في المجالات الصناعية ذات الارتباطات الحضارية إلى ما نشاهده اليوم ، ولولا العلم النقلي الذي جاءنا به المرسلون من عند الله التعالى ما أظهرت هذه العمليات التطورية أبدا ٠

لقد شاءت إرادة الله تعالى أن يكون الأنبياء والمرسلون هم الذين تقوم عليهم عملية إصلاح الكون ، لأنهم لم يكونوا مجرد نقلة نصوص إلهيه فقط ، وإنما كانوا القدوة الحسنة في كل ما من شأنه الإصلاح الكون في كافة جوانبة ، وبناء عليه هيأهم الله تعالى واستخلصهم ليكونوا قادرين على هذه المهام من الناحية التكليفية العملية والنظرية

---

(١) راجع كتابنا:الغزاليات في النبوات، صـ٣٤٣ وما بعدها ففيها الحديث عن حاجة البشر للرسالة ٠

(٢) فكرة الاستبقانية غير فكرة الاستباقية ، وكل منهما لها ظروفها وأسبابها ونتائجها وميدانها ، ومن ثم ظل كل منهما غير الأخرى ٠

(٣) قال تعالي ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ﴾ سورة سبأ : الآية ١٣

معا[١]، وبخاصة أن البشرية لم تكن لها معارف سابقة ، كما أن العقول لم تكن قادرة على إيجاد علوم ذات صيغ دلالية ، إو اتجاهات استبقانية، من ثم كانت إلهامات الله تعالى للأنبياء في هذه العلوم والمعارف من الناحية الابتدائية كمرحلة أولى ، ثم تليها مرحلة التطورات المتلاحقة في صور بينية تقوم عليها باقي العمليات التي يمكن تسميتها بالعمليات القفزية والتطورية ، أو هما معا [٢]٠

ما من شك في أن العلم النقلي الذي جاء به الأنبياء والمرسلون عن الله تعالى ، استطاع كل من أخذه يتقدم به ، او يثبت عليه ، ومن تقدم به وأضاف إلى الأصول ما يتعلق بالإشارات ، وقام على رصد الآثار المترتبة ، أمكن له أن يضع لبنة في البناء المعرفي من الناحية التي تحقق مزيد من المصالح [٣]، وتفيد في العديد من النواحي ، بل وتضع أقدام المعرفة المستجدة فوق أرض معرفية قوية ، يدل ذلك علي ما نشاهده الآن في كافة مظاهر الحياة وصورها من الناحية الانمائية المنضبطة ٠

من ثم فإن هذه التطورات المتلاحقة إذا استمر أمرها في الإلتزام بما جاء من عند الله تعالى ، فإنها تقدم المزيد المضطرد ، وستظل كذلك دون انقطاع أو حدوث خلل[٤]، أما إذا وقف حالها عند ما جاءت به قرائح ذوي الإتجاهات المتباينة ، والأمشاج المضطربة ، فلا يبقى فيها سوى الأثر الخافت ، وتقع لها عمليات الكر والفر أو الإضطراب التبادلي ، وهو ما نشاهد آثاره في كثير من أحوال العالم المعاصر ٠

الثاني : العلم التطبيقي

وهو الذي يقوم على قدرات العقول في الإكتساب المعرفي المتوالي في كل من المعارف المتحصلة عن طريق العلم النقلي ، والآخرى القائمة في الحدس والإلهام ، ثم يزيد عليها

---

(١) علاقة الاستخلاص بالاصطفاء تتمثل في مظهر له صورتان متكاملتان ، فالاستخلاص يمثل حركة العبد أمام ربه حتى يتخلص من ذنوبه جميعها ، أما الإصطفاء فهو مقابلة الله تعالى لإستخلاص العبد نفسه ، فينعم عليه الله بإصطفائه وإختياره إياه ٠

(٢) القفزية تعبر عن موقف علمي محدد ، وضع أصولا ثابتة كمرحلة أولى ، ثم انطلق منها ، أما التطورية فهي التي تبني أصولا ثم تسعى لإستثمارها على الدوام ٠

(٣) راجع كتابنا:الغزاليات في السمعيات ، صـ ١٣١ / ١٤١ ٠

(٤) لإن الإلتزام بما شرع الله يوفر للناس كافة السبل التي تحقق لهم السعادة الكاملة ٠

ما هو ممكن ، أو متاح ، عن طريق القدرة العقلية ، على أساس أن المعارف الكسبية قاسم مشترك بين الجميع ، المهم أن تكون ذات صلة وثيقة بالواقع المعاشي ، ويمكن الاستفادة بها [١]، لأن العلم الذي يحقق المصالح ، ويدرأ المفاسد هو الذي يمكن قبوله ، سواء أكان قيامه بذلك جزئيا أو كليا ، أما لماذا ؟

فلآن تحقيق المصلحة من أغراض الشريعة الإلهية ودرء المفسدة أيضا هو من أغراض هذه الشريعة الألهية أيضا ، ومتى تحقق وقوع أحدهما كان الثاني متحصلا فيه من باب أولى [٢]، فمثلا، إنتاج أدوية ذات فاعلية مؤثرة في حماية الكبد من الأمراض التي يمكن أن تهاجمه حتى تكون قادرة على دفعها ثم تحصن الجسم منها وتقضي عليها فيها تحقيق مصلحة، وهي في ذات الوقت فيها درء مفسدة [٣]، لأنها حين تصون الكبد عن الوقوع فريسة لهذه الفيروسات الكبدية ، إنما تدفعها عنه ، ومن ثم فكل منهما فيه جلب مصلحة ودرء مفسدة معا .

وكذلك إنتاج وسائل قتال ميدانية حديثة، ذات تقنية عالية وقدرات تدميرية هائلة ، فيه جلب المصلحة للمجتمع المهدد بإخطار هذا السلاح المتحصل داخل مخازن القادرين على إنتاجه، لأن الذي يملك هذا السلاح وهو عارف بآثاره ، سيكون حريصا على عدم استخدامه في مواجهة الآخر طالما كان هذا الثاني مالكا له أيضا[٤]، وهو ما يعرف بالقدرات المتكافئة تسليحا ، يدرك ذلك من يقرأ طبيعة المجتمعات الصناعية اليوم .

---

(١) هذا التعريف أراه مقبولا من جانبي ، كما يعبر عن حركة العقل في حدود مقبولة غير منزوعة الأصل الذي قامت عليه .

(٢) المتحصل من الشريعة الإلهية هو مصالح الناس في دار الدنيا ، وتحقيق السعادة في الآخرة ومن ثم فلا بد من إلتزام أغراض أو تنفيذ مقصود الشريعة .

(٣) وأعتقد أن الجلب والدرء يأتيان معا على الدوام ، ومن ثم فكل منهما يمكن ان يؤدي إلى جلب المصلحة ودفع المفسدة متى روعيت القواعد الشرعية .

(٤) ليس معنى هذا انني أشجع على انتشار وسائل القتال التدميرية ، أو إنني أنادي بها ، ولكني في ذات الوقت أطالب بأن يكون التعامل مع الآخر متكافئا ، وبخاصة إذا وقعت القيم العليا على الأرض ، وصار الواقع التسليحي هو الفيصل في المسألة ، إذ ليس من المعقول أن أطالب بعدم مجاراة الآخر في نظامه التسليحي بل وسبقه ، في الوقت الذي لا يتوقف هو عن التربص بي والاعتداء على ، لأن هذا من الاستضعاف والخنوع وليس من الإيمان في شيء .

وفي نفس فيه درء مفسدة ، من حيث أن المالك له لو أيقن أن جاره ليس مالكه له ، فمن السهل الإعتداء عليه وتدميره ، وفي ذلك مفسدة الإعتداء على الوطن والعرض ، والمال والدين ، وبناء عليه ، يكون الناتج عن العلم التحصيلي الاكتسابي هو درء هذه المفسدة[١]، والمعتبر في كافة المسائل من الناحية الشرعية ضرورة موافقتها لما جاء من عند الله تعالى إلتزاما به ، وممارسة له ٠

بيد أن هذا العلم التحصيلي ـ الإكتسابي ـ يمر بمراحل عديدة ، كل واحدة منها تفرز أنواعا اكتسابية متولدة عن الأصل ، ثم تدخل هي إلى ذات المراحل ، وتمر بدورتها حتى تنشأ علوم جديدة ، لها إستقلال أولي[٢]، ثم ما تلبث أن تعلن استقلالها التام عن موضوعها ومنهجها ، وإنفصالها عن وسائلها بل وانتاجها أيضا ٠

بدليل ما نراه اليوم من علوم طبية ـ تدريس ـ تشخيص ـ علاج ـ جراحة ـ دواء ـ بل صارت هذه الجزئيات الداخلة في نطاق مجموعة العلوم الطبية ، علوما مستقلة فالتدريس ، مثلا ظهر فيه علم التشريح ، علم الفسيولوجيا ، علم الهستولوجيا ، علم الكيمياء الحيوية [٣]، والتشخيصي ظهر فيه علوم الباطنة ولها فروع ، والجراحة ولها فروع ، والعين ، والأسنان ، والأنف والأذن ، وكل منها له مناهج وفيه نظريات ، وعليه متابعات ٠ ما تزال أثارها قائمة ، بل ستظل طالما كانت الرغبة في البحث العلمي مستمرة ٠

كذلك العلاج ، منه الدوائي وله مدارس عديدة ، بإعتبار الدواء التقليدي ، وغير التقليدي ، كالكيمياني والنووي والاشعاعي ، ومنه العلاج الآستئصالي الجزئي والكلي ، إلى غير هذه الأنواع [٤]، والدوائي هو الآخر ، مع أنه علاج ، ويدخل في نطاق العلم العلاجي ، إن تركيباته ومصادره ، وكيفية الاستفادة بها ، وما يدخل في نطاق الفارماكولوجي ، صارت

---

(١) ولا بد في درء المفاسد من مراجعة القواعد العامة والأصول القائمة ، راجع للعلامة الشاطبي: الموافقات ، جـ ٢ ، صـ ١٥ / ٢١ ٠

(٢) راجع كتابنا:الحثيث في المنطق الحديث ، صـ ٤٣١ ، وفي هذا إلمام كبير ، بل صدى واسع ، كشف عن فكر واقعي تجريبي ٠

(٣) هذه العلوم صارت مستقلة الآن ، ولم تكن لها وجود من قبل ، وللمزيد ، يمكن مراجعة المؤلفات في هذا الجانب ، كالحال مع الكليات في الطب لأبن رشد ٠

(٤) راجع ذلك في المؤلفات العلمية ، ففيها أفكار كثيرة ٠

كلها مدارس علمية أطلق عيها أسم كليات الصيدلة،تدرس العلوم الدوائية في صورها الأولى البسيطة والمتطورة، كما تدرس النظريات العلمية ذات الإرتباط التوصيفي لهذا النوع من العلوم، بغرض الاستفادة منها جميعا في إنتاج دواء له سمات مميزة ،وقدرة استمرارية لمناهضة الأمراض[١]، على أساس أن علم الدواء يقوم بالوقاية والعلاج في وقت واحد ٠

من الواضح أيضا ، أن العلوم الطبية صارت هي الأخرى مجموعة كبيرة متنوعة، بين دوائي ووقائي ، ودوائي وعلاجي، ودوائي استباقي ما تزال المعامل تسعى إليه حتى يكون في مواجهة مايمكن أن يتوقعه الباحثون من ظهور أطوار جديدة لكائنات لها ارتباطات لم تظهر بعد ، والنظر في احتمالاتها داخل صورها الأولى ٠

يقول " سارتون " إن الإفكار المتعلقة بالحياة والموت ، والصحة والمرض ، ووسائل إطالة العمر ، أو إستعادة الصحة بعد فقدها من أول ما يشغل العقول الإنسانية في كل مكان ولا بد أن نتوقع أن كل هذه الأفكار ، أو بعضها على الأقل ، إنما يسعى رغبة في إرضاء الإنسان وإسعادا له ، وإنها إنتقلت من جيل إلى جيل في غضون الآف السنين [٢].

وبناء عليه فإن تاريخ العلم يرجع إلى الزمن البعيد ، حيث ظهرت الحاجات الضرورية ، ففرضت على الإنسان السعي لتجاوز هذه المشكلات ، وتقديم حلول علمية إيجابية لها ، من ثم ، فإن العلم التحصيلي يتنوع بإعتبارات عديدة من أبرزها ، ما يلي :

التنوع المرحلي

الأولى : مرحلة الإنشاء المعرفي

وهي تجيء على أساس أن العلم التحصيلي لا يأتي فجأة ، ولا يتم بين عشية وضحاها ، وإنما يظل داخل الرؤوس[٣]، باحثا بأسبابه ومصادره ، بل موضوعاته ونتائجه

---

(١) هذا الغرض هو الذي يمكن رصده بصورة واضحة من خلال الأفكار التي يستطيع المرء الوقوف عندها لمعرفة ما فيها ، وما يمكن أن يستفيد منه الإنسان ويحقق له السعادة في الدنيا والآخرة ٠

(٢) جورج سارتون : تاريخ العلم ، جـ ١ ، صـ ٢٦١ ، ط. دار المعارف ، سنة ١٩٩١ ٠

(٣) لأن العلم التحصيلي لا يكون مقدرا للإنسان دفعة واحدة ، فلا يولد الإنسان مزودا به ، وإلا كان معرفة فطرية ، ولا يتم التعرف عليه في لحظة وإلا كان علما لدنيا وهو الذي يأتي للمرء المؤمن من قبل الله تعالى مباشرة من غير أسباب مباشرة ، إنه علم يتوصل إليه الإنسان خلال مراحل عمره ، بدليل أنه ربما يموت وماتزال هناك علوم ومعارف كثيرة لم يقف عليها ٠

عن مخرج يأوى إليه أو يهرع ناحيته، وفي غمرة الأحداث المتلاحقة قد يجد فرصته فيعبر عن نفسه من خلال صورة من الصورة ومن ثم فتاريخ العلم التحصيلي يقطع مراحل ، منها ما يتعلق بالإنشاء ، ومنها ما يتعلق بالناء القاعدي ، وما يتعلق بالنتائج والثمرات ، وسوف أتناول الأولى على النحو التالي :

أ - مرحلة الأفكار الرأسية [١]

ومعناها أن كل فرد عاقل يجد في رأسه مجموعة من الأفكار المتحصلة عن طريق حواسه كوسائل معرفية ، أو ظروفه وتعاملاته اليومية ، ومشكلاته الحياتية كمصادر معرفية ذات طابع خاص ، وبالتالي فهذه الأفكار تمثل صورة معرفية خاصة به لا يمكن له إظهارها[٢]، إنها إطارية ذات بعد شخصي ، فوقية و غير موضوعة للمناقشة ، حتى وإن كانت تتسع لها ، ويمكن التعامل معها من خلالها ٠

لم تكن هذه الأفكار الرأسية ناتج رأسه وحدها ، ولكنها دائرة فيها[٣]، وهي في ذات الوقت غير مستقرة بها ، إلا أنها تحاول الخروج منها إلى الواقع الذي تحصلت أجزاؤها عنه ، وهي لذلك قديمة ، مصاحبة للإنسان الأول منذ خلقة الله تعالى ، ومن ثم فتاريخ هذه المرحلة هو ذاته التاريخ الفكري لذات الإنسان، حينما بدأ في إدراك الأشياء من حوله، وتعامل معها على ذات النحو ٠

لقد كانت خواطر الإنسان الأول تتداخل مع طموحاته ، ولا يمكنه أن يصنفها ويؤلف بينها ، أو يمزج بينها في صورة رمزية خالصة تحمل همومه اليومية ، وتعبر عن قلقله الذاتي[٤]، وهي في ذات الوقت ، جزء من الصعوبات التي يواجهها في رحلته

---

(١) أسمها رأسية لأنها في رأس صاحبها وحده ، وهي في ذات الوقت متعلقة به وحده ، ثم هي فوق ذلك غير معبر عنها من جانبه ، وإنما تظل داخل إطاره الشخصي كأنها جزء من جسده لا يمكن له أن يستغني عنه أو يقبل التفريط فيه ٠

(٢) على أساس أن مرحلة الأفكار الرأسية هي الأساس ، ثم تجيء بعدها العديد من المراحل الأخرى بعضها تعبيري منقوص او متكامل من خلال مفردات لغوية هامسة ، متدنية أو متعالية لكنها تاتي في مراحل لاحقة لا سابقة ٠

(٣) لأنها ناتج الوسائل الحسية ، والمصادر المعرفية ، مع دراسة العلاقة القائمة بينهما ، وفوق ذلك فهي ذات بعد نسبي أيضا ، وهذا في حد ذاته يكفي لدورانها في رأس صاحبها ٠

(٤) وهذا يعبر عن صورة الطفولة العقلية التي إمتازت بها البشرية في مراحلها الأولى ، حيث كانت عملية التقليد والمحاكاة هي الغالبة ، ولها في ذات الوقت السيطرة التامة ، والكينونة الانتقائية في ذات الدائرة التقليدية ٠

الحياتية ذات الترددات اليومية ، وربما اللحظية ، وبين هذا الخليط جاء رقيق يمكن تسميته المنولوج النفسي[١] ، الذي من أبرز سماته الحوار الداخلي ٠

ليس من الدقة حصر هذه المدة في إطار زمنى ، والتعرف عليها من خلاله ، بل من الصعوبة البالغة ألادلاء بآية فترة زمانية ، يمكن أن تكون وعانية لها ، كل ما يمكن القول به أن هذه الفترة صاحبت الإنسان الأول حتى تمكن من الإفضاء للآخر [٢] ، وإستطاع كذلك إجراء حوار من ذاته توجة به إلى غيرة ، ممن يثق به، أو يمكنه الاستماع إليه ، والإنصات العقلي لما يتفاوض معه ، بجانب الإفراغ الكمي والتحصيل اللفظي معا ٠

ب - مرحلة المشافهة

وهي قدرة الإنسان على صياغة أفكاره الرأسية ، ومزجها بمشكلاته اليومية ، ثم إثارة قضايا ذات صور دلالية تفرض عليه ضرورة التعامل مع الآخر من خلال الحكاية التي هي الأم الأولى ، والأصل الذي قامت عليه اللغة التعبيرية ، ومن ثم فالمشافهة هي قدرة الإنسان على استعمال لسانه وشفتيه في إخراج أو التعبير عن ما بداخلة ، من خلال مفردات ذات دلالة دلالة صوتية متميزة يوجد لها في عقل السامع صدى تأثيري ، يمكن أن يساهم في إشكال الحياة الكلاسيكية والاستباقية على ناحية من الإنحاء [٣] ٠

وهذه المرحلة ذات تاريخ ضارب في جنبات الزمن البعيد ، منذ أستطاع الإنسان الأول التغلب على قصوره الذاتي ، وضعفه الشخصي ، والخروج إلى الآخر ، بحيث يتعامل معه ، وينشآن كينونات أولى ، يمكن تسميتها ، المجتمعات الأولية ، عناصرها الأساسية الأسرة الصغيرة ذات التركيبة الإجتماعية الخاصة ، وأعني بها الزوج والزوجة[٤] ، لأن

---

(١) المنولوج النفسي ، هو الحوار الداخلي الذي يجريه الإنسان مع نفسه ، فيكون هو الصمت وصداه في وقت واحد ، أو هو المفكر والمحاور معا ، وتلك مرحلة مهمة في حياة كل إنسان على حدة ٠

(٢) أرى أن هذه المرحلة لم تكن طويلة ، لأن الإنسان خلقة الله تعالى مائلا إلى المحاورة والتعامل مع الآخر ، ومن ثم ، فعملية الإفضاء والتسارد لم تكن بعيدة ٠

(٣) تسمى المشافهة لأن الوسائل التعبيرية من الطرفين تعتصم في اللغة المنطوقة من بين الشفاة ولذا فهي تنساب إليها ثم تنسب إلى الموضع الذي نقلت إليه ، واستطاع استبياتها ، وهو الملكة الموجودة داخل العقل نفسه ، ولذا فالعقل شافه ، يقتضي المشاركة بين أكثر من طرف ٠

(٤) وبناء عليه ، فإن الأسرة عمادها الزوجان ، وبدونهما لا تكون هناك أسرة ، والمجتمع هو مجموعة من الأسر ، وبدونها لا يكون هناك مجتمع ، وكل مجتمع صغير أو كبير لا يكون له وجود إلا من خلال هذا البناء في صورته التي سبق ذكرها ٠

تلك هي أساس ، او قاعدة اللبنة الأولى ، التي تنشأ عنها المجتمعات الإنسانية في صورها المتعددة ، وربما المتباينة أيضا •

فالرجل يمثل جزء من اللبنة الاجتماعية الأولى ، وهو دوره الأساسي في ذات الوقت البناء ، والمرأة تمثل هي الأخرى جزء اللبنة الاجتماعية الأولى ، وهما معا يمثلان لبنة اجتماعية متكاملة ، تنشأ عنها انقسامات متتالية مع احتفاظها بأصولها الذاتية [١]، وإذا أمعنا النظر في هذه الصورة من خلال العلم الإحياني ، أو طبقناها على ذات العلم الإجتماعي ، تبين وجود مطابقة تامة من الناحية الصورية أو الشكلية •

دليل ذلك ، أننا في علم الأحياء من الناحية البيولوجية ، نعلم أن الرجل يعطي المرأة - بإذن الله - عند اللقاء الحميم أو العلاقات الجسدية المتكاملة ٢٣ زوج صبغي[٢]، يسمى Chromosomes وتبذل هي الأخرى ٢٣ زوج صبغي كل منهما يمثل نصف الكائن الجديد ، وبإجتماع العددين ٢٣ + ٢٣ = ٤٦ ، وهو الذي يمثل الخلية الأولى في الكائن الحي الجديد ، ومن خلال هذا العدد الذي تمثله الخلية الأولى تبدأ الإنقسامات الداخلية والخارجية ، حتى تظهر في النهاية خلقا جديدا متكاملا[٣]، تحتوي عناصره نموذجات متعددة ، بل وأصول متكاملة لإمثال الأصل الذي نشأت عنه •

من ثم ، فمرحلة المشافه يمكن أن تبدأ بالرجل في الأسرة الواحدة ، والطفل وأخيه في ذات العائلة ، ثم تمتد إلى كل صديقين يمكن أن يقع بينهما هذا التكامل الحكوي

---

(١) راجع كتابنا : حلف الفضول عند العرب وأثره في العصر الحديث ، صـ ٧٨ وما بعدها ، الطبعة السابعة •

(٢) يقرر العلم البيولوجي أن الحيوانات المنوية عند الرجال تحمل التصنيف X Y ، وعنصر الـ Y هو الدال على الذكر ، اما عنصر X فهو الدال على الأنثى ، وفإذا حدث تلقيح وسبق الـ Y لبويضة المرأة كان الحمل بإذن الله ذكرا ، وإذا سبق الـ X إلى ذات البويضة ، فإن الجنين يكون بإذن الله إنثى ، لأن بويضة المرأة ثابتة في عطائها عند تصنيف X فقط ، من ثم فالذكر هو الحامل لعنصرى التلقيح للبويضة من Y أو X ، وكون الحمل يجيء ذكرا أو أنثى ، ذلك من إفضال الله وما الزوجان إلا وسائل سببية فقط •

(٣) قال تعالى " وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ " سورة المؤمنون : الآيات ١٢ / ١٤

السردي ، لكن عندما يتعلق الأمر بالقاعدة العلمية ، فلا بد من القول بأن المشافهه ستركز على جانب يتعلق بالمشكلات اليومية ، والتجارب التي قام الإنسان بها(١)، وظلت عالقة بذهنه ، قائمة في رأسه ، وكلما وجد شبيها لها ، تذكر الصورة السابقة ، فحكى موقفه منها وكيف أمكنه التغلب عليها ٠

ليس من الصواب القطع بأن كل التجارب التي قام بها هذا الإنسان في مواجهة مشكلاته الخاصة قد حكاها ، أو شافه بها ، نظرا لإختلاف الناس في نوعية المشكلات اليومية ، وكذلك إختلافهم في طبيعتها ، وكيفية مواجهتها ، وإنما يقع التأكيد على أنه شافه بما وجد أنهما مشكلة وأن الأخر قد تحتاج إلي جهوده في حلها(٢)، وحينئذ ، يخرج من دور التجربة الذاتية إلى دور المصنف الأولى (٣)، والباحث الذي يمكنه اختيار بعض تجاربه للمساهمة في مواجهة مشكلات الآخرين ٠

جـ - مرحلة التحاور

وهي التي يقع فيها تبادل المعارف الرأسية ، والمعلومات المشافهيه من خلال عمليتي التفريغ والإمتصاص التبادلي ، على أساس أن الإنسان الأول كان يبتدئ طريقه بالمشافهة التي تقع بين طرفين ، كل منهما يهمس للآخر أو يسعى إليه(٤)، بحيث يفكر كل منهما في المعارف التي استفرغها عقل الآخر ، وهذه تستلزم الوعي التام بكل ما يحيط به أو قد يفكر فيه ، بجانب القدرة على توظيف المعاني من الناحية العملية ، وأخيرا يأتي دور

---

(١) وهذه التجارب الرصيدية قاسم مشترك بين كافة العقلاء من البشر ، ولكنها قد تختلف من شخص لآخر، بين القوة والضعف ، وفي إظهار المسألة المعروضة، أو المشكلة القائمة على وجه من الوجوه الممكنة في التصنيفات العلمية، وهذه لا تحتاج إلى دليل آخر ٠

(٢) وقد يتعرض لحكاية ما وقع له من باب التسلية ، فيكون حاكيا تجاربه الذاتية على الصورة السردية ، من غير أن يقصد إفادة الآخر بها ، فإذا كان المستمع لها واعيا حفظها في ذاكرته بحيث تكون من أرصدته ، حتى إذا واجهته مشكلة من نوع ما حكاه الحاكي ، سارع إلى إجراء التجربة بحذر شديد ، متى كان الموقف يتسع له ، وبخاصة إذا كان الحاكي غير مأمون الجانب أو أفكاره خيالية ٠

(٣) هو الذي يقوم بإعداد البحوث في مراحلها الأولى ، وتصنيفها بما يتفق مع طبيعة هذه العلوم، بحيث تقع لها الفائدة في صورة أولية ٠

(٤) وتعرف باسم عملية التناجي ، وهي قريبة جدا من عملية الإيحاء الصوتي الكلامي ، ولهما علاقة ارتباطية بالإشارات الخاصة في عالم الطيور ، والحركات الإيحائية في عالم الحيوان مع الاختلاف في الطبيعة الخاصة بكل منها على حدة ٠

الجانب الابتكاري في الناحية المهارية فقط ، أما لماذا ؟

فلأن الإنسان حين يفضي لغيره ، بما يعتمل في صدره ، بوعي كامل وإرادة تامة[١]، فإن الذي يستقبل ذات الأفكار لا يكون كمن يبتلع أقراص الدواء ، بحيث تقتصر مهمته الأساسية على مجرد البلع فقط ، وإنما يتحاور مع الآخر بعقله الواعي ، ووجدانه المتحرك، بجانب أرصدته المعرفية ذات الإتجاهات المتعددة ، حينئذ ، ينفض عن عقله غبار التبعية العشوائية ، والتقليد الأعمى [٢]، ويلجأ إلى القاعدة الأصلية ، وهي أنه مفكر ، بل أنها المعيار الذي يفصله عن غيره من باقي الجنس الحيواني في الأنواع الأخرى ٠

فالمعيار التحاوري تبادلي ، إذ لا يصلح أن يكون غير ذلك ، وإلا فقد هويته الذاتية وخواصه التي تميزه عن غيره ، ولا يحل الحوار الداخلي أو المنولوج النفسي محل التحاور التبادلي ، حتى ولو لم يكن تماثليا ، وليس هذا المعيار التبادلي مرتبطا بعلم أو فكر ، إنه مرتبط بالإنسان العاقل المفكر القادر على توظيف ملكاته[٣]، والإستفادة من إمكانياته في صور استدراكية ٠

بيد أنه لما كان الإنسان ميالا للتحاور من أصل الخلقة ، فإن عملية الإصغاء لديه تحل داخل وجدانه محل الهمس ، بل أن عملية التناجي هي الأخرى في ظل عملية الانصات الجيد تحل هي الأخرى محل الهمس حتى كأنهما صنوان من الصعب أن يفترقا ، وإذا كانت الحكاية هي الأم الحقيقي لكل من القصة والرواية ، وأحيانا الخرافة ، فإن التحاور يأخذ الطابع النقدي للأفكار المتداولة ، لأن الإنسان خلقه الله تعالى ميالا لفحص مايلقى إليه ، فإما أن يصدقه عن قناعة ، أو يرفضه من خلال واقع[٤]، إما أن يقف أمامه مندهشا ، فهذا

---

(١) وتسمى بعملية التفريغ الشحني للأفكار والآراء والمعارف الواسعة ، أنها إحدى الصور التي تجيء عليها الاتجاهات العلمية في القديم والحديث على السواء ، راجع كتابنا : التفكير الإنساني أصوله ومستوياته ، صـ ٢١٠ ٠

(٢) أما إذا كان المستمع فاقدا لهذه الجوانب كلها أو بعض ، فإن معارفه تكون بنفس القدر من القصور الذي يلحق أدواته المعرفية ومصادرها أيضا ، راجع كتابنا : نظرية المعرفة عند ابن رشد ، صـ ٤١ ٠

(٣) فالعبرة بالقدرة على تنفيذ مهام معرفية ، والقيام بها من النواحي الإيجابية ، بقصد إيجاد علاقة بين ذاتين لهما خواص استقلالية وحتى إذا كانت النهاية تمثلت في عمليات إبداعية ٠

(٤) هذا في الحالات العادية ، أما في الظروف الإستثنائية ، فقد يختلف الأمر ، وحينئذ لا يكون هذا الإنسان سوى مقلد أعمي ، أو مكره على ترديد ما ذهب إليه غيره ، إنه يتحول من إنسان واع قادر على الإبداع إلى إنسان آلي ، ينفذ ما يراد منه بطريقة جبرية ٠

من سمات ذوي العقول الطفولية الذين تدهشهم الخيالات ، وتلهيهم الأوهام، وألاعيب الحواة •

وفي تقديري أن مرحلة التحاور تتمثل فيها لغتان ،أحداهما مقبلة ملقية ، ذات طبيعة حركية ، قادرة على الوصول إلى عقل المستمع ، ويمكن تسميتها اللغة الإيحائية ، وثانيهما مستقبلة تعتصر مايجيء إليها ، ثم تصنفه ، فيأحذ منه ذلك العقل مايجد حاجته إليه قائمة ، أو على الأقل يرى إمكانية الإستفادة بهذا المصنف أو ذاك في مرحلة يحددها ، بحيث تكون هذه الأرصدة ذات ثقل معياري ، وتسمى اللغة الاستخلاصية [٢]، وكل منهما يقع لها التكامل مع الاخرى في صور تنظيمية •

فإذا حاولنا رصد الحركة التاريخية لظهور هذا الجانب من العلم ، لم يكن من الصواب الوقوف على الحقيقة ، أوتحديدها من خلال فترة زمانية بعينها ، أما لماذا ؟ فلآن هذه الحركة صاحبت أبانا آدم ، وأمنا حواء في كل ما يتعلق بالأمور الحياتية[٢]، التي لم يكن مصدرها الوحي الإلهي ، وهي التي لا علاقة لها بالأمور الإعتقادية ، والأصول التشريعية ،لأن النبي بشر في كل أموره الإنسانية ، نبي في جميع ما يقوم على العقيدة والشريعة والتعاليم الإلهية •

ثم استمرت هذه المرحلةفي التنامي داخل العقلية الإنسانية ، محركة ذويها إلى البحث العلمي الهادئ ، في صورة بسيطة أمكن تكثيفها داخل نطاق الحركة الزمانية المضطردة للأمام ، ولم تتوقف إلى يومنا هذا ، لكن بدل أن كانت هي الجواب والسلوى ، أو هي القاعدة العامة ، فقد تأخر الأخذ بها قليلا ، وبخاصة عندما بدأت عمليات البناءات

---

(١) من هنا يظهر أن اللغة الإيحائية تكون ذات ثقل أو وزن معياري ، وأن الاستخلاصية لها ذات المقدار ، بل أنها لا تقل في الأهمية عن سابقتها ، وربما زادت عليها ، والفروق الفردية من أوضح الشواهد عليهما معا •

(٢) لأن الله تعالى وهبهما العقل الكامل ، ومنحهما المعرفة البديهية في صورها الأولى التي جاءت مع النقلية لسيدنا أدم ومعها الإلهامية في ذات الوقت ، وقد أكتسبت حواء هذه كلها من زوجها ثم أضافت إليها ناتج التجارب الإنسانية التي عاشا خلالها الفترة الإنتقالية التي تميزت بالعديد من الصور والعلاقات الإبداعية ذات النتائج المهارية •

القاعدية في التنامي والثبات(١)، حيث كانت كل مرحلة سابقة تسلم أرقى ما وصلت إليه عند بداية المرحلة اللاحقة ·

مما سلف بيانه ، يمكن القول بأن المرحلة الإنشائية تمثلت فيها صوره أو مظاهر ثلاثة ، هي ١ ـ الرأسية ، ٢ ـ المشافهة ، ٣ ـ التحاور ، وإنها مهدت لظهور قضايا علمية ذات أثر فعال لم تقف عند حد بعينه ، وإنما كانت مرنة يمكنها أن تغطي كافة الجوانب المعرفية وتسعى لتقديم حلول متكاملة نسبيا لجملة من الإشكاليات البحثية(٢)، التي تعبر عن رقي معرفي داخل هذا السلم الهرمي ·

الثانية : مرحلة البناءات القاعدية

وهي الفترة التي استطاع العلم فيها إيجاد صيغ مشتركه ،تحسم علاقة التجارب السابقة باللغة التعبيرية ، بحيث تكون هذه الصيغ بمثابة القوانين العامة ، والقواعد الكلية ، يمكن تطبيقها في كافة العلوم التي تتفق موضوعاتها بشأنها(٣)، وبعبارة أخرى ، يمكن القول بأن البناءات المعرفية لما كانت مسلمة عند المتعاملين بها نوعا من التسليم ، فقد صارت بمثابة البناء الذي يقبل التعلية فوقه ، والاستفادة من أساسه الذي يضرب في أعماق الأرض ، وحينئذ يمكن التشييد عليه ·

بل الأكثر من ذلك، هو أن هذه البناءات العلمية الأولية ، أمكن للباحث في العلم التحصيلي أن يعتبرها قواعد ثابتة ، غير قابلة للمساومة ، كما لا يمكن التفاوض بشأن صدقها ، وقد ساعده على ذلك وجود هذه البناءات القاعدية في مجموعات تصنيفية

---

(١) التنامي هو الإمتداد الأفقي والرأسي للمعارف من الناحية المقطعية ، والثبات في الإمتداد الإتجاهي المعرفي ، فلم تحدث انتكاسة أو ردة ، وإنما ظل الأمر أخذا في السير نحو عملياته العادية ، داخل صور ومظاهر إضطرادية ·

(٢) وهذا من مهام فلسفة العلم على الناحية الفنية ، نظرا لإرتباط الناتج العلمي بالأثر المعرفي وإستمرار الحركات البحثية في المجال الإبداعي ، باعتبار أن الإبداع لا يقوم وحده ، وإنما لا بد له من رؤوس يظهر فيها وتحمله هي إلى الآخرين ·

(٣) من هنا كان في كل علم جملة من البناءات القاعدية ذات الصلة الوثيقة بالعلم ذاته ، فإذا انفصلت عنه لم تكن ذات جدوى ، وتعتبر المصطلحات والمفاهيم أحد المعبرات الأساسية بشأنها ·

دقيقة ، مما يتعلق بجملة من العلوم أمكن إطلاق اسم عليه [١]، ورغم أن هذا الإطلاق الإسمي الجديد تواضعي اصطلاحي ، إلا أنه أمكن التعامل به فيما بينهم وتوظيفه على النواحي التي يمكن أن يستخدم بشأنها ، من ثم قامت البناءات القاعدية أول الأمر في مظاهر قليلة أو نادرة ، ثم أخذت في التكاثر التحتي والإزدياد المثلي .

وقد عزز هذا القول أمران ، أحدهما تزايد الأعداد السكانية ذات الاحتياجات الضرورية المتعددة ، داخل تجمعات سكانية ، لها ارتباطات زمانية ، وأهداف محلية تحرسها أحلام وطموحات متعالية ، لكنها تعبر عن ظروف هؤلاء جميعا[٢]، ثانيهما وجود ضغوط متزايدة مبعثها الرغبة في تحقيق أعلى قدر من السعادة الإنسانية في أقصر مدة زمانية ، وأضيق مساحة مكانية ، داخل أية طبيعة جغرافية ، وهو ما يعرف بإسم الاختزال العلمي لتحقيق السعادة في إشكالها الإنسانية[٣] .

من المؤكد أن تاريخ هذه المرحلة ليس محسوبا بدقة ، ومع ذلك يمكن القول بأن بدايتها صاحبت عملية استخدام الوسائل التعبيرية ذات الرسوم التوافقية ، كمبادئ الكتابة ، وفكرة استظهار المدونات المعرفية ، ومراجعة القضايا الرأسية مع الواقع الاستبقاني تارة والاستباقي تارة أخرى ، لأن الإنسان الأول في العصور الحجرية ، ومن قبلها عصور ما قبل التاريخ ، كان يعتمد على ذاكرته التي صارت بمنزلة المكتبات المتنقلة داخل رؤوس أصحابها [٤] .

---

(١) يلاحظ أن عملية التصنيف تمثل دور الباحث في العلم ، أما دراسة هذه التصنيفات فهو من مهام الباحث في فلسفة العلم ، على أساس أن ذلك أحد مجالاتها الخاصة ، وليس من السهل تخليها عنها وإلا ما صارت جديرة بحمل اسم فلسفة العلم .

(٢) هذا من الإشكاليات البحثية في القديم ، أما في الوقت الحاضر فإن المتابعة لها هي التي يعول عليها ، ومن ثم فقد اتخذت صورا وأشكالا إجرائية في سبيل تعزيز هذا الهدف داخل النفوس ، بل تعتبر عملية المتابعة الإهدافية ذات صلة وثيقة بفلسفة العلم .

(٣) راجع كتابنا : السعادة في الفكر الإنساني ، جـ ٢ ، صـ ٢٥٣ ، حيث يتضح أن السعادة أقسام وكل منها أنواع ، وأعظمها ما يتعلق بالرضا الكامل في الدنيا والسلامة في الآخرة .

(٤) فكرة المكتبات الراسية المتنقلة ، أرى التعويل عليها أمرا مفيدا ، لمن يريد الوقوف على ثقافة الماضي ، ويحقق أعلى قدر من إحراز النجاح ، فذلك أمر قد تكون له مظاهرة الإبداعية ولا تقل عن ظهور الثقافات الراسية وانتقالاتها الكراسية وغيرها .

ومما يؤكد هذه النتيجة ما ذكره " سارتون " حيث يقول إن الكلمات والعبارات التي استعملها الرجال والنساء خلال العصور هي أجمل أزهار الإنسانية ، ففي كل كلمة كثير من الفضيلة ، بل أن الماضي كله يتبلور فيها منذ صياغتها الأولى ، وهي تعرض الأفكار الواضحة كما تعرض ما لا حصر له من الدلالات الغامضة ، فكل لفظة كنز من الواقعيات والأوهام ، ومن الحقائق والألفاظ [١] ، والنظر إليها يعتبر أمرا مهما في كافة المراحل البحثية ·

ثم أنه في مرحلة البناءات القاعدية ، يظهر نوع من الإنفصال التدريجي بين المعارف والعلوم من ناحية التصنيف غير المعلن ، بمعنى أن الذي يتعامل مع هذه البناءات لا ينظر إليها جميعا في وقت واحد ، وإنما ينظر إليها في حدود ما يستفيد منه ، فإذا كان إتجاهه ناحية ما يمكن تسميته الثقافة والعلوم النظرية ، فإنه يسعى إلى هذه البناءات القاعدية من ذات الجهة [٢]، ويؤكد عليها ، حتى تصير في عقله صاحبة السيادة ، وإذا كان اتجاهه ناحية الوقائع الحتمية في الجوانب المادية المدنية من الناحية العلمية ، سعى إليه وحاول تجميع ما يخدمه في هذا الميدان ·

من الصواب القول بأن هذا المرحلة لها صفتان أحداهما أنها تجيء في صورة تدوينية ولا بد أن تتم على ناحية من النواحي ، إذ أن وجودها في الصدور والعقول أو المعارف والأفهام أمر سابق ، نظرا لكونها ناتج المرحلة الإنشائية ، ثانيهما إنها تجيء في مظاهر تصنيفية قابلة للتطور التدريجي ، ويمكن أن يجيء معها نوع من التغير الدفعي [٣] متى ارتبطت بالجوانب المادية ذات النتائج التجريبية التي تواجه الواقع كفاحا ، ويمكن أن يفيد منها في صور متعددة ·

فمثلا ، كان المصريون القدماء يواجهون الفيضان الذي يغطي أراضيهم الزراعية ، فيفقدهم معالمها الأساسية ، وينسيهم حدودها ، لأنه بعد إنحسار المياه تضيع الحدود بين

---

(١) جورج سارتون : تاريخ العلم ، جـ ١ ، ط. دار المعارف ·

(٢) ويسمى التصنيف الوجهي ، على أساس أن باحثا آخر يمكنه أن يتجه إليه نفسه لكن من وجه آخر ويطلق عليه هو أيضا تسميته أخرى ، والعلوم تتسع لكل منها ·

(٣) نظرية التغير الدفعي تقابلها نظرية التغير التدريجي ، وكل منهما تفيد في الناحية التي يتعامل معها من خلالها ، وهو أمر له أهميته القصوى في العلوم التطبيقية والنظرية على السواء ·

القطاعات المختلفة ، ومن الضروري إعادة المعالم إلى ما كانت عليه ، من ثم ، تمكنوا من استخدام البناءات القاعدية على ناحية علمية ، بحيث تؤدي إلى نتائج دقيقة ، وتحقق الأغراض الكاملة ، ولا يتم ذلك إلا على الزاوية القائمة في الدائرة ذات الثلاثمائة وستون درجة ، ولم تكن الأشكال الهندسية قد عرفت ، فماذا فعلوا ؟

يقول " سارتون " لقد لجأوا إلى طريقة عملية غاية السهولة ، وهي نظرية بسط الحبل[١] ، التي تتمثل في عقد الحبل عقدا عديدة على مسافات متساوية ، أطلقوا علي كل مسافة منها مقدارا كميا ، بحيث يقوم هذا الحبل بنفس وظيفة أي مقياس مقسم إلى درجات كمقياس المتر أو ياردة ، ثم عمدوا إلى تثبيته على هيئة مثلث ، أطوال أضلاعه ٣، ٤ ، ٥ على التوالي ، أو مضاعفاتها ، وقد حققوا بها النتائج المرجوة ، كما وصلوا إلى الاهداف التي حددوها بسهولة، ويسر[٢] ، وهي أول محاولة من نوعها في التاريخ الإنساني لتحديد الزاوية القائمة بطريقة تؤكد أن المصريين قد سبقوا جميع أقرانهم من الصينيين بقرون عديدة .

بل أن فيثاغورث سنة ٥٧٢ ـ ٦٩٧ ق.م. ،حينما هرب من الفرس ومعه مجموعة من الساموسين ، وأقام بمصر أكثر من إثنى عشر عاما ، رأي هذه العملية تتكرر أمامه في تعاملات المصريين عاما بعد عام ، فتحركت في عقله عملية التجريد ، وظل بها حتى توصل إلى اكتشاف العلاقة بين هذه النسب الثلاثة وهكذا خرجت إلى النور طريقتة الهندسية التي عرفت بإسمه واشتهرت بنظرية "فيثاغورث"[٣].

---

(١) يطلق عليها ديموكريتس الأبديري ٠٥ ق. م. اسم نظرية باسطي الحبل أو هم رابطو الحبل في إشارة إلى المساحين المصريين الحكماء ، الذين كانوا رياضيين متمكنين ، ويذهب سارتون إلى أن عمل هؤلاء المصرين القدماء كان فلكيا أكثر منه رياضيا ، وكان الحبل من المراسم الأولى في وضع حجر الأساس لاي معبد من المعابد ، وكان الحبل يمد ناحية خط الزوال لتحديد الاتجاه المناسب للمعبد ، فليس من البعيد أن يكون باسطوالحبل قد تمكنوا أيضا من رسم خط عمودي على الزوال ، كما يحتمل أنهم فعلوا ذلك بواسطة حبل مقسم إلى أجزاء مكونة من ٣ ، ٤ ، ٥ ، وحدات ، ثم تعاملوا معها في تحقيق أغراضهم ، ولكن سارتون ينتهي إلى القول بأن هذا كله تخمين مثل جميع النظريات التي تعزو إكتشاف نظرية فيثاغورث إلى الهنود أو الصينيين مع أنها مأخوذة من المصريين ، تاريخ العلم ، ط. ٢ ، صـ ١٠٦ .

(٢) جورج سارتون : تاريخ العلم ، ط. ١ ، صـ ١٠٥ .

(٣) ج. ج. كراوثر : قصة العلم ، راجع هامش صـ ترجمة د. / يمنى طريف الخولي ، د. / بدوي عبد الفتاح .

من السهل القول بأن عملية الانتقال من الصور الطبيعية التي ارتبطت بمسح الأراضي الزراعية ، لإعادة رسم الحدود ، قد ساهمت في بناء نوع من المعرفة الجديدة أطلق عليها اسم علم الهندسة ، حيث تمت الإستفادة منها في بناء السدود ، والتحكم في مياه الفيضان ، بل أنها أيضا استخدمت في بناء الأهرام لتخليد ذكرى فراعينهم ، وما تزال آثارهم شاهدة على تقدمهم في هذا الميدان ، وإدراكهم العلاقة بين المعرفة والواقع ، وكيفية توظيفهم البناءات القاعدية لخدمة الانماط الحياتية المختلفة •

لقد نتج عن تصنيف البناءات القاعدية ظهور علم الهندسة ، وعلم المساحة ، وعلم الجغرافيا ، وعلم الخرائط [(١)] ، كما أن المصريين القدماء قد اجتهدوا في إنشاء علم الحساب ، حتى تمكنوا من تقدير محاصيلهم الكمية ، وتوزيعها على الناس بطريقة في التفاضل تارة ، والتساوي تارة أخرى ، بما يحقق المصلحة المشتركة ويقيم نظرية العدل التوزيعي على الوجه الصحيح •

يقول " كراوثر " لقد كانت الدولة في ذلك الوقت ملكا كاملا للملك ، ولم يكن يسمونها بالملكية الخاصة ، وكان الملك وجملة مستشاريه من الكهنة ، هم الذين يقدرون نصيب كل فرد من المحصول ، لأن المجتمع المصري القديم كان مجتمعا ذا بنية اجتماعية متدرجة، شأن غالبية المجتمعات آنذاك ، يتكون من طبقات عديدة متفاوتة الشأن والأهمية ولأفراد كل طبقة حصة مقررة من الحبوب ، ومن هنا برزت أهمية الحساب [(٢)] ، بل أنهم أسرعوا إليه •

من الواضح أن هذه البناءات القاعدية تمثل حجر الزاوية في العلوم المختلفة ، كما تبرز مرحلة الانتقال السلمي من الإنشاء إلى النتائج ، أو التسلسل الطبيعي من المباديء إلى الغايات [(٣)] ، ومن يطالع الوحدات الأساسية المستخدمة في علم الطبيعة ، يجد أنها سبعة

---

(١) وقد تفرعت عن هذه العلوم الأساسية علوم أخرى ذات مناهج محددة ، في موضوعات مستقلة بجانب الأهداف غير التقليدية ، وترتب عليها أيضا ظهور معارف جديدة •

(٢) ج. ج. كراوثر : قصة العلم ، صـ ٢٤ ، ترجمة د. / يمنى طريف الخولي ، د. / بدوي عبد الفتاح ، الهيئة المصرية العامة للكتاب •

(٣) وكلما كانت الأبحاث العلمية قائمة على مناهج محددة ، في موضوعات ذات ارتباط واحد ، وتسعى لأهداف بعينها ، فإن عملية الانتقال النوعي والتبادلي تجيء في خطوات هادئة ، وتحمل نتائج إيجابية ، أما إذا انتزعت عن أصولها ، وإختلطت بغيرها على سبيل المصادفة ، فإن عملية الانتقال تكون غاية في الخطورة ، كما يمثل عنفا قد يدفع الباحثين إلى التعادي ، فيفقد البحث العلمي قيمته •

وحدات ، والباقي من الكميات المشتقة عن طريق هذه السبع ، وأعني بها :

١ - الوحدة الطولية = هي المتر أو السنتيمتر
٢ - الوحدة الزمانية = الثانية
٣ - الوحدة الكتلية = الكيلو جرام ، والجرام
٤ - الوحدة الشحنية = الكولوم
٥ - الوحدة الحرارية = الكلفن
٦ - الوحدة الكهربائية = الأوم
٧ - الوحدة الضوئية = اللومن

ولا شك أن الوحدات الأساسية تختلف من علم إلىآخر ، وهذا ما يمكن احتماله بإعتبار أنه دليل على اختلاف بديهيات كل علم [١]، ممايؤكد الفكرة التي ألح في عرضها ، وهي أن البناءات القاعدية أمكن تصنيفها ، فنتج عنها العديد من العلوم ذات الصفة الاستقلالية ، ومن ثم يمكن القول بأن تاريخ العلم من هذه الناحية نسبي ، بإعتبار التصنيف [٢] ، والإستقلال النوعي .

من الواضح أن هذه المرحلة قد اتخذت طابعا تدوينيا ، بدا أول أمره خافتا أو ضعيفا ، ثم اخذ في التنامي ، فبرزت إلى الوجود مقولة العلم يجب ان يكون في الكراس ، كما هو قائم في الراس ، وبناء عليه ، ظهرت ملامح الكتابة في الحروف المتعددة الصور والأشكال [٣]، والتي تبعتها أيضا إضافات لبناءاتها الكتابية ، بدليل ظهور الكتابة المصرية القديمة،والأخرى البابلية،ثم الأشورية،والسومرية،وغيرها من أنواع الكتابة التي عرفها

---

(١) الأستاذ / أحمد محمد فتحي : توحيد قوانين الكون وقوانين البعد الواحد خط الضوء ، صـ ٤ .

(٢) النسبية في تاريخ العلم واضحة من جهات عديدة داخل كل علم ، بإعتبار الموضوعات البحثية وبإعتبار النتائج التي يمكن الوقوف عليها ، أو المناهج التي تستخدم ، لأن هذه النسبية هي السمات الأساسية في العلوم جميعا مادامت علوما تحصيلية كسبية ، وقد تدخل إلى ميدان القواعد البديهية بإعتبار المدرك لها ، وهو مايعرف بالناحية الإدراكية .

(٣) فالحروف الكتابية أحد العلامات الإبداعية التي استطاع العقل ، بتوفيق الله تعالى ، فرضها على أرض الواقع ، حتى صارت هي المعبرة عن اللغة المنطوقة ، وكل لغة منطوقة هي في ذات الوقت كلمات مكتوبة ، ومهما كانت هذه اللغة ، فإن الكتابة هي التي تبرزها من الناحية القرائية والصورية الشكلية لا الصوتية .

الإنسان القديم في الأزمنة السابقة، وقد اخذت في التطور الصوري والوسائلي[١] ،بجانب النحتي والاشتقاقي على الوجوه التي تشاهد ملامح بعضها اليوم ، ولا ندري ماذا سيكون في الغد القريب ؟ لأن ذلك من الغيب الذي يعلمه الله ، وتأتي ملامحه مرتبطة بأسبابه ·

الثالثة : مرحلة الإبداع العلمي

من الملاحظ أن تاريخ العلم لم ينهض فجأة ، ولا استقام في لحظة، وأنما استغرق مراحل عرضت بعضها فيما سلف، أما وقد بلغت مرحلة النتائج التي تعبر عن الإبداع ، فمن الملاحظ أن هذه المرحلة اتخذت شكلين ، أو برزت في صورتين ، لكل منهما انفصال شبه تام عن الأخرى ، إحداهما إعلان النتائج الإبداعية [٢]، والثانية توظيف هذه الإبداعات على الناحية المحلية، ثم تصديرها إلى الغير حتى تبلغ الامتداد الذي يمكنها الوصول إليه[٣]، وسوف ألمح لكل منهما على النحو التالي :

الصورة الأولى : إعلان النتائج

لم يكن الإنسان القديم يملك وسائل إعلام قوية واضحة ، بحيث تقوم له بالإعلان عن النتائج التي وصل إليها ، أو تعرف بها ، أو حتى تقدم بطاقة تعريف في حدود دنيا ، بحيث يقف عليها من يطلبها ، وإنما كان الذي يقوم بهذا كله الواقع المعاش نفسه ،أما لماذا؟ فلأن العلوم والمعارف التي يبلغها الإنسان القديم ، كانت تظهر له في تطبيقات عملية ، إذ هي في الأصل قامت على سد الفراغ ، أو أحداث الاستكفاء المقابل للمشكلات ، أو تلبية

---

(١) هذا التطور الصوري لا يمكن إنكاره ، نظرا لتعدد الصور التي يجيء عليها ، أما الوسائلي فإنه يتعدد بالنسبة للوسائل التي تعتبر لدى الباحثين ضرورة علمية ، وإلا فكيف يتعامل مع العلم الذي يراد القيام به ·

(٢) لأن إعلان النتائج الإبداعية فيه كشف تام ، وتصفيه حساب كاملة ، يقوم بها الباحث نفسه من خلال تسامح واضح مع العلوم الأخرى ، باعتبار أن هذه الأبحاث قاسم مشترك بين الجميع ، فلا يعتقد أحد أنه وحده صاحب الحق فيه ، وإنما هو أحد الأطراف الفرعية في المسألة ·

(٣) فكرة التوظيف الإبداعية غير فكرة التصوير النتائجي ، لأن كلا منهما ذات طابع خاص ، وهما أيضا غير فكرة النتائج الإبداعية ، وكل منهما تحتاج مجهودا خالصا ، وسوف يظهر ذلك أثناء الحديث عن مجالات فلسفة العلم إن شاء الله تعالى·

الحاجات الضرورية[١]، فإذا وصل إليها من الناحية النظرية،لم يكن ذلك كافيا ، وإنما لا بد من التطبيق العملي٠

أجل ، كان المعيار في صدق الأفكار هو قبولها التطبيق العملي على أرض الواقع ، بحيث إذا لامست أرض الواقع صورة صحيحة فقد تحققت النتائج ، التي أمكن رصدها في الظروف المختلفة ، أما إذا لم تحقق النتائج بذات المقدار والكمية النوعية ، لم يكن هناك سبب لقبولها ، أو الأخذ بها ، وهي مسألة هامة تعبر عن روح علمية نقدية قادرة على صياغة أفكار جديدة [٢]، من خلال مفاهيم لها إستقلال نوعي ٠

من الواضح أن النتائج المعلنة في ذلك الوقت لم تكن حصرية إحصانية في أول الأمر ، نظرا لكون التيارات البحثية غير متلاقية في منطقة بذاتها ، أو معروفة لدى طائفة بعينها ، حيث كان القاسم المشترك هو الرغبة في طلب العلم و السعي نحو تكميل النفس بالمعارف المتميزة ، وهو ما يعرف باسم التميز النوعي[٣]، مع ضرورة الاهتمام بطبيعة هذه المباحث الدقيقة ٠

بيدأن إعلان النتائج أبان تلك الفترة كان يتخذ صورا عديدة ، ويجيء في مظاهر متباينة ، فقد يكون الإعلان العملي مصاحبا للاعلان النسبي من خلال المجموعات البحثية التي كانت لها السيادة ، في ذات الوقت ، يقرر " داير " أن إعلان النتائج البحثية كان معبرا عن تاريخ العلم ، حيث تنقل المعارف في طرائق تلقائية تتسم بالتجربة العملية وهي السمة الغالبة على كل المشتغلين بالبحث في قرون ما قبل الميلاد [٤].

---

(١) راجع كتابنا: التفكير الإنساني اصوله ومستوياته ، صـ ٢١٣، حيث يظهر أن الواقع المعاش كان يمثل ثقافة ثابتة يحكمها هو من خلال مراقبته للنتائج وإبرازها على أرض الواقع ٠

(٢) ظهور أفكار جديدة من الناحية الإبداعية مسألة عبرت عنها الأبحاث العلمية في كثير من الأوقات ، بل وما تزال هذه المسألة محل عناية كثير من الدارسين ٠

(٣) فكرة الاستقلال النوعي لها اعتبار في المفاهيم العلمية ، ولها وجود ثابت أيضا داخل العلوم الاستقرائية والاستنباطية على السواء ٠

(٤) جورج سان داير : تاريخ العلم الحديث ، صـ١٤٧، ترجمة عليه عبد الرحمن ، ط.اولى سنة ١٩٨٧

وقد يكون هذا الإعلان عن طريق التجربة وحدها ، حيث تنقل النتائج العلمية ، مصاحبة لعقل صاحبها ، وأحيانا تجيء مصحوبة برعاية خاصة ، متى أمكن توظيفها بسرعة ، وأدت العمليات التوظيفية إلى ظهور ثمار متلاحقة ، بل صارت الكتابة وعمليات التدوين الأخرى من وسائل الإبلاغ عن النتائج[١]، يقول " سيور " لم يكن من السهل تقديم نتائج يتم الإعلان عنها في مراحل مبكرة ، بقدر ما يكون من اليسير ممارستها،لأن الواقع المعاش أكدت على قاعدة عامة، هي أن أرض الواقع المستلقي هي ذاتها ميدان التجربة المتواصل[٢].

لقد كان الإعلان عن النتائج الإبداعية ، بمثابة انقلاب علمي نمطي على جهود الواقع المعاش ، وصارت انباؤه تترى في غير تحفظ ، بل كان أصحاب هذا الجانب يكاتفون غيرهم فيه ، بحيث تقع المعاونة والمؤازة[٣]، وكان الكهنة في المعابد المصرية القديمة يمثلون أحد وسائل الإعلام غير المدفوع الأجر نظرا لإرتباطهم بأفراد الشعب من ناحية ، وكونهم يمثلون العلاقة الرقيقة بين الشعب والملك من ناحية أخرى ، ولذا تأثر الإعلان بهم إلى حد كبير .

كما ان تاثيرهم الواقعي على مدركات الأمور قد نال عنايه جديدة ، وليس من الصواب القول بأنهم استطاعوا وقف الإعلان عن النتائج ، أو كانوا يدفعون إلى ظهور نتائج غير واقعية[٤]،بل من اليسير القول بأنهم كانوا عناصر يحدث لها التوازن الإجتماعي والسلام السياسي ، فتظهر آثارهم من النواحي الإيجابية المتعددة ، إما إذا كانوا على العكس من ذلك ، فإن جملة الآثار السلبية تكون هي الغالبة في هذه الأوقات بذاتها .

---

(١) وعملية الإبلاغ عن النتائج هي استمرار خيطي رابط بين الفكرة الأساسية والعمليات التجريبية والجوانب الإنمائية، فإذا وقع التكامل بينها جيمعا تحققت الصورة المثلي للعلم .

(٢) أنطوان سيور : العلم تاريخه ومشكلاته ، صـ ٢١٤ ، ترجمة إيناس عابدين ، مراجعة أنور فهمي ، سنة ١٩٨٥ .

(٣) هذا الإعلان الإنقلابي يمكن التعرف على تاريخه الإنشائي ، مع الإنسان الأول من خلال مراجعته التاريخ العام ، راجع لول ديورانت: قصة الحضارة ، المجلد الثالث ، جـ ٦، صـ ١٤٥ وما بعدها .

(٤) لم يكن الكهنة في المراحل الأولى سوى عوامل تنشيط تساهم في بناء العلم ، ولكن تغير موقف الكهنة في أوربا أبان العصور الوسطى ، حتى صار كهنة العصور الوسطى الأوربية أحد المعالم الرئيسية المعوقة للبحث العلمي ،راجع كتابنا قضايا حثيثة في الفلسفة الحديثة ، صـ ٩٣ / ٩٦ .

يقول " دانش " لقد كانت النتائج الإبداعية تفرض نفسها على الجميع ، وكلها تقدم مصالح كثيرة لكافة أفراد الأمة ، فكان الملك وحاشيته يشجعون عليها ، ويقدمون لها ألوان العون المختلفة ، وفي العهود السياسية التي لم يكن على رأس الأمم ملوك ، فإن الذين يمثلونهم كانوا يحاولون القيام بهذه المهام [١]، إعتقادا منهم بأن هذا التشجيع يوطد قواعدهم في الحكم ، ويثبت مراكزهم في عقول الأمة ، ويجعلهم قريبين من قلوب أفرادها [٢] .

حسبي القول بأن إعلان النتائج يمثل أحد العوامل الهامة داخل العلم التحصيلي ، ويعبر عن طفرة انتقالية ذات أثر انتقالي ، عبر به تاريخ العلم من مرحلة النشأة إلى مرحلة البناء القاعدي ، ثم أسلمه ذلك إلى دائرة يظهر فيها الإثر العلمي ، مرتبطا بأرض الواقع والتجربة العملية بجانب الانطلاق المتواصل نحو الهدف الأسمى .

الصورة الثانية : توظيف الإبداعات النتائجية

سلف القول بأن تاريخ ظهور العلم التحصيلي الإستقلالي النوعي[٣]، في أي مرحلة من المراحل التصنيفية ، لم تقم عليه شواهد صحيحة ، بحيث يمكن النظر إليها على أنها قواعد عامة ، وأصول ثابتة ، ولكن ، من الصواب القول بأن العلم التحصيلي في المرحلة الإبداعية قد سعى لتوظيف هذه النتائج على الجوانب المختلفة ، في كل من علوم الطبيعة والفيزياء والفلك ، بجانب الزراعة والتجارة ، بل في العلوم الإنسانية والسلوكية والتطبيقية التي أمكن لها أن تعبر عن نفسها ، داخل هذه الفترات الزمانية البعيدة .

---

(١) حيث أن هذه المعاونة من الحكام ، أو ممن هم على قمة البناء السياسي ، قد تكون واحدة من الوسائل الهامة لجذب العقول ناحية هذه السلطة السياسية ، أو على الأقل يتم لها التأمين الطبيعي من قيام ثورات عليها ، أو حدوث انقلابات ضدها .

(٢) سيفر دانش : الحركة العلمية في الزمن القديم ، صـ ١٥٣ / ١٥٤ ، ترجمة شوقي عبد الله سنة ١٩٨٩ .

(٣) الاستقلال النوعي أحد الصور التي ظهر فيها العلم التحصيلي ، لكن تم ذلك في مراحل لاحقة، إذ لم يكن له وجود في المراحل الأولى ، وتلك مسألة حتمية يمكن القول بأنها حسمت منذ فترة بعيدة ، وبخاصة متى روعيت مسألة النتائج التاريخية .

فمثلا ، استطاع المصريون القدماء إنشاء علم الحساب في صورة تقريرية تدريبية تعليمية ، حتى تمكنوا من الاستفادة به على العديد من الوجوه المختلفة [١] ، بل في كافة أنماطهم الحياتية ، يقول " وليم بري " أن الإنسان القديم استطاع اقتناص المعارف من بين احضان النجوم والكواكب ، ثم وظفها على أرض الواقع[٢] ، فكان ذلك من العلامات المميزة للفكر الإنساني ، وهي في ذات الوقت من معالم الصورة الإبداعية الخالصة •

وكما وظف الكهنة المعارف لخدمة الدين الذي يعتقدونه ، فإنهم أيضا حاولوا القيام به من النواحي العلمية التجريبية في الزراعة ، والتجارة ، وعمليات البحار ، بجانب الصيد ، والفلك ، وكذلك علوم النبات ، وقد ظهر العديد من الآثار العملية الدالة عليه بحيث يسهل تصديرها للخارج [٣] ، كما يتم التعامل بها على الناحية المحلية ، ونظرا لكون العالم القديم كان قليل الأفراد ، صعب الإتصال ، فقد أثر ذلك البعد المسافي على توظيف العلوم بشكل جيد •

إن توظيف الإبداع امر مهم جدا، لأنه يكون بمثابة تصدير الأفكار إلى الغير، بحيث تفيد في تحويل القوى الكامنة في الكون إلى قوى أخرى ذات فاعلية مؤثرة، وهنا تخرج هذه القوى من مرحلة الكمون الكامل، إلى حالة الإعلان الذي يحيط بها من كل جانب، يقول " فوستر " من السهل أن نغمض عيوننا عن الماضي لأننا لم ندركه، وقد أخطأ السابقون في تجميد الأفكار داخل قوالب ثابتة ، أما نحن فمن الضروري التأكيد على أن دورنا هو توظيف النتائج الإبداعية بأقصى سرعة ممكنة ، وبأقصى مايملك كل واحد منا [٤] ، إنها مسألة متعلقة بنا ، ومن الصواب الإفصاح عنها •

---

(١) مرحلة الإنطلاق من التجريب إلى التجريد لا يوجد اتفاق بين الباحثين في تحديد نشأتها ، كما لا توجد بيانات دقيقة عن أول من قام بها على الناحية التنظيمية الإبداعية •

(٢) وليم بري : الإنسان والعلم ، صـ ٣٧ ، ترجمة صفاء زاهر ، ط. اولى ، سنة ١٩٩٧ ، واستنتاجات بري قد يكون لها شيء من القبول •

(٣) فكرة تصدير المعارف وتعليبها أو تغليفها ، مسألة محسومة من الناحية الفعلية ذات الارتباطات الواقعية ، وإن لم تكن معروفة من الناحية الإخراجية •

(٤) إدوارد فوستر : الفلسفة والعلوم التطبيقية ، صـ ١٥٣ ، ترجمة ، الإستاذ فوزي محسن رزق وراجع لانجلر فوكان : العلم تاريخه ومذاهبه ، صـ ١٣٤ / ١٤٥ ، ترجمة خالد حسن •

ويعتقد " فلوجل " أن عملية التوظيف للإبداعات المتعددة داخل قطاعات الزمن الماضي ، قد درجت في كافة القطاعات المختلفة ، وبخاصة المجالات الزراعية ، والصناعية ، بجانب الطبية ، وأن العلوم الرياضية كانت الميدان الأكثر رحابة ، والأوسع إنتشارا ، نظرا لحاجة الإنسان ألما قبل العصور التاريخية إليها[١]، وهذا مما يؤكد حاجة الإنسان إلى المعرفة المتواصلة ورغبته الإعلان عنها ، وحركته الدائمة نحو الاستفادة بها

من اليسير القول بأن العلم الإبداعي أقتصر على الجانب التجريبي الذي انتقل به إلى الناحية التجريدية ، وصارت إبداعاته تقاس بها ، لأن الخروج من المجسمات إلى المجردات يمثل لونا راقيا من العلم داخل نطاق المراحل البدائية الأولى ، وأن هذه الإبداعات ارتبطت بالعملية المنفعية الخالصة[٢]، التي عنيت ببحث بعض المعضلات التي واجهت الإنسان ، وكانت عقبة أساسية في سبيل وصوله إلى سد كافة إحتياجاته الضرورية والثانوية على قدر سواء •

وكلما إستطاع الإنسان إطعام نفسه وأهله ، ووجد الملجأ الذي يقيه تقلبات الجو ، وهجمات الحيوان المتوحش ، واعتداءات الآخرين ، فإنه يكون صاحب رؤية توافقية ، أما إذا وقفت دونه هذه العوائق ، وأمكنه التغلب عليها ، فإنه يتحول من توفيقي ، أو توافقي إلى باحث إبداعي [٣]، مهما كانت الدائرة التي تحيط به ، ومن الصواب القول بأن إبداعاته إذا بلغت الميدان التطبيقي ، وكان لها أثرها في مجريات حياة الآخرين ،بحيث تدار على ناحية

---

(١) جورج فوجل : فلسفة العلم ، صـ ١٤ ، ترجمة زكريا محمد ، مراجعة د. خالد عصفور ، وراجع لول ديورانت : قصة الحضارة ، ففي كل جزء من أجزاء هذه الموسوعة حديث عن العلم لدى الطائفة التي يؤرخ لها ، ولكنه لم يضع متابعة التطورات المتلاحقة للعلم فيما بعد ، لأنه لم يكن من أغراضه على مايبدو •

(٢) ويعتقد الكثيرون من الباحثين أن تغليب المنفعة الذاتية على غيرها كان السمة البارزة في حياة الإنسان الأول ، حتى أطلقوا عليه في بعض المراحل اسم الإنسان النفعي ، راجع كتابنا : تأملات غزالية في الفلسفة الشرقية ، صـ ١٥٧ •

(٣) عملية الإنتقال والتحول من التوافق إلى الإبداع ، تمثل مرحلتين ، كل منهما تعضد الآخرى ، أو توصل إليها، ومن ثم ، فالفصل بينهما إنما هو أمرإعتباري ليس إلا ، والإبداع سمة في الإنسان القديم والحديث علىالسواء،إنه إحدى المنح الإلهية المتواصلة الداخلة في نطاق قوله تعالى " وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ " سورة النحل الآية ١٨ •

متكاملة ، فإنها تكون حينئذ موظفة علميا على ناحية من النواحي •

وأهم المعضلات التي واجهت الإنسان الأول ، يمكن تصنيفها في عدة مجموعات بحثية تجيء على جهات عديدة وتؤدي إلى منافع متعددة ، يقول " سارتون " كان الأقوام الأوائل يواجهون طائفة من المعضلات الفنية ، وصار من الواجب عليهم أن يقدموا حلولا لها ، إذا أرادوا أن يعيشوا ، وإن يحسنوا أحوالهم بعد ذلك وأن يخففوا أعباء حياتهم(١)، وكان عليهم أن يكتشفوا إيقاد النار ، وأن يجربوا استعمالها في طرق شتى ، ومن ثم فقد ظهرت الحاجة إلى آلات للقطع ، والنحت ، والسلخ ، والحك ، والصقل ، والضغط ، وأحداث الحروق ، وتناول الأشياء ، ووصل بعضها ببعض ، لا عند الزارع فحسب ولكن عند البدوي المتجول ، كذلك ، وكل آلة إنما كانت تمثل إختراعا منفصلا (٢) •

الصورة الثالثة : تصحيح المسار العلمى

ما من شك في أن العلم داخل نطاق المرحلة الإبداعية ،يصحح مسيرته الأولى على الدوام ، بحيث يعيد ترتيب المواقف السابقة إلى وضعها السليم متى كان ذلك العلم قائما على وجه صحيح ويقصد الوقوف على غاية صحيحة ، بدليل أن الإنسان القديم استخرج نظريات علمية ، ظل يمارس الاحتكام إليها ، دهورا متطاولة ، ثم استطاع الإنسان اللاحق له بيان أوجه القصور فيها ، فإندفع يصلح مابها ، ويصحح الأخطاء التي صاحبتها في مراحل تطبيقها من غير خوف أو خجل(٣)، بل ربما لاقى بعض العلماء النهايات المأساوية أثناء محاولاتهم تصحيح النظريات والأبحاث العلمية القائمة ، والتي كان القدماء يعتقدون أنها سليمة تماما •

من الواضح أن عملية التصحيح لم تكن مقصودة بذاتها ، وإنما تم إكتشاف الأخطاء أثناء البحث العلمي الجديد، عن طريق الإمكانيات التي لم تكن متاحة من قبل ، بجانب

---

(١) هذا الواجب مفروض على الإنسان العاقل من داخل نفسه، أو على الأقل يمكن القول بأنه ثابت في وجدانه ، قائم بفطرته من الصعب التخلي عنه •

(٢) جورج سارتون : تاريخ العلم ، جـ ١ ، وقد ألمح إلى هذه الفكرة أيضا هنري بريستيد في كتابه " فجر الضمير " ، وإنطوان هيفر في كتابه " العلم ومراحله الأولى " •

(٣) وقد لاقى بعض الباحثين العديد من المواقف القاسية في سبيل إعلان الحقيقة ، ولم تفلح الجهود القاسية لإثنائهم عن إعلان هذه النتائج المتميزة •

الرغبة في تقديم نتائج أكثر دقة أو عمومية ، ومن هنا ظهرت عمليات التصحيح المتواصلة حتى صدرت عن الباحثين في المجال العلمي عبارة " العلم لا يعرف الكلمة الأخيرة " [١]، والتي صارت بمثابة القانون العلمي الذي يحتكم إليه في تنشيط العلماء ، ودفعهم إلى اكتشاف الجديد ،بجانب المساهمة في استخراج قوانين علمية جديدة ، تكون لها سيطرة أكبر من ذي قبل •

فمثلا : نظريات كل من الطفو والجاذبية ، والسقوط صارت لها قوانين عديدة ، بدليل أن نظرية الطفو استقلت بقوانينها بعد التعديلات التي طرأت عليها [٢]، وكذلك الجاذبية صارت لها هي الآخرى قوانين استقرانية تجري عليها العمليات التطورية ، كما أن نظرية السقوط ، كانت في الماضي تفسر طبقا لمعطيات العصر الذي بدأ الحديث عنها فيه ، وكانت جملة النتائج التي تحيط بها مقبولة [٣]،لأنه لم يكن هناك ما ينفض عنهاالصحة المدعاة ، أو يخالف ما هو قائم بشأنها من طريق علمي آخر •

فلما تقدمت الأبحاث حول نتائج هذه النظريات المتعددة ظهرت جوانب تعوق عن التطبيق الكلي في صور استقرانية جديدة ، وقد لاحظ الباحثون أوجه القصور ، فقاموا بإعلانها ، كما سعوا إلى ترميم القواعد التي أوشكت على الإنهيار ، وكانت من قبل مدعاة الفخر والانبهار •

خذ مثالا عمليا، وهو نظرية الجوهر الفرد ،الذرة[٤]، حيث كان الباحثون في الماضي يعتقدون أن الأجسام تتركب من وحدات صغيرة أو متناهية الصغر ، حتى أنها لا تقبل

---

(١) وصارت هذه العبارة بمثابة القاعدة العامة التي يتم استخدامها في العديد من المجالات من غير اعتبار لشيء آخر ، إذ صار المرء يكتفي بمجرد سماع هذه الجملة الإخبارية ذات الترتيب الدلالي •

(٢) انتشرت هذه القوانين في علم الفيزياء الحديثة ، وصار التعامل فيها يتم من هذه الناحية دون نظر لشيء آخر ، وقد كثرت التعديلات على هذه القوانين •

(٣) هذا القبول الأولي لها ، لم يكن عشوانيا ، وإنما تم بناء علي أن هذه النتائج كانت أفضل ما وصل إليه الإنسان صاحب العقل العلمي في هذه الفترة التاريخية ، أو على الأقل الفترة الإيجابية في العلوم والمعارف العلمية •

(٤) المذهب الذري له تاريخ طويل ، وسبق زماني يمتد من عصور التفكير الأولى ، ثم حدثت له تطورات جاءت نتائجها قائمة في مدلولات بذاتها ، ولذلك فلا يجوز فصل هذه الموضوعات الدراسية عن بعضها ، مادامت العلاقة قائمة ، والغاية واحدة •

القسمة بحال من الأحوال ، لا واقعا بالفعل ، ولا عقلا بالإمكان[1]، وتقوم هذه النظرية في أن الأجسام تتركب من أجزاء صغيرة متجانسة لا تختلف فيما بينها ، إلا بإعتبار الأشكال والصور التي تبدوا فيها ، ومن ثم فإختلافها في التركيب يؤدي إلى إختلافها في الصفات الحسية [2]، ومن هنا ذهب القدماء إلى أن هذه الذرات الأبدية لا تقبل القسمة إلى أقل مما هي عليه .

ثم جاء من بعدهم ، وحاولوا توظيف هذه النظرية في تفسير القوانين الكيميائية حتى انتهوا إلى أن هذه الذرات يمكن تقسيمها إلىأجزاء أقل أو أصغر ، ومن ثم فهي ليست أبدية ، ولا خالدة [3]، وأثناء هذه العمليات التطويرية تأكدوا أن الذرات يمكن أن يقع لها الفناء ، وقد ساعدهم على ذلك اكتشاف مواد ذات طاقة إشعاعية ، كاليورانيوم ، والرديوم ، والهليوم ، وإنتهى الأمر معهم إلى التأكيد بأن التجارب ذاتها حكمت بان الذرة تتكون من جسيمات صغيرة أقل حجما من الذرة ، ويمكن قياسها عن طريق الوزن الكمي أيضا ، كما أن الباحث العلمي يستطيع التعرف عليها في صورها المختلفة.

وحتى لا تكون العملية العلمية مجرد فروض خيالية [4]، أجرى هؤلاء الباحثون تجاربهم العديدة التي توصلوا منها إلى أن الذرة تتركب من نواة وكهارب ، وكل منها له ظروف خاصة به ، وقد تأكد لديهم ذلك من حيث كانت تجاربهم تاخذ طريقين :

---

(١) عرفت هذه النظرية بإسم الذرات المتجانسة لدى اليونان ، وباسم الذرات الجامدة لدى الهنود وباسم الجواهر الفردة عند غالبية مفكري المسلمين المتقدمين ، وكل تناولها من جانب غير الذي اتجه إليه الآخر ، وهي مسألة مهمة ، يجب الإنتباه إليها ، والتركيز على نتائجها .

(٢) هذه النتائج تراكمية ، جاءت من الأرصدة التي سبق القول بها عند الباحثين المهتمين بهذه الجوانب المتعددة ، لمزيد من التفاصيل راجع كتابنا : التفكير الإنساني أصوله ومستوياته ، صـ ١٥٣ وما بعدها .

(٣) لأنها لو كانت أبدية أو خالدة ، ما أمكن تقسيمها إلىأجزاء صغيرة ، بل وماوقع عليها الفناء أبدا ، إذ كيف تكون خالدة وفاسدة في ذات الوقت ، وهي مسألة واضحة الدلالة .

(٤) الفرض الخيالي هو فكرة طارئة على عقل صاحبها ووجدانه ، غير واقعة في النطاق العلمي ، ولكنها ليست مستحيلة الوقوع أو الوصول إليها في المستقبل ، طالما أن العلم قد أعلن أنه لا يعرف الكلمة الأخيرة .

أحدهما : أمرار شرر كهرباني في أنبوبه خاصة ، تم تفريغها من الهواء إلى درجة كبيرة جدا ، وحيننذ تلاحظ لديهم وجود تيار من الكهارب الطائرة التي لا ترى بالعين المجردة ، وقد تم التعرف عليها من خلال ظهور توهج زجاج الأنبوبة مفرغة الهواء أثناء مرور الشرر الكهرباني بها ، .وكان هذا التوهج فسفوريا [١]، فتم الحكم بوجود جسيمات ضئيلة جدا أقل من الذرة في الحجم والمقياس الوزني وثبت أن الفرض العلمي صار حقيقة واقعة ٠

ثانيهما : وجود تيار مغناطيسي قريب من الأنبوبة المفرغة من الهواء ، له تأثير قوي عليها ، وبالتالي ، أمكن تغير اتجاه هذا التيار من الكهارب ، ومن هنا حكم المجربون بأن الكهارب السالبة تدور حول النواة في مدارات منتظمة لا تخرج عنها ، وأن هناك فضاء يتخلل هذه الكهارب ، وأن ذرات الهليوم التي تخرج من مادة ذات طاقة إشعاعية يمكنها إختراق المواد الأخرى كالرديوم واليورانيوم [٢] ٠

من هنا ، يمكن القول بأن تاريخ العلم تظهر فيه حركات تصحيحية ، وأنها تتم داخل المجالات العلمية المختلفة ، وأكثرها ظهورا في الميدان التجريبي ، فهو الأسرع إلى هذه المسائل ، ومهما خطا العلم النظري خطوات سريعة لملاحقة ما يقوم به العلم التجريبي، فإنها تظل مقيدة بعوامل عديدة [٣]، بل أن عملية التصحيح للمسارات الخاطئة ، ربما اتخذت أشكالا جدلية نتائجها تكون قليلة الفائدة في أغلب الأحيان ، وقد تكون منعدمة الفائدة أيضا ٠

ثانيا : تاريخ فلسفة العلم

ما من دارس لفلسفة العلم إلا ويحاول الوقوف على حقيقة التاريخ الذي ظهرت فيه، وكل من توجه إلى دراسة هذا الجانب تعنيّ ، ولم يصل إلى شيء مما تمنى ، ولا أزعم

---

(١) كون التوهج يتم فسفوريا ليس مجرد وجهة نظر ، وإنما هو حكم علمي أمكن للباحث العلمي الوقوف عليه ، وقد أكدت التجارب هذه المسألة عدة مرات ، ومن ثم جاءت النظرية في درجة أعلى من مجرد الفرض العقلي أو العلمي ، إلى ما يقرب من القانون ٠

(٢) راجع كتابنا : مناهج البحث بين التقليد والتجديد ، صـ ٣٤٥ ٠

(٣) العلم التجريبي له وقائع محددة وأثاره تظهر بسرعة ، وفي صور كثيرة ، وبالتالي فليس من الصواب القول بأنهما يتساويان ٠

إنني الذي سوف يظفر به ، كما لا أدعي أنني أكون قريبا منه على الحقيقة[١]، كل ماأستطيع الإفصاح عنه ، هو أنني سأحاول الوصول إلى ما يغلب عندي أنه الحقيقة ، فإن وفقت فذلك الفضل من الله ، وإن لم يكن ، فيكفيني شرف المحاولة الكريمة ، وبناء عليه فلا بد من تقسيم الحديث عن تاريخ فلسفة العلم إلى قسمين أساسيين هما :

أ - تاريخ النشأة لفلسفة العلم

ب - تاريخ التأليف في فلسفة العلم

ونظرا لتقارب كل منهما لدي أفهام الكثيرين ، فسأعمل على عرض كل من القسمين في صورة تسمح بالنظر إليها على النحو التالي :

القسم الأول : تاريخ النشأة لفلسفة العلم

جرت القاعدة على أن كافة العلوم الإنسانية التحصيلية لم تكن موجودة من قبل ، ثم حدث الإكتساب لها على التوالي والإنقطاع من خلال الإشارات النقلية ، والتجارب العلمية بجانب الابدعات المتوالية[٢]، وهذه القاعدة العامة تسري أحكامها على كافة العلوم ، وجميع الفنون من ناحية الأصول ، وهذا يقترب في مثاله من البنية الأولى للإنسان حيث ظهرت باقي الخلايا منتشرة من الخلية الأولى على الناحية البيولوجية ، وكذلك مايتعلق بالعلوم والمعارف من الناحية الإبتدائية الإنشائية ، وقد ظهرت هذه من خلال مراحل عديدة من أبرزها :

أ - مرحلة الإختلاط

من الواضح أن الملامح الأولى لفلسفة العلم كانت ضمن البذور التي نقلها العقل الإنساني الواعي من خلال تجاربه ، ولكنه لم يصنفها أستقلالا ، وإنما كان يكتفي بمتابعتها داخل هذا الإطار العلمي بالمعنى العام [٣]، أما لماذا ، فلما يأتي :

---

(١) من يدعي شيئا من ذلك . فهو الذي يتحمل نتائجه ، والإنسان العادي ، يمكنه أن يحرص تمام الحرص حتى لا تزل قدماه ، أو يسقط في محيط لا قرار له .

(٢) من يراجع ماسلف ذكره في هذا الكتاب ، يجد أن العلم النقلي له وجود قوي في كافة المجالات التحصيلية أيضا ، لأنها به تجيء ، ومن خلال توجيهاته تستمر وتبقى.

(٣) راجع كتابنا التفكير الإنساني أصوله ومستوياته ، صـ ٢٥٣ ، وكتابنا : الحثيث في المنطق الحديث ، صـ ١٤٧ .

١ - أن البناء العلمي الإنساني قد مر بعدة مراحل أو أطوار إنشائية ، كانت عملية الاختلاط هي السمة الغالبة عليها ، او القاعدة العامة التي إنطلقت منها ، ثم أخذت المسائل في التطور من البدايات إلى الأوساط حتى بلغت فيما بعد النتائج ، وبالتالي فالمراحل المتوالية لم تتم مرة واحدة ، ولم يكن لهذا العلم أو ذاك استقلال أو تصنيف ، إذ كان الكل مدرجا ضمن ما يعرفه الإنسان أو يعلمه[١]، بمعنى أن هذه المعارف كانت هي الموضوع المعرفي، ولم تكن هي المعارف ذاتها •

٢ - إن الحركة العقلية في هذه المرحلة ، لم تكن قادرة على ممارسة دور نقدي منفصل ، بقدر ما هي قادرة على التوفيق بين المعارف التي تحقق المنفعة الذاتية والمجتمعية ، في هذه الفترة ، كما لم تكن هناك أسماء محددة يمكن إطلاقها على هذه العلوم ، كأن يقال هذا علم الطب ، أو علم الفلك ، أو علم التاريخ ، لأن مرحلة الفصل بين الموضوعات البحثية لم تكن قد برزت معالمها [٢]، كل ما يمكن الجدل بشأنه هو إمكان وجود المعرفة من عدمه •

٣ - إن عملية التطور الأولى طرحت على العقلية المفكرة سؤالا محددا ، وطالبتها تقديم إجابة بشأنه ، وهو من هو الباحث ، وما هو موضوع بحثه ، فإذاتمت الإجابة أمكن بحث العلاقة بين الباحث والمبحوث ، بين المعلوم والذات العالمة[٣]، ومن هنا بدأت المراجعة لقائمة الأفكار الرأسية والانتقالية ، ثم تطورت إلى القائمة الانتقائية ، من خلال جهود إنتقالية شديدة الترابط ، كثيرة العري التي يصعب التفريط فيها •

---

(١) هذه المرحلة الإختلاطية تكون بمثابة المخزن الذي توجد فيه المعلومات الكثيرة ، بحيث يأخذ منها كل باحث ما يحتاجه من غيرأن يشعر بحرج ، أو يخالط وجدانه المن والآذى ، لأنه يحرص على المساهمة في ذات المخزون الرصيدي ، كما يأخذ منه

(٢) الإتجاه الحركي العقلي لا يمكن تجاهله ، وفي نفس الوقت يظهر دور العلم في المجال النقدي المنفصل عن التجارب الانتقالية ، راجع كتابنا : الحثيث في المنطق الحديث ، صـ ١٤٣ ، وكتابنا : النديم في المنطق القديم ، جـ ١ ، صـ ٤٥٢ •

(٣) هذا الإتجاه البحثي كان هو الغالب في كافة المجالات ذات الصلة البحثية بكل ما من شأنه تقديم خدمة متميزة للعلم بالمعنى العام •

٤ - إن عمليات التفسير التي ارتبطت بابداعات الحركة العقلية ، والبحث عن اسبابها النفسية والعقلية ، وعلاقة ذلك بالقدرات الخيالية التنبنية الموجهة لحل المشكلات المعرفية التي لم تكن ذات سيادة ، أو شيوع [١]، بحيث تتكون عنها حركة نقدية واسعة ، يمكن أن نطلق عليها فلسفة علم ، أو علم العلم ، او غير ذلك من المصطلحات الحديثة [٢] .

مما سلفَ، تبين أنه لم تكن هناك تصنيفات للعلوم على وجه يسمح بإصدار أحكام تتعلق بتاريخ نشأة فلسفة العلم ، أو غيرها من العلوم التي عرفت فيما بعد ، نظرا لإرتباط المعارف والعلوم بالمنافع الذاتية الوقتية ، وضيق المساحات البحثية ، وندرة التجارب التي كان يقوم بها الإنسان الأول بجانب فقدان الوسائل الاعلامية التي تنقل هذه الأفكار الرأسية بطريقة تسمح برصدها [٣]، ومراجعتها ، ثم تصنيفها ونقدها .

بل يمكن القول بأن فلسفة العلم كان لها وجود بذري ، صوري ، غير مدرك استقلالا، ولا واقع تحت مسمى بذاته ، فهي موجودة داخل الممارسات العقلية لكنها غير قائمة في نطاق تسمية بذاتها ، وهو ما يمكن الوقوف عليه في مرحلة النشأة الاختلاطية[٤]، مع ملاحظة أن هذه المجهودات العقلية لم يقصد بها دراسة المنهج ، ولا تقديم دراسات حول الموضوعات البحثية ، أو بحث العلاقة بين نظرية العلامات والأنساق الرمزية ، فذلك كله مستحدث ، برزت معالمه في مراحل لاحقة .

ب - مرحلة الاستقلال النوعي

---

(١) راجع كتابنا :النديم في المنطق ، صـ ٣٧١ ، وكتابنا : التفكير الإنساني أصوله ومستوياته صـ ٢٣٤ .

(٢) علم العلم ، هو تحليل ووصف للعلم من وجهات نظر متعددة ، كالمنطق ، وعلم المناهج ، وعلم الإجتماع ، وتاريخ العلم ، بل وتحليل لغة العلم أيضا بطريقة محايدة ، حيث تتم هذه العمليات في موضوعية تامة ، وهو إتجاه يغلب على بعض المنتسبين للعلم في العصر الحديث راجع كتابنا : التفكير الإنساني أصوله ومستوياته ، صـ ١٣٥ .

(٣) هذه المسائل مما لا مجال لإنكاره ، لأنها صورة واقعية تميل إلى التعبير عن الفكر الذي يجب أن يؤخذ به في عين الإعتبار ، ومن المؤكد أن الطرائق البحثية متنوعة ، ولكنها في ذات الوقت ليست انفلاتية وانما تخضع للتقنين العلمي في صورة من الصور .

(٤) وهو مايعرف بأسم الاستنفاذ العلمي ، والتمهيد القصدي الذي يتصدى لمشكلات بعينها ، ثم يسعى إليها ، ويقدم لكل واحدة منها حلولا ذات إمكانيات توافقية أو تعاطفية ، وهنا تبدو اشكالية غير طبيعية ولا علمية .

وهي التي عنيت ببيان حدود العلوم ، والتركيز على العلاقات القائمة بينها ، مع الإشارة إلى النتائج المترتبة على هذه الجهود النوعية ، التي تتعلق بدراسة الأبعاد التي تساق داخل إطار ثقافي أو ديني ، فهي مرحلة تكشف عن وجه الاستقلال النوعي[١]، لكل علم على حده ، ثم علاقة كل هذه العلوم ببعضها ، من خلال مجموعة مناهج ذات طبيعة خاصة ، قد يقع لها الإرتباط النوعي ، او المنهجي ، او النتائجي •

في هذه المرحلة ، أمكن لكل علم أن تكون له خصوصياته ، من الإسم المعروف به ، والموضوعات التي يبحثها في شكل أولي ، أو إبتدائي ، بجانب المنهج الذي يمكن أن يفيد بالنسبة لدراسة مسائله والوصول إلى نتائجه ، وطريقة الإستفادة منه . وكان التساؤل المفروض على العقل[٢]، هو ما الغاية من هذا العمل ، التصنيفي ، أو ما فائدة العلم ، أهو الذي كشف عنه المنهج الغائي ، ومن ثم نما هذا الاستقلال وتطور حتى بلغ مراتب متقدمة، صارت في الزمن المستقبل علوما متمايزة تظهر في كثير من المظاهر المختلفة •

ليس من الصواب القول بأن عملية الاستقلال النوعي بين العلوم ظهرت أولا في مصر أو اليونان ، في الصين أو بابل ، فذلك ضرب من الالقاء في المجهول ، لأن الوقائع التاريخية في هذه الفترة لم تكن تسجل بشكل يسمح بإصدار مثل هذه الأحكام ، وما يمكن قوله في جرأة حقيقية ، هو انه مادام التاريخ العام لم تكن تسجل وقائعه بدقة شديدة ، او توثيق معتمد حول هذه المسائل ، فإن جميع الاحتمالات تكون قائمة [٣]، وطبقا لهذه النظرية ـ الاحتمالات ـ يمكن القول بان جميع العلوم والمعارف كانت لها وجودات مستقلة في صور نوعية ، حتى وإن لم تكن معلنة ، أو أمكن تركيز الجانب الإعلامي عليها •

---

(١) راجع كتابنا : نظرية المعرفة عند ابن رشد ، صـ ٧٣ ، حيث يمكن ضبط هذه المرحلة من خلال فكرة الاستقلال النوعي •

(٢) العقل يقبل أن يفرض واجبات نحو الغير ، كما يسمح هو الآخر لنفسه أن يفرض على الغير أمورا كثيرة ، وتتم ذلك من خلال فكرة الواجب والحق على الناحية التبادلية ، فكل حق يقابله واجب ، يسبقه ويتحرك قبله •

(٣) راجع كتابنا : الحثيث في المنطق الحديث ، صـ ٢٣٢ ، وكتابنا : مناهج البحث بين التقليد والتجديد ، صـ ٢٣٥ / ٢٣٦ •

من الممكن أيضا القول ، بانه قد حدث تطور داخل كل هذه العلوم ، قام به العقل الإنساني من خلال حركة عقلية واعية ، سواء أكانت منظمة ، أم غير منظمة ، أنتهت إلى إحداث صورة من الفصل النوعي الأكثر دقة [١]، حيث عرفت العلوم الأولى في أسماء واسعة كاللغة ، والتاريخ ، والفن ، بل حتى الدين نفسسه ، حين اعتبروه علما أطلقوا عليه أسم الدين وهذه الأسماء تغلب عليها السمة الجماعية ، لأن كل واحد فيها يحتوي العديد من العلوم ذات الصبغة الخاصة التي تجمعها [٢]، أما لماذا ؟ فلآن المعارف والعلوم تراكمية عندما تتجه بها للخلف ، او الأصول التي قامت عليها لكنها استقبالية عندما تتجه بها للأمام ٠

جـ ـ مرحلة الإنفصال التام

وهي المرحلة التي تم فيها فصل كل مجموعة معرفية ذات اتفاق موضوعي عن المجموعات الأخرى التي قد تكون لها اشتراكات وسائلية ، كالعلوم الإنسانية ، والعلوم التجريبية ، والتطبيقية ، وتصنيف هذه المجموعات الإنفصالية ، ثم إعادة التصنيف داخل ذات المجموعة النوعية من جديد ، بحيث تصير كل جزئية منها ذات استقلال إسمي ، موضوعي منهجي [٣]، فاللغة كمجموعة مصنفة من الناحية الموضوعية ، أمكن توزيعها إلى كتابة ، نحو ، جمال ، تذوق ، وصار كل واحد من هذه الجزئيات ـ فيما بعد ـ علما له استقلال خاص على ناحية تامة تحاول الاستقلال التام ٠

وتاريخ العلم يقرر هذه الحقيقة ، وأنها اول ما بدأت كان التركيز نحوها قائما على الغائية ، وليس الموضوعية[٤]، ثم حدثت تطورات عديدة ، جاء الانفصال فيها من خلال

---

(١) وهذا مما يتعلق بالفصل النوعي ، إلا أن المسألة احتفت بها العديد من الصور الإحداثية التي ساهمت في تقدم العلوم وتطورها بشكل سريع ، نتج عن ذلك ظهور أنواع معرفية جديدة وعلوم لها استقلال تام ٠

(٢) الدين شرع الله تعالى ، لكن الدين بمعنى العلم ، هو المسألة التي يعول عليها الغرب ، ولا يعرفهاأهل الإسلام ، لأن الدين عندنا نحن المسلمين هو شرع الله تعالى الذي جاء من عنده جل علاه على ألسنة أنبيائه ورسله ٠

(٣) راجع كتابنا : مناهج البحث بين التقليد والتجديد ، صـ ١٣٤ ، وكتابنا الخطاب بين الأصوليين ودعاة الحداثة ، صـ ٨٣ ٠

(٤) الفرق بين الغائية والموضوعية هو ذات الفرق بين الأهداف والأسباب ، يعرف هذا من له أدنى إلمام بالمسائل العلمية على جانب الموضوعية والغائية ٠

الموضوع ، والمنهج ، والغاية ، والمصادر ، والوسائل التحصيلية ، وهذا الذي يتم التاريخ له مع بدايات العصور التاريخية التي صار التدوين أحد مظاهرها الأساسية ، وكانت فلسفة العلم لها وجود نوعي في تلك المرحلة(١) ، لكن داخل إطار الفلسفة بالمعنى العام •

لأن الفلسفة كانت تقوم بمهام عديدة ، تتوافق مع طبيعة الفكر الإنساني والعلمي وقد دارت هذه المهام في نطاق محاور ثلاثة أساسية : هي المعرفة ، والقيم ، بجانب الوجود فإذا نظرنا إلى محور المعرفة مثلا ، أمكن القول بأن أنواع المعرفة تدور في نطاقها ، وقد سمح هذا بإتاحة فرصة ضئيلة لظهور قواعد جديدة وقيام علوم انفصالية ، حتى وإن كانت ذات سمات تجريبية(٢).

فخرج الطب الجراحي مثلا من عباءة المعرفة التجريبية ، ثم إنفصل عن أعمال الكهنة والسحر ، وصار علما مستقلا ، إذ كانت غايته حفظ الحياة ، وقد جمع علم الجراحة بين نتائج المشاهدة الطويلة ، وبين العمليات التي تمت على أيد ماهرة ، وانفصل أيضا عن الخرافة والأساطير ، فهو في الأصل علم معرفي ما في ذلك أدنى شك ، ولكنه تجريبي حقيقي يتميز بالملاحظة المنتظمة ، والتجارب الدقيقة (٣) ، كما انه في الأصل علم إنساني الغاية والأهداف ، تجريبي الوسائل والموضوعات •

كذلك ، أنفصلت الفلسفة عن كل من الاجتماع ، والتاريخ ، ثم برزت العلوم العقلية الخالصة ، كالمنطق ، والأخرى الجامعة بين التجريبي والتجريدي في المفاهيم القسرية ، كالرياضة والهندسة ، فإنها تجريبية تجريدية ، ثم تطورت هذه الأصول حتى وصلت إلى نتائج أخرى ، استحداثية، عبرت عنها مجموعة من العلوم ذات الصبغة الفنية الخالصة(٤) ،

---

(١) هذا الوجود النوعي لفلسفة العلم ، يمكن التعرف على أصوله ومظاهره في الكثير من النواحي بل أن أغلبها من السهل الوقوف عليه في اشكال قوية ذات ثقل علمي ، وارتباط وزني كيفي ، حتى وإن جاء معه الكمي أو لم يجيء •

(٢) راجع كتابنا : التفكير الإنساني أصوله ومستوياته ، صـ ١١٩ ، وكتابنا : الحثيث في المنطق الحديث ، صـ ٢٣٤ •

(٣) راجع للدكتور مصطفى الديواني : حديث في الطب ، صـ ٤٣ ، والدكتور نظمي فايز : الطب الحديث ، صـ ١١٥ ، ط. ثانية سنة ١٩٦٧ ، وكتابنا : مناهج البحث بين التقليد والتجديد ، صـ ٢١٩ •

(٤) من المؤكد ان البحث العلمي له بدايات يقوم عليها ، وقواعد ينطلق من فوقها ، فذلك أمر محتاج للمراجعة الدائمة لكافة القضايا الضرورية ، لأنه يقدم حلولا سريعة فعالة بالنسبة للعلم والمستفيدين منه •

وكانت فلسفة العلم في كل هذه المراحل عبارة عن أحد الأنسجة التي توجد داخل هذه العلوم من خلال الحركة النقدية الواعية التي مهمتها الوقوف على حقائق الأشياء ، وعدم الرضوخ للأوهام ، أو الاستسلام للخرافات والأساطير •

أجل ، لم يكن في هذا الزمن علم اسمه فلسفةالعلم ،بحيث يصنف داخل المجموعات العلمية كالحساب ، والجبر ، والهندسة ، مثلا ، أو البلاغة ، أو التاريخ والاجتماع ، لأن هذه المرحلة تمثلت فيها صور الإنفصال لكليات العلوم ، ذات الموضوعات النوعية ، والأهداف أو الغايات النتانجية من الناحية المعيارية[١]•

وهي تمتاز عن سابقتها بالإعلان عن اسم العلم الذي تبحث فيه بالمعنى الفني العام، والموضوعات المحددة بحثيا ،بجانب المصادر التحصيلية ، والأهداف ، أو الغايات ذات التوجهات الانتقائية وبالتالي ، فكل واحدة من هذه المراحل الداخلة في نطاق تاريخ النشأة تتكامل مع بعضها ، بحيث تكون اللاحقة قائمة علىالسابقة ، وكل واحدة منها تتواصل لاحقتها مع سابقتها ، و كأنها تتسلم منها ناتج مهامها •

القسم الثاني : تاريخ التأليف[٢]

لا شك ان الحديث عن تاريخ التأليف في فلسفةالعلم ، يختلف كثيرا عن الحديث حول تاريخ النشأة ، نظرا للفارق الكبير بين الأمرين ، من ناحية ، والعلاقات القائمة ، والأحكام التي يمكن إصدارها في نوع من الثقة او شيء من اليقين ، ولو كان نسبيا على ناحية أخرى ، أما لماذا؟ فلما يأتي :

١ - إن النشأة المعرفية إقترانية ، تصاحب العقل الإنساني منذ وجود الإنسان الأول حيث كان هذا العقل غير قادر على تلمس شيء ما فوق منفعته الذاتية الخاصة ، أو تلبية احتياجاته الضرورية إذ أن هذا العقل قد شغل أول أمره بتحصيل المنافع ، ولم يكن يبحث

---

(١) من الواضح أن إطلاق فلسفة العلم على الناحية التأليفية ذات الإتجاهات الدقيقة أمر له أهميته في البحوث العلمية ، ومنها فلسفة العلم ذاتها ، بل أن ذلك يدعم الموقف، ويمهد لظهور معارف جديدة تحت جناح الأصل الذي نشأت منه •

(٢) يطلق التأليف في اللغة على الجمع والترتيب ، والتتمة، بجانب التدوين الدقيق لعلم من العلوم أو فن من الفنون ، إلىغير ذلك من الوجوه ، راجع ، لسان العرب ، باب الهمزة•

عن طرائق دفع المفاسد لأن السعي للحاجيات يكون في الفطرة أسرع ضغطا على إمكانيات المرء من أي شيء آخر [١]، أما تاريخ التأليف فقد جاء متأخرا عن ذلك بوقت طويل ، نظرا لعدم وجود الدوافع الأولية إليه وكذلك إنعدام الوسائل التدوينية ٠

٢ ـ إن تاريخ نشأة فلسفة العلم من الناحية الموضوعية قديم جدا ، نظرا لإرتباط ذلك بنشأة العلوم الأساسية ، أما تاريخ التأليف في فلسفة العلم ، فهو متأخر نظرا لطبيعة كل منهما ، والدواعي التي أدت إليه ، وهي مسألة تحتاج لمزيد من الدراسة الوثائقية ، ومصدر ذلك علم التاريخ العام ، وكذلك العلاقات التبادلية بين التاريخ العلمي الإحداثي والتاريخ الفردي الأشخاصي [٢].

٣ ـ إن الحاجة لدراسة نشأة فلسفة العلم سابقة على دراسة البحث في الجوانب التأليفية ، ومن ثم فهذه الحاجة دفعت المفكرين لمراجعة الجوانب الإنشائية للعلوم ، حيث انتهى الأمر إلى تأكيد سبق الحديث عن النشأة ، مع بيان وجودها داخل الأبحاث العلمية المختلفة [٣]، وهذا مما تؤكده كافة الدراسات التي اتسمت بالموضوعية ٠

٤ ـ إن عملية التأليف تحتاج إلى تقرير بياني إحصائي يقوم به باحث في فلسفة العلم ، من الناحية الاستقرائية ، وهذا لم يكن متوفرا في الماضي نظرا لإنطواء فلسفة العلم داخل أجنحة العلم ، ودخولها تحت عباءته [٤]، أما عملية الحديث عن النشأة فلم تكن بحاجة إلا إلى مؤرخ قادر على تدوين الأحداث التاريخية ، ومراقبة الإجراءات التي

---

(١) وهذا ما تشهد به الوقائع المشاهدة ، بجانب التجارب المتواصلة ، ومرجع ذلك إلى القواعد الفطرية التي خلق الله الإنسان مزودا بها ، وهي تجري بداخله كإنها السلوى التي لا مفارقة لها ، ولا إبتعاد عنها ٠

(٢) الفرق بين التاريخ العلمي الإحداثي والآخر الأشخاصي هو ذاته الفرق بين الأحداث والأشخاص من خلال الوعاء الزمني ، بجانب الاعتبارات الأخرى ٠

(٣) ولا شك أن هذا الوجود النوعي لفلسفة العلم داخل الموضوعات العلمية القديمة ، يعطي انطباعا أكيدا بأن فلسفة العلم يمكن تلمس جوانبها المختلفة في العلوم المتنوعة، راجع كتابنا: التفكير الإنساني أصوله ومستوياته ، صـ ١٢٧ ٠

(٤) ومعنى هذا ينبيء بأن فلسفة العلم أخص ، وهو الأمر الحقيقي نظرا لإشتمال لفظ العلم على العديد من الأنواع ، ومنها فلسفة العلم ، ثم أن كلمة فلسفة العلم تكون بمثابة القاضي الذي يصدر أحكاما على المقدمات ، فتكون هي النتائج الإجمالية ٠

تلاحق وصف الجوانب العلمية ٠

٥ ـ إن عملية التاريخ لفلسفة العلم ـ من ناحية النشأة ـ موضوع مرتبط بالنواحي الظاهرية ، أو مراقبة الجوانب الإجرائية التقريرية ، من النواحي السردية الحكوية ، أما عملية التأليف ، فإن الوقوف على تاريخ ظهورها لا بد فيه من حركة واعية ذات اتجاه نقدي له قدرة إبداعية (١)، وذلك يحتاج خبرات متميزة ، وتقنية عالية ٠

من ثم ، فإن تاريخ التاليف في فلسفة العلم يحتاج مراجعة دقيقة في الشرق والغرب ،بل والشمال والجنوب ، وكل مايتوقع فيه ظهور بواكير تأليفية وهو شيء لم يكن متاحا في الماضي ، إلاأنه في الحاضر صار قاب قوسين من المؤرخ الذي ينتدب نفسه للقيام بهذه المهمة على ناحية دقيقة (٢)، ولما لم يكن هذا مما تتعلق به المسألة ههنا ، فإني لن أتطرق إليه من الناحية التفصيلية ، هذه ناحية ٠

أما الناحية الثانية ، فهي أن متابعة الجانب التأليفي من الناحية الحصرية ، لا تفيد كثيرا في الأمر الذي نحن بصدده ، إذ تلك مهمة المؤرخ العام ، أو المؤرخ الإحصائي ، أما الذي يبحث علاقة العقيدة بفلسفة العلم ، فإن تعرضه لهذا الجانب يكون علىسبيل العرض الطرحي ، لا على ناحية الغرض القصدي(٣)٠

أما من الناحية الموضوعية التأليفية ، فمن الملاحظ وجود صورتين في الفكر الإنساني أحداهما موضوعية ،توجد لها صورة بارزة ،وأصول قائمة داخل النتاج الإسلامي من حيث أنها حركة نقدية ، والثانية ظاهرة عامة متعلقة بالفكر الاستقراني من حيث انهاحركة عنوانية ، ذات طابع استقلالي الفرق بين الوصف الموضوعي والوصف العنواني ،

---

(١) راجع كتابنا : التفكيرالإنساني أصوله ومستوياته ، صـ ٢٩٥ ، فذلك الفارق الكبير يوضح علاقة العلم بفلسفة العلم ، كما يكشف عن صورة دقيقة لموضوعات فلسفة العلم ومناهجها المختلفة ٠

(٢) ويغلب عندي أن تاريخ التاليف بالنسبة لفلسفة العلم ، لا بد فيه من باحث يحمل قدرا كبيرا من الشجاعة والحكمة معا ، حتى لا ينزلق إلىإصدار نتائج غير مقبولة ٠

(٣) الفرق بين العرض الطرحي ، والغرض القصدي ان الأول يكون أمرا عارضا ، تجيء معه العشوائية في بعض جوانبها ، أما الغرض القصدي فيتعلق بالأصول الأساسية الذاتية ، وليس الأمور العرضية ٠

هو أن الأول يتعلق بالجزئيات التي تتم داستها ، وهي الموضوعات التي تضم كل الجزئيات محل الدراسة ، ام الثاني فهو المتعلق بعنوان الكتاب حيث يكون الوصف العنواني متوافقا مع الوصف الموضوعي ، وحيننذ تكون الأمور قد جاءت على الوجه الصحيح ، وإليك إلماحة عن كل منهما :

الصورة الأولى :الموضوعية في الفكرالإسلامي

لقد أراح الإسلام الناس على جميع الجهات ،ودافع عنهم في كل الإتجاهات ، بدليل أنه قدم النصوص الإسلامية ـ القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة ـ حاملة أصول العقيدة الإلهية ، والتكاليف الشرعية ، مع جملة الآداب والفضائل ، بجانب كافة الألوان المعرفية الدقيقة ، دالة مناهجها كاشفة عن بعض مباهجها ، عارضة الأصول العامة على العقول والنفوس والقلوب ، مبينة هذه النصوص المتعالية جميع الأصول العقدية ، ومايتعلق بها ، موضحة التكاليف وما يجيء معها ، راسمة الصورة الحقيقية للمعاملات الإنسانية في أرقى مظاهرها[١]، وقد جاءت الأخلاق والقيم على هذه الناحية في أكمل صورة وأبهاها ، وأجملها وأزكاها •

وقد فطن أبناء الإسلام إلى هذه الإشارات النقلية فإتخذوها وسائل لبناءات علمية لها مذاق خاص ، يميزها عن غيرها من مسافات بعيدة وإلى أزمان متطاولة ، وهو ديدن الفكر الإسلامي الأصيل من الناحية العلمية والعملية معا ، بل أن المؤلفات التي حملت هذه المسائل باتت هي الأخرى ذات دلالة واضحة متى ظفر بها طالبها[٢]، أو وقف عليها راغبها ، صارت لديه أرصدة علمية ذات صور وثائقية متعددة المظاهر والإتجاهات •

من الملاحظ أن النصوص الإسلامية غطت الجوانب الدينية جميعا ، واتجهت إلى الجوانب الحياتية ، فتناولت مايتعلق بالطبيعة في كافة مظاهرها ، وأدق صورها ، وقدمت

---

(١) وهذا قائم في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وكما قامت بتصنيف كل منها من الناحية الموضوعية المؤلفات الإسلامية ، وبخاصة أصول الفقه ، والتفسير الموضوعي ، بجانب المؤلفات في الحكمة الإسلامية ، راجع كتابنا: المدخل لدراسة الحكمة الإسلامية ، صـ ٢٣٠ / ٤٥٠ •

(٢) راجع للمستشرق شاخت وبورث : تراث الإسلام ،. جـ ١ ، ٢ ، حيث قدم قائمة ببعض هذه المؤلفات غطت انباؤها الصفحات العديدة من كتابه الصادر في جزئيه •

إشارات محددة ذات ارتباط بكل من الفلك ، والفيزياء ، والميكروفيزياء ، كما دفعت إلى الحكمة التأملية والنقدية دفعا حثيثا متواصلا من غير إعلان عن هذه المسائل[١]، لأن النص المنزل ليس كتاب نظريات علمية ، إنما هو كتاب هداية ربانية يجمع بين الدين والدنيا ، في كافة المظاهر ، ويحقق السعادة للبشرية في الدنيا والآخرة •

أجل لقد أدرك مفكرو المسلمين الأوائل ، هذه الإشارات ، فإتجهوا إليها يأخذون منها، ويجرون تجاربهم على ارض الواقع ، بإعتبار أنها المحك الرئيسي للقضايا المثارة ، ولكنهم فوجئوا بالعديد من المشكلات ذات السمة التصادمية ، فكان عليهم بذل المزيد من الجهود الفكرية حتى يمكن تذليل الصعوبات وإزاحة الكم الأكبر من هذه المشكلات [٢]، وكلما اطالوا التأمل ، وأكثروا من بذل المجهود ، وفقهم الله تعالى ، وأعانهم على الوصول إلى نتائج ذات تأثيرات إيجابية ، وتمكنوا من إزالة الإشكالات البحثية •

من ثم ضربوا في كافة نواحي الحياة بأسهم قوية ، وقطعوا خطوات سريعة في أوقات قليلة ، بل كانوا يختزلون المسافات الطولية والعرضية ، حتى حققوا أعلى النتائج في كافة المراحل التي وقفوا عليها ، وكانوا من أعلى العقول وعيا في النقد ، وأكثرها دقة عند الموازنة ، كما كانوا باحثين متميزين ، يقطعون في سبيل بلوغ الحقيقة الفيافي والقفار[٣]، ويواصلون البحث الدؤب بالليل والنهار •

لقد كانوا يمثلون حركة النقد الواعية في كل ما يعرض عليهم ، حتى صار من مهامهم الدينية فحص القضايا المعرفية على الوجوه المختلفة ، ورصد جميع الظواهر في

---

(١) راجع كتابنا : خواطر حثيثة في الفلسفة الحديثة ، صـ ٣٨٧ ، وكتابنا : قضايا حبيسة في الفلسفة الحديثة ، صـ ٨٨ / ٩٧ ، وكتابنا : المدخل لدراسة الحكمة الاسلامية ، صـ ٣١٥ / ٤٦٧ •

(٢) لأن إبعاد المشكلات أو المعوقات عن الميدان البحثي يمثل نقطة هامة في طريق العلم ، ويمهد للبحث العلمي الجديد ، وكلما أمكن إزاحة مجموعة من المشكلات أمام الباحث ، فإنه يكون متفرغا لأبحاثه العلمية في شكل أوفى •

(٣) بدليل أن الواحد منهم كان يسافر من موطنه الذي يقيم به إلى موطن آخر العام والعامين لمجرد علمه ان هذا المكان الجديد فيه عالم متميز ، وكانوا يكتبون عن رحلاتهم العلمية التي هي بمثابة بعثات علمية هادفة ، وكانت كلها تتم داخل البيئة الإسلامية التي باتت مقصد طلاب العلم من العالم أجمع فكانوا هداة ، للبشرية حداة •

صورها الأولية ،بجانب مراجعة الأرصدة المعرفية على الناحية العلمية [١]، واعتبروا التجربة الصادقة علامة الحقيقة في كافة الأمور التي تحتاج إليها ، ومن ثم فقد أسسوا مدارس ذات ارتباطات منهجية تدعمها ميول استقرائية[٢]، بجانب انطلاقات متوالية لتحقيق أهداف متنامية .

بدليل أنهم تحدثوا عن الذرة من خلال الجوهر الفرد[٣]، داخل نطاق السلوك الفوقي الإلهي ، والتحتي التكليفي ، وتناولوا الظواهر ذات الارتباطات النسبية داخل الأطر المعرفية ، وربما أدخلوها للدراسة من خلال بحث الأمور العامة التي هي بمثابة المداخلات الأولية بالنسبة للأراء الكلامية[٤]، كما تحدثوا عن الأوزان الكمية والنوعية وقدموا نماذج ذات بناءات عالية في كافة الجوانب المعرفية .

من ثم ، يمكن القول ،بأن فلسفة العلم كان لها وجود موضوعي داخل المؤلفات الإسلامية القديمة في كل من علم الكلام والتصوف ، وأن هذا التقدم لم يكتسبوه من ثقافة أخرى غير الإسلام [٥]، ولم تكن لديهم قابلية في الآخذ عن الغير طالما كانت نصوص الدين الإلهي تقدم لهم هذه المسائل ،من خلال صور إيضاحية ورموز وإرشادات ذات دلالات يقينية.

يدل على ذلك ، أنه في الوقت الذي استنارت بلاد الإسلام بالعلم ، وحفلت بها الحضارة الزاهية كانت آوربا في غفوة لم يتطرق إليها طيف حالم ، وإنما صارت تئن تحت

---

(١) راجع لجورج أفرتون : شمس الحضارة ، صـ ٥٣ ، حيث اعترف بأن البعثات العلمية الأوربية كانت تتجه إلى البلاد الإسلامية في المشرق والمغرب علىالسواء ، نظرا لما لدى المسلمين من معارف متقدمة في كل الميادين .

(٢) هذا الجانب الاستقرائي تناوله علماء الاسلام في العلوم النظرية أيضا ، من خلال دليل السبرو التقسيم ، ومن يتعرف عليه يرى ذلك واضحا .

(٣) ومعناها أن الجسم يمكن أن ينقسم إلى أصغر جزئية فيه ، مهما كانت صورتها ، ولهذا يطلق عليه البعض اسم المذهب الذري في الفكرالإسلامي ، راجع كتابنا : قراءات في العقيدة وفلسفة العلم ، صـ ٢٣٧ .

(٤) راجع كتابنا: النسبية في الفكر الإسلامي ، حيث تناولت النسبية في أنواعها وصورها، وبيان مظاهرها المختلفة،بجانب التفريعات التي ترتبت بشأنها في المسميات والمسموعات والمرئيات وغيرها ، وكانت المؤلفات الكلامية من المواد التي مهدت الأرض الخصبة لهذه الأفكار .

(٥) راجع كتابنا : المدخل لدراسة الحكمة الإسلامية ، صـ ٣٧٥ وما بعدها ، وكتابنا : تقدم الفلسفة الإسلامية في المشرق وتأخرها في المغرب .

أسواط محاكم التفتيش التي بحثت في القلوب والعقول والضمائر [١]، وكان إحياؤها يدفنون تحت ركام الأوهام ، وتختبيء رؤوسهم بين طبقات الركام والرغام ، في نفس الوقت، تسيد عليهم الجهلاء الذين باتوا بينهم في أعلى مقام ٠

لم يكن شمال آوربا أحسن حالا من جنوبها ولا شرقها ، كان أيسر من غربها ، وإنما باتت الجهات في الغرب كلها سواء ، ظلام دامس ، كلام هامس ، ونجوى الصدور تخشى همى القبور ، فلا العلم ترفع راياته ، او تراجع نظرية من نظرياته ، وإنما يقبع الجميع تحت سلطان البأس ،ويلتحفون أستار اليأس [٢]، ومثل هؤلاء يحيط بهم ظلام ليل طويل ، لم تكن أحلامهم تراود إزاحته عن نفسها ٠

ربما يقال أن المسلمين الأوائل لم يعرفوا مصطلح فلسفة العلم ، بالمعنى الدقيق ، وأنهم عرفوا العلم ، واستناروا به ، وأفادوا منه،لكن هذا لا يسمح بإصدار أحكام تنتهي إلى أنهم كانوا علىعلم دقيق بهذا الاستنتاج الطفري [٣]، تحت ذات المصطلح الذي أطلق عليه " فلسفة العلم " ، وإلا كانوا على علم أيضا بالهندسة الوراثية ، وغيرها من المستجدات العلمية التي هي من نبات العصر الذي نعيش فيه ٠

والجواب أن هذا التساؤل يحمل صورا ثلاثة متباينة ، أشد التباين ، وكل منها تباعد نفسها عن الحقيقة ، بعد ما بين الصواب والخطأ ، بل ، بعد ما بين السماء والأرض ، إن لم يكن يزيد ، والتعرض للوجوه الثلاثة يكشف طبيعة العلاقة الاضطرادية بين التساؤل المطروح والمادة التي قام فيها ٠

---

(١) من المشكلات التي واجهت العملية البحثية قديما ، محاكم التفتيش في آوربا ، وكان من مظاهرها تأخر البحث العلمي لقرون عديدة ، لأن الفكر الإنساني يلقح بعضه بعضا ، وأي ممارسة خاطئة تؤدي به إلى الهاوية ٠

(٢) كان هذا الحال سائدا في آوربا ، وقد استمر منذ القرن الرابع إلى القرن الثاني عشر الميلادي وهي مدة كافية لإنهاء آية علاقة بالعمليات المعرفية العلمية في صورها ومظاهرها ، راجع كتابنا: خواطر حثيثة في الفلسفة الحديثة ، صـ ٣٣٤ ، وكتابنا : حلف الفضول عند العرب واثره في العصر الحديث ، صـ ٢٣٧ ٠

(٣) الاستنتاج الطفري يراد به مايقع في العمليات العلمية الاستقرائية بإعتبار النتائج المتواصلة التي تقدم جهودا إبداعية في المجالات البحثية ، ولذا فمن المناسب إطلاق هذا الإسم عليها ، بغض النظر عن النتائج التي تترتب عليها أو يكون لهاإتصال بها ٠

الوجه الأول : فكرة المصطلح ـ فلسفة العلم

لا شك أن المطالع للتراث الإسلامي يجد حركة النقد الواعية قائمة في كافة الأبحاث العلمية والنظرية والتجريبية[١]، حيث كشفت العلاقة القائمة بين كل منها والقطاعات التي تتبعها ، وهذه الحركة هي معنى أو مفهوم فلسفة العلم [٢]، إذ لا عبرة بالعنوان الأسمي ، طالما كان المعني هو القائم ، بدليل أننا نحكم على الكلام بإنه منطقي إذا كان خاليا من الضلال العقلي المعرفي ، وإن لم يكن في الكلام شيء من قضايا المنطق ، لأن هذه العلوم تعرف بفوائدها لا بموضوعاتها وحدها [٣].

وكذلك فيما إذا نطق المتحدث بكلام سليم المباني صحيح المعاني ، مضبوط العلاقات ، مترابط الدلالات ، قلنا أنه نحوي ، حتى وإن لم يكن صاحبه نحويا ، ولا في الكلام الذي تحدث به أي جزء من موضوعات علم النحو ، وإنما حكمنا عليه بالسلامة لأن اللسان لم يخطيء في الإستعمال [٤]، وما دامت مراعاة قواعد علم النحو هي التي تعصم اللسان عن الخطأ في البيان فقد صار الكلام سليما .

بل كل العلوم في المسألة سواء ، حيث تجرب داخل أنماط الحياة من خلال فوائدها ، وطرائق الاستفادة بها ، ولا يعنينا ما إذا كانت موضوعاتها التي تدور فيها مرادة أم غير مرادة ، كالحال في الرياضة العقلية من خلال دراسة الكموم المختلفة، وعلم الطبيعة

---

(١) والأصل في ذلك هو الإشارات النقلية ذات الصبغة العلمية الهادفة ، لأنها التي حركت العقول إلىهذا الإتجاه ، وقادتها لبلوغ ذات الهدف .

(٢) من الملاحظ أن البحث في الموضوع هو الأهم ، ثم تأتي بعده الغاية والفوائد المترتبة ، أما الوصف العنواني فأمر عارض ، بحيث يمكن وضع وصف آخر يناسب ذات المسائل الموضوعية ، والاستغناء عن العنوان السابق .

(٣) ولذلك ، فالمنطق يعرف على هذه الناحية ، بأنه آله قانونية تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في التفكير ، راجع كتابنا : الغزاليات في منطق التصورات ، صـ ٢٣٤ .

(٤) ولذا يعرف علم النحو بأنه آلة قانونية تعصم مراعاتها اللسان عن الخطأ في البيان ، ويعرف المنطق بانه آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في التفكير ، فمراعاة كل منهما تؤدي إلى فائدة كبيرة .

والعقاقير[١]، ومن المؤكد ان هذه القاعدة تطبق على كافة المعارف الإنسانية ، وهي أنها موجودة بفوائدها العملية لا بموضوعاتها الدراسية ٠

بناء على ماسلف ، اتضح أن فلسفة العلم كانت معروفة لدى المفكر المسلم قديما من خلال فوائدها ، حتى وإن لم يكن قد وضع العلماء لها اسما فنيا خاصا بها ، أو مصطلحا يدل عليها ، ودليل ذلك ، عندي هو الحضارة الإسلامية التي اعترف بها المنصفون قديما وحديثا وشهدت لها الآثار التي مازالت قائمة في كافة العلوم والمعارف [٢]، بل أن الخيالات العلمية ، وما يعرف بالتكهنات ، أو التنبؤات ، هي الآخرى كان لها وجود في التراث الإسلامي ، على اساس أن الخيالات والتنبؤات والتكهنات العلمية ، تفتح أمام الباحث المصنف لها طرقا عديدة ، وتقدم للباحث الجديد قواعد انطلاقية متعددة تسمح له أن يعبر بين شواطيء الواقع الكائن ، ويفتح عقله للمستقبل المتوقع ٠

ومن يطالع كتاب أسرار التنزيل للعلامة " الرازي " يجد ذلك قائما في سطوره [٣]، ومن يتأمل رسائل ابن رشد الحفيد الفقيةالمالكي في العلوم الطبية ، يجد أنه لم يقف عند عرض معارفه وتجاربه ، وإنما فتح مساحة التكهن العلمي المستقبلي ، وكان متوازنا في خيالاته العلمية ، غير مسرف ،إما تنبؤاته فقد فتحت الباب أمام الإنطلاق العلمي ، في مجال التشخيص الدقيق ، لبحث دراسة حزمة كبيرة من أمراض الأطفال التي لم يمكن لأحد أن يعرفها ، كالحال مع الجدري المائي ، والماء الدماغي[٤]، وغيرها مما يصيب الأطفال في مراحل سنية متفاوته ٠

---

(١) أغلب المتعاطين للعقاقير الطبية لا يعرفون موضوعاتها التي تتركب منها ، كأجزاء مادية وإنما يعرفون فقط الجوانب التي تجيء معا الفوائد من الناحية العملية التطبيقية ، بل يمكن القول بأن هذا القاسم مشترك بين الجميع ٠

(٢) راجع لشاخت وبورث : تراث الإسلام ، جـ١ ، ٢ ، ففي كل منهما كلام طويل حول الإعتراف بهذا الجانب ، وراجع لأدوارد هوفر : العلوم العربية ، صـ ٢٧٣ / ٣٨٥ ٠

(٣) ظل هذا الكتاب مخطوطا لفترة طويلة ، ثم قامت أحدى دور النشر البيروتية بتحقيقة ونشره ، كما قامت دراسة أخرى بتحقيقة ونشره ، وله فوائد كبيرة وقيمة عظيمة ٠

(٤) راجع لأبن رشد :أرجوزته الطبية في مجال طب الأطفال ، حيث نبه فيه إلى ذلك بلغة شعرية راقية، وقدم نموذجا علميا للخيال العلمي،عندما نهض في محاولة التطبيق العملي٠

من الممكن القول بأن هؤلاء كانوا يقررون واقعا قائما ، ولم يقدموا أبحاثا ابتكارية ولكن هذا القول لا يجد مايدعمه ، بل العكس هو الصحيح ، وأنهم كانوا ابداعيين ابتكاريين ، ومن يراجع مؤلفات ابن باجة ، وابن طفيل ، وابن سينا ، وابن متويه ، يجد الأخرين قد وقفوا عليها ، وأخذوا منها[١]، وأن بعضهم قد نال التقدير العلمي من المنصفين حال حياته ، وبعد قرون من وفاته ، بدليل أن جامعة بادو الإيطالية تحتفل بابن رشد[٢]، وتؤكد أبحاث الاحتفالية ان الرجل كان عالما متميزا ، ناقدا واعيا ، مبدعا علىالنواحي الابتكارية ، وكذلك الحال في الدراسات ذات الارتباطات الصادقة في البحث عن الحقيقة ، وبناءعليه ، يكون مفكروا المسلمين قدموا دراسات علمية عن فلسفة العلم •

الوجه الثاني : العموم العلمي

مادام التساؤل قد أقر بأن مفكري المسلمين كانوا على وعي بالعلم في أرقى صوره ، وأنهم نالوا منه القسط الأوفي ، وكان لهم الحظ الأوفر ، وأنهم نقلوا الإنسان من البداءة المعرفية في الطفولة العقلية ، إلى الحضارة الراقية حتى بلغ أعلى مظاهرها ، و فلسفة العلم جزء من العلم نفسه ، إلا أنها حركة بين أجزائه وإنطلاقة داخلية و تسعى لتأكيد وجودها البيني[٣]، فلا شك أن مفكري المسلمين قد عرفوا هذا الجانب من باب أولى ، إذ العارف بالعلوم في صورها المختلفة،الموظف لها، الكاشف عن مظاهرها المتباينة ،لا بد أن يكون عالما بجزيئاتها[٤]، ومنها فلسفة العلم •

الوجه الثالث : الاستنتاج الطفري - والهندسة الوراثية

الحق أن هذه التسمية من بنات أفكار العصر الذي نعيش فيه ، وهي ليست محل خلاف من جانبنا ، لأننا لا نعني بالألفاظ العنوانية ، وإنما تنصب اهتماماتنا على الجزء

---

(١) راجع كتابنا : ملامح الحكمة الإسلامية في المغرب ، تجد ذلك واضحا من خلال مقارنات إيضاحية بين الفكرالإنساني الذي يتحدث عنه الآخر ، والفكرالإسلامي الذي جاءت نصوصه من عند الله تعالى•

(٢) كانت هذه الاحتفالية في نهايات القرن العشرين ، وقامت بمناسبة مرور خمسة قرون على اكتشاف تراث ابن رشد في الجانب الإنساني،وكذلك ما يتعلق به من الجوانب النقدية•

(٣) لأن فلسفة العلم إذا خرجت عن هذا الإطار فقدت اسمها وعنوانها البحثي أيضا ، بل صارت عرضة للطعن عليها •

(٤) راجع كتابنا : قراءات في العقيدة وفلسفة العلم ، وكتابنا: الخطاب بين الأصوليين ودعاة الحداثة ، صـ ١٥٨ •

الموضوعي الهام ، وبناء عليه، تكون عملية الإستنتاج الطفري ذات وجود سابق في الفكر الإسلامي(١)، وأهل الإسلام الأوائل قد سجلوا ذلك داخل مؤلفاتهم ، وتعرضوا لها جميعا بالتناول الجاد ، بل الهادف أيضا •

كما ان علم الهندسة الوراثية ، لم يعرف في القديم من خلال هذا العنوان ، لكن ذات الموضوعات هي الأخرى كان لها وجود استقلالي في الماضي (٢)، صحيح لم يكن وجوده بهذا الكم الكبير من عرض القضايا والمشكلات ، وإنما ظهر في صورة أقل من ذلك ، ثم أخذ في التنامي المتواصل ، حتى ظهر على ما هو عليه ، وتلك مشكلة بحثية أخرى ، ومسألة غير قابلة للأنكار مهما كانت أحكام أصحابها قاسية •

أضف إلى ماسبق ، أن المؤلفات الفكرية الإسلامية في الجانب التجريبي ، تم الإعتداء عليها قديما ، حينما تمكن أعداء الإسلام من خداع حزمة الأمراء والملوك الذين أنفتحت على بعضهم الدنيا(٣)، فقربوا من مجالسهم الندماء والظرفاء ، وزينوا مجالسهم بمحترفي النفاق الذين كانوا من اهم عوامل القضاء على العلماء ، وفي نفس الوقت أغدقوا على هؤلاء الأموال والهبات وضيقوا على العلماء من كافة الجهات •

أجل ، يمكن القول بأن الأمراء والملوك الذين تولوا شئون البلاد الإسلامية ـ بعد التفتت ـ لم يكن بعضهم على وعي كامل بالمسئوليات الملقاة فوق أعناقهم ، كما كانوا واقعين تحت سلطان الخداع الزائف ، بجانب استغلال المنحرفين لأوجه الضعف والقصور لدى هؤلاء الأمراء(٤)، ثم مواصلة الضغط عليهم للدخول في حروب بينية ، وصراعات داخل دولة

---

(١) راجع لجوزيف شاخت : تراث الإسلام ، جـ ١ ، صـ ١٤٩ / ٢١١ ، ترجمة محمد زهير السمهوري وآخر ، ط. الثالثة ، عالم المعرفة •

(٢) كانت البدايات تدرس من خلال علم الأجنة ، حسب الدراسات التي جاءت حول النصوص القرآنية ، يقول جرار أنها مجرد نماذج لقدرة المسلمين الهائلة على تطويع المسائل العلمية بما يتفق مع أصولهم الدينية ، أوليح جرارا : الإسلام كما يراه الغرب ، صـ ١٣٧ ، ترجمة وفاء خالد •

(٣) وانفتاح الدنيا قد حذر منه الرسول صلى الله عليه وسلم ، في قوله أن مماأخاف عليكم أن تنفتح عليكم الدنيا ، فهو صلي الله عليه وسلم ينبه إلى إنفتاح الإنسان علىشيء أكثرمن هذا الذي يتعلق بالدنيا ، حيث يتناسى الإنسان كل شيء إلا رغباته الشخصية •

(٤) راجع ،أزمة الأندلس - الفردوس المفقود ، من خلال المؤلفات التي عنيت بهذا الجانب ، لكل من الأستاذ محمد عبد الله عنان ، والدكتور حسين مؤنس ، وغيرهما •

الخلافة الإسلامية ، التي انقسمت لدويلات وإمارات لم تمكن هذه الظروف العلماء من الاستقرار ، كما لم تسمح لهم بالإستمرار في بحوثهم العلمية الإبداعية ٠

ونظرا للعديد من الصراعات والحروب الداخلية ، لم يعد الوضع الاستقراري للعلماء قائما ، كما أن النفقات والوقوفات على العلماء قد تضاءلت ، ثم تم تجفيف منابعها تماما ، فلم يعد العالم يجد الوقت الكافي للبحث العلمي وإستمرارة ، ولم يجد النفقات التي تعينه على تجريب النتائج الجديدة ، التي وقف عليها وبل صار مشغولا أغلب الوقت في البحث عن لقمة العيش[١]، وقد أدى ذلك كله إلى تراجع البحث العلمي والنشاط البحثي في المجال التجريبي ، بل توجه الركب بالسير داخل الأفكار النظرية والدوران حولها ، وكفي ٠

لم يكن علماءالإسلام يكتفون بالأسى على الماضي ، وإنما حاول بعضهم استمرار البحث من خلال نفقاته الذاتية ، ولكن هذا لم يكن كافيا ، في ذات الوقت استغل أعداء الإسلام ضعف هؤلاء الأمراء ودفعوا بهم للإختلاف مع العلماء إلى الحد الذي مكنهم من تقييد حركاتهم[٢]، وإبعادهم الكامل عن أبحاثهم العلمية ،ثم قام هؤلاء الأعداء باستعمار البلاد الإسلامية ، حتى ضاعت الأندلس ـ الفردوس ـ الإسلامي المفقود ،وكانت في الماضي الشعلة الحضارية التي هبطت انوارها على شواطئ أوربا المظلمة فأنارتها ، وغطت مساحة شاسعة منها ، بل انها ايقظت أوربا من سباتها ، ونقلت العالم الغربي من حوالك الظلام إلى ألوان الحضارة الزاهية[٣]٠

---

(١) وقداستغل المستعمر هذه الظروف على أوسع نطاق ، وما تزال آثاره قائمة إلى يومنا هذا وربما تمتد لأوقات لا يعلمها إلا الله وحده ، ولما كانت الأوقاف الإسلامية في الماضي يصرف جزء منها لصالح العلم وطلابه ، فقد ظهر العلماء المتميزون ، ولما صارت هذه الأموال إلى الخزانة العامة ، صار حال العلماء ما نشاهد آثاره اليوم٠

(٢) ولما كان العالم يملك القدرة على التفكير والتعبير ، ، وقد حددت أقامته ، فقد ضاعت منه هذه الحريات ، مما أدى إلى جمود العلماء٠ وإنحصار مسائل العلم في قضايا ضيقة ٠

(٣) راجع كتابنا : قضايا حبيسة في الفلسفة الحديثة ، صـ ٩٧ / ١١٥ ، وكتابنا : الخطاب بين الأصوليين ودعاة الحداثة ٠

الصورة الثانية : العنوانية البارزة

ومعناها وجود مؤلفات مستقلة تحت عنوان فلسفة العلم ، سواء أكانت موضوعاتها متناسبه مع الوصف العنواني ، ام لا ، وكلما كانت صورة التوافق بينهما قائمة ، أمكن القول بأن هذا المؤلف ، أو ذاك ، قائم في نطاق فلسفة العلم ، ومتى إنصرف عن هذا ، أو تباعد ، لم يكن مؤلفا في فلسفة العلم بالمعنى الدقيق ، ولذا ، فقد تكاثرت العناوين تحت هذا الإسم[١] ، وفي أغلبها قصور عند العرض والأداء ، حيث يبدو ذلك بوضوح عندما يراد الحديث عن النتائج المرتبطة بالبحث في فلسفة العلم •

بيد أن الملاحظة العابرة تكشف عن وجود قصور واضح في الأوصاف العنوانية ، حتى بدا لي أن بعضها ينتزع جملة موضوعات منفصلة وردت تحت اسم الميتافيزيقا النقدية مثلا ، وأخرى جاءت أثناء الحديث عن الميكروفيزيا ، أو الفلسفة العلمية ،ثم يقوم بعملية تلفيق أو توفيق بينهما ، وأخيرا يضع لها العنوان تحت اسم فلسفة العلم ، أو فلسفة العلوم [٢] ، وغير ذلك مما يجيء على هذه الناحية •

ظهرت كتب أخرى ، حول ذات الوصف العنواني ، من خلال ترجمات ناقصة ، وفي بعضها قصور أداني فيما يتعلق بالموضوع المترجم ، المهم ان هذه الإنتزاعات القسرية ذات الترجمات المنقوصة ، ظهرت في العصر الحديث ، وتم رصدها مع مطالع القرن العشرين ، لكنها لم تكن سوى محاولات قصد بها إثبات استقلال هذا العلم عن غيره من العلوم القريبة[٣] ، سواء أكان هذا المراد فصله عنه هو الفلسفة العلمية ، أم غيرها •

يمكن القول بأن المحاولات التأليفية الناضجة في هذا الميدان لم تتم بعد ، وأغلب الظن أن ذلك سيأخذ وقتا طالما استمر الجدل حول وجود علم اسمه فلسفة العلم ، له

---

(١) راجع كتابنا : قراءات في العقيدة وفلسفة العلم ، صـ ١٥٣ ، وكتابنا : مناهج البحث بين التقليد والتجديد ، صـ ١٤٩ .

(٢) على سبيل المثال ، ظهر كتاب فلسفة العلم لأنطوني هاف ، وهو عبارة عن نظريات في الفلسفة العلمية ، وموقف العلماء منها ، وكتاب فلسفة العلم لأنطوان فوكر ، حيث جاء في شكل أبحاث منتزعة من العلوم الفيزيائية ، وعلى ذلك أغلب ما يجيء في هذا الشأن .

(٣) كالحال مع كتابات فيدوسييف : الفلسفة العلمية ، وبوبر في فلسفة العلوم ، وغيرها، فكلها كتابات تتحدث عن قضايا متشابكة تظهر من خلالها فلسفة العلم في صورة خافتة .

استقلال عن الفلسفة العلمية ، او الفلسفة بالمعنى العام من عدمه[١]، ومتى استمر ذلك التغارب قائما بين المتحاورين بدل التقارب ، والتحارب بل التحاور ، فإن المسألة ستظل واقعة في نطاق الإحتمال النوعي ، والأمل الذي يداعب خيال الحالم •

لست هنا أقدم حصرا بالمؤلفات التي ظهرت تحمل أسم فلسفة العلم ، أو عناوينها تحمل أسم فلسفة العلوم في العصر الحديث ، كل ما يهمني هوإثبات ان المحاولات التأليفية الاستقلالية حول هذا العلم ما تزال في مرحلة المخاض العلمي[٢]، ولن يقدر لها الإعلان عن الوصول إلى حقائق علمية إلا أذا اعترفت لهذا العلم بالإستقلال النوعي عن كل مشاركاته في الموضوع ، والاعتراف كذلك بأن له مناهج يمكن التعامل معه من خلالها على ناحية استقلالية تامة وليست نوعية •

ومن المرجح ان العمليات الإستقلالية التي بدأت تحاول تصحيح المواقف ، وإن تقدمت في بطيء شديدة ، إلاأنها قد تتقدم للأمام في المستقبل القريب ، وربما تخطت ذلك الوقت فأسرعت إلى أبعد ما يتوقع ، ولكن الجزم بموعد ذلك يمثل مغامرة علمية تخرج به عن دائرة الخيال العلمي حتى تصل إلى دائرة التخمين ، ومن هنا تبدو ملامح غريبة الأطوار ، وقد يتفق أمر البحث على هذا الجانب ، أو يختلف ، فما زال ذلك فكرة في ضمير الغيب ، أو طفلا في رحم الزمان •

---

(١) الفلسفة العلمية غير فلسفة العلم ، والمؤلفات في كل منهما غير المؤلفات بالنسبة للآخرين ، لذا فمن الضروري الإلتفات إلى هذا التنوع في المعارف ، والتخصص في الوظائف والمناهج •

(٢) والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصى ، ومن يجادل في ذلك فأمره إلى معارفه ، وشهادته عليه ، حتى وإن إدعى وقوعها لصالحة ، فليست المسائل بالدعاوى ، وإنما هي بالحقائق الواقعية والقضايا ذات النتائج الأساسية •

أهم المصادر والمراجع للفصل الثالث

حسب ورودها بأسفل الصفحات

١ - القرآن الكريم

٢ - المزهر في علوم اللغة — الإمام جلال الدين السيوطي .

٣ - قطر المحيط — العلامة لويس المعلوف .

٤ - الفكر الإنساني وعناصره الإجتماعية — الشيخ محمد نجيب مرسى .

٥ - التفكير الإنساني اصوله ومستوياته — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي .

٦ - الفية ابن مالك في النحو والصرف — الإمام ابن مالك .

٧ - الغزاليات في منطق التصورات — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي .

٨ - الفروق الفردية والمشكلات الجوهرية — الدكتور فاروق حسن عدلي .

٩ - القدرات العقلية — الدكتور أحمد سيد احمد .

١٠ - حلف الفضول عند العرب وأثره في العصر الحديث — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي .

١١ - المشكلات العامة والحلول — الدكتور خيري محمد صابر .

١٢ - نظرية المعرفة عند ابن رشد — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي .

١٣ - الغزاليات في النبوات — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي .

١٤ - مناهج البحث بين التقليد والتجديد — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي .

١٥ - الغزاليات في السمعيات — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي .

١٦ - الموافقات في أصول الشريعة — العلامة أبو اسحاق الشاطبي .

١٧ - الحثيث في المنطق الحديث — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي .

١٨ - تاريخ العلم — جورج سارتون .

١٩ - السعادة في الفكر الإنساني — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي .

٢٠ - قصة العلم — ج. ج. كراوتر •

٢١ - توحيد قوانين ال[illegible] — الأستاذ أحمد محمد فتحي •

٢٢ - تاريخ العلم الحديث — جورج سان داير •

٢٣ - العلم تاريخه ومشكلاته — انطوان سيور •

٢٤ - قصة الحضارة — ول ديو رانت •

٢٥ - قضايا حبيسة في الفلسفة الحديثة — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي•

٢٦ - الحركة العلمية في الزمن القديم — سيفر دانش •

٢٧ - الإنسان والعلم — وليم بري •

٢٨ - الفلسفة والعلوم التطبيقية — ادوارد فوستر •

٢٩ - العلم تاريخه ومذاهبه — انجلر فوكان •

٣٠ - فلسفة العلم — جورج فوجل •

٣١ - فجر الضمير — جيمس هنري بريستيد •

٣٢ - مناهج البحث بين التقليد والتجديد — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي •

٣٣ - النديم في المنطق القديم — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي •

٣٤ - الخطاب بين الأصوليين ودعاة الحداثة — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي •

٣٥ - حديث في الطب — الدكتور مصطفي الديواني •

٣٦ - الطب الحديث — الدكتور نظمي فايز •

٣٧ - تراث الإسلام — ساخت وبوروث •

٣٨ - شمس الحضارة — جورج افرتون •

٣٩ - قراءات في العقيدة وفلسفة العلم — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي •

٤٠ - تقدم الفلسفة الإسلامية في المشرق وتأخرها في المغرب — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي •

٤١ - العلوم العربية — ادوارد هوفر

٤٢ - ملامح الحكمة الإسلامية في المغرب — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي •

٤٣ - الإسلام كما يراه الغرب — أوليج جرار •



أولا : تناول المناهج بالدراسة
ثانيا : تناول المفاهيم بالشرح والتحليل
ثالثا : مراجعة الرموز والمصطلحات مع الواقع
رابعا : دراسة حدود العلوم وعلاقتها
خامسا : دراسة تصنيفات العلوم
سادسا : دراسة المترتب على التسليم النسبي
سابعا : دراسة علاقات البناءات المنطقية
ثامنا : التعرف على المصادر والمسلمات الاستقلالية
تاسعا : دراسة الأبعاد الإجتماعية
عاشرا : دراسة نتائج تطبيقات العلم المعاصر

لما كان لفظ المجال [١] ، في اللغة من الألفاظ العربية ذات الدلالة المتنوعة في المعاني ، ومنها المكان الذي يتحرك الشيء فيه ، أو الميدان الذي تتأكد من خلاله طبيعة هذا الشيء أو ذاك ، فإن مجال فلسفة العلم قد تعددت أو تكاثرت ميادين كل منها ، بل تنوعت جزئيات كل ميدان ، حتى صارت أقرب الأشباه بالشجرة الكبيرة ذات الغصون المتعددة ، ومع كل فرع جملة من الغاوات أو الكواعب المتناثرة ٠

وقد أدى هذ التعدد النوعي الفوقي والتحتي ، إلى ظهور أفكار قد تكون جديدة، أو تتسم بالجدة ، لكنها تصب في اتجاه بعينه ينتهي إلى الأصل الذي قام عليه ، ويرتد إلى الأساس الذي شيد فوقه ، بناء على ان المجالات المتعددة تنشأ عنها جملة من الفروع التي تنبث في جزئيات العلم حتى تنال من فروعه وغصونه ، من هنا فسألمح إلى أبرز مجالات فلسفة العلم على النحو التالي :

الأول : تناول المناهج بالدراسة الواعية [٢]

من المعلوم أن كل علم له منهج محدد، وإذا تشاركت مجموعة من العلوم في استخدام منهج بعينه، فإن الضرورة تقضي إلى إمتياز منهج كل علم منها عن غيره ، بما يجعله مستقلا كأن هذا المنهج وضع له وحده ، وفلسفة العلم تبدو في الدراسات التي تقوم حول المناهج من حيث تناولها الأولي ، ثم النظر فيها من خلال إطار نقدي عام حيث تعنى بالجزئيات البحثية المنهجية ، تناولا لها ثم تعيد النظر فيها مرات عديدة ، لأن هذا العلم حينما يتناول الجزئيات البحثية، فإنما يحررها من العوارض ، كما ينزع من طريقها الصور الظلالية ، بجانب عوامل الانكسار الفكري ، ومتى أمكن الوقوف على حقائق الأشياء، صار المنهج المستخدم هو الأقرب من ناحية القبول العلمي ، بل أنه إذا احتاج إلى التعاون مع منهج آخر ، كان أمرا إيجابيا يدعو إلى التآلف والتناغم الفكري والعلمي معا ٠

---

(١) فضلت استعمال لفظ مجال ، ولم أستعمل لفظ ميدان على أساس أن الأول أعم من الثاني على الناحية اللغوية ، وكلما كان اللفظ أوسع من سابقه وأكثر عموما ، فإن الاستعمال السليم هو الذي يمارس مع الأعم لا مع الأخص ٠

(٢) يطلق لفظ المنهج على الطريق الموصل إلى المطلوب ، كما يعرف بأنه طريقة متبعة في العلوم والمعارف حتى يبلغ صاحبه غايته ، وكلما كان المنهج واضحا سليما ، جاءت نتائجه متكاملة ، ومن هنا تعددت المناهج بتعدد العلوم والمعارف ٠

ثم أن هذا المجال المنهجي الذي تمارسه، فلسفة العلم، يتعدي غاية الموضوعات الأساسية ، ثم يقفز منها إلى الأواسط ، وأخيرا الأهداف والغايات ، كما يقفز بالباحث نفسه من المبادئ إلى النهايات ، حتى لو لم يلزمه إجراء ذلك في كل من المقاطع والأوساط أثناء التعامل معها [١] لأن الغاية هي تحقيق الصورة الراقية المتكاملة ، لما يكون عليه الفكر البشري ، كما يدفع لإدراك أو تناول قضايا أخرى تكون لها علاقة بالغيب العلمي ، أو وقفت نتائجها على أقدام ثابتة ، واستقرت فوق شواطيء واثقة ، بعيدا عن أوجه القصور ، أو عوامل القلق والتشطر والإضطراب •

لقد أعتبر الكثيرون من الدارسين المحدثين فلسفة العلم تناولا جديدا لمنهج العلوم ومسائلها ، بل الموضوعات والغايات أيضا ، لكن هذا التناول لها جاء من خارج العلم ذاته ، حتى أنهم عرفوا بأنها : مايحلل العلم ولا يكون جزء منه [٢]، بينما اعتبر البعض فلسفة العلم منهجا علميا يتناول دراسة المناهج العلمية ولايقدم مناهج جديدة لها [٣] حتى وإن أمكنه إجراء بعض التعديلات أو إدخال الكثير من الأفكار الجديدة عيها •

ومادمنا قد حصرنا دور فلسفة العلم في تناول المناهج ودراستها دارسة واعية ، تضع في الحسبان كافة الجوانب ، فقد أمكن القول بأن هذه المسألة أحد المجالات الهامة التي يكون لفلسفة العلم فيها وجود متواصل ، ومتى تم ذلك تحققت نتائج إيجابية ، لأن دور فلسفة العلم سيكون بمثابة القاص الأمين ، أو الحاكي البارع الذي يروي أحداث العلم ، ويتناول أخص قضاياه ، كما يلجأ للعرض والتقرير ، وفي النهاية ، يأخذ طريقا يتسم بالنقد الهادف والتعليق الجاد [٤] ، وحينئذ يتم الوصول إلى استخراج المنهج الأمثل لكل

---

(١) المعروف أن كل علم من العلوم ، أو فن من الفنون له مبادئ هي أوائله ، ثم مقاطع وأوساط هي موضوعاته ، وأخيرا تأتي غاياته متمثلة في النتائج ، ومن هنا قالوا أن الخاتمة هي ملخص لجميع النتائج تلخيصا متميزا •

(٢) راجع كتابنا : الحثيث في المنطق الحديث ، صـ ١٧٥ ، الطبعة الثامنة ، ولا دوارد هيفل : المناهج العلمية الحديثة ، صـ ٢٣ ط. أولة ، ترجمة عليه عبد الرحمن •

(٣) راجع كتابنا : قراءات في العقيدة وفلسفة العلم ، صـ ١٣٤ ، وهذا المعنى يختلف عن سابقة في الصورة ، لكنه يتكامل معه في ناحية الأهداف والغايات على وجه من الوجوه •

(٤) راجع كتابنا : مناهج البحث بين التقليد والتجديد ، صـ ١٦٤ ، وكتابنا : التفكير الإنساني أصوله ومستوياته ، صـ ٥٣ ، لأن النقد الهادف البناء يفيد في تقدم العلوم وتنقية المعارف الإنسانية ، بجانب الإسراع في الخطوات الحضارية من غير استثناء ، ولذا أتمنى التركيز على المناهج ، وبيان قيمتها من الناحية العلمية •

علم على حدة وكل دراسة من ناحية مستقلة .

أجل ان دراسة المناهج التي تقوم بها فلسفة العلم ، تقدم أنماطا فكرية جديدة في
التناول والعرض ، كما تسمح بتعدد المناهج والموضوعات ، بحيث تثري القضايا العلمية
بالشرائط التي لا بد منها ، نظرا لأرتباط ذلك كله بالمشكلات العلمية [١] ، بجانب القضايا
المثارة التي تفرزها الأبحاث العلمية على الدوام ، وتعتبر من ضرورات العلم أيضا ، بدليل
أنهم توصلوا عن طريق فلسفةالعلم إلى أن مؤكسدات الخلايا هي عبارة عن جزئيات
منتشرة في البيئة المحيطة بالإنسان - الهواء والطعام - وهي التي تتسبب في هدم وتكسير
الخلايا عن طريق تكسير جدار الخلية ، والغشاء الواقي حولها.

من هنا يمكن اعتبار علاقة فلسفة العلم من هذه الناحية - دراسة المناهج العلمية
دراسة واعية - بالعلم كعلاقة اللغة المفسرة او الشارحة باللغة الأصلية ، أو اللغة الأم من
حيث التعريف بها ، ثم النقد البناء الهادف لما يرتبط بها [٢] ، بجانب ضرورة الاصغاء إلى
ما تلقيه ، مع بيان الحقائق المتصلة بأوسع صورة وأوضح بيان .

الثاني : تناول المفاهيم بالشرح والتحليل

الواضح أن كل علم له مفاهيم ومصطلحات تكون هي لقواعد الإشارية الضرورية ،
أو رموز ودلالات يتم التعامل معها ، أو يتم التعرف عليه من خلالها ، ولا بد أن تكون تلك
المصطلحات أو المفاهيم في نطاق الألفاظ اللغوية[٣]، أو تصورات خاصة بحيث يمكن اعتبارها
بمثابة اللغة المنطوقة ، أو العبارة المكتوبة ، وهي في ذات الوقت تمثل لذلك العلم الصورة
الحياتية المعاشة [٤]، إذ بدون هذه الألفاظ والتصورات لم يكن لذات العلم وجود ، ومن ثم
فإن تحديد المصطلحات والمفاهيم يعتبر من مجالات فلسفة العلم ، أما لماذا ؟

---

(١) إذا أنفصل العلم عن المشكلات العلمية لم يكن علما ، ومن ثم فالعلم في كل صوره لابد أن
يكون مرتبطا بالمشكلات المطروحة ، سواء التي أمكن تقديم حلول لها ، أو التي مازالت بحاجة
إلى ذلك .

(٢) ارتباط اللغة الشارحة باللغة الأم ارتباط تفسيري لا يمكن حذفه من قاموس التعامل ، كما لا
يستطيع الباحث التنازل عنه في تحرير موضوعاته ، أو وضع القوائم الإرتباطية والإرتكازية
في حالتي الايجاب أو السلب .

(٣) لأن الألفاظ هي أثواب المعاني ، فلا ظهور للمعاني ، او طريقة لمعرفتها إلا إذا جاءت في
ألفاظ محددة واضحة الدلالة .

(٤) لأن العلم أيا كان نوعه تنقله الفاظ تجيء فيها مصطلحاتة، فإذا لم توجد هذه المصطلحات
والألفاظ لم يكن للعلم وجود .

فلأن المنهج العلمي تنشأ له وظائف بينية من خلال وجوده الذي يعبر عنه تحديد المصطلح المستعمل ، وبخاصة أن الألفاظ المستخدمة تجيء فيها القواسم المشتركة بين الكثير من العلوم التطبيقية والسلوكية[١] ، بل والمعيارية أيضا •

كما أن تحديد المصطلح أو المفهوم ، يعتبر بمثابة وضع النقاط التهديفية داخل السلال الإصابية ، بحيث تحسب الأهداف بأعدادها ، ومن ثم قالوا أن تحديد المصطلح يكون بمثابة وضع النقاط التحريرية على الحروف الصامتة في صورها الإنشانية[٢] ، بدليل أنهم لم يجعلوا الإختلاف في الإصطلاح مسألة تستدعي التنازع أو يقع معها العداء، حتى قالوا لا مشاحة في الإصطلاح ، وهذا إعتراف صريح بأن كل علم له مفاهيمه الخاصة به ، التي لا وجود له بدونها •

لكن فلسفة العلم لا تهتم بالتحديد اللغوي للمصطلح ، إنما تعني بدراسته من جديد ، ومراقبة الفوائد المترتبة علي الإستخدام ، ثم إمكانية توظيفه بالطاقات المتعددة [٣] ، على أساس أن فلسفة العلم ليس علما وصفيا او تقريريا ، وإنما هو علم نقدي يهدف لإقامة أنساق علمية جديدة من استعمال مصطلحات ومفاهيم موجودة •

إن فلسفة العلم ، علم يشرح المفاهيم والمصطلحات ، كما يحللها تحليلا دقيقا [٤]، بحيث يكون كالمهندس الذي يراجع الرسوم الهندسية ويطبق معارفه على القواعد الموجودة، ثم يفهمها للآخرين ، ويعمل على شرحها ، ثم تأتي المرحلة الثالثة ، وهي ابعاد الجوانب الغريبة عنها ، و تخليصها من الشوائب العالقة بها ، بحيث إذا أراد تصديرها كانت صافية ، أو على الأقل لا تحمل الأفكار التي لم تقم الأدلة الصحيحه العلمية على سلامتها ، أو لا يمكن التأكد منها مرات عديدة •

---

(١) القواسم المشتركة في الألفاظ المستعملة إحدى البديهيات العلمية ، لكن صياغتها على الناحية بعينها هي التي يتم التعامل معها من خلالها ، بل هي الفارق الكبير أيضا •

(٢) راجع كتابنا : التفكير الإنساني أصوله ومستوياته ، ص ١٧٥ وما بعدها •

(٣) لأن فلسفة العلم إذا لم تقم بذلك ، تكون قد تنازلت عن مهامها الأساسية ، بل يمكن القول بأنها قد أخفقت في إثبات وجودها واستقلالها البحثي •

(٤) وهذا يصلح تعريفا لفلسفة العلم ، باعتبار المهام والوظائف التي تناط بها ، بل تكون من وظائف فلسفة العلم بالمعنى الفني ومهامه أيضا •

ويعتقد عالم فلسفة العلم أنه يتخذ من المفاهيم والمصطلحات العلمية مجالا خصبا لدراسة العلوم المختلفة من زاوية بعيدة تماما عن الزوايا التقليدية ، فإذ إنتهي من عملية الشرح الدقيق هذه ، لجأ إلى صياغة مفاهيم قد تكون جديدة، كلها أو بعضها ، أو تفريغ المفاهيم القائمة من بعض المحتويات ، ثم إعادة تعبئتها من جديد ، لكن بمحتويات يراها مناسبة للبحث العلمي الهادف (١)، وقادرة على تحقيق نتائج إيجابية ، أو إحراز نجاحات لم تكن المفاهيم السالفة قادرة على بلوغها ٠

فمثلا ، فكرة اللانهائي الرياضية ، ليست هي اللانهائي الفلسفية (٢) ، لأن الأزلي متعلقة بالكم العددي ، وبعبارة أخرى قيامها الأصلي هو الكم المنفصل ـ الحساب والجبر ـ بينما الثانية متعلقة بالكم الكتلي أو الكم المتصل ، نظرا لأرتباطه بالسطوح وجملة من الأحجام على ناحية بذاتها ، من هنا يكون دور فلسفة العلم استعمال اللفظ ـ اللانهائي ـ كمنطوق لغوي، ثم تعبئته بمدلول جديد يتفق مع خواص البحث العلمي النظري والتجريبي معا ، بل ولا مانع لديه من تصدير هذا المفهوم الجديد بعد تعبئته بالمعنى الذي رآه مناسب للوقائع الجديدة ، حتى لو تم استخدامه في العلوم المختلفة(٣) ٠

وكذلك فكرة أو لفظ الإمكان في المباحث الكلامية ، فإنه يتعلق بعملية كاملة يقع الممكن في طرف من اطرافها ، على أساس أنه الذي يصح وجوده وعدمه ، فإذا وجد إحتياج إلى مرجع ينقله من العدم إلى الوجود ، وإذا أعدم احتاج كذلك إلى مرجع ينقله من الوجود إلى العدم (٤)، لأن الممكن يتساوى وجوده وعدمه بالنسبة لذاته ٠

---

(١) لا يجوز أن يقوم صاحب فلسفة العلم بتناول ذات الأفكار إلا إذا تأكد أنها صالحة للإستعمال ، وأن يكون قد نقاها من الشوائب والاختلالات البنائية ، راجع كتابنا : قراءات في فلسفة العلم ، صـ ٧٤ ط. الرابعة ٠

(٢) وهما معا غير فكرة اللامتناهي أو الشعاع من ناحية المنطوق المسطح للألفاظ اللغوية ، أما المعاني فقد يقع بينهما الإشتراك الصوري ، وهي من اشكاليات البحث العلمي ، راجع كتابنا : النفكير الإنساني في أصوله ومستوياته ، صـ ١٨٥ ٠

(٣) هناك فرق كبير بين الإعداد الجديد وبين الاستعمال أوالتصدير ، وذلك مما يجب النظر إليه بعين فاحصة ٠

(٤) راجع كتابنا : حبو الوليد في علم التوحيد ، وكتابنا : تأملات غزالية في القضايا الكلامية ٠

فإذا نقلت هذه الفكرة من منطوقها اللغوي إلى المفهوم الفلسفي ، كان معناها الوصف الثابت الذي يخص كل ما سوي المبدأ الأول ، أو العلة الأولى ، وبناء عليه أمكن تقسيم الموجود عندهم إلى واجب وإلى ممكن ، ثم إنتهى الأمر بهم إلى ضرورة إثبات الواجب ،وهو واجب الوجود ، الله جل علاه ، فإذا لم يثبت وجود واجب الوجود ، لم يوجد ممكن أصلا ، ولذا قال العلماء إن إمكان الفلاسفة تأتي فوق قمة إمكان المتكلمين [١].

كذلك لا يقتصر مجال فلسفة العلم على مجرد الشرح والتحليل للمفاهيم والمصطلحات ، أو العمل على تعبئتها بالجديد ، ثم تصديرها كقواعد بحثية ، وإنما يجب عليه أيضا إستدراك ما فاته بشأن كل جزئية منها ، بحيث يستطيع تعديل المسار البحثي ، وكذلك الاتجاه النتائجي ، طالما كان القيام به يحقق مصالح إيجابية تؤدي في النهاية لخدمة هذا النوع من العلم في صورة غير تقليدية •

يقول " وايت " [٢] ليس من الصواب القول بأن فلسفة العلم تلتزم الشرح والتحليل والتعديل ، وإنما لا بد أن تجتاز هذه كلها ، لتقوم بأعمال جديدة تمثل استقلالا ذاتيا ، ويعبر عن تطور في التناول والأداء ، وهو دور فلسفة العلم ، ومجال من مجالاتها الأساسية[٣]، مع ضرورة أن يكون ما تفضي إليه أو تسخرجة متوافقا مع الأنماط البحثية في صورها القائمة ، ويقدم تعادلات مقبولة بالنسبة لأنساق العلم التجريبي بصفة خاصة •

الثالث : مراجعة الرموز والمصطلحات مع الواقع

فلسفة العلم لا تكتفي بمجرد قراءة المصطلحات والمفاهيم ، أو شرحها وتحليلها ، وإنما تقوم بإعادة المراجعة الدقيقة المتأنية لكل مصطلح على حده ، ثم تعيد مراجعة الرموز الدلالية ، بحيث تبعد أوجه الاشتراك السلبية ، لأنها فلسفة فحص وتحليل

---

(١) لأن إمكان المتكلمين ينتهي إلى إثبات وجود المرجع فقط ، فتظل المسألة داخل إطار البحث النظري ، أما إمكان الفلاسفة فإنه ينتهي إلى إثبات واجب الوجود مباشرة أو العله الأولى ، وهو الله سبحانه وتعالى •

(٢) هو " جيمس هنري وات " استاذ العلوم الكيميائية ، وحاصل على العديد من الدرجات العلمية، وصاحب الاكتشافات الحديثة في مجال العلوم التطبيقية ، ولد عام ١٩٢٧ بالنمسا ، وهاجر إلى كندا عام ٢٠٠١، وله العديد من الإهتمامات العلمية في المجالات المختلفة•

(٣) جيمس هنري وات : فلسفة العلم الأساس والمعيار ، صـ ٥٧ ، ترجمة زاهد شوقي ، ط. أولى سنة ١٩٩٧ •

واستدلال ، وهي فوق ذلك تختصم العلماء إلى أنفسهم ، وتحاكمهم إلى ابحاثهم[١]، ثم تسعى لإزالة الحجب ، وتخطي الحواجز التي قد يضعها العلماء خلال رموز ومصطلحات عامة ، فإذا أنتهى الأمر إلى مطابقة هذه الرموز أو المصطلحات لما هو قائم في طبيعة العلم أمكن الأخذ بها على أنها قواعد بحثية سليمة •

لأن فلسفة العلم تضع دائما قوائم للأثبات وأخرى للنفي ، كأنها تضع كل علم بجزئياته ومفاهيمة ورموزه ومصطلحاته في سلة واحدة ، ثم تأخذها واحدة واحدة ، ولا تضع في السلة الجديدة إلا ما يثبت انه سليم ويصلح للإستخدام ، أو التعبير عما كان داخل السلة الأولى أو السلة القديمة [٢]، وذلك يحتاج نوعا من النقد المتواصل بجانب التحليل الدقيق لكل من الرموز ودلالاتها ، وكذلك المفاهيم واستعمالاتها •

إن فلسفة العلم تمثل دراسة نقدية بناءة كطبيعة الجهاز الرمزي في العلوم التي تستخدمه ، أو الدلالات الرمزية ذات الارتباط العضوي بالعلوم الطبيعية ، كما تعبر عن صيغة تفاهم تقوم بها الجاهات البحثية المتقاربة بهدف إعادة تصنيف العلوم[٣] لا من خلال موضوعاتها فحسب ، بل من خلال مناهجها وغاياتها ورموزها ومصطلحاتها كل على حده، ولا يخرج عن هذا الإطار علم من العلوم أو فن من الفنون[٤] ، إذ جميع المعارف أمام فلسفة العلم سواء •

يقول " أندرية فوكر " ان مراجعة الرموز التي تقوم بها فلسفة العلم مجال خصب أظهرت فيه براعة ، كما كشفت القناع عن وجوه أولئك الذين لا يبالون على أية ناحية جاءت رموزهم ، ثم ربطت الرموز المدروسة بمدى موافقتها للواقع العلمي ، مما جعلها تخطو

---

(١) وهذا الدور متعدد الاتجاهات ، يقوم بنتائج إيجابية لأنه يدفع عن فلسفة العلم التبعية والتقليد ويعطيها الحق في اختيار الطرائق المناسبة ، كما يسمح لها باجتياز كل العقبات التي قد تحول بينها وأهدافها ، ومن ثم ففلسفة العلم يمكن التعامل معه على أنه علم نقدي استقرائي أيضا •

(٢) مسألة السلال الجديدة والقديمة أراها مناسبة عند مراجعة تصنيفات العلوم ، بل يمكن استخدامها أيضا في مجال مراجعة القوائم النسبية في حالتي الإيجاب والسلب ، والعلم لا يمنع من استعمال هذا اللفظ كمصطلح •

(٣) تصنيفات العلوم يجب أن تتم داخل إطارات محددة، من حيث التعريف لها والعلاقات المشتركة بينها ، ثم الوقوف على المناهج التي يمكن بحثها من خلالها •

(٤) راجع كتابنا : قراءات في العقيدة وفلسفة العلم ، صـ ٢١٧ / ٢٣٥ •

خطوات واسعة وسريعة ، قدرها الدارسون لها ، المراقبون لنشاطاتها ونتائجها [١] .

لذا فقد صار من واجب الباحث في فلسفة العلم تعديل دلالات بعض الرموز المستعملة حتى تكون أكثر دقة ، او أقدر على الوفاء بالمطلوب ، لكن لا بد له من تحديد دلالتها الرمزية على سبيل الاستقلال ، وبخاصة إذا كانت هذه الرموز تستعمل بأشكالها وصورها في اكثر من علم [٢]، كالحال مع الرموز الجبرية س ـ ص ، والرموز الهندسية أ ـ ب جـ ، فإنها تستعمل في كل من الطبيعة والأحياء ، بل وربما استعملت في الكيمياء على أنها رموز دلالية ذات صيغ محددة .

ومن الواجب على الباحث في فلسفة العلم الإنصات لآراء أصحاب هذه العلوم التي تستخدم تلك الرموز ، بل الإصغاء الجيد لدلالتها ودالتها أيضا ، بحيث إذا تم التعديل في استخدام رمز بعينه ، أو مجموعة من الأجهزة الرمزية ، كان ذلك التعديل لصالح الإستخدام في حدود ما يفيد ترقية العلوم [٣]، وتقديم فوائد جديدة ، لأنها فكرة الرمز الذاتية تتنامى داخل العديد من العلوم على أنها صيغ أو وسائل ، ومن ثم حرصت فلسفة العلم عند تناولها على أن تكون ذات غاية محددة .

الرابع : دراسة حدود العلوم وعلاقاتها

يعتقد الباحثون في فلسفة العلم أن معرفة حدود العلوم التي تتمثل فيها مفاهيمها وتعريفاتها ودراستها ، على ناحية خاصة يعتبر من مجالات فلسفة العلم ، إما لماذا ؟ فلأن الفلسفة تعني دراسة العلاقات القائمة بين حقائق الأشياء لمعرفة كيفية الوقوف عند دقائقها والاستفادة منها [٤]، ومن ثم فكل علم له تعريف حاص به يسمى حده الذي يتميز به عن غيره .

---

(١) أندريه فوكر: فلسفة العلم والأبحاث الرمزية ، صـ ٣١ / ٣٢، ترجمة صفاء نوري ، ط. ثانية سنة ١٩٩٨ .

(٢) فكرة التحديد الرمزي الدلالي مهمة في العلوم التجريبية ، وسائر العلوم أيضا ، على أساس أن الرمزكثيرا ما يتحول إلى مصطلح اتفاقي أو تواضعي ، يمكن التعامل معه من ذات الناحية .

(٣) ترقية العلوم مصطلح يقصد به الانتقال من طور الابتداء إلى طور تجري فيه مظاهر التقعيد ثم القفز المتوالي حتى يبلغ حد التطور .

(٤) هذا تعريف أراه مناسبا للفلسفة في المجال العلمي التجريبي ، بل يمكن تطبيقه في فلسفة العلم أيضا ، وهي مسالة مهمة .

فمثلا ، علم الحساب ، يعرف بأنه يتعلق بالأعداد الحسابية من حبث العلاقات المتبادلة بينها ، وهي الجمع والضرب والطرح ثم القسمة ، وأنه ابتدأ تجريديا حسيا خالصا ، ثم إنتهى إلى التجريد المطلق [١]، وهو من العلوم المنفصلة ، هذا حده الذي لا يقع التشارك فيه مع علم أخر ، حتى وإن كانت بينهما علاقة من نوع خاص ، بدليل أن علم الجبر القريب من الحساب يعرف بأنه علم الرموز والدلالات ، بينما علم الحساب هو علم الأرقام والعلاقات ، ولا بد من دراسة مفاهيم العلوم ودورها ، بل والعلاقات القائمة بينهما.

ومع أنهما معا من الكم المتصل ، إلا أن أحدهما ليس هو الثاني مطلقا ، وإلا كانا علما واحدا ، موضوعه واحد ، ومنهجه واحد ، وغاياته بل وأهدافه واحدة [٢]، فلما لم يقع ذلك كله ، دل الأمر على أنهما شيئان أو علمان كل منهما مستقل عن الآخر تماما ٠

هنا يأتي درو فلسفة العلم لتقف على الحدود والتعاريف الخاصة ، ثم يعيد الباحث دراستها ليرى هل ينطبق التعريف القائم على موضوعاتها وفائدتها بحيث يكون شاملا ، أم لا ينطبق ، وهل يقع فيه تداخل بين علم وآخر يحتاج كل منهما إلى الفصل النوعي بحيث يقع الاستقلال المفيد[٣]، والتمايز الضروري النافع أم لا ، وتلك من مهام فلسفة العلم على الناحية الدقيقة ٠

كذلك يختلف علم الطبيعة والميكانيكا عن كل من علمى الأحياء والهندسة من ناحية التعريف الخاص بكل منها على حده ، ومن ثم فلا بد من الوقوف على هذه الحدود من حيث هي ، لأن كل تعريف هو بمثابة الحد لذات العلم ، بغض النظر عن كونها علوم نظرية أو تجريبية لأن المعيار في الجميع واحد [٤]، وهو ضرورة التعرف على الحدود القائمة لكل منها استقلالا ، وكذلك التعاريف الدقيقة ، بإعتبار الغاية والأهداف ٠

---

(١) فكرتي التجريب والتجريد متباينتان من كل الوجوه ، راجع كتابنا : مناهج البحث بين التقليد والتجديد ، صـ ١٤٧ وما بعدها ٠

(٢) اتحاد الموضوع مع الأهداف والغايات إذا اشتركت معهما المسائل والوضوعات كانا علما واحدا من كافة الجوانب ، مع أن المسألة ليست كذلك ٠

(٣) فكرة الاستقلال النوعي لها مزاياها وأخطارها ، وكلما سعى إليها الباحثون اكتشفوا مسائل جديدة ، ووقفوا على قضايا مهمة ٠

(٤) راجع كتابنا : مناهج البحث بين التقليد والتجديد ، صـ٥١ ، وكتابنا الحثيث في المنطق الحديث صـ ١٧٤ ، ط. العاشرة ٠

يقول " جيمس فرانز " إن العلوم تفصلها عن بعضها حدودها الأساسية المتعلقة بأسمائها وتعاريفها ثم موضوعاتها وأهدافها [١] .

ثم أن هـذه العلـوم الخاصة قد تكون بينها علاقات من نـوع ما ، وقد تمتـد هـذه العلاقات امتدادا من نوع ما أيضا ، بإعتبار العموم والخصوص ، او بإعتبار التداخل والتباين، أو تتركز هذه العلاقات في إعتبارات مستجدة [٢].

من ثم فلا بد لفلسفة العلم من الكشف عن هذه العلاقات وأنواعها وطبيعة كل منها، بجانب إمكانية توظيفها لخدمة البحث العلمي في صورته التي يفيد عند استخدامها، بل هي من مهام فلسفة العلم ، فمثلا بين الحساب والجبر نوع من علاقة التداخل بإعتبار استعمال المنهج ، وبينهما تداخل من ناحية تناول كل منهما لبعض الدلالات التي يكون لوجودها اعتبار ثالث بالنسبة للمفاهيم الرياضية ذات الصلة الوثيقة بالاتجاهات المعرفية [٣] ، في ناحية من النواحي ، او على طريقة من الطرائق ، مع أن بينهما تباينا من ناحية الإسم والتعريف ، ربما يمتد ذلك إلى بعض الجزنيات البحثية .

كذلك الحال بين علمي الأحياء والفيزياء ، فإن بينهما نوعا من التداخل في الوسائل والقوانين ، بل والمشكلات التي يقع لها التناول الموضوعي في صورة الصورة البحثية ، مع أن التباين قائم بينهما في الإسم والتعريف أيضا ، وكذلك بعض المسائل الضرورية والاستخدامات الرمزية بجانب بعض المفاهيم ، والألفاظ الإصطلاحية .

هنا يأتي دور فلسفة العلم ، حيث ينظر إلى هذه العلاقات ، ثم ينهض لدراستها ، لأن الباحث فيها يحدد أنواعها وطبيعة كل نوع ، ثم يفصل ذات التداخل ويسميها العلاقات المتداخلة ، ويتعامل معها بالنقد والتحليل[٤] ، ثم يسعى لإعادة صياغتها متى كان ذلك

---

(١) جيمس فرانز : فلسفة العلم والاتجاهات الحديثة، صـ ٥٧، ترجمة الدكتور هاني سنة١٩٩٨ .
(٢) يمكن مراجعة هذه الجوانب في مناهج البحث، وكتابنا التفكير الإنساني في أصوله ومستوياته صـ ٢٤٧ .
(٣) راجع في هذه المسألة لإدوارد هوفر : العلوم الرياضية والدلالات الرقمية والرمزية ، صـ ٥٣ ترجمة عنان راشد ، سنة ١٩٩٥ .
(٤) النقد عملية مستقلة ، والتحليل عملية أيضا مستقلة ، وكل منهما قد تتكامل مع الأخرى ، وقد لا تتكامل ، وذلك شيء آخر .

ضروريا ، وفي النهاية يضعها داخل قوانم خاصة بحيث يمكن الاستفادة بها في كل حالة مماثلة ، وبناء عليه أمكن تقدم العلوم وتنمية المعارف •

كذلك يبحث العلاقات المتباينة ، ويضع كل واحدة منها في مجموعة خاصة ، ويسمى الجميع العلاقات التباينية في مقابلة العلاقات التداخلية ، ثم يعيد النظر فيها أيضا من خلال ميزان النقد والتحليل ، فإذا انتهى من ذلك ، أعاد صياغة ما يراه بحاجة إلى تعديل ثم يضع هذه التعديلات داخل قوانم خاصة يسميها قائمة التعديلات[١]، بحيث يمكن الاستفادة منها في الحالات المماثلة أو المستجدة التي قد تتشابه مع الحالات السابقة •

من ثم يمكن القول بأن دراسة حدود العلوم والعلاقات المتبادلة من مجالات فلسفة العلم ، لا من حيث هي ، وإنما بإعتبار آخر غايته المحافظة على استقلال كل منها ببعض الخواص المميزة له عن غيره ، حتى من مشاركاته في المنهج أو طريقة العرض [٢]، وتلك مسألة مهمة في تناول موضوعات العلوم ومعرفة حدودها ، بجانب إدراك علاقاتها الأساسية•

يقول " وايت " ليس من الصعب معرفة حدود العلوم أو تعريفاتها ، فهذا امر قام به الأوائل الذين ندين لهم بهذه المجهودات العظيمة ، بل الصعب هو كيفية إدراك العلاقات المشتركة وغير المشتركة بين كل العلوم ، فهذا أمر يحتاج فصلا جديدا ، ويمثل مرحلة بحثية ذات ارتباط علمي وثيق [٣]، ومن ثم أعتبر الدارسون معرفة الحدود والعلاقات واحدا من مجال فلسفة العلم •

ثم أن العلوم المتقاربة قد تظهر بينها عمليات من التداخل الصوري ، أو الشكلي وحينئذ تسمى علامات تداخلية ، لكنها قد تأتي مغلفة بعبارات يحدث بينها التلاقي ، او عبارات تظهر في ثناياها فكرة التوارد ، أو التنامي ، بحيث إذ تناولها الباحث المستجد أو

---

(١) لمعرفة ما يتعلق بقائمة الثوابت القديمة ، وقائمة التعديلات المستجدة ، راجع كتابنا : مناهج البحث بين التقليد والتجديد ، صـ ٢٥٩ •

(٢) الإختلاف في الخواص والمناهج وطرائق العرض ، يمكن إعتبارها جميعا خواص ثابتة من حيث كل منهج في ذاته ، وعرضه بإعتبار المناهج الآخرى ، وكذلك الحال مع العلوم المختلفة التي لم تبلغ بعد درجة العلوم البرهانية في الإستدلال والاستنتاج ، راجع كتابنا : قراءات في العقيدة وفلسفة العلم ، صـ ١٣٤ •

(٣) الكسندر وايت : النظريات البحثية في القرن العشرين ، ترجمة وفاء صابر ، سنة ١٩٨٧ •

صاحب الخبرة القليلة ولم تكن له معرفة سابقة بطريقة التفكير المنهجي الدقيق لكل منهما استقلالا ، فإنه يقع في الخطأ الغير قصدي ، وحينئذ يخالف الواقع العلمي ، وتأتي نتائجه سلبية ، وفيها القصور المعرفي .

ولما كانت العلوم والمعارف لا بد فيها من نتائج تكون بمثابة القوانين العامة ، أو الأحكام النهائية ، أو القرارات الجبرية ، أو لها قوة البراهين العلمية بالنسبة للعلوم الرياضية ، أو تشغل وظيفة المفكر الدقيق في الأبحاث الفلسفية ، فإن تقييم هذه النتائج والكشف عن فائدتها يكون من دقائق مجالات فلسفة العلم [١]، ومن مهام الباحث في فلسفة العلم ، سواء أدرك هذه المسألة أم غابت عنه .

ربما يقال أن العلوم التي يقع بينها تداخل متواصل هي العلوم النظرية التي ليست هدفا أو غاية ينشدها الباحث في فلسفة العلم ، أو أنها تخرج عن مجالاتها، وبالتالي تصير فكرتا التباين والتداخل بينها منعدمة من أصلها ، أو أنه لا توجد علاقة قائمة فيها ، فلماذا اعتبرت هذه الدراسة من مجالات فلسفة العلم ؟

والجواب أن فلسفة العلم لا تبحث في العلوم النظرية من ناحية الموضوعات والمسائل ولكنها تتناولها على جانب التعريف والمنهج ، بجانب النقد الواعي ، ومن ثم يكون لها إرتباط بدراسة هذا النوع من العلوم ، كما أن فكرتي التداخل والتباين يبدو لكل منها وجود فعلي داخل العلوم النظرية[٢]، بدليل أن الدارس لكل من علم التاريخ وعلم الإجتماع يجد قاسما مشتركا بينهما تدعمه أسس متبادلة وتقوم فيها غايات قد تكون متداولة بجانب جملة من الأهداف التي يسعى كل منهما في الوصول إليها وتحقيقها .

بل أن كلا من علم الجغرافيا والخرائط او علم الجيولوجيا ـ طبقات الأرض ـ توجد بين كل منهما علاقة من نوع ما ، لذا تكون الحاجة ضرورية لوجود فلسفة العلم ، وإعتبار

---

(١) هناك فروق جوهرية بين مجالات فلسفة العلم وفوائدها أو وظائفها ، كما أن هناك فروقا أخرى تتعلق بها من ناحية التعريف والدلالة ومايستتبع ذلك .

(٢) لمعرفة هذه الأفكار ، راجع كتابنا : مناهج البحث بين التقليد والتجديد ، صـ ٢٦١ ، وكتابنا : التفكير الإنساني أصوله ومستوياته ، صـ ١٢٥ .

ذلك من مجالاتها الأساسية [1]، طالما كان دورها الكشف عن طبيعة هذه العلاقات ، ودراستها دراسة موضوعية ، وتصنيفها تصنيفا دقيقا يوضح نوع العلاقة والفوائد المترتبة عليها ، كما يساهم في دفع مسيرة التقدم الحضاري .

من الملاحظ أن علاقة التداخل بين العلوم المشتركة ، أو المتقاربة ، تفيد في المفهوم العام ، لأنها تكشف عن صورتين متكاملتين بالنسبة لفلسفة العلم :

الصورة الأولى : التداخل بالعموم والخصوص

وهي التي تكون مع كل أعم تحته أخص منه مطلقا ، كالحال مع كل من علم الأحياء وعلم النبات ، فإن الأول ـ الأحياء ـ أعم مطلقا لأنه علم الكائنات الحية على وجه العموم ، بحيث يشمل المجال الأحياني الإنساني[2]، والحيواني ، والنباتي .

أما علم النبات فإنه يكون قاصرا على فرع بعينه من هذه الكائنات الإحيانية، وبناء عليه، يكون علم الأحياء أعم مطلقا من علم النبات، لأن علم النبات جزء من أجزائه، أو غصن من أغصانه[3]، وبنفس المستوى اللغوي والتعبيري ، يمكن القول بأن علم النبات أخص مطلقا من علم الأحياء أو علم الكائنات الحية .

لكن من الذي يكشف هذه العلاقة ، ويقف عليها موقف محددا ، ليس بالطبع هو علم الأحياء ، أو علم النبات ، إذ ليس ذلك من شأنهما ، إنما الذي يقوم بذلك كله هو فلسفة العلم ، حيبث يتولاها من الناحية المعرفية البحثية ، والنظرية التجريبية [4] .

وثمة مشكلة بحثية أخرى تتعلق بهذا الجانب مردها لأمر آخر مهم ، هو تتابع دراسة الحدود المعرفية وتوظيف ذات الدراسة في اتجاهين كل منهما يسير مع الآخر على

---

(١) المجالات الأساسية غير المجالات التبعية أو الإضافية ، لأن الأولى تكون من ذاتيات العلم بينما الثانية من لواحقة التي يرتد إليها ، والفرق بينهما هو ذاته الفرق بين التعريف بالذات والتعريف بالعرض لدى المناطقة .

(٢) هذه التسمية أراها مقبولة لأنها تفصل الإنسان عن الحيوان ، بإعتبار كل منهما أحد الكائنات الحية التي تندرج داخل علم الأحياء ، إذ لا ينصرف العلم إلى واحد منهما ، وإنما يشملهما النبات أيضا .

(٣) من الواضح أن الشجرة الإحيانية متعددة الأغصان ، وأن هذا التعدد هيأ للباحثين العديد من الفرص التي تكون بحاجة إلى باحثين من طرازات مختلفة أو نماذج متميزة .

(٤) راجع تفاصيل هذه الجوانب في كتابنا : قراءات في العقيدة وفلسفة العلم ، صـ ٣١٨ .

سبيل التوازي المتضاد [١] من حيث اتجاه كل منهما المخالف للآخر بنفس المساحة والمقدار ، بمعنى ان أحدهما متى سار ناحية الإثبات ، فإن إتجاه الثاني يكون لجهة النفي ، وتلك من مهام فلسفة العلم ، بل وتعتبر من مجالاته الهامة •

الصورة الثانية : التداخل بمعنى الإندماج

وهي التي تكون بين متساويين يقع بينهما الخلط التام ، بحيث إذا نظر الباحث المدقق إلى كل منهما استقلالا ظن أنهما شيئ واحد ، أو حالة واحدة ، فإذا تعامل معهما غلب على فهمه انهما علم واحد لا علوم متعددة متكاثرة ، كالحال مع المجرات والسدم ، وعلمي أدب البحث والمناظرة [٢]، فمتى نظر دارس إلى كل منهما على وجه السرعة ، أو في شيء من العجلة ، حكم بأنهما شيء واحد ، او أن كلا منهما قرين الآخر ، وربما أنتهى إلى القول بأن التعامل مع كل منهما يمكن اعتباره من باب التوارد أو التأكيد •

وقد حدث هذا الخلط التداخلي لدى أغلب دارسي علمي أدب البحث والمناظرة ، فمع أن كلا منهما علم مستقل بإسمة وتعريفة ، وموضوعاته بجانب مسائله وغاياته ، إلا أن الأغلب الأعم يتعامل معهما على أنهما شيء واحد ، والغريب أن تظهر المؤلفات جامعة بينهما تحت اسم واحد ، مع أنهما علمان متمايزان عن بعضهما تمام التمايز[٣]، بل من كافة الجوانب البحثية والغائية ، بجانب الموضوعية أيضا •

من المؤكد انه لو تم التعامل مع العلوم المتداخلة ، إندماجيا بمنظور واحد ، فإن النتائج تكون سلبية إلى أبعد مدى ، أما إذا تم الوقوف عند حدود كل منهما ، والتعامل معها بنفس المنظور الذي يصلح لها ، أو من خلال الأسس والقواعد المنهجية المتبعة ، فإن النتائج حينئذ تكون إيجابية ، وتتمثل فيها العديد من النجاحات ، وهنا يبرز دور فلسفة العلم ،

---

(١) فكرة المتوازي المتضاد قد تكون غريبة ، لأن التوازي في العرف الرياضي سير المتوازيين معا في إتجاه واحد ، ولكني أخترت هذه التسمية هنا لتدل على أمتداد كل منهما في الإتجاه المخالف للآخر تماما ، فذلك من شأنه إحداث نزعة فكرية لدى القائل بها والمستمع لها •

(٢) لأن علم البحث له تعريف خاص واسم بذاته ، ثم موضوعات تتعلق به وحده ، ونتائج تترتب عليه ، وأهداف يسعى إليها ، وكذلك المناظرة ، فإنها علم متصل بإسمه وموضوعه ، وكذلك مسائلة بجانب إتجاهاته الأهدافية وما يتعلق بها ، ومن ثم فلا يمكن اعتبارهما علما واحدا ، وكذلك الحال في كل علمين حدث بينهما خلط في المقدمات أو الموضوعات •

(٣) لمزيد من التفاصيل، راجع كتابنا : نظريات غزالية في العلوم الانتقائية ، صـ ١٢ وما بعدها •

حيث أكد الباحثون أن يكون لها دور محدد واضح وأكيد .

بيد أن فكرة دراسة الحدود المعرفية للعلوم الخاصة ، وبحث العلاقات القائمة ، وإعتبارها أحد مجالات فلسفة العلم ، قد نالت حظها من الشهرة ، كما حظيت بحظها الثابت من الدراسة ، نظرا لإرتباطها بالكشف العلمي عن ذات العلاقات القائمة (١)، بما يزيل أوجه القصور ، كما يسوق إلى بلوغ الأهداف العلمية .

أضف إلى ماسبق ، أن دراسة حدود العلوم الخاصة ، وتعريفاتها من الناحية الواقعية ، أمر مهم جدا ، فإذا جاء معهما الكشف عن العلاقات القائمة بينهما ، وضم إليها المفهوم الدقيق لكل من التداخل والتباين بالمعنى المتفق عليه ، أمكن القول بأن فلسفة العلم أستطاعت تحقيق أهدافها بدقة شديدة (٢)، وتوسع من مجالاتها الإستخدامية ، بل أوجدت لها أمكنة متعددة داخل العلوم المختلفة ، كما أن دراسة النتائج المترتبة تقضي حتما لإيجاد حلول واقعية ذات نزعة علمية ، كما تدفع للبحث عن حقائق جديدة ، قد تكو ن لها أثار جديدة أيضا تصب في صالح البحث العلمي ، كما تصرف هم الباحثين لإيجاد ، أو استحداث ، طرائق منهجية وموضوعية من شأنها تقديم خدمات بحثية بجانبي العديد من النتائج الإيجابية .

الخامس : دراسة تصنيفات(٣) العلوم

قامت الدراسة العلمية على مهمة تصنيف العلوم في مجموعات متقاربة الموضوع أو الأهداف والغايات ، وهذا التصنيف كان معروفا مننذ زمن بعيد ، لكنه لم يتخذ الصبغة الفنية أرضا لواقعة بحيث تنامى عليها ، أو يتمدد معها ، وإنما ظل قاصرا في حدود بعينها لم تتجاوز المسافة الزمنية التي تمارس فيها (٤).

---

(١) هذه النتائج ألمح إليها إدوار باكنت في كتابه " المنطق الرمزي ودلالاته العلمية " صـ ١٣٥ ، ترجمة الدكتور خالد زكريا .

(٢) أهداف فلسفة العلم عديدة ، منها ما هو أصلي ، ومنها ما هو إضافي أو تبعي ، ولكل منهما وسائلة التي يقوم عليها ، ومقدماته التي يقوم فيها .

(٣) كلمة التصنيف تحمل تارة على أنها الكتابة والتأليف، وتارة أخرى على أنها وضع كل مجموعة من العلوم متقاربة تحت تحت مسمى واحد ، تتم دراستها من خلاله ، كالحال مع علوم اللغة نحو ، صرف ، بلاغة ، أدب ، عروض، وما كان داخلا في هذا النطاق .

(٤) وكان هذا التصنيف يمثل إحدى المشكلات البحثية في الماضي ، لأنه لم يقم على أسس صحيحة ، كما لم يقدم فوائد حاسمة يمكن التعرف عليها أواستخدامها.

بل كانت العادة الغالبة في التأليف - قديما - أن تتم دراسة موضوعات علم بعينه داخل موضوعات علم آخر قد لا تكون بينهما أدنة علاقة ، وهو ما يعرف بمرحلة الخلط التأليفي [١]، ولم يكن حال ترتيب العلوم وتصنيفها بأحسن حالا من عملية التأليف ، وبالتالي برزت مساحة واسعة من التباين ظلت حاجتها ماسة للإصلاح والتقويم ، أو على الأقل بات أمر إصلاحها ضروريا ٠

ثم جدت الحوادث ، وباتت الحاجة ماسة لنزع هذا الغلاف الخلطي ، وإقامة بناء آخر تحت مسمى التصنيف الفني الدقيق للعلوم [٢]، وقد سارعت فلسفة العلم إليه فإعتبرته أحد مجالاتها البحثية ، ولم تقف عند هذا الحد ، وإنما تعداه علماؤها والباحثون فيها ، فوضعوا دراساتهم حول النتائج التي انتهى إليها السابقون ، ومن ثم برزت ثلاثة مظاهر رئيسية أثناء عملية التصنيف هذه ، يمكن الحديث عنها فيما يلي :

المظهر الأول : لوحة المعلومات

وهي التي يتم تصنيف العلوم فيها من الناحية الموضوعية والمنهجية ، أو من ناحية الأهداف والغايات ، بحيث يكون لكل تصنيف منها علامة مميزة داخل اللوحة ذاتها ، أو تختص بلون معين ينظر إليه عند بحث محتوايات هذه العلوم المصنفة ، كأن يكون اللون الأخضر مثلا للعلوم الإحيائية ، واللون الأصفر للعلوم السلوكية [٣]، واللون الأحمر للعلوم السيكولوجية ، واللون الأبيض للعلوم الاقتصادية أو الكونية الفلكية ، وهكذا ، بحيث تتحول جملة المؤلفات المصنفة إلى مجموعة من الرموز والألوان المعبرة ، ومن هنا تصير لهذه العلوم دلالات إرشادية ، وتكون اللوحة بمثابة المفتاح المؤدي إليها ٠

---

(١) الخلط التأليفي أحد العيوب التي انتشرت في الماضي ، حيث كان الموضوع الواحد يتم تناوله من جهات عديدة ، فيقع التداخل بينه ، ومن ثم لم يكن الدارس لها قادرا على استخلاص ما يريده منها إلا بعناء شديد ، واتهمت هذه المؤلفات بما لا يليق ٠

(٢) يذهب البعض إلى أن التصنيف الفني الدقيق للعلوم وليد عصر النهضة الحديثة ، وليس الأمر بصواب ، لأن العلوم الإسلامية قد مارست ذلك منذ زمن بعيد ، وجاءت التصانيف فيها دلالة على هذا الإتجاه ، راجع كتابنا : الخطاب بين الأصوليين ودعاة الحداثة ، صـ ٩٧ وما بعدها٠

(٣) العلوم السيكولوجية غير العلوم السيكوترية ، لأن الأولى نفسية نظرية ، والتجريب فيها قليل أو نادر الوقوع عدا حالات قليلة ، بينما الثانية تجريبية تعتمد على التشخيص الدقيق والعلاج الدوائي، راجع كتابنا : القلق ومشكلاته ، صـ ١٤٥ ٠

فإذا أراد باحث التعرف على علم الميكانيكا مثلا ، أو الفيزياء ،لم يكن بحاجة إلى إجراء المزيد من الدراسة البحثية ، وإنما عليه مطالعة هذه الرموز ، وحينئذ يدرك دلالتها ، وبهذا يتجه مباشرة إلى الفرع الذي يريد دراسته من غير أن يبذل مزيدا من المجهود في الوقوف على نوع العلم ، وآخر على طبيعته ، وثالث على إتجاهاته [١]، لأن لوحة المعلومات تكون قد وفرت هذه المجهودات المتعددة ، ويسرت له أسباب الوقوف عليها في سهولة شديدة ·

يقول " كينز " من الواضح في العلوم التطبيقية أن لوحة المعلومات تمثل المفاتيح الرئيسية للتعرف على هذه الرموز ، وكذلك مفاتيح الشفرات الايحائية ، رغم أنها في حد ذاتها رموز دلالية، وهذا ما جعل فلسفة العلم تعتبرها أحد مجالاتها البحثية[٢]، ومن ثم قفزت إلى أدوار تقدمية [٣]، وحققت نتائج جديدة ·

ثم أن لوحة المعلومات التصنيفية ذات الاستعلامات التي تعتمد على الرمز للوني ، لايكتفى فيها بمجرد وضع الإشارات الخاصة ، أو الألوان الإرشادية [٤]، وإنما يصاحبها إمتياز من نوع جديد ، يقوم على ضرورة بيان تفصيلي بذات العلوم والفهارس المصاحبة لها، بل والمصادر التي يمكن الرجوع إليها، وإن لم يكن ذلك على وجه الكمال ، فعلى الأقل يكون له وجود فعلي يمكن توظيفه على الناحية السليمة ، وأن يصاحب هذه اللوحة ، فلا ينفصل عنها ، وأن يكون مكتوبا باللغة التي يتعامل بها ، فإذا لم يكن مكتوبا باللغة المتعارف عليها ، فلابد أن تكون إشاراته الموضوعة،أو المصاحبة لذات اللوحة متفقا على دلالاتها[٥]،

---

(١) وبالتالي ، أرى فلسفة العلم يمكن أن توفر عليه بحث هذه الجوانب كلها من جديد ·

(٢) جيمس هنري كينز : الفلسفة العلمية ومشكلاتها التطبيقية ، صـ ٤٤ / ٤٥ ، ترجمة سالم الشابوري ، ط. اولى سنة ١٩٨٧ ·

(٣) لأنها لو أكتفت بذلك ، لكانت عملا وصفيا ، قيمته منعدمة ، ولا وجود له كمجال من مجالات فلسفة العلم و لأن فلسفة العلم حركة نقدية ، والوصف ليس سوى تقرير لحالة قائمة فقط ·

(٤) هذا ما يعرف بالإصطلاح الخاص لقيامه على الاتفاق أو التواضع على استخدام الفاظ بذاتها في مفاهيم أو مصطلحات مقصودة في علم بذاته لدى طائفة محددة ، راجع كتابنا : التفكير الإنساني أصولة ومستوياتة ، صـ ١٤٧ ، وكتابنا : مباديء الإقتصاد في الإعتقاد ، جـ ٣ صـ ٣٧ /٣٨ ·

(٥) لأن فلسفة العلم لا تقدم معارف جزئية ، وإنما تعني بدارسة القوانين والقواعد الكلية ، فهذا شأنها ، وارتباطها بعملية التجديد ضرورة علمية ، راجع كتابنا : قراءات في العقيدة وفلسفة العلم ·

بحيث يمكن للجميع التعرف عليها والتعامل بها أيضا •

بيد أن مسألة التعرف عليها لا تكون هي الفيصل ،وإنما لا بد مع ذلك من إمكانية توظيف طرائق الاستفادة منها توظيفا دقيقا ، في فهرسة العلوم وتصنيف الموضوعات ، بحيث يمكن الاستفادة المباشرة منها أثناء إجراء الأبحاث في المجال الديموجرافي ، وكذلك الأبحاث الجيولوجية والفيزيائية على السواء[1]، ولا بد من الإشارة إلى طريقة الاستخدام وطبيعة الإستفادة وحجمها ، إذا كان ذلك ممكنا ، ولذا اعتبرت لوحة المعلومات من مجالات فلسفة العلم ، وليس من الصواب التخلي عنها •

المظهر الثاني : الخرائط الدلالية

وهي التي يتم الإتفاق عليها ، ويقع لها التداول أثناء توظيف العلوم المعيارية ، والعملية التجريبية ، بل والسلوكية أيضا ، بغرض الوقوف الجيد ، والتعرف الدقيق على طبيعة العلوم أو المعارف المنطوية فيها ، واستكشاف طرق جديدة ، يكون السير عليها منهجا مقبولا ، ووسيلة تقريب ضرورية[2]،حتى يتمكن الباحث من الإمساك بنتائج علمية وعملية في وقت واحد ، أما لماذا ؟

فلأن هذه الخرائط الدلالية تستخدم جملة من الرموز المطوية داخل قائمة من السهول والهضاب ، أو الجبال والتلال ، بجانب الأنهار والبحار والمحيطات وغيرها ، وكل منها تكون له دلاله معروفة ، أو متفق عليها بين الباحثين في فلسفة العلم ، الذين يقدمون تفسيرات لرموزهم المستخدمة ، حتى تكون كافية لإحداث معارف جديدة ، وإيجاد العديد من الفوائد العلمية والبحثية على الناحية المنهجية بصفة أساسية ، والنتائجية بطريقة تبعية ، وإلا فقدت دورها الذي يجب أن تمارسه •

---

(١) لأن فلسفة العلم لا تقدم معارف جزئية ، وإنما تعني بدارسة القوانين والقواعد الكلية ، فهذا شأنها ، وارتباطها بعملية التجديد ضرورة علمية ، راجع كتابنا : قراءات في العقيدة وفلسفة العلم •

(٢) ومن ثم أعتبرت الخرائط الدلالية مفاتيح جديدة ، غير التي توجد في لوحة المعلومات ، أو التي تختص بالموضوعات المصنفة ، أما الثانية فإنها تنظر للمناهج على سبيل الأصل ، ولا يهم إذا كانت الموضوعات تجيء معها أم لا ، لأنها خرائط دلالية منهجية •

يقول " فولت " أن الخرائط الدلالية تمثل لفلسفة العلم المفاتيح غير القرائية التي تساهم في تقدم العلوم ، وسرعة الاستفادة منها ، لقد كانت هذه الدائرة مفقودة في الزمن البعيد ، وبالتالي لم يكن الباحثون يشعرون بقيمتها ، أما الآن ، وبعد أن استطاعت فلسفة العلم إنشاءها ، فقد تأكد هؤلاء الباحثون أنهم كانوا ضحية تقصير علمي كبير(١)، وذلك من شأنه تقليل المساحات التباعدية بين الأفكار والمعارف والعلوم من خلال جملة الخرائط الدلالية ذات الأثر الفعال في تقدم العلوم واستنتاج المعارف الجديدة •

فمثلا ، يمكن رسم خريطة جينية تتعلق بالهندسة الوراثية(٢)، ووضع كافة الجينات عليها من خلال رسوم محددة ، بحيث يكون لكل مجموعة منها رمز من الرموز ، او معلم من المعالم المتفق عليها ، كأن تكون الجبال مثلا للجينات ذات السيادة غير المتنحية، وتكون أسافلها للجينات أو الصفات السالبة أو المتنحية ، وهكذا ، بحيث لا يقع الوقت فريسة للبحث المتكرر عن عناصر مفتقدة أو ذات وجود هولامي •

بل يمكن أيضا أن تكون الهضاب أو السهول رموزا تحدد بها طبيعة كل مجموعة جينية ذات إرتباط فسيولوجي (٣)، وتواجد تشريحي ، بحيث يسهل التعرف الدقيق عليها والوصول إلى محتويات هذه الخرائط عن طريق الرموز القائمة بذات الخرائط من الناحية الدلالية ، وذلك مما يعبر عن نفسه ، ويعتبر أحد مجالات فلسفة العلم (٤)، ولا أغالي إذا قلت أن الخرائط الدلالية هذبت الكثير من العلوم ، وأختزلتها في رموز صغيرة سهلة عند التعرف عليها ، كبيرة في الاستفادة منها •

---

(١) أدوارد فولت : الميتافيزقا النقدية والمشكلات البحثية ، صـ ٧١ / ٧٢ ، ترجمة ظافر الشوري ط. ثانية سنة ١٩٩١ •

(٢) الهندسة الوراثية علم يتعلق بالجينات وكيفية توظيفها ، بحيث يقع الاستفادة منها على الوجوه المختلفة في الكائنات الحية الإنسانية ، والحيوانية والنباتية، ولذا فهي تستخدم التهجين الوراثي كواحد من مشكلاتها البحثية التطبيقية

(٣) الفسيولوجيا علم وظائف الأعضاء ، وهو غير الهستولوجيا الذي يركز إهتمامه بالخلايا ، ويطلق عليه لدى الكثيرين علم البحث في الخلايا ، ومن ثم فالبحث الجيني يمكن توظيفه في الأعضاء تارة ، والخلايا تارة أخرى ، بمقادير مختلفة •

(٤) وبناء عليه أمكن القول بأن مجالات فلسفة العلم متعددة إلى حد كبير ، بل أن الدراسات العلمية الحديثة أكدت ذات النتيجة •

المظر الثالث : القوائم التعددية

وهي التي يتم فيها تدوين أسباب التصنيف ، وعوامل النجاح التي صاحبته ، والجوانب التي ترتبت على هذا التصنيف في الواقع العلمي الصحيح من غير زيادة عليه أو نقصان منه ، كما يتم فيها تدوين الأسباب التي أدت إلى عدم إنماء التصنيف على الصورة الصحيحة ، وتمثل في الوقت ذاته الجانب السلبي[١] ، ومن ثم فالقوائم التصنيفية ذات أهمية كبرى في العلوم المختلفة ، ولكنها تجيء في مجموعتين ، أو تجيء من خلالهما ، وهي مجموعة الإيجاب ، ومجموعة السلب ٠

١ - مجموعة الإيجاب

وهي التي تتمثل فيها أسباب نشأة هذه العلوم ، وكيفية الوقوف عليها ، بجانب التاريخ الذي يمكن اعتماده على أنه بدايات التعرف عليها ، أو الكشف عنها ، بحيث تكون هذه البيانات دقيقة وشاملة ، وغير منقوصة[٢] ، حتى يكون المطالع لها قادرا على تخطي الجهل بها ، إلى دوائر المعرفة الكاملة وطرائق الوصول إليها من ذات العلم ، يقول " فيدر " من السهل تصنيف العلوم في مجموعات عامة ، لكن وضع القوائم الايجابية مسألة مهمة جدا لأنها تمثل التاريخ الفعلي لهذه العلوم ، وتكشف عن جوانب امتيازها [٣] ، وهو دور عظيم الفائدة في الوقت الراهن ٠

ثم أن هذه القائمة تمثل طبيعة تقريرية وانعقادية معا ، ولا تبتعد عن مكان التوظيف متى كانت الحاجة داعية إلى ذلك ، بمعنى أنها تتابع التحرك الطبيعي لنشأة العلم ، كالحال مع الميكروفيزيا مثلا، أو الفلك، أو تدوين ما يتعلق بهذه النشأة مع تصنيف دقيق لكل تحرك فيها [٤] ، لأن ذلك من شأنه الوقوف على حقيقة كل علم ، مع إمكانية

---

(١) هذه المراقبة تكون من الناحية التاريخية الإحصائية ، بحيث يمكن معالجة أوجه القصور على المدى القريب ، وهناك تظهر عملية التصنيف في صورها المتعددة ٠

(٢) دقة البيانات أمر هام جدا ، لأن النتائج تترتب عليها ، وكلما أمكن الوقوف على مقدمات صحيحة جاءت النتائج بنفس المقدار ، ومن ثم يتم تحصيل العلم في صورته المثالية ، راجع كتابنا : الفكر الإنساني أصولة ومستوياته ، صـ ١٧٥ ٠

(٣) إدوارد فيدر : الثورة العلمية في المجال التقني ، صـ ١٧١ ، ترجمة وفاء صابر ، ط. أولى سنة ١٩٩٧ ، وراجع ايضا لجون هيلمر : العلم والحاسوب ، صـ ١١٣، ترجمة السيد نجم ٠

(٤) هو التصنيف الجزيء النوعي الذي يعرف بأنه دراسة المراحل الداخلية لكل علم من حيث النشأة والبحث فيه والتطورات التي طرأت عليه ، بحيث يكون في كل علم تصنيف داخلي يتعلق بتاريخه وموضوعاته من كافة النواحي ٠

الاستفادة من ذات الناحية ، بمعنى أنها لا تسمح بتدوين أوجه القصور ، ولا تنظر إلى المعوقات ، إنها لا تمثل سوى الوجهة النحتية ، فكأنها تصنع تاريخا ومنهجا ، وتندفع نحو غاية محدودة ، فإذا تحققت أهدافها ، أمكن لها أ ن تعلن عن نفسها ، ومن ثم تتعرض للصور السلبية بالنقد ومحاولة علاج أوجه القصور •

إن مجموعة الإيجاب تعبر عن الوجهة السليمة ، أو الناحية التي تصور العلوم بما هي عليه كمرحلة أولى ، وهي الوصفية أو التقريرية ، ثم تتخذ طريقا آخر في ذات العلوم - التي سبق تصنيفها - وهو دراسة أوجه القصور بحيث تعمل على إصلاحها من خلال تقديم صور علاجية أو استكمالية لها [١]، مع إثبات ذلك كله داخل القائمة نفسها ، حتى إذا وقف عليها دارس تحققت له النتائج العديدة •

يقول " فرست " إن قائمة الإيجاب في صورتها النهائية تقرير توصيف للعلم الذي قامت بدراسته ، وهذا في حد ذاته كاف لإفائدة الباحث العلمي في الوصول إلى الحقيقة ، أو على الأقل تفيد في معرفة التطور الطبيعي والمراحل التي قطعها هذا العلم حتى بلغ ما هو عليه[٢]، وتلك مسألة مهمة لأنها تقوم على نتائج صحيحة ، أو على الأقل يكون الطعن فيها ضئيلا إذا ما قورنت بغيرها •

٢ - مجموعة السلب

وهي التي تدون فيها عوامل تأخر هذه العلوم، وبطء وقوع التطور فيها، بجانب المعوقات والأسباب التي لاحقت مراحل الظهور وحجم تأثيرها على الوقائع المدروسة [٣]، وبعبارة أخرى يمكن القول بأن مجموعة السلب هي التي تمثل الصورة الكشفية عن الواقع المعاش لعلم من العلوم ، وكيفية التعرف عليه ، لكن من خلال المظاهر العدمية لا الوجودية، ويطلق الباحثون على هذه المظاهر مصطلح ماقبل التاريخ •

---

(١) بمعنى انها لا تتوقف عند حد بعينه، ولا تلجأ لوسيلة بذاتها ، إنها تسعى لإيجاد حلول إيجابية ولا تكتفي بمجرد التصنيف أو رسم الصورة القائمة ، وتلك مهمة تقوم بها فلسفة العلم •

(٢) إنطوان فرست : الكون الجديد والنظريات الاستكشافية ، صـ ١٤٧ ، ترجمة شوقي صقر سنة ١٩٨٧ •

(٣) ومعنى هذا أن الباحث في فلسفة العلم يضع مجموعة السلب أمامه كما يفعل الطبيب الذي يلجأ إلى تشخيص الحالة ويذكر أسباب المرض بحيث يحذر المريض من الوقوع فيها ، فهي وصفية تحذيرية •

يقول " كراوثر " بدأت تتحدد ملامح الإنسان ككائن عاقل متدين عندما عرف الأجاد كيف يدفنون موتاهم ، وبطرق مختلفة ، وتنوع أساليب الدفن ، يؤكد أن وراءها أفكارا معينة ، وتحمل مغزى عند أصحابها [١]، وبناء عليه ، تكون العبارة واضحة في أن مراحلة ما قبل التاريخ قد ظهرت فيها مشاكل بحثية علمية تتعلق بطرائق الدفن ، التي تطورت على أيدي المصريين القدماء إلى عمليات التحنيط والتجفيف الكامل للموتى ، حتى تمكنوا من الاحتفاظ بأجساد بعض فراعينهم هذا الوقت الطويل ، ونشأ عن ذلك علم معياري يعرف بإسم علم التحنيط .

من الواضح ، أن مجموعة السلب ، أو القائمة السلبية هي التي تحتوي المعوقات التي منعت ظهور هذا العلم أو ذاك ، أو كانت السبب في تأخر الاسراع به وضعا وتقنينا ، ولكنها لا تكتفي بمجرد الوصف ، وإنما تسعى لتقديم جوانب الإصلاح[٢]، والنهوض بإعتبار ذلك من مجالات فلسفة العلم .

يقول " كيمي " أن ذكاء فوق مستوى البشر يستطيع أن يقرأ المستقبل من نظرة يلقيها على قانون الطبيعة ، وهذا لا يعدو لندهشة طالما أن هذا القانون قد عرض للماضي والحاضر والمستقبل ، أما في الطرف الآخر ، فإنه من البديهي القول بأننا لا نستطيع بقوانيننا الحالية أن نتكهن بالمستقبل بأي قدر من الدقة ، لذلك ، يتبين أن كل سؤال يثير الاهتمام يمكن أن يقع وجوبا بين هذين الطرفين - الكيان المتميز والكائن البشري المثالي [٣] .

ثم ينتهي إلىالقول بأن الضرورة العلمية تقتضي إيجاد علاقة تامة متكاملة بين قاعدتي الإيجاب والسب من خلال جملة عوامل ، أو قواعد ، تتمثل فيها الطاقة البشرية

---

(١) ج. ج. كراوثر : قصة العلم ، صـ ١٥ ، ترجمة د. / يمنى طريف الخلولي ، والدكتور بدوي عبد الفتاح ، الهنية المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٩٩ .
(٢) وضع المعوقات في قوائم سلبية مهمته إفراز الآثار السلبية داخل كل مجموعة علوم ذات ارتباط من نوع معين ، ولذا يعتبر الكثيرون مجموعة السلب ذات أهمية كبرى .
(٣) جون كيمني : الفليسوف والعلم ، صـ ٢٧٣ ، ترجمة د. / أمين الشريف ، المؤسسة الوطنية بيروت سنة ١٩٦٥

والقوانين العلمية ، بجانب القوائم النقدية [١]، فيقول ويمكننا أن نتبين عوامل أربعة تؤثر في المشكلة ، وهي : الأول : القوانين المتوافرة ، الثاني :الحقائق المتوافرة ، الثالث : القوى العاقلة المتوافرة ، الرابع : الوقت المتوفر [٢]، وتكاملها مع بعضها يمهد لظهور معارف وعلوم اكثر دقة ، وقوانين ليس من السهل التعديل السريع عليها ٠

٣ - المجموعة الإنتقائية

من الواضح ، بل من السهل ، القول بأن مسألة القوائم التعددية يمكن أن تنشأ عنها مجموعة ثالثة تسمى المجموعة الانتقائية ، وهي التي تترتب فيها الجوانب المفيدة في تقدم العلوم ، وإحراز قصب السبق ، من غير أن تكون للعقبات أو المعوقات مظاهر حيوية، ومن هنا تصير فلسفة العلم أمر ضروريا ، بل يمكن القول بأن مجالاتها المتعددة تعتبر من سماتها الخاصة وصورة من صورها الحقيقية لا الظلية ٠

السادس : دراسة المترتب على التسليم السبقي

من المعلوم أن كل علم تظهر فيه نتائج بعضها قام على الملاحظة ، ثم التجربة ، متخذا المنهج العلمي التجريبي طريقا له ، وبعضها لجأ إلى النتائج التي تم التسليم بها ، بناء على كونها صادقة ، حيث يأخذ منها من غير مراجعة لما ورد بها ، وبالتالي ، فكل دراسة للنتائج التي ترتبت علي هذا التسليم السبقي بصدق نظرية عامة تعتبر من مجالات فلسفة العلم ،أما لماذا ؟

فلأن العلم الحادث تراكمي المقدمات المتحدة التي هي في الأصل نتائج لمقدمات سابقة[٣]، أمكن التعرف عليها ، كجهود فكرية لأبحاث سابقة أيضا ، وبناء عليه تصير هذه النتائج الاسترسالية مسلمات تقوم عليها أيضا نظريات عامة[٤]، قد تؤخذ هي الأخرى

---

(١) من هنا يصح القول بأن القوائم العقدية يمكن اعتبارها مجالا هاما من مجالات فلسفة العلم ، نظرا لإرتباطها بنتائجها البحثية أو التي تترب عليها في صورة من صور المعرفة ٠

(٢) وقد استغرق شرحه لهذه القواعد الأربعة في الطبيعة من صـ ٢٧٣ حتى صـ ٢٧٧ ، وكان يضع في حسبانه الحديث عن الحتمية كمثال نموذجي أو دافع تطبيقي ٠

(٣) هذا دليل على أساس أن كل مقدمة صحيحة سابقة ، لا يمكن أن تؤخذ منها نتائج سليمة ، ثم تصير هذه النتائج مقدمات جديدة ، وهو مايعني وجود تراكم للمقدمات السابقة ، وكذلك بناءات لنتائج لاحقة ٠

(٤) المعيار في كون النظريات عامة أو خاصة ، هو إمكان الأخذ بها في تفسير قاعدة عامة ، كتفسير نشأة العلم مثلا ، وما أشبه ذلك ، راجع كتابنا : التفكير الإنساني أصوله ومستوياته ، صـ ١١٣ ٠

التصديق بها ، وحينئذ تعتبر نظريات عامة جديدة ، أو صالحة للإستعما على ناحية مهمة.

لكن المشكلة تكمن حينما تتعلق هذه النظريات العامة بأمور حياتية ، ومن ثم تبدو عنيفة متى وقع لها إرتباط بالأمر الغيبي ، أو بحث قضايا غيبية ، كأن يتم الأخذ بها في تفسير نشاة الكون مثلا ، أو تتعلق بها قوانين علمية ذات اتجاهات تجريبية تحتاج المراجعة، أو تكون الدراسة الجديدة كافية لجوانب غير متوافقة مع طبيعة هذه الأبحاث[١]، كألحال مع نظرية الأجسام الساقطة في المكان من أعلى إلىأسفل ٠

حيث كان الفهم السائد قديما ومنذ أرسطو ، اننا إذا القينا بجسمين مختلفي الوزن من مكان عال في لحظة واحدة فإن الأثقل منهما يصل للأرض قبل الأخف ، وبناء عليه ، أمكن تفسير سرعة سقوط الأجسام الثقيلة ، وبطء سقوط الأجسام الخفيفة ، بل أن هذا الفهم ظل هو السائد فترة من الزمان ، ولا يمكن لأحد أن يقترب منه ، وبخاصة عندما صبغته الكنيسة في القرون الوسطة بصبغة دينية[٢].

فلما نهضت عمليات البحث العلمي ، وطالبت بدراسة النتائج من جديد ، وجاءت هذه النظرية العامة إلى ميدان الدراسة الجديدة ، وتبين أن عملية السقوط هذه ترتبط بقوانين الجاذبية الرياضية العلمية ، ومن هنا أعيد البحث التجريبي فظهر ان الجسمين متى سقطا من مكان واحد ، وكان بينهما تناسب حجمي ، أدى لسقوطها معا ووصلا معا إلى الأرض[٣] وفي ذات الوقت من غير فاصل زمني ٠

من ثم يمكن القول بأن فلسفة العلم لم تقف عند مجرد التسليم بصدق النتيجة السابقة ، وإنما طالبت بإعادة الدراسة المتأنية من خلال التجربة العملية المتكررة طبقا لمستوى فكري مختلف ، ووضعت خلاله قائمتان : إحداهما للإيجاب والأخرى للسلب ، ثم

---

(١) راجع في هذا الشأن كتابنا : التطور الأحياني بين التدين والفلسفة ، صـ ٧١٣ / ٧١٥ ، وكتابنا الحثيث في المنطق الحديث ، صـ ٣١٨ ٠

(٢) راجع كتابنا : خواطر حثيثة في الفلسفة الحديثة ، صـ ٢٣ ، حيث عرضت موقف الكنيسة من هذه الأفكار الرياضية أو العلمية وإلحاقها بالمسائل الدينية ٠

(٣) هذا السقوط ليس معناه مايتبادر للعقل ، ولكن معناه الوصول السلمي أو العادي إلى الأرض وقد ينتج عن ذلك ظهور فكرة النسبة والتناسب داخل الفكر الرياضي ٠

تمت المرجاعة وتكررت المحاولة ، وأمكن الرصد الدقيق لكل المستويات[١]، حيث ظهر أن المسألة فيها خطأ ، والمطلوب التعرف عليه ثم تصويبه •

ثم تدخلت فلسفة العلم مرة ثانية فمارست الضغط على المفكرين للمراجعة المتكررة ومن هنا جاءت النتائج عكس السائد تماما ، وبخاصة عندما تم وضع جسمين مختلفين اختلافا كبير تارة ، ثم قليلا تارة أخرى ، فعند تقاربهما جاء زمن السقوط واحد [٢]، وكلما تكررت النتيجة أدت إلى ذات النتيجة ، من ثم امكن وضع قانون جديد ، مؤداه أننا إذا القينا من سطح مستو بجسمين بينهما تناسب ، فإن سقوطهما.هنى السطح المستوي يكون واحدا ، وفي زمن واحد •

كذلك سادت فكرة قدم العالم ، فترة من الزمان ، وصارت نتائجها السبقية محل قبول من ذوي الإتجاهات القديمة ، وبخاصة الطبيعيين الأولين في بلاد الأغريق حتى تركوا البحث فيها على الجملة ، وظلوا يبحثون في الأصل القديم الذي نشأ عنه العالم من الناحية العلمية[٣]، فوقعوافي حيرة شديدة ، ثم اختلفوا ، فمنهم ذهب إلى أن أصله القديم هو التراب ، ومن ذاهب إلى أنه الماء ، ومن ذاهب إلىأنه الهواء ، ومن ذاهب إلى أنه النار ، ثم جاء فريق خامس أراد للمة الأشلاء المبعثرة ، وانتهى إلىأن أصل العالم القديم هو مجموع العناصر الأربعة وأطلقوا عليه اسم الاسطقصات الأربعة [٤]، وصار هو النظرية العامة التي يفسرون بها نشأة العالم •

ثم جاءت مرحلة لاحقة وقف المفكر نفسه من ذات النظرية الفلسفية يخاصمها في معارفها ، ويحتكم للواقع في هذه الخصومة من حيث الأسباب والنتائج ، فإذا به يجد نفسه

---

(١) مسألة تكرار المحاولة تكون بمثابة إلحاح متواصل حتى تبلغ المسألة غايتها ، وهي حالة طبيعية في الأبحاث العلمية الدقيقة •

(٢) راجع هذه المسألة في المؤلفات الفيزيائية، حيث تناولت الجوانب الفنية والعلمية المتعددة ذات الإرتباط بهذا الشأن •

(٣) راجع كتابنا : المدخل لدراسة الحكمة الإسلامية ، صـ ٢٣ ، الطبعة الثانية ، وكذلك كتابنا : أسباب تقدم الفلسفة في المشرق وتأخرها في المغرب ، صـ ٥٥ •

(٤) راجع للدكتورين / عوض الله حجازي ، محمد السيد نعيم : تاريخ الفلسفة اليونانية ، صـ ٥٧/ ٥٩ ، وللإستاذ / يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ، ص ٧٢ •

مضطر لرفض الفكرة السبقية ، والتأكيد على ضرورة المراجعة المستمرة ، فلما انخلع عن سيطرة الأفكار السابقة صار حرا يواجه الحقائق بما هي عليها ٠

صحيح لم يتمكن العقل من القول بأن العالم قديم[١]، نظرا لإرتباط ذلك بالعقائد الدينية التي كانت أبان عصره ، لكنه استطاع توجيه الفكر لدائرة أخرى ، دفعت به إلى الإقرار بوجود قوى آخرى غير مادية ولها تأثير في العالم على ناحية من النواحي ، وقد أنتهت هذه المحاولات الجديدة للإذعان بوجود الإله الخالق العظيم ، جل علاه ، سواء أجرى هذا التعبير في مؤلفاتهم ، ام ظلّ معتصما بعقولهم ، أو يخفى داخل صدورهم ٠

يمكن القول بأن التسليم بصدق النتائج السابقة ليس من طبيعة فلسفة العلم ، وفي نفس الأمر ، فهي لا تشكك في جميع النتائج السابقة ، إنما تختار ما تراه مخالفا للواقع ،حتى تعتبره موضوعا يستحق الدراسة ، ومعيارها ثبات النتائج وجمودها ، أو مرونتها وسهولة تطبيقاتها [٢]، فإذا كانت النتائج جامدة غير مرنة ، والإستفادة منها منعدمة ، أمكن القول بأنها بحاجة إلى إعادة الدراسة من جديد ، وتكون الدراسة المعادة أحد مجالات فلسفة العلم ٠

أما إذا كانت النتائج السبقية تستوعب المستجدات العصرية ، وتغطي الاحتياجات العلمية ، وتقدم قفزات علمية بحثية ، فإنها لا تكون بحاجة إلى إعادة نظر فيها ، وإلا تحولت كل النتائج إلى ميدان الشك[٣]، وهذا لا يقبل من الناحية العلمية ، ولا تقول به فلسفة العلم أبدا ٠

---

(١) فكرة قدم العالم النوعي غير عقيدة قدم العالم الذاتي ، فكل منهما غير الآخرى تماما ، ويمكن مراجعة أنواع القدم في المؤلفات الفلسفية ، بل والكلامية أيضا ، راجع كتابنا : الإلهيات عند ابن سينا ، صـ ٢١٢ ٠

(٢) هذا المعيار يمكن النظر إليه بزاوية محددة ، قد تضيق أحيانا ، وربما اتسعت ، لكنها في كل الحالات محددة تحديدا دقيقا ، أو ذات اتجاه بعينه ٠

(٣) المعروف أن الشك نوعان ، أحدهما منهجي علمي صحي ، يدفع لبناء معارف صحيحة ، ثانيهما عشوائي عفوي ، لايقوم على أصول مقبولة ، ولا يقدم معارف صحيحة ، ولا يمارسه إلا أصحاب الجدب والسفسطة ٠

- من ثم ، فإن المشكلات المعرفية التي قامت على التسليم بصدق نتائج سبقية ، والتي كان ميدانها النظريات العامة ، يمكن معاودة البحث فيها والوصول إلى نتائج جديدة حاسمة بشأنها ، وهو من مهام فلسفة العلم المجالاتية لا الوظائفية [١]، نظرا لوجود الفوارق العديدة بين المجالات والوظائف ، وكذلك الفروق الهائلة بين المقدمات والنتائج ، أو بين الأهداف التي يسعى إليها والغايات المراد الوقوف عندها .

السابع : دراسة علاقة البناءات المنطقية بالأنساق العلمية

من المعلوم أن اللغة التعبيرية المنطوقة لها بناءات تفيد في الاستعمال كلا من السامع والمتكلم ، أما عند الإهمال فلا يكون لها وجود[٢]، حقيقي أو دلالي ، وكل بناء منطقي في المنطق الصوري أو الاستقرائي التجريبي ، بل الرمزي والرياضي أيضا ، يحتاج دراسة تكشف طبيعة العلاقات القائمة بين هذه البناءات بعضها البعض الآخر .

كما ان العلوم التجريبية لها انساق [٣]، تبحث من خلالها ، ويتم التعرف عليها بها، لأن الأنساق هي جملة الأنظمة الواحدة المتجه نحو جهة بعينها ، أو غاية بذاتها ، بحيث تشكل في جملتها صورة متكاملة لإشكاليات بحثية ، أو حزمة من الأفكار الفلسفية والقوانين أو المبادئ العلمية ، ولا يمنع ذلك من الارتباط بالمسلمات الرياضية .

ولما كانت البناءات المنطقية ذات طبيعة محددة ، وكذلك الحال مع الأنساق العلمية التجريبية ، فقد يظن أنهما لا يرتبطان بشيء أبدا ، أو لا توجد علاقة بحثية يمكن توظيفها بشأنهما ، لكن هذا الظن بعيد [٤]، لأنه لو كان مقبولا ما إحتاج أثناء الوقوف عليه إلى شيء خلف مباحث كل منهما في صورة من الصور .

---

(١) هناك فرق بين فلسفة العلم المجالاتية وفلسفة العلم الوظائفية ، ويمكن للدارس التعرف على كل منهما أثناء مراجعة الأفكار المطروحة في هذه الدراسة .

(٢) الألفاظ المستعملة هي التي تفيد السامع أو المخاطب فائدة تامة ، فإذا لم تفد فإنها تكون مهملة على لغة المناطقة ، وكذلك الحال عند النحاة ، الذين يقولون كلامنا لفظ مفيد كاستقيم ، راجع كتابنا : الغزاليات في منطق التصورات ، صـ ٨١ .

(٣) الأنساق جمع نسق ، وهو ماكان على نظام واحد من كل شيء ، يقال : جاء القوم نسقا ، وزرعت الأشجار نسقا ، ومن ثم فكل ما كان على نظام واحد فهو نسق ، راجع معجم مقاييس اللغة .

(٤) وجه البعد كونه منصبا على الظن الفاسد ، لو كان ظنا في حدود المقبول ، أو المسموح به ، لبرزت له نتائج إيجابية بدل التزام السلبية والإفراط فيها .

بيد أن فلسفة العلم تجمع هذين إلى ناحيتها ، وتجنذبهما معا إلى جانبها من خلال دراسة واعية تقوم على إدراك العلاقات التي يمكن أن يكون لها وجود ، من جهوة التداخل أو التلاقي ، فضلا عن أن تقع إتصالات متزايدة تحقق نتائج إيجابية تصب في صالح الأبحاث العلمية •

يقول " تريفولت " أن البناءات المنطقية لها استقلال ذاتي ، وكذلك الأنساق العلمية ، ودور فلسفة العلم هو بحث ما يمكن تسميته العلاقات العامة ، ثم تحديد كل علاقة منها ، وأخيرا توظيف كل علاقة بما يتناسب مع الغاية ، أو الهدف الذي يسعى العلم إليه ، أو يحاول تطبيقه [1]، فالعلاقة المدروسة لا بد أن تلتزم قبول النتائج متى كانت صحيحة ، ولا يلزمها ذلك إذا كانت فاسدة ، أو قاصرة ، غير موفية بالغرض •

على أن دراسة العلاقات البنائية المنطقية لا بد أن تراعي طبيعة الرموز المستخدمة، ودلالاتها المنطقية في حدود التعاريف بجانب الموضوعات والمسائل ، بحيث تنتهي إلى استخلاص نتائج مستقلة[2]، يمكن الاستفادة بها ، أو توظيفها لصالح البحث العلمي ، من غير تقيد بنوعه ، حتى تصير بمثابة قواعد العلوم ، أوالمباديء المعيارية •

كما أن دراسة الأنساق العلمية لا بد أن تتخذ لنفسها طريقا يتفق مع الأسس الموضوعة، بحيث يتناول القضايا المطروحة، ثم يعرج على المشكلات التي يحتمل وجودها[3]، وحينئذ يكون له وجود مستقل ، ولا يرتبط هذا أو ذاك إلا بفلسفة العلم التي اعتبرت هذ النوع من الدراسة أحد موضوعاتها الأساسية ، أو مجالا من المجالات البحثية التي تعتمد على طرائق تطبيقية •

---

(١) إدوارد تريفولت:الميكروفيزيا دراسة نقدية ، صـ ٨٣ ، ترجمة زكريا فوزي ، سنة ١٩٨٧ •

(٢) استقلال النتائج بعطي للباحث أكثر من فرصة للدراسة الجادة ، كما يطبع هذه الدراسة بالموضوعية ، بل ، ويمكن التأكد منها وإعادة المراجعة بما يحقق أعلى النتائج في الميدان البحثي من النواحي المختلفة •

(٣) راجع في بيان هذه المسائل كتابنا: الحثيث في المنطق الحديث ، صـ ٣٧٣ ، وكتابنا / التفكير الإنساني أصوله ومستوياته ، صـ ٣١٢ •

لكن هذه الدراسة لا تقتصر على الميدان ، أو المجال العلمي والتجريبي ، ولكنها قد تمتد أيضا لدارسة الأنساق العقلية ، بل والمعرفية في أشكالها وصورها المختلفة ، بحيث تتاول كلا من :

أ - نظرية المعرفة [١]

ب - المنطق الكلاسيكي الصوري [٢]

جـ - منطق الاستقراء العلمي التجريبي [٣] الحديث

د - المنطق الرمزي الرياضي [٤]

هـ - نظريات العلاقات الرمزية ، بإعتبارها أحد الأنساق الرمزية العامة

ولا شك ان فلسفة العلم متى تناولت هذا القضايا بالدراسة، ثم وازنت بينها والعلاقات القائمة ، أمكن القول بانها إلتزمت المنهج العلمي الدقيق ، واستطاعت الوصول بالميدان البحثي إلى منطقة ما فوق المعرفية ، ومن ثم اعتبرت البناءات والأنساق من مجالات فلسفة العلم .

الثامن : التعرف على المصادرات والمسلمات الاستقلالية

من الواضح أن كل علم توجد فيه جملة من المصادرات يمكن الوقوف عليها ، وجملة أخرى من المسلمات ، يمكن تناولها بشكل منهجي معرفي ، كما يمكن الوقوف عليها من الناحية التجريبية، وبخاصة متى روعي بشانها ضرورة الاستقلال البحثي من خلال منهج التحليل النقدي لبعض الأفكار الأولية التي لا بد من التعرف عليها في أي علم من العلوم ، من أمثال النظريات والقوانين الآتية :

---

(١) تناول نظرية المعرفة كمبحث فلسفي ، يحتاج بحث تعريفاتها وأنواعها ومصادرها ، ثم درجات كل منها من حيث اليقين أو الاحتمال والظن ، راجع كتابنا : نظرية المعرفة عند ابن راشد ، صـ ٥٣ ، وكتابنا : عبد الكريم الخطيب وأراوه الفلسفية ، صـ ٤١ .

(٢) يسمى القديم ، واليوناني والصوري والشكلي ، منطق القياس ، إلى غير ذلك من التسميات ، راجع كتابنا : النديم في المنطق القديم ، صـ ٤٧ - ٦٦ .

(٣) يسمى المنطق الحديث ، المنطق الاستقرائي ، المنطق العلمي ، منطق التجربة ، بجانب الكثير من التسميات والتعليلات ، راجع كتابنا :الحثيث في المنطق الحديث، صـ ١٣ / ٢٧ .

(٤) ويسمى الرمزي ، ويسمى الرياضي ، ويسمى منطق الرموز ، ومنطق الدالات ، ومنطق العلاقات ، راجع كوندرسيه : المنطق الرمزي ودلالته ، صـ ٤٥ / ٤٧ .

١ - نظرية الكموم[1]

٢ - نظرية الكيف

٣ - نظرية الزمان الفلكي

٤ - نظرية المكان الثابت

٥ - نظرية العلة والمعلول

٦ - نظرية القانون العلمي العلمي

وبعد ذلك ، يتم تجميع هذه المصادرات في قوائم بعينها ، وتجميع المسلمات هي الأخرى في قوائم تكون ثابتة ومستقلة ، ثم تأتي مرحلة الدراسة الوثائقية والتجريبية التي تشهد لكل منها بإستقلاله عن غيره ، وفي النهاية تجيء عملية التعرف الجديد لهذه العلاقات في صورها الاستخدامية الجديدة ، أو التوظيفية الإستقلالية •

وربما إحتاج ذلك إلى تقديم دراسة لجملة من الاعتقادات ذات الأهمية البحثية ، وارتباطاتها بالميتافيزيقا التأملية تارة[2]، والنقدية تارة أخرى[3]، كالإعتقاد بوجود عالم خارجي بعيد أو منفصل عن العالم المشاهد الذي نعيش فيه ، سواء أكان له إرتباط به ، أو إنفصال تام عنه ، أو كان له علاقة بينيه من نوع غير معلن ، كذلك من الممكن البحث في الحوادث الطبيعية الاضطرارية ، ودراسة أسباب وجودها وإضطرادها ، بحيث تعتبر جميعا من مجالات فلسفة العلم •

---

(١) نظرية الكموم تتعلق بالكميات ، سواء في الكم المنفصل أوالكم المتصل ، وهي غير نظرية الكمون التي تتعلق بالقوى الكامنة في الأجسام الثابتة والمتحركة ، كما أن الأولى رياضية منطقية ، والثانية فلسفية طبيعية •

(٢) الميتافيزيقا التأملية هي المتعلقة بما وراء الغيب من العالم غير المدرك ، وبعبارة أخرى هي بحث ما يتعلق بالإلهيات والنبوات والسمعيات ، ويمكن أن نطلق عليه اسم مباحث علم الكلام، راجع كتابنا : رياض الأشواق في الميتافيزقا والأخلاق ، صـ ٧٣ •

(٣) الميتافيزيقا النقدية هي المتعلقة ببحث الظواهر الموجودة في الكون المشاهد ، ولذا تسمى الميتافيزيقا الطبيعية نظرا لأرتباطها بالنظر في الموجودات الطبيعية ، راجع كتابنا : الوضعية بين المعقول واللامعقول ، صـ ٨٧ ، وكتابنا : التطور الأحياني بين الدين والفلسفة ، صـ ٣٥٣

فمثلا فكرة الكرة الرياضية لها جملة من المصادرات لا وجود لها بدونها ، وإلا اعتبرت كأن لم تكن ، إنها التي تحملها وتعبر عنها ، وكذلك الحال في باقي النظريات والقوانين التي ألمحت إليها إجمالا ٠

التاسع : دراسة الأبعاد الاجتماعية

ليس من طبيعه فلسفة العلم مجرد تصوير المواقف البحثية ، ولا من مجالاتها الأعمال التقريرية ، لما سبق القول به من أنها حركة نقد واعية ، ولذا فهي تهتم بدراسة الأبعاد والنتائج على الناحية الاجتماعية ، نظرا لإرتباطها بالعلم التجريبي [١]، وبعبارة أخرى ، يمكن القول بانها تعتبر دراسة الأبعاد العلمية والنتائج الاجتماعية المترتبة على تطبيق هذا النوع من العلوم ، أو ذاك احد مجالاتها الأساسية التي يجب الإلتزام بها ، وعدم التخلي عنها ، أما كيف ، أو لماذا ؟

فالجواب ، أن الأبحاث العلمية تقدم العديد من الصور التي تعبر عن التقدم العلمي في المجال البحثي ، كالحال مع الهندسة الوراثية ، وما يتعلق بالمجال الإحياني من الناحية البيولوجية على وجه الخصوص[٢]، كما أن عملية التطبيق لنتائج الأبحاث فيه قد تؤدي إلى انفلاتات أخلاقية تنتهي بهم إلى انقلابات اجتماعية [٣]، تعبر عنها مظاهر التفكك الأسري ، وحالات الطلاق متصاعدة الوتيرة ، متكاثرة الأسباب ، كما تشير إليها جملة الدعاوى القضائية التي إكتظت بها المحاكم في درجاتها المختلفة ٠

فعميات الاستغناء النوعي التي تدفع إليها هندسة الجينات تمثل صيحة مدوية مؤذنة بإنهدام النظام الأسري القائم على أصول صحيحة، وتؤدي إلى نتائج غير متكاملة[٤]،

---

(١) راجع التعريقات التي أسلفناها لفلسفة العلم ، حيث يتضح لك علاقة أرتباطها بالعلم التجريبي بصفة عامة ٠

(٢) راجع كتابنا : التطور الأحياني بين الدين والفلسفة ، ففيه حديث طويل عن البيولوجيا وعلاقة ارتباطها بالعلم التجريبي بصفة عامة ٠

(٣) قاعدة المجتمع الإنساني تقوم على التكامل ، بحيث يقع التعاون في الصور المختلفة ، إما الإنفلات الأخلاقي فإنه يهدم هذه الصور ، ويحول المجتمع الإنساني إلى صور استقرانية متكاثرة ٠

(٤) نقصد بالإستغناء النوعي اكتفاء الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء ، من خلال عمليات الاستنساخ البيولوجي أوالزواج المثلي الذي يمثل صورة من صور اللواط بين الرجال والسحاق بين النساء ، وهو منهي عنه شرعا ، كما أنه منبوذ عرفا ، ساقط عقلا ، ولا يمارس أيا منها إلا الشواذ ٠

لأن مما يتعلق بهندسة الجينات ، أو الخريطة الجينية ، إمكانية استنساخ بيولوجي للنوع ومتى تم تنفيذه استغنت المرأة عن الرجل في المجال الإنجابي إذ قدر لهذه الأبحاث الإضطراد والاستمرارية ، أو أمكن لها تحقيق أمال الطامعين فيها وأحلامهم ، وهذا يؤدي بدوره إلى تخاصم طرفي الأسرة ، وإنفصال كل منهما عن الآخر ، ومن ثم يتهدم الكيان الإجتماعي الذي يقوم في أصله على الأسرة الصغيرة ، وتعتبر هي لبناته الأولى ، ويقع الاحتياج بين أفرادها والتعاون موقع الضرورة ٠

كما أن عمليات التهجين الوراثي ، وإختيار أنواع الأبناء من ناحية الذكور والإناث ، يؤدي إلى وجود إختلال نوعي[١] ، كالحال في الصين التي أعلنت مؤخرا عن عجز في عدد الفتيات مما جعل الكثير من الرجال يتكالبون على عدد قليل من النساء الراغبات في الزواج ، بل دفع الأمر الصين إلى طلب إستيراد ٢٧١ ألف إمرأة حتى يتم الزواج منهن وتتم تلبية الإحتياجات الأسرية التي ترى في بناء الأسرة كيانا إجتماعيا سليما ٠

ثم أن نقص عدد السيدات في الصين أدى إلى وجود خلل إجتماعي في التركيبة الاقتصادية أيضا [٢] ، إذ صارت الفتاه سلعة ذات ثمن نقدي ، وتحولت المرأة إلى مصدر تجاري يمكن استغلاله لجمع المال ، وقد ترتب على هذا الخلل الاجتماعي وجود عصابات تجارة الرقيق الأبيض أو تجارة المرأة ، بغض النظر عن كون المنطقة التي جلبت منها مأمونة صحيا وإجتماعيا أو غير مأمونة ٠

لم تقف المسألة عند هذا الجانب المؤلم وحده ، وإنما امتدت فمست الأخلاق مسا خفيفا أول الأمر ، ثم مالبثت أن قطعت أوتار المودة ، وحبال الوفاء ، كما زلزت أركان المجتمع الإنساني من الناحية الأخلاقية ، التي تم تداولها في سوق القيم السلبية[٣] ، بدل

---

(١) مشكلة الإختلال النوعي يراد بها إزدياد العدد في نوع من النوعين ، كازدياد الرجال عن النساء في الصين مثلا ، وإزدياد النساء عن الرجال في كندا والكويت ، والإسلام قدم حلولا لكل منها جاءت كلها من خلال أشكال إيجابية سليمة ٠

(٢) القاعد الإجتماعية تقضي بانه متي وقع خلل في النوع ، ترتب عليه خلل إقتصادي وسياسي وإجتماعي بل وثقافي ، راجع كتابنا : حلف الفضول عند العرب وأثره في العصر الحديث ، صـ ٩٧ / ٩٨ ٠

(٣) ومتى وقعت القيم في الأسواق سقطت على كل ناحية ، ومن ثم تنتشر الرزائل فتظهر عمليات الزنا والسرقة والإغتصاب ، بجانب الكذب، وشهادة الزور، عمليات غسيل الأموال والتجسس إلى غير ذلك من الرزائل وحينئذ تنهار البلاد ٠

أن تكون لها قيم إيجابية ، ذات سلوك متقدم ، لما هو معروف من أن القيم الإيجابية ترفع درجة حرارة المجتمع من الناحية التوافقية •

كذلك تسعى فلسفة العلم إلىدراسة الأنماط البعدية والقبلية لذات النتائج ، وأبعادها النفسية ذات الارتباط بالواقع الاجتماعي ، وبخاصة حينما تكون فوقية قفزية[١] ، بمعنى أنها بمجرد أن تفرزها المعامل البحثية يتم تصديرها إلى الواقع الاجتماعي ، من غير تمهيد لها أو تهيئة إجتماعية ، حتى تكون نفسيات أبناء هذا المجتمع قادره على الوقوف عند ثوابتها ، بجانب التعامل معها •

لأن الفوقية معناها اعتبار ما تحت النتائج ، غير أكفاء في التعامل معها ، أو النظر فيها ، فالواقفون في نطاق هذا المجتمع الانفتاحي يفاجأون بحجم النتائج الفوقية وأثارها السلبية أو الإيجابية الإختلاطية[٢] ، ومن ثم فلا يكون لهم عذر في مناقشتها أو التعرف عليها ، إنهم يتحولون من بشر أسوياء إلى ملقنين غير قادرين على تفهم الأمور المحيطة بهم في صورة من الصور الفكرية •

ثم أنها قفزية ، لأن المعامل ما تخرج نتائج اليوم ، حتى تسارع بإعلان أخرى بعدها راكبة عليها قافزة فوقها ، كأنها تعاندها ولا تصغي إليها ، وكم من مرة جنح فيها البحث العلمي إلى إثبات نتائج ، وأعلن التأكيد عيها ، فإذا جاء الغد أعلن وقوع التعديب فيها ، بل ولا مانع من التنازل عنها [٣] ، وحجتهم أن قضايا العلم التجريبي في بعض جوانبه إحتمالية وإذا كانت يقينية فإن اليقين فيها لا يكون مطلقا أبديا ، وإنما يكون نسبيا وقتيا ، على أقل تقدير •

---

(١) النتائج الفوقية القفزية هي التي يفاجأ بها الناس من غير تمهيد لها ، وتكون في ذات الوقت على غير المألوف القائم ، ومع هذا يطالب الداعون لها بتطبيقها على الجميع من غير اعتبار لشيء ، وحينئذ تكون أثارها سلبية ، وقد تكون مدمرة •

(٢) الإيجابية الإختلاطية هي التي تحمل جوانب الإيجاب والسلب معا ، وإيجابيتها في كونها تخص أحلام لبعض من ذوي الاحتياجات الخاصة ، كتلبية رغبات الإنجاب لدى العقم من الرجال ، والعاقرات من النساء ، وسلبيتها في أنها تصادم النصوص الشرعية والقيم الثابتة والعرف العام ، وحينئذ تكون أضرارها كثيرة ونتائجها مريرة •

(٣) لأن نتائج البحث المعملي إحتمالية ما لم يقم الدليل اليقيني على صدقها ، وما كان من هذا القبيل ، فإنه يخضع لقاعدة التعديل المستمر ، وتلك مشكلة نبه إليها العلماء في قولهم العلم لا يعرف الكلمة الأخيرة •

من الواضح ان فلسفة العلم حينما تتخذ دارسة الأبعاد الإجتماعية والنتائج المؤثرة فيها ، كأحد مجالاتها البحثية فلا تكون قد أبتعدت عن خصوصياتها ، لأن المترتب أو المردود الإيجابي الذي يتوقف على ظهور هذا النوع من الدراسة الواعية يساهم في عمليات النقد الذاتي البناء للأفكار (١)، كما يمهد الأرض لبناءات فكرية ذات أنساق متكاملة ، بما يحقق مصالح عديدة للتجمعات الإنسانية •

يقول " جيرار " حسب أكثر المتفائلين ، أن فلسفة العلم قد اقتنعت بدورها في العلوم المعيارية و إعتبرت موضوعاتها مجالات لها ، ثم فوجئوا بانها قفزت من هذه المفاهيم إلى أكثر المعارف دقة ، وأصعب العلوم موضوعا ، ثم اتخذت هذه كلها مجالات بحثية تمارس فيها مهامها (٢)، ومن ثم يمكن القول بأن فلسفة العلم لا تقف عند حد بعينه من الدراسة، وإنما يتناول الباحث فيها كل ما يمكنه الوقوف عليه ، ويعتبر ذلك كله بمثابة المجالات التي يجري فيها أبحاثه ، ويمارس من خلالها واجباته ، كما يكشف عن مهاراته •

أجل تظهر التباعدات بين الموضوعات البحثية في الواقع ، لكن يتوقف أمام هذا التباين بحيث يكون عائقا أو حافزا ، وكأنه يسعى إلى ضم هذه المتباعدات إلى بعضها ،حتى تمثل أمامه طواعية ، ثم تتلاقى أغصانها ونتائجها ، برغم تباعد أصولها والمباديء، وتلك مسألة مهمة(٣)، يمكن إعادة النظر فيها أثناء تناول فوائد فلسفة العلم أو البحث عن أهدافها أو وظائفها •

ليس من الصواب القول بأن مجالات فلسفة العلم يمكن حصرها على وجه دقيق ، وتقوم في جملة من القوائم ، لأنها مسألة تخرج عن دور هذا البحث مادمنا قد سلمنا بأن فلسفة العلم حركة عقلية نقدية واعية تتناول دارسة العلوم بطريقة جديدة ، فقد توسعنا في استخداماتها ، أو أكثرنا من المجالات التي يمكن ان تبرز فيها ، بحيث تبتعد بهذا الفهم عن الأسلوب الحصري المجالي •

---

(١) النقد الذاتي مهم جدا ، وبخاصة في الجوانب الاجتماعية ، من حيث العادات والقيم التي يكون المجتمع بحاجة إليه ، كما أن عملية النقد الذاتي أحد المهام الأساسية في كافة العلوم •

(٢) هولمز جيرار: الفيزياء والفلسفة ، صـ ١١٧ ، ترجمة زكريا سليم ، ط. أولى سنة ١٩٩٩ •

(٣) يمكن بحث هذه المسألة تحت عنوان " علاقة فلسفة العلم بالعلوم العقلية " أو تحت عنوان " فلسفة العلم والعلوم السلوكية " ، حتى يتمكن الباحث في المسألة من عرض الآراء وبيان ما إذا كان لفلسفة العلم دور فيها من عدمه ، وما هو هذا الدور على وجه دقيق •

العاشر : دراسة نتائج تطبيقات العلم المعاصر

ما من شك في أن كل علم له مقدمات يقوم عليها ، ومسائل تعبر عنه ، بجانب موضوعات تمثلة ، ثم تأتي بعد ذلك النتائج التي تكون بحاجة إلى تطبيق سليم ، وعادة مايقع أثناء التطبيق شيء من القصور ، أو الاستيفاء المنقوص ، بحكم أنها نتائج في عقول أصحابها ، عبرت عنها مفردات بذاتها ، لكن هذه التطبيقات تقع لها الدراسة الجديدة من جانب الباحثين على إختلاف مستوياتهم البحثية[١]، ومن ثم تظهر نتائج لهذه التطبيقات بحيث تكون معبرة عن أوجه القصور تارة ، أو الكمال في صورة أخرى •

هنا تأتي فلسفة العلم ، فتراجع ذات النتائج التطبيقية من خلال دراستها الجديدة لها ، ولا بد من الأخذ بعين الإعتبار ان عمليات التطبيق قام بها أصحاب فروق فردية ، لأن الباحثين ليسوا جميعا آلة طبع بنكوت ، تقدم صورا عديدة تم إعدادها له بشكل جيد ، إنما هم بشرا لهم تركيبات مختلفة ، فالصيني غير الهندي[٢]، وهما غير الألماني والامريكاني ، من حيث الفروق الفردية العقلية ، والمستويات الفكرية ، والتراكيب الثقافية ، ومن هنا تظهر نتائج تطيبقية عديدة للحالة الواحدة •

صحيح تؤدي هذه التباينات الثقافية التي تحرك العلم بصور عديدة ، وفي اتجاهات كثيرة ، بل أن هذه التباينات جعلت رحم العلم تفرز كل غدوة نهار آلاف التجارب ، كما تعلن عن مئات النتائج[٣]، لكن المشكلة تظهر واضحة أثناء التطبيق على أرض الواقع، وبخاصة إذا تغيرت النظرة السلوكية والإجتماعية لها ، وهنا تكمن الخطورة ، وتظهر الحاجة إلى إحداث توازن ضروري •

---

(١) التناول الجديد لا يتعلق بالمقدمات ، إلا إذا كانت النتائج تحتمل الشك ، أو يقع لها الإنكار من جانب فريق بحثي ذي طبيعة استقلالية •

(٢) المعول عليه ليس الجنس ، وإنما الثقافة ، بجانب التركيبات الذهنية ، وهي المسألة الأكثر عناية بالنسبة للباحثين في فلسفة العلم بصفة خاصة •

(٣) بل المأثور الذي بلغ حد الاستفاضة هو أن العلم لا يعرف الكلمة الأخيرة ، لأن الأبحاث قائمة فيه ولم تنقطع بشأنه •

فمثلا : عندما ظهرت عمليات الاستنساخ ، أو التهجين السلالي في النبات ، وأراد باحثون تطبيق هذه النتائج على أرض الواقع العملي ، بعيدا عن حقول التجارب ، رفض الناس الاستجابة لها وأكدوا أنها مدمرة ، ومن ثم هاجموها ، ورفعوا راية الكفاح المسلح ضدها [(١)]، حتى أقامت الحكومات حقولا إرشادية تدار بواسطة مهندسيها الزراعيين .

ولما ظهرت نتائجها الأولية مطمئنة ، ثم تم الإعلان عنها ، لم يكترث بها الناس أول الأمر ، فلما واصلت الحقول الإرشادية مهامها ، وأكثرت الحكومات من الحديث عنها في وسائل إعلامها ، بدأ الناس ينصتون إليها ، وقد ساعد على ذلك ضغوط الحياة ، وربما أوقفت الحكومات عمليات التعامل مع الأصناف التي تمارس زراعتها بعيدا عن حقولها الإرشادية[(٢)]، حتى وصل الأمر حد تجريم المخالف وإنزال العقوبات المتعددو به .

هنا تأتي فلسفة العلم ، فعمدت إلى دراسة النتائج التطبيقية بوجه عام ، حتى أنتهت إلى أن هذه المحاصيل المهجنة لا تقبل التخزين لمدة طويلة ، لأن عناصر النبات بعد التجفيف لم تنل حظها الذي يمكنها من المواجهة بين العناصر الطبيعية[(٣)]، وقد ترتب على ذلك إيجاد دعم خارجي متمثل في نوع من السماد الذي يتم التعامل به مع عناصر النبات قبل أن يكتمل الطلح ، بحيث يتم الإحتفاظ بعد ذلك بالحبوب فترة طويلة من غير تلف أو فساد ، ومن ثم تتحقق نتائج إيجابية .

كذلك الحال في ظهور مشكلة نقص ابروتين الحيواني وتعويضه من خلال بدائل لدنة ، أو بدائل نباتية من البقوليات كفول الصويا ، وغيرها ، لم يقبل الناس عليها أول

---

(١) بل لعل قيام جماعة المزارعين في هولندا بتدمير هذه الحقول ، كما أن المزارعين في مصر رفضوا استقبال هذه الأفكار ، وكانت لهم أعذارا كثيرة ، وفي السودان نهض أصحاب الاقطاعيات إلى مقاومة ذات الأفكار في المجال الزراعي ، ثم ما لبثت الأمور أن تغيرت ، لكن تم ذلك بعد فترة من الزمان ، وبخاصة عندما ظهرت النتائج الإيجابية في الحقول الإرشادية.

(٢) القاعدة أن الناس قد يكونون أسرى أفكار بعينها ، وحينئذ يألفونها ولا يخرجون عنها ، والناس أعداء ما لم يألفوا من الحكم المشهورة ، راجع كتابنا : حكم وأمثال ، باب الهمزة .

(٣) وعناصر الطبيعة متعددة ، ولذا فلا بد من إتخاذ الحيل اللازمة حتى يبقى النبات فترة طويلة محتفظا بنشاطه وحيويته بجانب صلاحيته للإستعمال وطرائق الاستفادة منه .

الأمر كبدائل ، ومن ثم لم يلتفتوا إليها حتى فسد المحصول في الحقول الإشادية [١]، واضطرت الحكومات إلى تصديره بأسعار زهيدة ، وفي النهاية جعلته في ميادين القطينية الخاصة مغذاء الجيوش النظامية ، أو معسكرات التدريب ، أو مصالح الإصلاح والتهذيب إلى غير ذلك، ودعمت نتائجه بحملة إعلامية منظمة واعية، مقروؤة ومسموعة ومرئية[٢].

لكن نتائج هذه التطبيقات لم تكن مقبولة في مراحلها الأولى ، وبالتالي ، سارعت فلسفة العلم إليها وأعادت الدراسة ، ثم أدخلت عليها أنواعا من التعديلات النوعية حيث خلطت هذه البقوليات النوعية بكميات قليلة من البورتين الحيواني ـ لحوم الأبقار أو الأسماك ـ ثم عرضتها تحت أسماء جذابة[٣]، وبكميات قليلة ، حينئذ ، بدأ الإقبال عليها قليلا ، ثم أخذ في الإضطراد حتى صارت اليوم تحتل الوجبة الأساسية ، أو الغذاء الرئيسي ، على موائد الذين تعاملوا معها .

كما أن عمليات التلقيح خارج الرحم من خلال الأنبوب المهجري ، لم تكن في البداية مقبولة لدى الكثيرين ، لا لكونها تخالف مألوف إعتقاداتهم الدينية فحسب ، وإنما لأنها لا تتفق مع العرف العام ايضا[٤]، فلما تطورت مسائلها ونتائجها ، وإزداد الحديث عنها ، وبات الإعلام يوقظ الناس وينبههم عليها ، أقبل عليها القليلون ، وبحذر شديد ، وبخاصة أن المشكلات التي صاحبتها كانت كثيرة ومرعبة .

هنا تدخلت فلسفة العلم ، فطالبت بإعادة بعض النتائج من الناحية التطبيقية ، كما طالبت بإدخال بعض التعديلات عليها من الناحية العلمية والنفسية والاجتماعية ، حتى بات امر التطبيق مقبولا من الناحية الشرعية متى كانت البويضة هي لذات الزوجة

---

(١) راجع لجيرار : الثورة الصناعية والثورة الشعبية ، صـ ٧٣ / ٧٤ ، ترجمة ياسر شريف ، ط. اولى سنة ١٩٨٧ .

(٢) وسائل إعلام متعددة ، ولها استعمالات كثيرة ، بل لها آثار إيجابية وأخرى سلبية ، لكن متى استخدمت على الوجه النافع كانت مفيدة إلى حد كبير .

(٣) جورج هيمن : فن البيع ، صـ ١٣ ، ترجمة صفوت زكريا ، حيث يبين أن عرض السلعة فن وتعبئة السلعة فن ، وإختيارها من أرقى الفنون في عمليات البيع والشراء

(٤) عرف هذا أول مرة بإسم التلقيح الصناعي ، فكانت الكلمة تثير في النفس الشكوك ، وتضفى عليها طابعا من الخوف بجانب القلق .

والحيوان المنوي من نفس حيوانات الزوج ، أو من صلبه [١]، وهنا ظهرت التواءم المتعددة حتى رأينا بعض السيدات يحملن في عدد من الأجنة تبلغ أحيانا تسعة أو سبعة، أو مادون ذلك ، وتتم عملية الوضع ، وقد يعيش الجميع ، أو يموت البعض ويبقى البعض الآخر ، من هنا يمكن القول بأن فلسفة العلم تعتبر النتائج المطبقة في العلم أحد مجالاتها البحثية

بيد أن الباحث في فلسفة العلم لا يقنع بالسرد القصصي ، على ما سلفت الإشارة إليه ، وإنما سعى دائما لتقديم دارسات جديدة ، لأنه في الأصل باحث علمي مدرب[٢]، على ممارسة الجوانب البحثية في العلوم السلوكية والمعيارية ، بجانب المعارف التطبيقية في مظاهرها وصورها المختلفة ، فلو اقتصرت فلسفة العلم على مجرد الدراسة النظرية لحكمت على نفسها بالموت ، ولما كان لها مجال أصلا بين العلوم ، بل وما كانت هناك حاجة إليها ، ولا شك أن هذه الملاحظة جديرة بالاهتمام •

يقول " وايت "لم يكن الباحث في فلسفة العلم ببغاء يحكي أو يناغم ، وإنما هو باحث متمكن ، أنه قناص منتظر النتائج التي تفضي بها المعامل ، ثم ينظر إليها ، وكذلك يقف على باب المجالات التطبيقية ، حتى إذا إنتهى أصحابها منها لجأ إليها بالدراسة من جديد ، وقدم نحوها مايمكن اعتباره مجهودا خاصا به[٣]، حتى يكون جديرا بأن ينسب إليه ، فهي مسألة مجالية ، وليست بحثية خالصة ، ولكنها تتسم بدقة الباحثين في النتائج ، بل وتتفوق عليها من حيث القدرة على التطبيق الأشمل والأعم •

مما سلف ذكره ، تبين أن مجالات فلسفة العلم متعددة بين سلوكية ، وأخرى تطبيقية، بل ولا مانع من كونها مرتبطة بالعلوم المعيارية، وأرى أنها يمكن أن تلج العلوم

---

(١) لم يكن من السهل إقناع الناس ان هذه العملية تستخدم فيها ماء الزوج وماء زوجته ، مع إدخال تعديل سلوكي على طريقة التحامهما معا ، ولذا كانوا يرفضونها ، ومن كانوا يلجأون إليها صاروا في أضيق نطاق ، ولا تخرج تجاربهم عن إطار الهمس الدفين •

(٢) راجع للدكتور فيكتور لانشي : البحث العلمي والتقدم البيولوجي ، صـ ١٤ / ١٥ ، ترجمة هدى نصر سنة ١٩٩٧ ، فالباحث في مجال فلسفة العلم لا بد أن يكون على قدر عال من التدريب يصل به إلى حد التمكن والامتياز ، وهي مسألة مهمة ، بل ذات أهمية عالية •

(٣) أدوارد وايت : فلسفة العلم في القرن العشرين ، صـ ٩١ ، ترجمة علية عبد الرحمن ، وراجع لشريف نوار / فلسفة العلم من منظور بحثي ، صـ ٩٥ •

العقلية ، ما دامت - فلسفة العلم - حركة نقدية واعية ، وحيننذ ترتبط بها ارتباطا وثيقا[١]، وتكون قادرة على القيام بأعبائها في سهولة ويسر وبعيدا عن د إثر التنظير والمشاكلة ، كما تستطيع القفز من التطبيقات العلمية التي كانت لها السيادة في الماضي ، إلى تطبيقات العلم في أشكالها المعاصرة ، وانمطاها المتجددة ونتائجها المتوقعة •

---

(١) هذا الارتباط يمكن أن يكون مستمرا ، وقد يتوقف ، وبخاصة إذا إنفصلت الأسباب ، ولم تتحقق الشروط ، وهي مسألة محسومة لصالح البحث العلمي الدقيق •

أهم المصادر والمراجع
للفصل الرابع
حسب ورودها بأسفل الصفحات

١ - القرآن الكريم

٢ - المناهج العلمية الحديثة — ادوارد هيفل .

٣ - الحثيث في المنطق الحديث — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي .

٤ - مناهج البحث بين التقليد والتجديد — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي .

٥ - قراءات في العقيدة وفلسفة العلم — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي .

٦ - حبو الوليد في علم التوحيد — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي .

٧ - فلسفة العلم ـ الأساس والمعيار ـ — جيمس هنري وات

٨ - فلسفة العلم والأبحاث الرمزية — أندريه فوكر .

٩ - فلسفة العلم والإتجاهات الحديثة — جيمس فرانز .

١٠ - العلوم الرياضية والدلالات الرقمية والرمزية — ادوارد هوفر .

١١ - النظريات البحثية في القرن العشرين — الكسندر وايت

١٢ - المنطق الرمزي ودلالاته العلمية — ادوارد باكنت .

١٣- القلق ومشكلاته — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي .

١٤ - الخطاب بين الأصوليين ودعاة الحداثة — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي .

١٥ - الفلسفة العلمية ومشكلاتها التطبيقية — جيمس هنري كينز .

١٦ - التفكير الإنساني اصوله ومستوياته — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي .

١٧ - الميتافيزيقا النقدية والمشكلات البحثية — ادوراد فولت .

١٨ - الثورة العلمية في المجال التقني — ادوارد فيلدر .

١٩ - العلم والحاسوب — جون هيلمر .

٢٠ -	الكون الجديد والنظريات الإستكشافية	أنطوان فرست .
٢١ -	قصة العلم	ج. ج. كوارثر .
٢٢ -	الفيلسوف والعلم	جون كيمني .
٢٣ -	التطور الإحياني بين الدين والفلسفة	الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي .
٢٤ -	تاريخ الفلسفة اليونانية	الدكتور عوض الله حجازي والدكتور محمد السيد نعيم .
٢٥ -	تاريخ الفلسفة اليونانية	الأستاذ يوسف كرم .
٢٦ -	الإلهيات عند ابن سينا	الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي .
٢٧ -	الميكروفيزيا دراسة تقدمية	ادوارد تريفولت .
٢٨ -	الوضعية بين المعقول واللامعقول	الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي .
٢٩ -	حلف الفضول عند العرب وأثره في العصر الحديث	الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي .
٣٠ -	الفيزياء والفلسفة	هولز جيرار .
٣١ -	الثورة الصناعية	جيريار .
٣٢ -	فن البيع	جورج هيمن .
٣٣ -	البحث العلمي والتقدم البيولوجي	فيكتور لانش.
٣٤ -	فلسفة العلم في القرن العشرين	ادوارد وايت .
٣٥ -	فلسفة العلم من منظور بحثي	شريف نور .





أولا : مفهوم النسبية

ثانيا: تقسيمات النسبية

ثالثا : علاقتها بفلسفة العلم

رابعا : موقفنا من النسبية الطبيعية

تتمثل في المنطوق اللغوي لمادة الكلمة - النسبية - جملة من المفاهيم والدلالات التي تعبر عن علاقة قائمة بين شيئين فأكثر من الناحية الزمانية والمكانية ، بجانب الكمية والنوعية ، مع مراعاة ما يتعلق بكل من الكيف والكم[١]، وهذه المفاهيم والدلالات تناولها متكلمو أهل الإسلام في مقدمات أبحاثهم الكلامية ، تحت موضوعات الأمور العامة التي نالت منهم إهتماما بالغا ، وما تزال تناله ٠

بيد أن المذاهب الفلسفية قد تعرض بعضها لمنطوق النسبية ، ثم وضعوا لها مفهوما ظنوه يحقق آمالهم ، لكن لم يقنع متأخروهم بما قرره سابقوه ، وقد أدى هذا لظهور مفاهيم عديدة حول ذات المنطوق ، لكنها تعدت الجانب النظري إلى العملي ، وتخطت الظن إلى اليقين ، فصارت كل معرفة - مهما كان مصدرها - بالنسبة لهم نسبية [٢]، يمكن أن يقع لها الصواب والخطأ بدرجة واحدة ، الصدق والكذب من غير تفرقة ٠

في نفس الوقت ، فقد نظر الفلاسفة المحدثون إلى وجود نسبية في العقائد والأديان - بإعتبارهامعارف عقلية - وهنا تكمن الخطورة ، إذ أن نصوص الدين الإلهي حقائق ثابتة ، لأنها من عند الله تعالى جاءت [٣]، وهي كلها صادقة لأنها المعبرة عن كلمات الله تعالى وإرادته ، من ثم فإن دراسة النسبية تعتبر ضرورة شرعية حتى يقف المرء عليها ، ويتعرف حدودها ثم يبين موضعها ومكانتها من فلسفة العلم والدور الذي يجب أن تؤديه في خدمة العقيدة الإلهية ،

وبناء عليه ، فسأحاول التعرض لهذه الجزئيات من خلال ما يلي : -

أولا : مفهوم النسبية :

وردت مادة الكلمة - ن س ب - في القرآن الكريم حوالي ثلاث مرات ، هي قوله تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاء بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً ﴾ [٤] ، وقوله

---

(١) وهذه الجوانب لا بد من أن تراعى عندما يتم الحديث عن النسبية بوجه عام ، سواء من الناحية الرياضية أم من الناحية الكلامية والإجتماعية والطبيعية ، أو من الناحية الفلسفية ٠

(٢) فكرة نسبية المعارف لها وجهان ، أحدهما تحصيلي وهذا مما لا نزاع فيه ، وثانيهما استدلالي وهو الذي وقع الجدل بشأنه ، وما يزال الخلاف قائما حوله ٠

(٣) هذا الحكم قائم في القرآن الكريم ، وصحيح السنة النبوية المطهرة ، لأنهما يمثلان نصوص الدين الإسلامي ٠

(٤) سورة الفرقان : الآية ٥٤ ٠

تعالى ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ [١] ، وقوله تعالى ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ ﴾ [٢] ، وهذا الورود لمادة الكلمة في الآيات القرآنية مما يؤكد وجود دلالة يمكن أن تحمل عليها من الناحية العقدية ، وهو الذي نبهت إليه جهود متكلمي أهل الإسلام في المباحث الكلامية ٠

أ ـ في اللغة

أن مادة الكلمة ـ ن س ب ـ وردت في لغة العرب على العديد من المعاني منها التي تحمل المسافة الواقعة بين طرفين ، إذ كان العرب يقولون بين الحرمين نسبة يقصدون المسافة الزمانية والمساحة المكانية إلى كل طرف منهما على ناحية بذاتها [٣] ، وتحمل كذلك على المشاكلة في اللون والجنس ، او الوظيفة الأدائية ، ولذا يقولون تناسب الشيئان ، ومعناه أنه وقع بينهما تشاكل من الناحية الأدائية ، وهي مسألة مهمة [٤] ، وعلى هذا يمكن إعتبار النسبية صورة من صور المشاكلة ، ومنها أخذ التناسب الرياضي الذي يعرف بأنه تساوي شيئين مثل $\frac{\text{أ}}{\text{ب}} = \frac{\text{جـ}}{\text{د}}$

وقد تجيء محمولة على ما يعبر عن نتيجة مقارنة إحدى كميتين من نوع واحد ، مهما كان ذلك النوع ، بحيث يظهر أيهما الأكبر أو الأصغر وما إذا كان يقع بينهما التساوي كوجه ثالث يبدو من بين هذه المتماثلات [٥] ، حتى قيل أن النسبية هي المعبر عن علاقة قائمة بين شيئين فأكثر على صورة دقيقة ٠

وقد ترد في لغة العرب أيضا ، على معنى ضبط أوجه التشابه الصوري بين المتشاكلات في الوظائف الأدائية [٦] ، ولهذا يقع اعتبار آخر تكون الحاجة ماسة لمعرفته ،

---

(١) سورة الصافات : الآية ١٥٨ ٠
(٢) سورة المؤمنون : الآية ١٠١ ٠
(٣) راجع قطر المحيط ، باب النون فصل السين ، ومحيط المحيط نفس المادة اللغوية ٠
(٤) راجع المعجم الوجيز ،باب النون ، صـ ٦١٢ ، ط. مجمع اللغة العربية بالقاهرة ٠
(٥) راجع هذه المعاني في كل من القاموس المحيط باب الباء فصل النون ، أساس البلاغة باب النون فصل السين ، والتهذيب مادة النون ٠
(٦) هذا الضبط حتى أمكن التعرف عليه تحققت جملة من المصالح المشتركة ، ولهذا كثر ورود لفظ النسبية في المصادر العربية ٠

نظرا لما يترتب عليه من فوائد علمية ، وإتجاهات معرفية ، تجيء من الناحية البحثية أو الإستقرائية النظرية [١] ، والتجريبية •

بناء عليه ، تكون النسبية في اللغة هي ما يميز العلاقة بين شيئين فأكثر ، على الناحية الزمانية أو المكانية ، الإيجابية أو السلبية ، سواء تم ذلك من ناحية المقارنة والموازنة ، أم جاء من ناحية الحكم والوصول للحقيقة ، لتدل على جانب معرفي ، يبلغ اليقين ، ويصح أن تبنى عليه معارف صحيحة[٢] ، وهذا ما سوف أتناوله فيما يلي

ب ـ في الإصطلاح

لما كان الإصطلاح بالمعنى العام ، هو اتفاق جماعة او طائفة بعينها في علم من العلوم أو فن من الفنون على استعمال لفظ ،أو ألفاظ ، بعينها ، في معنى مشترك الدلالة لدى أفراد هذه الجماعة ، أو ذات الطائفة ، فإن هذا الإستعمال يصير حقيقة إصطلاحية بالمعنى الخاص عند أفراد المستعملين له ، ومن ثم قيل لا مشاحة في الإصطلاح [٣] ، وإذا نقل الإستعمال ذاته لغيرهم ، فإنما يكون على سبيل النقل ، وهذا من شأنه تيسير البحث العلمي ، وإمكانية الإستفادة بالألفاظ المحددة لخدمة العلوم المختلفة •

ولما كان التعامل الإصطلاحي يمثل إحدى ركائز البحث العلمي ، وعلى أساسه يمكن أن تحل جملة من المشكلات البحثية في كثير من العلوم والمعارف ، فقد بات أمر التعرف على المعنى الإصطلاحي للنسبية ضرورة بحثية معرفية [٤] ، بل وشرعية أيضا ، لأنه متى عرفت هذه المفاهيم الإصطلاحية ، والجهة التي يعول عليها ، فربما أمكن للباحث الموضوعي أن

---

(١) الاستقراء النظري عنى به الأصوليون ، ويعبر عنه بالسبر والتقسيم ، وهي إحدى الطرائق الهامة لدى علماء الأصول ، فراجعها في مظانها تظفر بها •

(٢) هذا التعريف هو ما أمكني الوقوف عليه للفظ النسبية من الناحية اللغوية ، فمن وفق لغيره فليحمد الله تعالى ، ومن وقف عنده فليعذر لي فما أنا إلا بشر يخطيء ويصيب •

(٣) مشكلة تحديد المصطلح تمثل مبادئ تحرير محل النزاع ، لأنها تتعلق بالجوانب اللغوية التي تحمل المعاني ، ومن المعروف أن الخلاف إنما يكون في المعاني المتناولة لا في الألفاظ المتداولة ، والفارق بينهما كبير •

(٤) وجه الضرورة المعرفية هو ان العلوم تختلف في موضوعاتها لأنها تتمايز بها ، ومن ثم فالوقوف على طبيعة المصطلح والغاية منه تعتبر إحدى الضرورات البحثية •

يقف على عدم وجود خلاف حقيقي بين المتنازعين[1] ، وقد لا يجد خلافا أصلا ، وتلك مسألة نحاول التأكيد عليها ، بل نسعى دائما إليها •

من المهم القول ، بأن تعريف النسبية من الناحية الإصطلاحية سيدفعنا إلى متابعة بعض العلوم التي تتناول فكرة النسبية حتى نلتقط تعريفاتها ، ثم نوازن بينها ، وترجيح ما نجد أدلته راجحة ، وقدرته على المنافسة أكثر دقة ، وأجلى برهانا ، وسيكون ذلك على النحو التالي : -

١ ـ عند علماء الطبيعة

عرفت النسبية لديهم بأنها جملة من الآراء المعرفية ، والحقائق العلمية ، التي نشأت نتيجة التطور الطبيعي للعلوم الطبيعية[2] ، ومن ثم فهي المعبر عن هذا الجانب العلمي المعرفي الذي يرد على ناحية التطور الطبيعي ، وهذا التعريف يمثل النسبية بالمفهوم الطبيعي من الناحية الفيزيائية الخالصة ، ولا علاقة له بأية ناحية أخرى •

لكن الآراء المعرفية منها ما هو نظري ، ومنها ما هو عملي ، ومنها ما هو سلوكي [3] ، كما أن منها مايقع في نطاق العلوم المعيارية ، فهل يدخل ذلك كله تحت مسمى النسبية الطبيعية ، أم أن في المسألة أمرا آخر ؟ •

لقد ذهب " كينيث " إلى إن النسبية الطبيعية هي مايمثل رأيا علميا يحتم على المؤمن به ضرورة القيام بأعباء البحث العلمي في الجانب الفيزيائي ، عماده الملاحظة ، وقاعدته التجربة ، وغايته الوصول إلى الحقائق العلمية[4] ، وهو تعريف يحمل اللغة الآمرة ، ويعبر عن طريقة جديدة في البحث العلمي قد تكون هى المرادة لدى هؤلاء دون غيرهم •

---

(١) إذا لم يوجد خلاف حقيقي ، أمكن أن يقع التلاقي ويزول التقاطع ، وهو أمر على قدر كبير من الأهمية بالنسبة نجميع الأبحاث العلمية •

(٢) جورج فلنت : الطبيعة ومشكلاتها الأساسية ، صـ ١٣٥ ، ترجمة هناء فوزي ، ط. اولى سنة ١٩٩٥ •

(٣) هذه الجوانب تمثل جملة الآراء في التقسيم العام ،ثم أنها جميعا تقبل التجزئة إلى أنواع كثيرة، ومن ثم ر'بت التنويه إليها •

(٤) ادوارد كينيث : النسبية والقوانين الرياضية ، صـ ٣١ ، ترجمة ظافر الشابوري ، ط. دار الفؤاد سنة ١٩٩١ •

٢ ـ لدى الفلاسفة

ذكر المعجم الفلسفي أن النسبية هي المذهب الذي يقرر نسبية المعارف الإنسانية ، لأن العقل الإنساني لا يستطيع معرفة كل شيء على سبيل الإحاطة أو الشمول ، وإنما يمكنه معرفة جزئية ذات دلالة معينة (١) .

ذهب العلامة " باقر الصدر " إلى أن النسبية الفلسفية هى القائلة بوجود الحقيقة وإمكان وصول المعرفة البشرية إليها، لكن هذه المعرفة البشرية لا تدرك الحقيقة المطلقة، وإنما تدرك حقيقة نسبية ، لأن العقل الإنساني مهما علا شأنه ليس بإمكانه تخليص معارفه من الشوائب الذاتية ، ومن ثم فالمعرفة الإنسانية تمثل مزيجا من الناحية الموضوعية للشيء ، والناحية الذاتية للفكر المدرك ذاته (٢) .

ولا شك أن هذا التعريف ، جمع بين أمرين ، أحدهما الإقرار بوجود الحقيقة ، وهذا يساير الفلسفة القائلة بأن حقائق الأشياء ثابتة ، ثانيهما الإعتراف بإمكان المعرفة البشرية ، وهذا يخالف إتجاه الشكاك وجملة السوفسطائيين ، الذين ينكرون وجود أشياء حقيقية ، وينكرون كذلك إمكان وصول المعرفة الإنسانية إليها (٣) .

ويقرر الدكتور " البرديسي " أن النسبية الفلسفية تمثل إتجاها فكريا يتعلق بالبحث في المطلق والنسبي ، بحيث يظهر وجه العلاقة بينهما ،و يكشف عن الطبيعة التي تجمع بينهما(٤)، وهو كما ترى يعلق المسألة على البحث في العلاقة المشتركة بين وجود المطلق والنسبي ، ودور المفكر في إدراك هذه العلاقة ، والتعرف على طبيعتها من جانب بعينه .

---

(١) الدكتور جميل صليبا : المعجم الفلسفي ، جـ ٢ ، صـ ٤٦٧ ، ط. بيروت ، وقد رأيت التدخل في الصياغة ليتم المعنى على الوجه اللائق.

(٢) راجع للإمام محمد باقر الصدر : فلسفتنا ، صـ ١٢٥ ، ط. دار التعارف للمطبوعات ، سنة ١٩٨٢ ، والذي يتفق مع الإتجاه العام .

(٣) تمثل المدرسة الشكية، السوفسطائية في القديم هذا الإتجاه ، وفي أثناء العصر الحديث ظهر مونتاني وزملاؤه وتجمعهم ثلاث قضايا : أ ـ لا شيء موجود ، ب ـ إذا وجد لا يمكن معرفته ، جـ ـ إذا عرف لا يمكن إيصال هذه المعرفة إلى الغير ، راجع كتابنا : قضايا حبيسة في الفلسفة الحديثة ، صـ ٧٩ / ٨٢ .

(٤) الدكتور عبد المعز منصور البرديسي : قضايانا الفلسفية، صـ ٣٤، ط. الأزهر سنة ١٩٨٧ .

ويقدم الدكتور " مشرفة " تعريفا للنسبية بالمعنى العام يقوم على تعليل ظهورها أكثر مما يصلح لبيان حقيقتها ، حين يذهب إلى أنها مجموعة الآراء والحقائق العلمية التي نشأت نتيجة لتطور العلوم الرياضية والطبيعية[١] ، وبالتالي فتعريف النسبية الطبيعية عنده إنما يرد إلى ظروف البحث العلمي في المجال الرياضي والفيزياني [٢]،حيث يتعلق الأمر بالمقادير الكمية والعددية ،و هي وجهة نظر لها تقديرها العلمي ٠

وعندي ، أن النسبة الفلسفية هي التي يتعلق بها البحث النظري في كل من المطلق والنسبي ، من خلال منهج بحثي خالص يقوم على اليقين العلمي ، بحيث تجيء النتائج الترتيبية مزيلة أوجه التناقض ، منهية أزمة التضارب ، محققة غاية صحيحة[٣] ٠

٣ ـ لدى علماء الرياضة

لما كان علم الرياضة تتمثل مبادؤه في الكم المنفصل بصورة أولية ، ثم الكم المتصل على ناحية تبعية[٤] ، وقد جاءت نتائج البحث فيه معبرة عن اليقين العلمي ، فقد حرصت العلوم الأخرى ذات الصلة به ، على إستخدام ذات المنهج ، بغية الوصول إلى نتائج تحتمي بذات اليقين الكائن في البراهين الرياضية ، وهذا مما جعل علم الرياضة يتداخل في الكثير من العلوم تداخل فائدة لا تداخل تباين ومعارضة[٥] ٠

ثم أن الكم المنفصل موضوعه الأرقام والرموز ذات الصبغة التجريدية ، أما الكم المتصل فموضوعه الأحجام والسطوح التي تعبر عن الهندسة والميكانيكا على ناحية من

---

(١) الدكتور على مصطفى مشرفة : النظرية النسبية الخاصة ، صـ ٣٠٢ ، مطبعة التأليف والترجمة والنشر ، سنة ١٩٤٠ ٠

(٢) وهذا الإتجاه ليس قريب الشبه بالتعريفات التي وردت لدى الفلاسفة أو المفكرين النظريين ، وإنما يدعم خطة عمل الفلاسفة التجريبيين على أكثر تقدير ٠

(٣) هذا التعريف ٠ ممايسر الله لي القيام به ، فمن وفق لغيره فليحمد الله تعالى ، إذ العلم من أقسام الله الذي لا إله سواه ، وفي الحديث الشريف وإنما أنا قاسم والله عز وجل يعطي ٠

(٤) الكم المنفصل يتمثل في الأرقام – علم الحساب – والرموز – علم الجبر – بصورة أولية ٠

(٥) تداخل الفائدة تشهد به العلوم والمعارف المختلفة ، بل هو من الحقائق المعرفية المؤكدة ، أما تداخل التباين فيرد في القضايا المنطقية لغايات أخرى ، راجع كتابنا : الغزاليات في منطق التصورات ، صـ ٤٨٥ ، وكتابنا : الغزاليات في منطق التصديقات ، صـ ٣٤٩ ٠

النواحي التي تسعى لمتابعة علم الرياضة في التجريد والدقة والإختصار[١] ، ومن ثم كان إهتمام أصحاب النسبية الرياضية بالمسألة نابعا من مراعاة تلك الفوائد ، من هنا ، فقد عرفت النسبية الرياضية بأنها صورة العلاقة القائمة بين عددين لكل منهما مقدار كمي ، كالحال بين رقمي ٥ ، ٧ ، أو ٢ ، ٩ فإن المسافة بين كل من الأول والآخر تتمثل فيها كميات رقمية عديدة [٢] ، يجيء بينهما كل من التناسب أو التقريب ، فما بين رقم ٥ ، ٧ مثلا هو رقم ٦ ، وجزئياته $\frac{١}{٦}$ ، $\frac{١}{٣}$ ، $\frac{١}{٢}$ ثم جزئيات كل منها والنسبة واضحة ، كما أن صور التناسب متعددة •

وتعرف أيضا بأنها صيغة كاشفة عن علاقة بين رقمين أو كميتين فأكثر ، ، تساعد على إدراك هذه الفروق ، وكيفية توظيفها من الناحية العلمية ، بحيث تحقق تقدما ملحوظا في العلوم المختلفة [٣] ، ومن ثم تمثل رأيا علميا ، ينهض في جملة من الآراء المفيدة والداعية للتقدم العلمي •

غير أن هناك تعريفات للنسبية تجمع بين الإتجاهات الفلسفية النظرية ، والأخرى التجريبية ، منها أنها تمثل صورة استقلاق القوانين الطبيعية عن حركة من يشاهد الطبيعة ، ويصوغ قوانينها ، إذ هي في الأصل يراد بها تفسير حقائق ملموسة تعبر عن الزمان والحركة ، وإعتماد البنية الهندسية للقضاء على توزيع المادة في الكون كنظرية الجاذبية وغيرها [٤] •

وإذ كان ما مر يمثل إتجاهات متباينة في مفهوم النسبية ، فإنه في ذات الوقت يعتبر ضرورة بحثية ، وإلا فما معنى تقديم تعريف النسبية على جانب واحد مع إهمال باقي

---

(١) عقيدة التجريد التي يسعى إليها الفلاسفة المثاليون تمثل إتجاها معرفيا ، وتعبر عن صورة من الفكر الإستبقائي التي برزت آثارها في العصر الحديث •

(٢) راجع كتابنا : مناهج البحث بين التقليد والتجديد ، صـ ٢٩٧ ، وكتابنا : الحديث في المنطق الحديث ، صـ ٤٨٤ •

(٣) وهي بهذا المفهوم تقوم مقام النسبة ، فإذا تم التعامل معها بهذا المعنى صح الوقوف على الحقيقة في جانبها البحثي •

(٤) راجع للدكتور مصطفى على مشرفة : النظرية النسبية الخاصة ، صـ ١١ و ١٢ •

الجوانب المعرفية ، ألا يعتبر ذلك إخلالا بالضرورة البحثية ، وإستجابة لضغوط بعينها استطاعت الزحف على عقول أصحابها ، فشغلت منها المساحات التي كان يجب بقاؤها ممثلة الحيدة والموضوعية ، وهما من ضرورات البحث العلمي ٠

٤ ـ عند علماء الكلام

نالت النسبية عند علماء الكلام من أهل الإسلام عناية كبيرة ، حتى أنهم أدخلوها في مؤلفاتهم الكلامية ، يدل عليه تناولهم لها من خلال البحث في الأعراض بإعتبارها تتناول الكم كما تتناول الكيف ، كما يقع لها تناول كل من الكلية والجزئية ، وقد بلغ من عنايتهم بها أنهم جعلوها ضمن المباحث التي تمهد للألهيات والنبوات والسمعيات ، وقد كثر حديثهم عنها في ذات المؤلفات بشكل كبير [١] ٠

بيد أن فكرة النسبية لدى المتكلمين قد جاءت بشكل أولى في مباحث الكيف وأقسامه من الكيفيات المحسوسة [٢] ، سواء الملموسات أو المبصرات من الألوان والأضواء ، أم المسموعات ، وأعني بها الأصوات والحروف ، أم تعلقت بالمذوقات من الطعوم بسائطها والمركبات ، أم جاء ذلك في المشمومات[٣] ، التي تمثل جملتها الكيفيات المحسوسة أصدق تمثيل ٠

كذلك تم تناولها من خلال الكيفيات النفسانية بأنواعها الأربعة ، وأعني بها الحياتية والعلم ، بجانب الإرادة والقدرة، لأن النسبية فيها تجيء على صور متعددة ، وبخاصة إذا تعلق الأمر بالمخلوقات [٤]، حتى ينتهي إلى إثبات واجب الوجود ، وهو الله

---

(١) تناولها الإمام العضد الأيجي في كتابه المواقف ، الموقف الثالث في الأعراض ، المرصد الثالث في الكيفيات ، والمرصد الرابع في النسب ، راجع : المواقف ، صـ ١٢٠ / ١٨١ ، ط. مكتبة المتنبي بالقاهرة ٠

(٢) تمثل الكيفيات المحسوسة بأنواعها الخمسة القسم الأول من أقسام الكيف لا بإعتباره مما يتعلق به الإيجاب أو السلب ، وإنما بإعتباره أحد المقولات التي وقع النظرفيها بين المتكليمن وغيرهم ، وهذا أمر جديد يحسب لهم ٠

(٣) هذه الأنواع الخمسة جاءت في عشرين مقصدا ، قامت المؤلفات الكلامية بتناولها وعرضها على وجه دقيق ، فإرجع إليها تظفر بها ٠

(٤) راجع للإمام الايجي : المواقف ، الموقف الثالث في الأعراض ، القسم الثالث في الكيفيات النفسانية صـ ١٣٩ / ١٥٩ ، ففي هذه الصفحات كلام طيب يمكن الإستفادة منه على الوجوه المختلفة متى حسنت النية ، وصلح العمل ٠

تعالى رب العالمين ، ومن هنا كانت عنايتهم بها ، وإنشغالهم بأبحاثها ٠

غير أن هؤلاء المتكلمين عند تناولهم للكيفيات المختصة بالكميات [١]، قد حرصوا على الحديث عن النسبية مباشرة ، وبلغة صريحة ،بدليل أن الإمام الأيحي ذكر المرصد الرابع في النسب ، ثم ذكر المقدمة في إثبات المقولات النسبية وإنكارها [٢]، بإعتبار أن ذلك من جملة المقولات التي يعول عليها عند تناول الأعراض ، وليس عند ذكر الجواهر ٠

أجل ، يمكن الحديث عن النسبية من خلال مقولات الكم والكيف ، أو الأين والزمان ، وغيرها [٣]، وهو الذي دفع المتكلمين إلى ذلك التناول ، وبخاصة إلى الحكماء ، وأثبتوا المقولات النسبية على وجه الإطلاق، إلا أن المتكلمين قرروا وجودها في مقولة الأين فقط ، وكل من الحكماء والمتكلمين قدم أدلة تعضد وجهة نظره [٤] في المسألة ، حيث يراها كل فريق جديرة بالقبول ٠

غني عن البيان ، القول بأن لنسبية لدى المتكلمين هي ما يقع بين طرفين ، ويدرك بالبداهة أو الضرورة والنظر كالفوقية والتحتية ، والقلة والكثرة ، والطول والقصر ، فإن ما بين الفوقية والتحتية هو ما يقع فيه النسبية [٥]، بل تصير دالة عليه دلالة مطابقية تارة ، ودلالة إلتزامية أخرى ، وقد يقع معه الدلالة التضمنية أيضا ٠

قد يقال أن ما عناه المتكلمون والحكماء إنما يتعلق بالنسبية التي لها إرتباط وثيق المقولات العشرة[٦]، بينما النسبية كنظرية فلسفية أو رياضية ، أو طبيعية ، بعيدة كل البعد عن الذي تناوله المتكلمون والحكماء ، فما قيمة هذا الإدخال من الناحية العلمية ٠

---

(١) وهي القسم الثالث من أقسام المرصد الثالث في الكيفيات الداخلة في الموقف الثالث ، وهو المعني بالأعراض ٠

(٢) راجع للإمام الأيحي : المواقف - الموقف الثالث ، القسم الثالث ، المرصد الرابع صـ ١٦١ ٠

(٣) هذا الإعتبار هو القائم لدى الحكماء ، أما المتكلمون فلهم موقف آخر يمكن الرجوع إليه في مواضعه من مؤلفات الفريقين ٠

(٤) راجع للإمام الأيحي : المواقف صـ ١٦١ ٠

(٥) راجع حاشية الشيخ حسن جلبي على شرح المواقف ،المجلد الثالث ، جـ ٦ صـ ١٦٩ ، ط. دار الكتب العلمية ، بيروت ٠

(٦) المقولات العشرة هي : الحم ، والكيف ، والوضع ، والزمان ، والمكان ، لمعرفة باقي هذه المقولات راجع الطوالع والمطالع ، ففي كل منهما كلام عنها ٠

والجواب : إنني هنا أقدم تعريفا للنسبية لدى المتناولين لها بغض النظر عن تصنيفاتهم أو الإنتماءات التي يقومون عليها ، أو ينتسبون إليها ، وهذا من شأنه تقديم خدمة علمية ، أما حين يتعلق الأمر بموضوع النسبية[١]، فهذا شأن آخر ، ولا بد من التعرض له ، مع بيان ما يحيط به كناحية بحثية •

ولا يغرب عن ذي بال أن الحديث عن النسبية من الناحية الفلسفية والإتجاهات التي تهدف إليها ، والنتائج التي تترتب عليها[٢]، لا بد أن يظهر موقف الإسلام منها ، وما إذا كانت نصوص الدين تقبلها ، أو ترفضها ، أو تقبل بعضها وترفض البعض الآخر [٣]، فذلك شأن الدراسات الموضوعية التي تجعل النتائج تأتي بعد المقدمات الصحيحة •

وإذا كانت النسبية في العلوم الرياضية أبان العصر الحديث قد نسبت إلى " البرت اينشتاين Albert Eienstein " [٤]، ثم استخدمها في العلوم الطبيعية، مقترحا وجود علاقة ما بين الطاقة ورمزها ط E = Energy ، والكتلة ورمزها ك للمادة M = Mass هي أن $\frac{ط}{ك}$ — سرعة الإشعاع الكهربي مضروبة في نفسها ،و معني هذا أن الطاقة التي في جرام من مادة تساوي ٢,٥ × ١٠ ^٢^ كيلو وات ساعة[٥]، من هنا ، فإن البعض قد فتن بها إلى حد كبير ، وحاول تقديمها للفكر على أنها الخير والسلوى •

كما ان " اسحق نيوتن " صاحب نظرية الجسيمات ، أو الدقائق ، كان هو الآخر قد حاول إدخال مسألة النسبية الرياضية إلى العلوم الطبيعية ، معتبرا أن الضوء مؤلف من جسيمات قائمة بذاتها دقائق صغرت وخفت عن أن ينالها القياس[٦]، والغاية لديه قائمة

---

(١) موضوع الشيء هو ما يبحث فيه عن عوارضه الذاتية ، ويمثل الموضوع أمرا غاية الأهمية بالنسبة للجزء المطروح على مائدة البحث ، تمثل أهمية كبرى للباحث نفسه ، إذ بموضوعاتها تتمايز الأشياء •

(٢) انسبية تتعلق بالزمان والمكان ، والحركة ، كما تتعلق بالطاقة ، والكم المنفصل والمتصل ، ومن هنا كات أهمية بحثها •

(٣) هذه وجوه ثلاثة قد يجيء فيها الحصر ، مع أنه ربما كان مرادا ، وربما لك يكن مقصودا ، ولكل وجهة •

(٤) برنارد جافي - بواتق وأنابيق قصة الكيمياء ، صـ ٣٩٢ •

(٥) دي بروليه : الفيزياء والميكروفيزياء ، صـ ١٣٧ •

(٦) روبرت توفسكي : قياسات الزمن المتطورة ، صـ ٤٧ •

في أن الكون يمضي إلى طريقه المرسوم من غير إحتياج لقوة قاهرة ، وقدرة نافذة ، وإرادة إلهية كاملة ٠

وقد هوجمت نسبية نيوتن ، حيث هدمها اينشتاين ، ثم أقام على أنقاضها نظريته في النسبية ، ولم تسلم هى الاخرى من الهجوم الشديد عليها ، كما لم تبتعد عن ضربات معاول الهدم [١] ، حتى صارت أطلالا يبكيها رمزا ورثاء ، وكأني به يقول :

اسقني وأشرب على أطلاله ∴ وأرو عني طالما الدمع روى
كيف ذاك الحسن أمسى خبرا ∴ وحديثا من أحاديث الجوى
وبساطا من ندامى حلم ∴ هم تواروا أبدا وهو إنطوى[٢]

٥ ـ عند علماء اللغة

علماء اللغة يتحدثون عن النسبية من جوانب عديدة ، بعضهم يلجأ إليها بإعتبار العلاقات القائمة بين الحروف والكلمات ، وهم أصحاب علم اللغة[٣] ، ومن ثم يذهبون في تعريفها بأنها العلاقة القائمة بين الحروف بحيث ترتبط بها أداء معنى بذاته يفيد السامع والمخاطب بقدر فهمه من هذا الملقى إليه[٤].

أما علماء البلاغة ، فيذهبون إلى النسبية هي العلاقة القائمة في صدق الكلام من عدمه ، ومطابقة ذلك للواقع ، أو عدم المطابقة ، ولذا فهم يعرفونها بأنها مايوضح الصفة الكامنة في الكلام[٥] ، ويعنون به مدى مطابقة ذلك لمقتضى الحال ، ويقولون أن نسبة ألصدق والكذب في الأخبار واحدة ، أما لماذا ؟ فلآن كل خبر عندهم يحتمل الصدق والكذب لذاته[٦] ، فإذا كان صادقا لم يكن كاذبا ، وإذا كان كاذبا لم يكن صادقا ٠

---

(١) برنارد جافي : بواتق وأنابيق - قصة الكيمياء ، صـ ٣٤٧ ٠
(٢) هذه الأبيات للدكتور إبراهيم ناجي من قصيدة الأطلال المنشورة في كتاب أجمل ما كتب شاعر الأطلال ، صـ ١٤ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٩٦ ٠
(٣) هذا العلم له وضع مهم في لغتنا العربية ، وعليه عماد البحث في ذات الجانب ، ومن ثم راح الدراسون له يكشفون عن جوانبه المتميزة ٠
(٤) السامع تلقى إليه الأصوات ، فإذا كانت لديه القدرة على إدراك لمعانيها تحولت معه إلى كلمات مفهومه بمكنه أن يوظفها ويفيد بها ، ويستفيد منها ، وكذلك الحال مع المخاطب ٠
(٥) الصفة الكامة في الكلام هي معناه الدلالي ، لأن الألفاظ المنطوقة كالأثواب للمعاني إذ كل لفظ يحمل جملة من المعاني حسب إمكانية اللفظ فقط ٠
(٦) برنارد جافي : بواتق وأنابيق - قصة الكيمياء ، صـ ٣٤٧ ٠

والواضح أن كل كلام - غير منزل من عند الله تعالى - فإنه يحتمل الصدق والكذب بنسب متفاوته ، فقد يكون صادقا كله ، لكنه لم يبلغ درجة اليقين ، وبخاصة إذاكانت هذه النسبة قائمة على مجرد الرجحان ، وقد يكون صادقا على وجه يقيني ، إذا كان عماده البدهيات ، وقد يقع في دائرة الشك أو الظن [١] ، وهنا تكون النسبية فيه قائمة من تلك الناحية المعرفية ٠

لم تخل المباحث المنطقية هي الأخرى من الحديث عن النسبية ، يدل على ذلك حديثهم عن القضية المنطقية ومكوناتها الأساسية ، وهي الموضوع والمحمول والرابطة [٢] ، ثم تجيء النسبة فتجعل القضية موجبة أو سالبة ، وتمهد للحكم عليها بالصدق أو الكذب ، وهو المراد بالنسبية حسب ماتدلى به المفردات المنطقية ٠

على أن الذي أعنيه هنا هو النسبية العامة والفلسفية، بل والطبيعية ، نظرا لإرتباطها بالفكر الإنساني من ناحية ، ومحاولة القائلين بها الضغط بنتائجها على القضايا الأساسية بالنسبة ، ليقيم كل من الحق والخير والجمال [٣] ، بل تعدت ذلك كله إلى محاولة المساس بقضايا العقيدة الإلهية من خلال إعتقاد القائلين بها ، فإن منظومة الكون هكذا تجري محكومة بقوانين طبيعية متمثلة في النسبية ، والحتمية ، أو الضرورة ، بجانب السببية ، وليست بحاجة إلى قوة قاهرة ، ولا إرادة حاكمة ، أو علم محيط [٤] ، بل ظهر من نادى بأن الكون محكوم بهذه المنظومة من القوانين وليس في حاجة إلى إله أبدا ، وهو كفر بالله وبآياته وإستهزأ برسله ٠

من ثم ، فقد وجب تناول نظرية النسبية الفلسفية من باب الدفاع عن العقيدة الدينية التي أكرمنا الله تعالى بها ، وألزمنا القيام بهذا الواجب ، إذ في تقرير العقيدة

---

(١) الكلام الإلهي صادق كله ، وصدق كله لا من حيث هو كلام فقط ، وإنما من حيث هو كلام إلهي ، ومن أصدق من الله قيلا ٠

(٢) ويعبر عنها بأجزاء القضية الأساسية ، وهي في القضية الحملية أربعة : أ - الموضوع ، ب - المحمول ، جـ - الرابطة وهي غالبا ما لا تذكر في الكلام ، د - النسبة، وهي المتعلقة بصحة نسبة المحمول للموضوع أو فصله عنه ، راجع كتابنا : الغزاليات في منطق التصديقات أثناء الحديث عن أجزاء القضية ٠

(٣) هذه القيم الثلاثة تمثل الأسس أو الأصول، ثم تتفرع عنها قيم أخرى تكون تبعية ، راجع كتابنا: تأملات غزالية في الأخلاق النظرية ، جـ ١ ، صـ ١٥٧ وما بعدها ٠

(٤) تناولت هذه المشكلة في كتابنا : الإيمان بالغيب وأثره على الفكر الإسلامي في الباب الثالث ٠

الدينية خير ، وفي الدفاع عنها خير[١]، ومتى امكن للمرء تقريرها على الوجه الصحيح والدفاع عنها بطريقة سليمة ، فقد فاز بالأجر من الله تعالى ، ونعم الأجر ، مادام مانحه هو الله رب العالمين ·

كما أنوه إلى أن بعض القصور قد يأتي أصحابه ، مبحرا أو طائرا، فوق فلك الغرور ، مع أن المسألة أبسط من ذلك بكثير ، وكلنا إلى الله راجع ، وعليه نعرض ، والفائز هو الذي يلاقي ربه على مأمره به جل شأنه ، وأن يتأمل ذلك على أكمل ما يكون ، وهذا يدفعني إلى إستعارة تلكم الأبيات :

إنما الدنيا عباب ضمنا ∴ وشطوط من حظوظ فرقتنا

ولقد أطفوا عليه فلقا ∴ غارقا في لحظة قد جمعتنا

ومعاني الحسن تترى وأنا ∴ ناظر فيها لمعنى خلف معنى[٢]

ثانيا : تقسيمات النسبية

تنقسم النسبية ، بالمعنى العام ، إلى ثلاثة أقسام ، كل قسم منها يتنوع أنواعا قد تقل أو تكثر ، لكنها تعبر عن المضمون العام ، والطبيعة المستهدفة ، وذلك مما يحتاج تناولا لكل قسم على حدة ، وكذلك الأنواع التي تجيء تحته طبقا لما يلي :

القسم الأول : النسبية الطبيعية

وهي التي تتعلق ببحث مسائل الطبيعة وموضوعاتها، ومن ثم فهي تتنوع إلى نوعين :

النوع الأول : النسبية الطبيعية العامة

ويحسن تناولها على النحو التالي :

أ - تعريفها

تعرف بأنها مايشمل صياغة القوانين الطبيعية والمبادئ الرياضية ، بجانب القواعد العلمية ، فتكون جامعة بين قوانين كل من الزمان والمكان والحركة مع الجاذبية أيضا [٣]،

---

(١) تقرير العقيدة يحتاج الوجه الثاني ، وهو الدفاع عنها ، راجع كتابنا : الغزاليات في الإلهيات صـ ٩٨ ، سترى ذلك واضحا إن شاء الله تعالى ·

(٢) الدكتور إبراهيم ناجي ، أجمل ما كتب شاعر الأطلال صـ ٨٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٦ ·

(٣) جوارن فاكل : النسبية والقوانين العلمية ، صـ ٣٧ ، ترجمة ظافر خيري ، سنة ١٩٩٧ ·

ومن ثم كان هذا العموم والشمول بمثابة الترشيح والتعريف حتى تقع لها التسمية ذات الموقع وبناء عليه فقد أعللت تسميتها من خلال القوانين التي تجمعها ، والمبادئ التي تقوم عليها ٠

وكان " البرت أينشتاين "[١]، يعرفها بأنها كون مجموعة الإسناد م ، م ، متكافئة من حيث ملائمتها لوصف الظواهر الطبيعية ، مهما كانت حالتها من الحركة [٢]، ومهما كان مقدار تلك الحركة أو كميتها ، لأن مجموعة الإسناد الأولى يقع لها التكافؤ مع مجموعة الإسناد الثانية ، وتبدو النسبية العامة في طبيعة الملائمة [٣]، التي يفضي بهاالوصف للظواهر الطبيعية ٠

ويذهب البعض إلىأن هذه النسبية عامة ، لوجوه :

الأول : أنها تجمع بين الموضوعات المختلفة وتتدخل لتفض إشكاليات عديدة في المجال الدراسي ، فهي جامعة من القضايا والمشكلات ما يمكن أن توجد بينها علاقة على ناحية من النواحي ، أو صورة من الصور الدراسية ، ولذا سميت نسبية عامة ٠

الثاني : أن موضوعها غير مقيد بدراسة ظاهرة معينة ، أو جملة قوانين بذاتها ، وإنما يمتد ليشمل كل ما يمكن أن تجيء فيه ، أو يطلق عليه ، مفهوم النسبية على ناحية من النواحي[٤]، وهذا في حد ذاته كفيل بأن يضفي عليها طابع ومفهوم النسبية العامة ٠

الثالث : أنها تجمع بين شاطئيها العلوم الطبيعية ، بحيث يدخل فيهاكل من الجاذبية وما يتعلق بها ، والزمان والمكان والحركة ، وبعبارة أخرى ، أنهاتجمع بين الكم المتصل ، والكم المنفصل في سلة واحدة[٥]، ثم توظف كلا منها حسب الإتجاه العام الذي تقوم فيه من حيث كونها نسبية عامة ٠

---

(١) البرت أينشتاين صاحب نظرية النسبية التي يكثر الحديث عنه وعنها غيرالفريد أينشتاين الموسيقى٠ الذي ألف العديد من المقطوعات الموسيقية ، وكان له باع طويل في صناعة بعض الآت الموسيقى ، وبالتالي ، فكل منهما غير الآخر ٠

(٢) البرت أنيشتاين : نظرية النسبية ، صـ ١٤ / ١٤ ، ترجمة الدكتور رمسيس شحاته ٠

(٣) طبيعة الملائمة هي التي تحمل النسبية العامة ، نظرا لوجود علاقة بينية عمادها مجموعات الإسناد والأصول التي قامت عليها من الناحية الفيزيائية ٠

(٤) تعدد النواحي التي تجيء عليها النسبية العامة يعتبر أمرا طبيعيا راجعا إلى ذات البحث في الفيزياء بوجه خاص ، نظرا لقيامها على الجانب الحيوي من الطبيعة والقوانين الضابطة له ٠

(٥) استخدام لفظ الكم في المتصل والمنفصل يمثل الإتجاه الفيزيائي والفلسفي ، بل والرياضي أيضا لكن العبرة هنا قائمة في طبيعة المصطلح الذي يراد إتيانه أو التعامل به ٠

الرابع :أنها لاتكتفي بمجرد عرض القوانين والمبادىء ،أو تقف عند حدود المقدمات وكفى ، وإنما تمتد فتشمل النتائج القبلية والترتيبية ، وهذا يترك لدى الدارس إنطباعا عاما بأن الذي مهد لذلك كله هو النسبية ٠

الخامس : أنها بلغت درجة العموم في الموضوعات ، والتعميم في النتائج [١]، وقد أقر بهذه المسألة " برتراندراسل " حيث يؤكد أن النسبية قد وصلت لدرجة التعميم عندما إنتقلت من دراسة الهندسة الأقليدية إلى الهندسة اللا أقليدية[٢]، إذ كان السائد قبل البرت أينشتاين القول بأن القياسات العلمية تؤكد أن الهندسة الأقليدية باتت داخل حدود الدقة الممكنة ، أما الأن فلم يعد ذلك القول محل إعتقاد علمي ، وبخاصة بعد ما شرح أينشتايين قوانين الجاذبية وإنتهى إلى أنه في المناطق الكبيرة ، حيث توجد مادة لا يمكن النظر إلى المكان بوصفه من الناحية الأقليدية[٣]، حتى وإن أمكن النظر إليه من ناحية أخرى غير التي سلف الحديث عنها ٠

على كل ، يمكن القول بأن النسبية تمثل إتجاها قديما في تناولها ، حديثا من حيث التعامل معها وتوظيفها ، وهذا في حد ذاته يعبر عن إتجاه علمي لا بد من الإحتفاء به ، إذ لم يخرج عن هذه ادائرة ، إنما إذا خرج عنها إلى اعتبار النسبية العامة هي العاملة في مجال الخلق والتقدير [٤]،حينئذ تكون المواجهة ضرورية، بغية إعادة الأمور إلى نصابها ، ووضع القضايا الشرعية موقعها المقدر لها ، والانق بها ٠

---

(١) الفرق بين العموم في الموضوعات ، والتعميم في النتائج يمثل أمرا مهما في دراسة فلسفة العلوم ، ولذا يجب الإهتمام به ووضعه دائما على محك البحث العلمي ٠

(٢) الهندسة الأقليدية هي التي قام بها العالم الرياضي الشهير " أقليدس " وكانت تعتمد على قياسها من خارج المساحات ، وحدود الأمكنة ، أما بعدها فقد عملت إلى الداخل ، ونتج عن ذلك فوارق رياضية أدت إلى تقدم هائل في هذا الميدان ٠

(٣) برتراند راسل : الف باء النسبية ، صـ ١٠٥ / ١٠٦ ، ترجمة فؤاد كامل ٠

(٤) طبيعتنا الذاتية تفرض علينا ، عدم قبول أي إتجاه يخالف عقيدتنا الدينية ، لأن العقيدة الدينية ثابتة فينا، وبدونها لا يكون لنا وجود ، ولا يمكن أيضا أن تصير لنا هوية ، إذ المعروف أن ديانة المسلم هي كينونته ، ولولاها ما كان لهذا الفرد وجود فعلي حقيقي ، حتى وإن كان له وجود أسمى ، أو ظاهري ، راجع كتابنا :لماذا إنتشر الإسلام ، جـ ٢ ، صـ ٢٤٧ / ٢٦٥ ٠

ب ـ موضوعها

يتفق الدارسون على أن موضوع النسبية العامة هو كل ما يشمل ظواهر العالم المادي ، وما يتعلق به كمفهوم ، وما يتعلق به بإعتبار الزمان والمكان والحركة ، بمعنى أن ترتبط النسبية العامة بالعالم المشاهد الذي يمكن ملاحظة جزئياته من الناحية الفنية ، وممارسة الجوانب العملية المختلفة بالنسبة له[١].

ولما كان المشهور أن الزمان عند المتكلمين عرض قائم في القبلية والبعدية والأين ، فقد صارت هذه الجوانب موضوعا تجري فيه النسبية العامة من هذه الناحية [٢].

ولما كان السائد لدى كثيرين من الفلاسفة الأقدمين أن الزمان ممتد غير منقطع ، وأنه لذلك جسم قديم ، فقد أعتبر خارج نطاق النسبية العامة ، غير أن الأبحاث العلمية أثبتت أن الزمان،وإن كان ممتدا إلا أنه ليس إمتدادا مطلقا بلا نهاية وإنما هو إمتداد نسبي[٣] خاص لفكرة البعدية والقبلية والآنية ، ومن ثمّ فهو داخل في نطاق موضوع النسبية العامة

لم يقف الأمر عند إثبات نسبية الزمان ، بحيث يدخل في موضوع النسبية العامة ، وإنما إمتد لينال فكرة المكان، وطبيعة التجانس القائمة به كفكرة فلسفية ذات بعد رياضي، وبحث العلاقة بينها والفضاء الخارجي ، المتناهي في ذاته ، غير المحدد في طبيعته [٤]، وهذا بدوره أدى إلى إثبات نسبية المكان أيضا فصار الزمان والمكان لسببين داخليين في موضوع النسبية العامة .

---

(١) وهذا الإتجاه هو الغالب على أصحاب الفكر المادي الذين لا يقرون بوجود عالم ماوراء المادة على أية جهة من الجهات ، راجع كتابنا : تأملات غزالية في الأفكار البراجماتية .

(٢) وكثير من الفلاسفة يذهبون إلى أن الزمان جوهر غير مادي ، ولهم على ذلك شبه عديدة ، راجع شرح المواقف ،المجلد الثالث جـ ٥ ، صـ ١٠٣ / ١١٥ .

(٣) فكرة الإمتداد النسبي أشارت إليها أبحاث المتكلمين في مواضع كثيرة من مؤلفاتهم ، ولذا فهم أصحاب سبق حديث عنها .

(٤) فكرة التجانس وفكرة الفضاء المتناهي في ذاته ، وكذلك فكرة البعد الفرضي مما أشارت إليه الأبحاث الكلامية أثناء الحديث عن الأعراض ، وقدمت في ذات المجال أفكارا جديرة بالقبول .

كما قامت دراسات علمية رياضية ، وأخرى فلسفية ، بجانب الكلامية ، حيث تناولت الحركة التي هي المحتوى لجملة الحوادث والمعبرة عنها في أدق صورها[١]، ومن ثم إنتهت هذه الدراسات إلى أنه لا توجد حركة بدون زمان ولا مكان ، ولما كان الزمان والمكان نسبيان فقد صارت الحركة هي الأخرى نسبية[٢]، وباتت من موضوعات النسبية العامة ٠

وقد أعتقد الكثيرون من الباحثين أن الإنتقال بالحركة يخضع للنسبية ، وبالتالي إمتد موضوع النسبية العامة إلى كل ما هو قائم في الفيزياء ، والواقع المعاش ، يقول " ديفيد فوكر " أن موضوع هذه النسبية ـ العامة ـ كان في الماضي محصورا نظرا لقلة الأبحاث التي تناولتها استقلالا ، أما في عصر النهضة العلمية ، فقد صار موضوعها مفتوحا يقبل جميع مايمكن أن تصل إليه المعرفة الإنسانية [٣]٠

كماأن أصحاب التجربة والمذاهب المادية ، قد توسعوا في موضوع النسبية العامة ، حين أكدوا أن كل ما يخضع للتجربة يدخل في نطاق هذا الموضوع ، يقول " بلانت " أن التجربة التي هي الفيصل في كل ما يتعلق بالعالم المادي وفحص جميع مظاهره تمثل موضوعات محددة يمكن أن يستدل منها على النسبية العامة [٤]، ومن ثم تبين أن أصحاب الفكر التجريبي يعتقدون بالنسبية العامة ، ويؤكدون أن جميع المظاهر التجريبية تدخل في موضوعها ، ويمكنها التعبير عنها بلغة علمية ٠

ويقرر الدكتور " زكي نجيب محمود " أن موضوع النسبية العامة يمتد فيشمل ظواهر الزمان والمكان ، حيث يؤكد أنه من الممكن عقلا ترتيب الحوادث على عدة صور

---

(١) فكرة قدم الحركة قال بها بعض فلاسفة اليونان الأقدمين ، ولكن الأبحاث الكلامية القديمة والحديثة بينت أن الحركة حادثة وليست قديمة قدما ذاتيا أبدا ، لأنها تحتاج إلى محرك ينقل صورتها من السكون إلى الحركة ، وتلك مسألة مهمة ٠

(٢) إثبات نسبية الزمان والمكان والحركة ممكن أن يقع لكل واحدة منها استقلالا ، وبالتالي فليست إحداهما مترتبة على الأخرى ، بحيث لا يعتد بها إلا إذا كانت على ذات الجهة ٠

(٣) دافيد فوكر : النسبية وجوانبها العملية ، صـ ١٧١ ، ترجمة عبد العاطي يسري ، مراجعة د. / عادل لطفي ، ط. أولى سنة ١٩٩٨ ٠

(٤) جورج ديفيد بلانت : النسبية وتطبيقاتها العملية ، صـ ١٤١، ترجمة هناء رشدي ، ط. أولى ، دار الجيل ، سنة ١٩٩٥ ٠

زمنية ، وعدة أنساق من الترتيب المكاني ، أما أي هذه الصور الزمانية والإنساقية والمكانية هو الذي يطابق الواقع فعلا ، فأمره موكول للتجربة وحدها [١]، ربما يقال أن الرجل هنا يتحدث عن ما به يتعلق صدق الواقع من الناحية المعرفية ، ولكن سياق المفردات اللغوية والموضوعات التي تناولها تؤكد انه قد وضع النسبية موضعا يسابق فيه غيره من أصحاب الفكر المادي •

جـ - مبادؤها

يعتقد الباحثون في النسبية العامة أن أهم المبادئ التي تقوم عليها ، هي :

١ - جملة القوانين الفيزيائية التي كان لها وجود فعلي في الماضي ، وإستطاع الباحثون الإستفادة منها عند التطبيق العملي في الوقت الحاضر [٢].

٢ - جملة القوانين الفيزيائية التي وضعت وتم الوقوف عليها حديثا ، بحيث تصير هذه القوانين الفيزيائية بمثابة المبادئ الأساسية من الناحية المعرفية [٣].

٣ - جملة القوانين الرياضية التي أمكن استعمالها بعد فصلها عن الوقائع العملية ، لأن هذه القوانين والمبادئ تمثل الصور التجريدية في أعلى مراتبها ، لما هو معروف من أن جميع العلوم الفيزيائية والفلكية تسعى لتكون في دقة المبادئ والقوانين الرياضية ، كما تحاول جاهدة أن تبلغ درجتها في التجريد[٤].

٤ - جملة المبادئ التي تم عزلها من جسيمات مادية تمثلت فيها بصورة تجريدية ، سواء أتم هذا التحقق العزلي بصفة دقيقة وعلى صورة أصلية ، أم لم يتم ذلك على وجه دقيق •

---

(١) الدكتور زكي نجيب محمود : نحو فلسفة علمية ، صـ ٣٥٩ ، ومحتوى هذا الكتاب قريب جدا من كتاب " خرافة الميتافيزيقا " وهو يتحدث في الأخير عن إنكار وجود غير ما هو مادي ، وتلك مشكلته التي عاني فيها الماديون معه •

(٢) إذ تصبح هذه القوانين بمثابة الضوء الكاشف ، والقرارات الثابتة لما يمكن ان يترتب عليه ، لأن العلم تراكمي يستفيد لاحقه من سابقه •

(٣) وهذه المبادئ الأساسية يمكن أن يدخل عليها تعديل تدريجي أو تجريدي ، عندما يراد تحويلها من جمل إلى أرقام ورموز ذات صيغة دلالية •

(٤) وقد تبنى هذا الإتجاه أصحاب الفكر المثالي لأنهم الذين يعملون على أن تكون هذه المسائل داخلة في نطاق المعقول أكثر من دخولها في دائرة المحسوس •

وقد كان لأينشتاين وزملائه جهد في هذا المضمار ، حيث أقاموا أبحاثهم في النسبية العامة على جملة الوقائع الفيزيائية ، وبخاصة منظومة الجسيمات المادية التي أمكن عزل بعضها عن بعض على وجه دقيق ، وكذلك الأخرى التي لم يتم عزلها في تلك الصورة ، بدليل ذهابهم إلىأن أشعة الضوء تنتشر بوجه عام في خطوط منحنية داخل المجال الجاذبي[١] ٠

وقد ترتب على ذلك إكتشاف فوارق دقيقة جدا في الجاذبية المتداولة أمكن تقديره والتعرف علي مقداره بنسبة الشعاع الذي يمر ملامسا للشمس أو صادرا عنها ، إذ يبلغ $\frac{١}{٧}$ ، وقد أمكن رصدها والتعرف على هذا الفارق الضئيل من خلال بعض النجوم الثابتة التي بدت لمن يرصدها من فوق الأرض على أنها قريبة أو مجاورة للشمس ٠

اضف إلى ماسبق ، أن النتائج التي توصل إليها الباحثون في هذا الميدان يمكن إعتبارها مبادئ جديدة تضاف إلى النسبية العامة ، بحيث يستفاد منها على الجوانب المختلفة٠

د - فوائدها

المعروف أن كل علم صحيح لا بد أن تكون له فوائد حيث يسعى المرء إليها ، وقد فطرت النفس الصحيحة ذات ال قوى السليمة على أن لا تبحث فيما لا فائدة منه[٢]،

وجاءت النصوص الشرعية حاثة ذوي العقول السليمة على أن يكون سعيها لما فيه مصالحها الدينية الدنيوية ، يدل عليه قوله تعالى ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [٣].

من ثم ، فإن فائدة بحث النسبية العامة يقوم في الوجوه التالية :

---

(١) الحديث عن أشعة الضوء وإنتشارها غير الحديث عن سرعة الضوء ، لما هو معروف من أن الأشعة الضوئية لها طابع مستقل عن سرعة الضوء ٠

(٢) وقد جاءت الشرائع الإلهية كلها تعلم الإنسان كيف يستفيد مما يعرف ، وكيف يسعى لتحصيل ما فيه من الفائدة وحذرته من إضاعة الوقت فيما لا فائدة فيه ٠

(٣) سورة القصص : الآية ٧٩ ٠

الأول : إكتشاف قوانين جديدة عامة من قوانين ومبادئ خاصة ، بحيث يكون هذا المكتشف الجديد له صبغة عمومية يمكن تطبيقها في كل العلوم التي تدخل تحت نطاق النسبية العامة (١) .

الثاني : توفير جهود الباحثين ، بحيث يمكن توظيف هذه الجهود فيما سيأتي لا فيما إنتهى الأمر من دراسته ، لأن كل إنسان إذا إبتدأ من حيث إبتدأ سابقوه فلن يتقدم العلم خطوة ، ولما كان العلم الإنساني يتم على الطريقة التراكمية ، فقد صارت فوائد النسبية العامة متعددة ، تفيد الدارسين ، وتوفر جهد الباحثين (٢).

الثالث : إمكانية توظيف القوانين ذات الصيغ العمومية في العلوم المختلفة ، وهذا من شأنه أن يحقق فوائد متعددة (٣).

الرابع :أن النسبية العامة أكثر نفعا وأعم فائدة من النسبية الخاصة ، وهذا من شأنه أن يجعل فوائد النسبية العامة متعددة إلى حد كبير .

الخامس : إنها تفتح الباب أمام دراسات عديدة يمكن ان تنهض لتؤدي خدمات بحثية متنوعة تفيد البحث العلمي ، وتنظم النتائج ، وتوفر جهود الباحثين .

السادس : أنها تؤلف بين القوانين القائمة في الفيزياء والفلك والرياضة ، ثم تحول هذه كلها حتى تصير قاعدة نسبية وليست فكرة مطلقة ، لأن الفكرة المطلقة لا تتناسب مع هذه الأفكار ، ومن ثم عُدت نظرية النسبية العامة بمثابة الجسر الذي يوصل بين المطلق والنظريات العلمية في مراحلها النهائية (٤).

---

(١) وتعتبر تلك الفائدة من أكثر الفوائد شيوعا ، وبخاصة عندما يتعلق الأمر بالأبحاث ذات الصبغة التجريبية .

(٢) والقاعدة المعمول بها هي أن العلوم الإنسانية يزاوج بعضها البعض الآخر ، فما استقر من قواعدها صار معمولا به ، ويتم التعامل معه على هذا الإتجاه دون مخالفة لقاعدة شرعية .

(٣) من أبرزها بيان أن العلوم بينها قاسم مشترك يمكن أن يشملها جميعا ويحقق لها أفضل المصالح.

(٤) فكرة المطلق المرادة هنا ليست هي التي يتحدث عنها أصحاب الفكر البراجماتي ، لأن المسافة بينهما كبيرة .

هـ ـ علاقتها بفلسفة العلم

يعتقد الكثيرون من الدراسين أن هناك علاقة من نوع خاص بين النسبية العامة وفلسفة العلم ، هذه العلاقة تمثل صورة وثانقية من حيث الموضوعات [١]، بإعتبار أن فلسفة العلم من موضوعاتها البحثية دراسة المجالات العلمية ، ومراجعة القوانين والمبادئ التي سبق القول بها ، ومن ثم تبدو العلاقة بين النسبية العامة وفلسفة العلم فيما يلي :

١ ـ اتفاق الموضوع : ذلك أن كلا من النظرية النسبية العامة ، وفلسفة العلم تضمها علاقة ترابطية في الموضوعات البحثية ، من حيث أن كلا منهما تهتم بهذا الجانب الموضوعي [٢]، ولا تخرج عنه ، إلا إذا افتقدت اسمها ، أو تنازلت عن أدق نعوتها ، أو كان هناك سقط لأبرز خصائصها ، وحينئذ لا تكون واحدة منهما ذات وجود •

٢ ـ إتفاق المجال البحثي : ذلك أن فلسفة العلم ترتبط بمراجعة نتائج القوانين ، والنظر المتواصل في النظريات القائمة ، وهو نفس الدور الذي تقوم به النسبية العامة ، وهذا من شأنه التأكيد على العلاقة المجالاتية بينهما ، مع الأخذ في الحسبان أن كلا منهما يمكن أن تكون أعم من الأخرى [٣]، إذا نظرنا إلى وجه بذاته ، ويمكن أن تكون أخص منها إذا تم النظر إلى الوجه الآخر ، فالعلاقة المجالاتية قاسم مشترك أيضا •

٣ ـ إتفاق المنهج : حيث أن نظرية النسيبة العامة تقوم بإحداث أنواع عديدة من التعديلات في النتائج التي تم الإنتهاء منها من خلال بيان أن هذه النتائج قد لا تفي بالمطلوب ، وهو ذاته الذي تقوم به فلسفة العلم ، لأنها عندما تراجع قوانين أو مبادئ ،

---

(١) الإتفاق بين فلسفة العلم والنسبية العامة ليس في ذات الموضوع ، وإنما في طريقة المعالجة الإحتوائية التي كانت تمثل في الماضي إشكالية بحثية ، أما اليوم فقد تغير الوضع وصار بالإمكان الوقوف على ما به التميز عن ما به الإشتراك •

(٢) هذا الجانب يمثل علاقة مشتركة في الأداء والمعالجة ، طبقا لما تقتضيه ظروف البحث العلمي في الوقت الراهن •

(٣) فكرة العموم والخصوص الوجهي هي التي يمكن أن ينظر إليها عند بحث العلاقة بين النسبية العامة وفلسفة العلم ، وهي واضحة بذاتها ، وتزداد وضوحا متى وضعنا في الحسبان • تغليب النظرية ، مع مراعاة نظرية الوجه في الفكر الإسلامي •

وتكشف عن أوجه القصور ، فإنها تسعى إلى علاجها على أفضل مايكون ، أو بأعلى ما يتاح، وهو من شأن الأبحاث العلمية [١].

٤ ـ إتفاق الإمكانيات : بإعتبار أن النسبية العامة تملك مراجعة النتائج التي أصدرتها النسبية الخاصة ، وما نشأ عنها من قوانين ، فإذا بان لها عدم وفائها بالمطلوب ، قامت بإحداث تعديلات نوعية تلتزم الصبغة الدقيقة ، بحيث تحقق مصالح مشتركة [٢]، وهو نفس ماتقوم به فلسفة العلم ، فالعلاقة قائمة في صورة تعديل أوجه القصور ، ومعالجة نواحي الخطأ ، ثم السعي لبناءات علمية جديدة ، مع إيجاد أنساق فكرية تكون ذات طبيعة متميزة •

٥ ـ إتفاق الغاية والهدف : حيث أن النسبية العامة تسعى إلى وضع قانون عام يمكن تطبيقه في المجالات الطبيعية ، والرياضية ، والفلكية ، وتهيء العقول إلى قبول ذلك [٣]، ونفس الدور تلعبة فلسفة العلم ، من حيث أن من مهامها الوظيفية تهيئة العقول لإستقبال وإستيعاب موضوعات بحثية ذات صبغة جماعية[٤] •

يقول " فوكاند " إن العلاقة بين النسبية العامة وفلسفة العلم تتعدد أوجه المجيء عليها ، أبرزها الترابط ، وإبراز نتائج جديدة ، مع التركيز على الثالوث العلمي ، وأعني به مراجعة النتائج القائمة ، وبيان أوجه القصور في الأداء الوظيفي ، وتهيئة العقول لإستقبال موضوعات جديدة ذات صبغة جماعية [٥].

وقد حرص " فوكر " هو الآخر ، على التأكيد بأن علاقة النسبية العامة بفلسفة العلم تجاوزت حدود التجاور العلمي ، حيث يقول إن فلسفة العلم لها إستقلال ذاتي

---

(١) يمكن إعتبار هذا الوجه من وظائف فلسفة العلم ، وطبيعة نظرية النسبية العامة ، بحيث يستفاد من الشيء الواحد على الوجوه المتعددة •

(٢) فكرة المصالح المشتركة من صفات العلم الذي يقوم على أسس صحيحة ، ويهدف إلى الوصول لنتائج متكاملة ، أو على الأقل نتائج ذات صفة ثابتة •

(٣) وهذا واضح من كون موضوعاتها تشمل الجاذبية الفيزيائية وكذلك الفلك ، بجانب الحركة والزمان والمكان ، ونفس الشيء تقوم به فلسفة العلم •

(٤) فكرة الجماعية سمة مشتركة بين أغلب العلوم المعيارية ، لكنها في النسبية العامة ضرورة بحثية ، زليس من الصواب التخلي عنها •

(٥) فوكاند : النسبية والعلوم الفيزيائية ، صـ ٤٨ / ٤٩ ، ترجمة هاني فخري ، سنة ١٩٨٤ •

والنسبية العامة تأتي على هذا الإستقلال الذاتي فتوجه مايمكن لها توجبهه ،وتغير ما يمكنها تغييره ، وفي النهاية يتلاقيان على كلمة سواء[١] ، وبهذا يتأكد وجود صور عديدة وعلاقة قائمة بين النسبية العامة وفلسفة العلم ٠

وكان " أينشتاين " يقرر على الرغم من أنه ليس هناك وسيلة للحصول على كل المجالات المتعلقة بالجاذبية بهذا الشكل ، فإنه يجب علينا أن نتمسك بأمل يجري في عقولنا وهو أستخلاص قانون الجذب العام من مثل مجال الجاذبية ، وقد تحقق هذا الإستخلاص على أكمل وجه [٢].

أضف إلى ما سبق أن فحص العلاقة بينهما قد تستخدم مساحات أوسع من التفكير الهادف ، ويغطي الأكثر من الجوانب ، ثم يفرض ذاته على قدرات المفكر ، ولكن ما تم ذكره قد يغني عن التفصيلات ، أو يفتح الباب لدراسات أوسع ٠

والذي أنتهىإليه أن النسبية العامة ترتبط مع فلسفة بعلاقات تبادلية يمكن أن يستدل عليها بقول " جان فال " أن المعرفة الإنسانية من صنع الإنسان ، ويمكن أن يوظفها حيثما أمكنه ذلك التوظيف ، وعلى الناحية التي تتحقق معها الفوائد الكثيرة [٣].

وقد يستفاد ذلك كله من إشارة الدكتور " غلاب " التي يؤكد فيها أن قوانين العقل نسبية وموضوعية ، وهي المبادئ التي بفضلها صارت التجربة ممكنة ، وهي في ذات الوقت قوانين جميع الأفكار ، ولها قيمة عامة ، ومن هذه الوجهة كان العلم الذي تسمح به حقيقيا ، لأن الحقيقة لا يمكن أن تكون مجرد اتفاق المعرفة مع الأشياء التي لا تدرك في ذاتها ، وإنما هي أتفاق المعرفة مع القوانين العامة للعقل السليم [٤].

---

(١) جورج فوكر / الفلسفة الحديثة والتقنية العلمية ، صـ ٨٨ ، ترجمة حنان رشدي ، مراجعة زكريا صالح ، ط. دار الجيل سنة ١٩٨٧ ٠

(٢) البرت اينشتاين : نظرية النسبية ، صـ ١٢٩ ٠

(٣) جان فال : طريق الفيلسوف ، صـ ٢٦٦ ، ترجمة أحمد حمدي محمود ، ط. مؤسسة كل العرب سنة ١٩٦٧ ٠

(٤) الدكتور محمد غلاب : المعرفة عند مفكري المسلمين ، صـ ٤٨ ، نقلا عن الدكتور أحمد السيد رمضان : النسبية وتطبيقاتها صـ ٥٠ ، الطبعة الأولى ١٤٢٠ / ١٩٩٩ ، مكتبة الإيمان بالمنصورة ٠

وفي تقديري أن إعادة النظر في العلاقة بين فلسفة العلم والنسبية العامة ، يمثل صورة من صور البحث العلمي التي تفرض على الباحث مراجعة ما توصل إليه العلم والإستفادة منه في حدود مايرضي الله عز وجل [١]، أما لماذا ؟ فلأن الإنسان قد خلقه الله وحده ، وبالتالي فيجب أن يكون أمره في طاعة مولاه •

وفي نفس الوقت فإن هذا الإنسان مزود بملكات خلقها له مولاه ، فيجب عليه أن يوظفها فيما يرضيه جل علاه [٢]، وإلا كان عاصيا له ، كافرا به ، أضف إلى ما سبق أنه في النهاية سيعرض على الله ، وموقف العاقل أن ينظر إلى ماضيه بالعبرة ، وإلى ما هو مقبل عليه بأدق فكرة ، ومادام اللقاء الحتمي سيكون أمام الله فيجب عليه أن يمهد لهذا اللقاء بما يحقق رضاه جل علاه •

يدل عليه قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [٣].

النوع الثاني : النسبية الخاصة

سلف الحديث عن النسبية العامة على النحو الذي مر ذكره ، ويجيء الحديث هنا عن النسبية الخاصة التي هي إحدى النظريات العلمية التي تم القول بها في مجال القوانين الفيزيائية وأستقلالها عن كل من الحركة والمكان والزمان ، أو على الأقل حصول نفس نوع الإستقلال لها عن الحركة المشاهدة في العالم الطبيعي ، ولما كانت هذه النسبية الخاصة لا بد من تناولها حتى تكتمل الفكرة حول النسبية الطبيعية بوجه عام - النسبية العامة والخاصة - فقد بات من الضروري تناول الجزئيات التالية المتعلقة بالنسبية الخاصة :

---

(١) اعتقادي الديني يقوم على أن الأبحاث العلمية يجب أن تكون في خدمة ما يرضي الله ، فإذا خرجت عن هذا الإطار في الأسباب، أو الوسائل والغايات ، فإنها لا تعتبر علما بقدر ما تمثل خروجا على ما شرع الله تعالى •

(٢) فكرة الآلات والملكات هي مما عني به الدين الإسلامي في كثير من النصوص التي بينت قيمة كل منها وأهميتها بالنسبة للفرد والجماعة ، ومسئولية الإنسان عنها ، راجع كتابنا التفكير الإنساني أصوله ومستوياته ، صـ ١٧٩ •

(٣) سورة الإنعام : الآية ٩٤ •

أ ـ تعريفها

عرفت النسبية الخاصة بعدة تعريفات كل منها يمثل صورة خاصة قائمة في ذهن صاحبه ، من أبرزها ما يلي :

١ ـ أنها قاعدة معرفية كاشفه عن استقلال بعض القوانين الطبيعية عن الحركة الكائنة في الكون المادي ، وصياغتها ،وضبط قوانينها من خلال الحركة المنتظمة وحدها [١]، وهي بهذا المفهوم تعبر عن صورة استقلالية ، حيث أنها تفصل بين الموضوع المطروح على ناحية من النواحي ، كما إنها لا تشمل الحركة والزمان والمكان والجاذبية ، وإنما تخص واحدا منها •

٢ ـ أنها صياغة قوانين الطبيعة المستقلة عن الحركة المشاهدة ، بإعتبار أن أبسط أنواع الحركة المعروفة ، هو الحركة المنتظمة لا الحركة غير المنتظمة[٢]، ومن ثم فقد أفرز هذا التعريف صورا ضونية لما يمكن أن تتلاقى عنده أنواع الحركات من البسيط والمركب ، والمنتظم وغير المنتظم ، وذلك من شأنه أن يفصل الموضوع المطروح من حيث المفهوم ، عن موضوع آخر من ذات الجانب •

ويذهب " فريد مان " إلى أن النسبية الخاصة هي مالة علاقة استقلالية بقوانين الفيزياء وحدها ، بعيدا عن قوانين كل من الفلك والعلوم النظرية ، ثم إعادة صياغة هذه القوانين على أنها نظام محدد تعبر عنه الحركة المنتظمة [٣]، ويبدو من هذا التعريف أنه قد يتفق مع صياغة أينشتاين من مبدأ الحركة نفسه القائل إذا كانت م، مجموعة اسناد تتحرك بحركة منتظمةخالية من الدوران بالنسبة إلى م ، فإن كل الظواهر الطبيعية بالنسبة إلى م، تخضع لنفس القوانين الطبيعية العامة التي تخضع لها في م [٤].

---

(١) جورج نورمان : النظريات العلمية والصبغة السياسية ، صـ ٥٤ ، ٥٥، ترجمة هاني فوزي ، ط. أولى سنة ١٩٩٨ •

(٢) البرت فودكان : النسبية والقوانين الطبيعية ، صـ ٤٤ ، ترجمة ناهد رشدي ، ط. دار الجيل سنة ١٩٩١ •

(٣) ادوارد فريدمان : النسبية الخاصة ، صـ ٥٨ ، ترجمة رشدي فاخر، دار النهر سنة ١٩٨٣ •

(٤) البرت أينشتاين : نظرية النسبية ، صـ ٢٩ ، ترجمة رمسيس شحاته ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مكتبة الأميرة سنة ٢٠٠٠ •

والواضح أن هذا المبدأ تبدو فيه الحركة المنتظمة داخل إطار ، خط مستقيم ، وبسرعة ثابتة ، بحيث تتم عملية الإسناد القائمة في المجموعة الأولى م' في صورة أطرادية [١]، بما يؤكد أن الظواهر الطبيعية يجب أن تكون هي الأخرى خاضعة لنفس القوانين ، أما لماذا ؟ فلما هو معروف من وجود علاقة قائمة بين الظاهرة الطبيعية أو القانون الطبيعي ، حيث أن القانون الطبيعي إنما هو مستخلص من الطبيعة ذاتها ، أو قائم كحكم عليها ، كما أن هذا القانون الطبيعي ينظم العلاقة بين الظواهر الطبيعية ،وكيفية التعامل معها ، وذلك من شأنه تقديم فوائد بحثية لمن يعملون في هذا المجال •

كذلك عرفت بأنها ما يتعلق بالقوانين الطبيعية ، المطبقة في جزئيات بحثية ، تتحرك بحركات منتظمة لا تبرح مجالاتها إلى غيره ، ومن هنا أطلقوا عليها اسم النسبية الخاصة ، أو النسبية المقيدة[٢]•

ب ـ موضوعها

يتسم موضوع نظرية النسبية الخاصة بكونه قائما في نطاق الفيزياء التي تعني بالظواهر الطبيعية ، ويمكن التعرف عليها بمساعدة قوانين الميكانيكا التقليدية ، ذات البعد الكلاسيكي[٣]، لما هو معروف من أن الظواهر الطبيعية لا يمكن الوقوف عليها منفردة وإنما لا بد لها من جملة قوانين سبقية ، تكون بمثابة الأساس الذي يمهد لها •

في نفس الوقت ، فإن موضوع نظرية النسبية الخاصة قد يشمل الظواهر الطبيعية من حيث التناول الدراسي ، بجانب التفسير العلمي لأسباب وقوعها ، ولو من الناحية النظرية المجردة ، يقرر " كراوس " أن موضوع النظرية النسبية الخاصة يشمل الظواهر

---

(١) فكرة الإطراد داخل القوانين العلمية دفعت بعض المفكرين إلى اعتبارها قائمة على النسبية العقلية التي لا يمكن تخلفها ، ومن ثم فهي تفصل دائما دون حاجة إلى عالم قادر حكيم تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا •

(٢) راجع في هذا الشأن كتابنا : الحثيث في المنطق الحديث ، لمعرفة هذا الإطلاق والدوافع التي أدت إليه ، والنتائج المترتبة عليه •

(٣) الميكانيكا علم عام يقوم أصله على علمين هما الديناميكا والإستاتيكا ، والمعنى العام هو أن الميكانيكا هو علم الحركة المنتظمة -

الطبيعية ككل والتفسير النظري لها حتى تأتي التجربة العملية لتكون هي صاحبة الفصل في المسألة ، بحيث يصدق الواقع او يكذب [١].

وإذا كان " جاليليو " قد حدد موضوع النسبية الخاصة ، من خلال مجموعات إسناد م، م، م، ، التي تتحرك بسرعة منتظمة بالنسبة لبعضها البعض ، ثم إنتهي إلى عدم ملائمة ذلك لوصف الظواهر الطبيعية ، فإنه قد توسع في موضوع النسبية الخاصة ، وذلك مما يحسب له كمفكر في مجال البحث ، ثم تتم محاسبته عليه[٢].

ويؤكد هذه الفكرة " البرت أينشتاين " حيث يقرر أن جاليليو بعد أن حدد موضوع النسبية الخاصة من خلال مجموعات الإسناد الثلاثية ، فإنه بين أنها تتحرك بسرعة منتظمة بالنسبة لبعضها البعض ، ثم أنتهى إلى عدم ملائمة ذلك لوصف الظواهر الطبيعية [٣]، ومن ثم وسع في موضوع النسبية الخاصة ، بحيث يتناول مجموعات السكون المطلق ، والحركة المنتظمة ، ثم استخرج قوانينه التي تمكن منها بحيث تفسر النسبية الخاصة ، أو النسبية بالمعنى المقيد [٤].

ويبدو لي أن موضوع النسبية الخاصة لم يقتصر على مجرد الظواهر الطبيعية و التي يمكن التعرف عليها بمساعدة قوانين الميكانيكا التقليدية ، وإنما إمتد ليشمل كلا من الفضاء ، بجانب الزمان الفلكي ، وحركة الراصد ، أو المتناول لهما ، فكان ذلك هو المادة العلمية التي تشكل موضوع النسبية الخاصة منها جميعا ، على الناحية المعرفية لا على الناحية العلمية أو التجريبية ، أو الفلسفية [٥]، أما لماذا ؟

---

(١) جورج كراوس: الزمن الفيزياني والتطورات العلمية ، صـ ٤٥ - ٤٦ ، ترجمة ناصر زكريا ، دار النهر سنة ١٩٩٥ .

(٢) أنطوان جيفر : البحث العلمي مسائلة ومشاكله ، صـ ١١٢ – ١١٣ ، ترجمة السيد الطويل ، ط. دار الجيل ، سنة ١٩٩٣ .

(٣) وصف الظواهر الطبيعية كاشف عن عدم الإنتظام ، لأن كل ظاهرة لها ظروف خاصة ، وحركة لها حدود ، وقد تتم بالنسبية من حيث أنها ظاهرة خاصة .

(٤) البرت أينشتاين : النظرية النسبية ، صـ ٥٩ - ٦١ .

(٥) هذا الإتجاه يدعم فكرة تطور موضوع النسبية الخاصة على الجانب الطبيعي ، لكنه لا يقدم دليلا على دخولها الفلسفة أو الرياضة ، وبالتالي فهو توسع غير شامل أو غير كاف .

فلأن لفظ الفضاء إنما هو مفرد لغوي ، وكذلك الزمان ، والمكان ، إلاأنها جميعا ذات مفاهيم غير محددة ، لا من ناحية اللغة ، ولا من ناحية الإستعمال [١]، بدليل أن لفظ الفضاء توجد له في اللغة معان كثيرة متنوعة ، وكذلك الحال مع لفظ الزمان ، ومع هذا فإن كل واحد منها يصلح أن يتعلق بالنسبية بالمعنى الخاص لا المعنى العام ، لأن الزمان لدى البعض هو عبارة عن موهوم يتحدد به حصول معلوم [٢]، وعند البعض الآخر هو مقدار المحدد لحركة الفلك ، وعند غيرهم هو عرض من الأعراض كالحال لدى المتكلمين ، أو جوهر جسمي غير مادي كما هو رأي عام عند الفلاسفة [٣].

والذي أنتهي إليه ، هو أن موضوع نظرية النسبية الخاصة إذا ضاق إلى حد الإقتصار على بحث الظواهر الفيزيائية وحدها ، أمكن تسمية هذه النظرية بذات الموضوع الذي وقفت بأبحاثها عنده •

أما إذا إتسع موضوعها ، فتناول الفضاء والزمان والفيزياء ، أمكن أن يسمى بالنسبية الخاصة ، نظرا لكون الموضوع الذي تبحثه صار مقيدا[٤]، وإينما تم بحث هذا الجانب ، فقد صار الحكم ملزما له ، ومن ثم يمكن القول بأن موضوع النسبية الخاصة يتسم بالمرونه ، ويمكن التعامل معه على الوجوه المختلفة من الناحية الدراسية •

جـ - طبيعتها

تعتبر النسبية الخاصة ذات طبيعة محددة ، نظرا لإنحصار مفهومها وموضوعها ، بجانب المجال الذي تؤدي فيه دورها ، وهذا من شأنه التأكيد على أن الباحث مهما كان حرا في إختيار مادة بحثة ، أو الموضوع الذي يبحثه ، أو الجزئية التي يتناولها ، إلا أنه محكوم

---

(١) كثرة المعاني اللغوية لأى لفظ ظاهرة من الظواهر القائمة في اللغة وتجيء على نواح عديدة ، يمكن الوقوف عليها بالنسبة لمن يطالع أي مصدر أو معجم لغوي •

(٢) فكرة المعلوم والموهوم من إصطلاحات الفلاسفة ، وقد جاراهم في كثير منها المتكلمون ، راجع شرح المواقف عند الكلام عن الزمان والخلاف بين الطرفين في المسألة •

(٣) راجع لابن سينا ، تسع رسائل في الحكمة والطبيعيات ، صـ ٩٨ •

(٤) تحديد موضوع بذاته يدفع إلى أن تتم التسمية به ، ولكن إذا تشعب ،فإن المسألة تختلف إلى حد كبير •

بقاعدة عامة تكمن في طبيعة الجزء المبحوث [١]، بدليل أن النسبية الخاصة لم تكن عكس النسبية العامة ، وإنما هي جزء من أجزائها ، ثم أنها خاصة بموضوع دراسي ، ومقيدة بوصف دقيق ، وفوق ذلك فهي إطارية البحث المتمحور بها [٢]، وحيثما كانت فإن هذا الدور هو الذي تلعبه ، ولذلك يمكن إعتبارها ذات طبيعة مقيدة خاصة لإعتبارات متعددة منها :

الأول : إعتبار التسمية، وهو كونها نسبية خاصة ، بحيث تقابلها النسبية العامة ، من باب مقابلة الجزء بالكل ، الذي يدخل في إطاره ويتطوي بداخله العموم والخصوص •

الثاني : الموضوع الذي تتناوله وهو الحركة المشاهدة في الطبيعة على صورة منتظمة ، وبالتالي فلو كانت هذه الحركة غير منتظمة ، بأن كانت ترددية مثلا[٣]، او إنعكاسية ، فإنها لا تدخل في نطاق النسبية الخاصة •

الثالث : أن ارتباط هذه النظرية النسبية الخاصة بالجاذبية أو الزمان أو المكان ، إنما هو ارتباط بإعتبار الملاحظ ذاته ، لا بإعتبار الدراسة [٤]، وهذا من شأنه ، وجود علاقة صورية غير حدية ، لكنها قد تأخذ طابع التلازم ، عندما يراد بحث العلاقة بين الموضوع المعرفي والذات العارفة •

الرابع : أن الدراسات التي قامت عليها النسبية الخاصة تقرر أن الزمان والمكان نسبيان ، بإعتبار حركة الملاحظ نفسه ، وأن قوانين الطبيعة لا تختلف بإختلاف الذين يلاحظون ظواهرها ، وإنما تختلف بإختلاف الآلات التي يستخدمونها [٥]، والنتائج التي يصلون إليها ، وهو إختلاف لا يلحق النظرية بقدر مايلحق الدارسين أنفسهم •

---

(١) فكرة تجزئة الموضوع البحثي إلى أجزاء عديدة من الناحية الدراسية هي التي تتبناها المدارس الحديثة ، وقد أشارت إليها في الماضي الدراسات الإسلامية العديدة ، راجع كتابنا : خواطر حثيثة في الفلسفة الحديثة ، صـ ٣١٥ / ٣١٩ •

(٢) فكرة إطارية البحث المتمحور من الأفكار الإنشطارية التي تمثل إشكاليات بحثية في الوقت الراهن ، ويعزو أصحاب المناهج البحث فيها إلى المستجدات العصرية ، وإن كانت كمفهوم علمي لم يتم الإتفاق بشأنها ، ولا بشأن الأبحاث الإنشطارية ذاتها•

(٣) الحركة الترددية تمثل إتجاها فيزيائيا معرفيا ، لكن دراستها لا تدخل في نطاق النسبية الخاصة لأنها ضبطت على أساس التعامل مع الحركة المنتظمة في إتجاه واحد •

(٤) النظر إلى الملاحظ للحركة ، إنما هو للدارس لا للمدروس ، وهو إتجاه قد يتفق عليه البعض في العلوم التجريبية الحديثة ، وقد يختلفون ، ولكل وجهة •

(٥) وكلما كانت الآلات أكثر دقة ، فإن النتائج المترتبة عليها تكون كذلك ، وهو أمر ثابت •

وفي تقديري ، أن طبيعة النسبية الخاصة تختلف عن طبيعة النسبية العامة إختلافا كبيرا ، وأن هذه النسبية الخاصة مهما يكن شأنها ، فإنها تتعلق بالقوانين الطبيعية المطبقة في حدود الحركات المنتظمة لا في غيرها ، وهي في كل الحالات من صنع الإنسان ، بإعتبار المفاهيم التي وضعت لها ، والمهام أو الوظائف التي تقوم بها ، وهذا من شأنه التأكيد على ذات أن الوصول إلى القوانين ،إنما هو من توفيقات الله تعالى •

د ـ مبادئ النسبية الخاصة

إذا كانت كلمة المبادي لدى المناطقة تعني المقدمات [1]، إلا أنها ها هنا يقصد بها القواعد التي تم الإتفاق بين الباحثين على أنها تصلح لتناول النسبية الخاصة من خلالها ،وأبرز هذه المبادئ ما يلي :

١ ـ **المبدأ الأول** : ضرورة إستقلال القوانين الطبيعية عن الحركة المشاهدة في الكون ذاته ، لأن القانون يمثل صورة الضابطة الكلية التي يمكن تطبيقها فيما بعد على جميع الظواهر المماثلة •

٢ ـ **المبدأ الثاني** : صياغة هذه القوانين على أساس أن الحركة المنتظمة هي أبسط أنواع الحركة ، نظرا لكون الحركة متعددة ، ومتنوعة إلى حد كبير •

٣ ـ **المبدأ الثالث** : ضرورة استمرار الحركة المنتظمة في وضعها الطبيعي وبحيث لا تختلف هذه المبادئ بإعتبار العوارض من الزمان والمكان •

٤ ـ **المبدأ الرابع** :ضرورة مراعاة آلات الرصد، وطبيعة الملاحظ أو الراصد نفسه، لأن ذلك من شأنه توفير أكبر قدر من الأمان للبحث العلمي ، في مقدماته وحصر موضوعاته بجانب الوصول إلى نتائج صحيحة •

٥ ـ **المبدأ الخامس** : ضرورة ان تكون هناك علاقة بين قوانين الطبيعة الثابتة ، وبين أولئك الباحثين الذين يتابعون ظواهرها ، وأن يتحركوا مع بعضهم بنسبة واحدة ، تمثل حركة إنتقالية ذات صيغة معينة •

---

(١) المناطقة يطلقون عليها اسم المبادي ، ويقصدون أوائل العلم الذي يدرس ، ثم تأتي الأواسط التي تمثل الموضوع ، وفي النهاية تجيء الخواتم •

وفي جملة هذه المبادئ ، ظهرت النسبية الخاصة ، بحيث تكون متميزة عن النسبية العامة داخل إطار الحث في العلوم الطبيعية على وجه الخصوص •

هـ - فوائدها

من الواضح أن نظرية النسبية الخاصة تقدم فوائد عديدة من أبرزها :

١ - أنها تيسر عملية البحث العلمي ، لأن الباحث إذا ركز جهده على ظاهرة من الظواهر ، قدم فيها نتائج طيبة [١]، أما إذا تشعب فيبحثه ، وتناول ظواهر عديدة ، فربما تسرب إليه اليأس ، أو تسلل الشك ، أو انفلتت منه النتائج •

٢ - أنها توفر الجهد العملي ، لما هو معروف من أن الباحث العملي متى إنتهى إلى النتائج السليمة صارت بمثابة القوانين التي يمكن أن تطبق لديه ولدي غيره ، لأن العلم يأخذ الصبغة العلمية العامة ، مادامت قواعده صحيحة ، ونتائجه سليمة ، وهذا يحقق طفرة علمية[٢]، بجانب وفرة في القوانين ، والمبادئ ، بحيث يمكن الإستفادة منها على الوجوه المختلفة •

٣ - أنها تفتح الباب لبحث موضوعات سبق الإنتهاءمنها ، فهي بمثابة الأستقراء الناقص[٣]، الذي يفيد في تقدم العلوم ، ويدفع الباحثين لإجتياز عقبات الطريق، بل أنهم يستوعبون هذه وتلك في أوقات قصيرة ، ومن خلال ثقة متزايدة •

٤ - أنها كشفت عن ناحية معرفية تتشكل في نطاقها موضوعات بحثية ، وهذا في حد ذاته يقدم العديد من الخدمات العلمية في المجالات المختلفة •

٥ - أن النسبية الخاصة حولت الباحث التقليدي من صوره المعروفة إلى نوع

---

(١) ولذلك تفرعت عن العلوم الأساسية علوم أخرى صارت تبعية ، ثم حدث استقلال لها هي الآخرى ، وهو ما يمثل تقدما في المعارف الإنسانية ويساهم في إستقلال كثير من العلوم الفرعية ، ويعطيها صبغه معينة •

(٢) وهذا مما تؤكده المناهج المقارنة التي تعني بمتابعة الحركات الإنفصالية داخل العلوم الأساسية، فعلم الرياضة مثلا صارت فيه علوم الحساب والجبر والهندسة والتفاضل والتكامل وحساب المثلثات ، وصار لكل منها اسم خاص وإستقلال تام •

(٣) لمعرفة ما يتعلق بالإستقراء الناقص والتام ، راجع كتابنا : الحثيث في المنطق الحديث •

آخر تتسم تتانجه بالشك المنهجي بغرض بلوغ الحقيقة[١]، لما هو معروف من أن الحكمة ضالة المؤمن ينشدها أنى يجدها ،لا يبالي من أين جاءت ، المهم أن يبلغ الحقيقة ، لأنه إذا بلغها تحققت له فوائد عديدة ، وقد أعتبر أهل العرفان الوصول إلى الحقيقة في كل ما يمكن للإنسان أن يوصل به إلي معرفة حقيقة الحقائق والإستدلال عليه ، وهو الله سبحانه وتعالى •

و ـ علاقتها بفلسفة العلم

إذا اقتصر الباحث على عرض فكرة ، أو جملة من الأفكار ، ولم يقدم لها ، مع العلوم الأخرى ، علاقة على أية ناحية من هذه المسائل التي تناولها ، فإنه يكون قد أنقص من قدر البحث العلمي [٢]، ومن ثم سأحاول التركيز على علاقة نظرية النسبية الخاصة بفلسفة العلم ، إذ هي تجيء في وجوه عديدة من أبرزها :

١ ـ أن النسبية الخاصة جزء من العلم ، بالمعنى العام ، وفلسفة العلم إنما هي فلسفة بالمعنى الأعم بإعتبارها فلسفة ، والأخص وهو النسبية الخاصة ، حيث يدخل في الأعم ، وهو فلسفة العلم [٣]، ومن ثم يترتب على القول بعموم فلسفة العلم القول بخصوص النسبية ، فتكون النظرية النسبية الخاصة داخلة في نطاق فلسفة العلم على أي نحو من الإنحاء ، أو وجه من الوجوه •

٢ ـ أن النسبية الخاصة تقوم على الحركة القائمة في الطبيعة ، والقوانين التي تضبط هذه الحركة المنتظمة ، بجانب الباحث الذي يكون بمثابة الصيرفي الذي ينتقي ما يلقى إليه ويقومه بحيث يكون صوابه صائبا ، أما خطؤه فإنه يكون فاسدا •

---

(١) الشك المنهجي يفيد في تقدم العلوم ، وتحصيل معارف يقينية ، وقد أشارت إليه بعض آيات القرآن الكريم في مثل قوله تعالى ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ سورة الأنبياء٢٢ •

(٢) لأن العلم الإنساني تتجاور أجزاؤه من كل ناحية ، ولذا ، فما من جزئية إلا ولها علاقة أكيدة بالنسبة لغيرها ، أنه كالجسم الواحد تتعدد أجزاؤه •

(٣) علاقة العموم والخصوص لها صور عديدة ، وتجيء في إتجاهات كثيرة ، ومن ثم فيمكن ضبطها في سهولة ويسر

٣ - أن فلسفة العلم ترتبط بالنسبية الخاصة بإعتبارهما يمثلان العلم على ناحية عامة ، أو ناحية خاصة ، بحيث ينتهي القول بدخول النسبية الخاصة بين جنبات فلسفة العلم ، على أساس أن فلسفة العلم أعم والنسبية الخاصة أخص ، فبينهما عموم وخصوص مطلق من هذه الناحية وحدها [١]،

٤ - أن النسبية الخاصة هي المقدمة، واللبنة الأولى التي تقوم عليها النسبية العامة ، وفلسفة العلم هي التي تسعى لتقديم صورة جديدة تحت مسميات عديدة يمكن الوقوف عليها من جملة القوانين التي سبق التعامل معها [٢]،وهذا يؤكد وجود قاسم مشترك بين النسبية الخاصة وفلسفة العلم ، من حيث أن كلا منهما تمهد لمرحلة أعلى ، أو تمكن لبروز جملة من القوانين التي يمكن أن تطبق في العديد من العلوم وتفيد بالنسبة لكثير من المعارف •

٥ - أن النسبية الخاصة يمكن أن تحدث نوعا من تطوير المناهج العلمية [٣]، بحيث تتم علمية التطور في صورة لاحقة ، وقد عبر عن ذلك " رينر " حيث يقول أن النسبية الخاصة قد كشفت عن القوانين الطبيعية العامة ،وأفادت في التطور العلمي [٤]، وكذلك فلسفة العلم ، قدمت هي الأخرى جملة من القوانين الطبيعية ذات الصبغة العامة ، وأفادت العلم على صورة التطور والإستنتاج معا •

٦ - انها قدمت صورا إيجابية في مجال معالجة بعض النظريات ، كالحال مع نظرية ماكسويل لورنتز ، حيث جعلتها مرضية بشكل دفع علماء الفيزياء المحدثين

---

(١) هذا الوجه غير الأول تماما ولأن الأول روعي فيه الأعم والأخص ، بينما هذا الوجه روعي فيه تمثيل العلم من خلال الإتجاه الفلسفي ، وبالتالي فالجهة فيهما ليست واحدة لمن يتأملها •

(٢) لمعرفة ذلك على وجه تفصيلي ، راجع كتابنا : قراءة في العقيدة وفلسفةالعلم ، صـ ١٩٧ ، الطبعة الأولى •

(٣) راجع كتابنا : مناهج البحث بين التقليد والتجديد ، صـ ٢١٩ ، حيث ذكرت الوسائل التي تقوم عليها عمليات التطوير في المناهج والوسائل بجانب الغايات ، وهذا مما يعني به الدارسون قديما • في الفكر الإسلامي ، وحديثا في الفكر المعاصر •

(٤) دوكنز رينز : النسبية الخاصة والتطورات العلمية ، صـ ٨١ ، ترجمة رشدي عبد العظيم ، ط. أولى سنة ١٩٨١

ليكونوا على استعداد لقبولها ، ولو لم تكن جميع التجارب قد وفقت في وصفها ، وأيدتها تأييد كاملا[١].

ونفس الحال مع فلسفة العلم ، لأنها كثيرا ما تعالج أوجه القصور في المسائل المطروحة ، وتفترق فلسفة العلم عن النسبية الخاصة بأن فلسفة العلم غير معيارية فيما يتعلق بالموضوعات والنتائج[٢]، لأنها تمتد وتغطي كل ما يمكن الوقوف عليه ، وهذا من طبيعة مجالاتها التي سبق أن أشرت إليها ٠

وفي تقديري أن العلاقة بين النسبية الخاصة وفلسفة العلم يمكن تناولها من جوانب كثيرة غير التي سلف الحديث عنها ، إذ المشهور أن العلم لا يعرف الكلمة الأخيرة[٣]، وما يقرره فرد قد يقرر غيرؤه آخرون ، وهكذا تستمر المسألة ، لأن العلم كلما أمعن المرء بحث قضاياه أمكنه تقديم وجهات نظر جديدة ، ولا يختلف في ذلك صاحب تفكير عقلي مستقيم ٠

ثالثا : موقفنا من النسبية الطبيعية

من الواضح أن النسبية الطبيعية مجالها في الطبيعة والعلوم التي تتعلق بها ، وهذا من شأنه أن يدفع الباحث المسلم إلى بيان موقف الدين الإسلامي منها ، وهو ما يمكن التعرض له على النحو التالي :

١ ـ تحدثت بعض ظواهر الآيات القرآنية عن النسبية الطبيعية في صورها المختلفة وقدمت لذلك إشارات اعتبرها الكثيرون من مفكري المسلمين مفاتيح للبحث العلمي ، حيث جاءت مقدمة الأسباب والمسببات موضحة ما يمكن النظر فيه حول طبيعة العلاقة بينهما موكدة على أن الفاعل الحقيقي واحد ، هو الله تعالى ٠

إذ جاءت الإشارة إلى الجاذبية في قوله تعالى ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ

---

(١) البرت أينشتاين : نظرية النسبية ، صـ ٩٢ - ٩٣ ٠

(٢) المراد بعدم المعيارية هو وقوف هذه الجوانب عند دائرة تتسع أحيانا ، وقد تضيق ، وهذا مما يفقدها المعيارية بالمعنى الذي أقصده ، ويجري في العلوم الطبيعية ٠

(٣) هذه القاعدة عامة يكررها أهل الإختصاص ، وكل منهم يقوم بإقرارها والتأكيد عليها ٠

مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْـــرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ (١) .

قال العلامة الفخر الرازي قد دللنا على أن هذه الأجسام إنما بقيت واقفة في الجو العالي بقدرة الله تعالى ، وحينئذ يكون عمادها هو قدرة الله تعالى ، فنتج أن يقال أنه رفع السماء بغير عمد ترونها ، أي لها عمد في الحقيقة إلا أن تلك العمد هي قدرة الله تعالى ، وحفظه وتدبيره ، وإلقاؤه إياها في الجو العالي ، وإنهم لا يرون ذلك التدبير ، ولا يعرفون كيفية ذلك الإمساك (٢) .

والواضح ان الذي رفع السماوات ، كما خلقها أولا ، إنما هو الله تعالى ، وقد رفعها عن الأرض بالمسافة التي يعلمها جل شأنه ، غيرأنه تعالى بين أنها مرفوعة على عمد مخلوقة لله ، ثم أكد أن هذه العمد غير مرئية بالنسبة للبشر ، فالمنفى هو رؤية العمد وليس وجود العمد ، يدل عليه أن كلمة " عمد " جاءت هنا نكرة ، وبعدها جملة ترونها ، والمعروف أن الجمل بعد النكرات صفات ، فيكون تأويلها الله الذي رفع السماوات بغير عمد مرئية ، وهذه العمد غير المرئية هى الجاذبية بمفهومها لدى القائلين بها (٣) .

كما أن آيات القرآن الكريم قد أكدت على أن الجاذبية إنما هي من أفعال الله تعالى، وقائمة في قدرته جل علاه ، يدل عليه قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ (٤) ، **قال الشيخ البروسوي أن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا من حيث أنه تعالى هو الذي يحفظهما بقدرته ، ولئن زالتا عن مكانهما ما قدر أحد على إعادتهما إلى مكانهما، إنه كان حليما غير معامل بالعقوبة غفور لمن رجع إليه (٥) .**

---

(١) سورة الرعد: الأية ٢ .
(٢) الإمام الفخر الرازي : مفاتيح الغيب، المجلد التاسع ، جـ ١٧ ، صـ ١٧٩ .
(٣) القرآن الكريم ليس كتاب نظريات علمية ، ولكنه يقدم إشارات يمكن أن تستخرج منها نتائج علمية ، ويصاغ من مفهومها العديد من القوانين التي تحمل الصيغة العلمية ، لأن القرآن الكريم كتاب هداية وحمال أوجه ، والله عز وجل هو الحافظ له ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ سورة القمرالآيتان ٥٤ و ٥
(٤) سورة فاطر : الأية ٤١ .
(٥) الإمام البروسوي : تنوير الأذهان من تفسير روح البيان ، جـ ٣ ، صـ ٢٩٧ .

وكذلك قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) ، **يقول الإمام السعدي لولا رحمة الله وقدرته لسقطت السماء على الأرض ، فتلف ما عليها وهلك من فيها ، وهو أرحم بهم من والديهم ، ولهذا يريد لهم الخير ،ويريدون لأنفسهم الشر والضرر** (٢) ، **ومن ثم فكل مايمسك السماء حتى لا تقع على الأرض وغير مرئي للناس إنما هو قدرة الله تعالى ورعايته بجانب حفظه وعنايته .**

ومحل الشاهد هو أن قدرة الله تعالى هي التي تهيمن على هذا الكون ، وهي التي تثبت القوانين الضابطة فيه ، وهي في ذات الوقت التي يعول عليها بإعتبارها منشئة سنن الله الكونية، يدل عليه قوله تعالى﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٣) .

فإذا إنتقلنا إلى مجال النسبية العامة ، وجدنا أن الحديث عن النسبية المكان والزمان ، قد جاءت إليهما إشارات قرآنية بشكل محدد وقاطع لمن تأمله .

وعن نسبية المكان في خواصه المكانية ، جاءت إشارات عديدة في آيات كثيرة ، من ذلك قوله تعالى ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾ (٤) ، **فجاء لفظ " لموسعون " في الآية للدلالة على النسبية المكانية ، حيث إبتدأت عملية الخلق لعالم الجواهر من نقطة ، ثم استعت في السماء ودحيت بالنسبة إلى الأرض لقوله تعالى** ﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ (٥) .

---

(١) سورة الحج : الآية ٦٥ .
(٢) الشيخ عبد الناصر السعدي : تيسير الكريم الرحمن ، ص ٥٩٠ .
(٣) سورة النمل: الآية ٨٨ .
(٤) سورة الذاريات : الآيتان ٤٧ و ٤٨ .
(٥) سورة النازعات: الآيات من ٢٧ - ٣٣ .

ومحل الإستشهاد أن السماء جسم له سمك ، ومع هذا تخرج منه معارج عديدة ، وترتد إليه على صور متتالية ، وفوق ذلك فليس فيها شقوق ، قال تعالى ﴿ الَّذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَات طِبَاقاً مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ من تَفَاوُت فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِأً وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [١] **، وهذا مما يؤكد على أن النسبية الطبيعية في حدود المكان داخل العالم العلوي لها إرتباط وثيق ليس من السهل تجاوزه ٠**

وتعدد الإشارات إلى نسبية المكان في القرآن الكريم أمر متكرر ، منها قوله تعالى ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْت وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ فيه آيَاتٌ بَيِّـنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمناً وَلِلَّه عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [٢] **، قال العلامة " الفخر " دل قوله تعالى على أن هذا البيت قد وضعه الله موضعا للطاعات والخيرات والعبادات ، فيدخل فيه كون هذا البيت قبلة للصلوات ، وموضعا للحج ، ومكانا يزداد ثواب العبادات والطاعات فيه [٣] ٠**

فلفظ البيت تجيء فيه النسبية المكانية كثيرا، بدليل ذكر البيت هنا قد جاء في مجال التعظيم والتكريم والمهابة ، على النحو الذي سلف ، ثم يجيء لفظ البيت في آية أخرى جاريا مجرى التشبيه وضرب المثال على سبيل الضعف والسهو ، من ذلك قوله تعالى ﴿ مَثَلُ الَّذينَ اتَّخَذُوا من دُون اللَّه أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوت اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوت لَبَيْتُ الْعَنكَبُوت لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ من دُونه من شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾[٤]**،قال العلامة "الزمخشري" الغرض من التشبيه ما أتخذوه متكأ ومعتمدا ، في دينهم ، وتولوه من دون الله بما هو مثل عند الناس في الوهن وضعف القوة ، وهو نسج العنكبوت [٥] ٠**

---

(١) سـورة الملـك : الآيتان ٣ و ٤ ٠
(٢) سـورة آل عمران : الآيتان ٩٦ و ٩٧ ٠
(٣) الإمام الفخر الرازي : مفاتيح الغيب ، المجلد الرابع ، جـ ٨ ، صـ ٣٤٤ ٠
(٤) سـورة العنكبوت : الآيات ٤١ - ٤٣ ٠
(٥) العلامة الزمخشري : الكشاف ، المجلد الثالث ، صـ ٤٥٤ ٠

ومحل الإستشهاد بالنقل المنزل هنا ، هو ان استخدام لفظ البيت في قوله تعالى إن أول بيت إنما هو للتكريم والتعظيم والإجلال والمهابة ، واستخدام لفظ البيت في سورة العنكبوت على النحو الذي سلف يمثل الوهن والضعف والذل والحقارة ٠

والفرق بينهما هو ذات الفرق في الصفة التي تطوي داخل البعد المكاني ، بما يؤكد أن القرآن الكريم قد سبق بإشاراته جميع المباحث العلمية، لكن في طرائق مأمونة ، ومباحث سليمة ، ونبه إلى ان الطبيعة ليست فاعلة ، وإنما هي مفعولة ، وتجيء في سنن الله الكونية ٠

كما تحدثت آيات القرآن الكريم عن هذا المكان الذي تجيء فيه النسبية ،إنما هو مخلوق الله تعالى ، قائم بأمره جل علاه ، محاط بعلمه ، لا بعلم أحد سواه ، نافذ بقدرته ، لا يشاركه أحد من خلقه ، والدليل عليه قوله تعالى ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾[١].

قال الإمام " الفخر " ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل ما سواه فإعبدوه ولا تعبدوا غيره أحدا ، فإنه هو المصلح لمهمات جميع العبادات ، وهو الذي يسمع دعاءهم ، ويرى ذلهم وخضوعهم ، ويعلم حاجتهم ، وهو الوكيل لكل أحد على حصول مهماته [٢].

بل أن بعض آيات القرآن الكريم جعلت العناصر المكانية ناطقة أيضا ، فلم تقف عند حد وصفها بالحركة المنتظمة ،وإنما فصلت مادة اللغة التي تنطق بها هذه الأجرام المكانية من السموات والأرضين ، في قوله تعالى ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ [٣]، **ومن ثم فقد فهم الكثيرون من العلماء إن هذا التسبيح إنما كان بلسان المقال حتى الجمادات**

---

(١) سـورة الأنعام : الآيات ١٠١ - ١٠٣ ٠
(٢) العلامة الفخر الرازي : مفاتيح الغيب ، المجلد السادس ، جأ ١٢ ، صـ ٤٨٣ - ٤٨٤ ٠
(٣) سـورة الإسراء : الآية ٤٤ ٠

كانت ناطقة ، وما تزال ، ولكن لا يفهم الناس تسبيحهم ، لأنه ليس بلغة الناس المألوفة ، بل بلغات أخرى لا يفهمونها ، لأن الناس محجوبون عن سماعها ، والراجح أن جميع المخلوقات تسبح بما يعلمه الله تعالى[١] .

فالسماء مكان واسع فسيح ، والأرض مكان واسع فسيح ، وظواهر الآيات قد يؤخذ منها وقوع التطابق المكاني بين السموات كأجناس مستقلة وبين الأرضيين كأجناس مستقلة ، يدل عليه قوله تعالى ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾ [٢] **، فالمراد هنا امكان والعدد .**

قال " الشيخ البروسوي " الله الذي خلق سبع سماوات كاملات ، وخلق من الأرض سبعا كاملات مثل السماوات ، وأنها سبع أرضين طباقا بعضها فوق بعض ، بين كل أرض وأرض مسافة كما بين السماء والأرض [٣] ، وهذه المسافة المكانية يمكنها أن تحمل الإشارات التي تبلغ بها النسبية الطبيعية ، لكن مع إحالة الأسباب إلى الله وحده .

وقال العلامة " القرطبي " والأخبار دالة عليه ، منها ما روي أن رسول الله ﷺ لم ير قرية يريد دخولها ألا قال اللهم رب السماوات السبع وما أظللن ، ورب الأرضيين السبع وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياح وما أذرين ، أسألك من خير هذه القرية وخير أهلها وخير من فيها ونعوذ بك من شر أهلها وشر من فيها [٤] .

كما يدل على كون السموات طباقا ، قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً ﴾ [٥] .

ومادامت السماوات سبعا طباقا والأرضون طباقا سبعا أيضا ، ألا يدل ذلك على وجود

---

(١) راجع للعلامة الألوسي : روح المعاني ، جـ ١٥ ، صـ ٧٢ ، وللعلامة الزمخشري : الكشاف ، جـ ٢ ، صـ ١٨٨، وللإمام ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، صـ ٤٢ - ٤٣ .

(٢) سورة الطلاق : الآية ١٢ .

(٣) العلامة البروسوي : تنوير الأذهان من تفسير روح البيان ، جـ ٤ ، صـ ٣٤٧ .

(٤) الحديث أخرجه النسائي ، وراجع المنتقي المختار من كتاب الأذكار ، صـ ٢٠٨ .

(٥) سورة نوح : الآيتان ١٥ و ١٦ .

النسبية الطبيعية في تقسيمها العامة الخاصة من الناحية المكانية في طبقات السماوات وطبقات الأرضيين ، وبالتالي ينتهي المسلم إلى القول بأن النسبية العامة والخاصة في الجاذبية والمكان إنما هي من أفعال الله تعالى [١] وتتم كلها على مجرى قضائه ، وتنفذ قدره ، وإنه سبحانه وتعالى الذي خلق كل شيء على أتم وجه وأحسنه •

كمان النسبيه في جانبها الزماني قد جاءت إليها إشارات قرآنية تتعلق بالمبتدأ والمنتهى ، بل وما بين المبتدأ والمنتهي يستوي في ذلك العالم العلوي بما فيه والعالم السفلي بما يحتوية ، يدل عليه قوله ﷺ ﴿ قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ﴾ [٢] •

والواضح أن مدة خمسين ألف سنة ، إنما هي نسبية زمانية ممتدة ، لا يعلم حقيقتها إلا الله تعالى ، تقع النسبية العامة فيها ما بين لمح البصر ، أو هو أقرب إلى الخمسين الأف سنة ، وهي نسبية واضحة جاءت تفصيلاتها مشارا إليها فيما هو معروف بإسم الثانية ، والدقيقة ، والساعة ، واليوم والإسبوع ، والشهر ، والسنة ، والدهر ، وكلها جاءت بها آيات اذكر الحكيم •

فمما يوخذ من إشارات القرآن عن النسبية الزمانية بإعتبار الدقيقة والثانية قوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [٣] ، **فلمح البصر يتساوى مع الثانية ، أما ما هو أقرب فإنما يفتح الباب لمزيد من البحث العلمي ، حتى إذا قسم الإنسان الثانية ،كوحدة مقياس زماني ، إلى أقسام ، ووضع لها مصطلحات ، كانت إشارات القرآن هي السابق إليه ، والدالة عليه •**

---

(١) أفعال الله تعالى تجري فيها الحكمة ، وهي في ذاتها الحكمة ، كما يجيء معها العلم والعمل ، لأن مفهوم الحكمة هو إتيان الأفعال على وفق علمه تعالى ، ولذا فالحكمة من حيث المعنى تجمع بين العلم والعمل ، راجع كتابنا : تعليل أفعال الله بين المثبتين والنافين •

(٢) هذه المدة الزمانية مما يدخل في الزمان المقدر في علم الله تعالى ، راجع كتابنا : الإيمان بالغيب وأثره على الفكر الإسلامي ، صـ ٦١٥ ، الطبعة الحادية عشر •

(٣) سورة النحل : الآية ٧٧ •

كذلك جاء الحديث عن الساعة في القرآن الكريم لا بإعتبارها ستين دقيقة من الزمان الفلكي [١] الذي يتعامل به الناس ، وإنما بإعتبارها مسافة زمنية تقع فيها أحداث تستغرق مساحات مكانية ، يدل عليه قوله تعالى ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [٢] **، فجملة ساعة من نهار واضحة في أن الساعة جزء من مجموع ساعات النهار ، وهو من اوجه الإعجاز العلمي في القرآن الكريم ٠**

كذلك أتت آيات القرآن بالحديث عن اليوم والليلة ، فإذا تمثل كل منهما نصف الوقت ، أو حدث توالج فقد بان أن مجموع اليوم والليلة هو ما يرد أمر النسبية العامة فيه ، ويتعامل الناس في معاشهم ومعادهم بشأنه ، يدل عليه قوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ﴾ [٣] .

قال " القاضي عبد الجبار " إنه تعالى لما عدد علينا نعمه بما يفعله خف ليل ونهار إلى غير ذلك ، عقبه بقوله وكل شيء فصلناه تفصيلا [٤] ، ليدل على أن سنن الله الكونية ثابتة ، وأنه لا إختلاف فيها ، ولا إخلال بشأنها ٠

فالمسألة الزمانية بين لمح البصر ، أو هو أقرب ، وبين اليوم والليلة ، إنما تعبر عن نسبية عامة ، جرى بها أمر الخالق العظيم جل علاه ، فليست من صنع الناس ، ولا هي من أفكارهم ، ولا من صنع الطبيعة ، إنما هي من صنع الله الذي أتقن كل شيء ٠

فإذا إنتقلنا إلى الحديث عن الإسبوع ، نجد الإشارة القرآنية قد جاءت ، ما جاء كثيرا منها أثناء الحديث عن العقوبة التي وقعت على المخالفين في قوله تعالى ﴿سَخَّرَهَا

---

(١) الزمان أنواع ، منه المقدر في علم الله الأزلي ، ومنه الزمان الفلكي ، ومنه الزمان البيولوجي ، ومنه الزمان المعرفي ، أو العمري ، ومنه الزمان الصحي ، أو المرضي ، راجع هذه التفاصيل في كتابنا : الإيمان بالغيب وأثره على الفكر الإسلامي ٠

(٢) سورة الأحقاف : الآية ٣٥ ٠

(٣) سورة الإسراء : الآية ١٢ ٠

(٤) القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني : متشابه القرآن ، القسم الثاني ، صـ ٤٥٨ ، تحقيق الدكتور عدنان محمد زرزور ، ط. دار التراث ٠

عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ (١).

وكل الشواهد تدل على أن الإسبوع المتعارف عليه بين الناس إنما هو سبعة أيام ، ومعها مثلها من الليالي ، فإذا إبتدأنا بالعد الليالي كان العدد متماثلا معها ، إما إذ أردنا بالعدد إبراز العقوبة ، كان المعدود زائدا على العدد في اليلة ٠

وربما جاء الحديث الشريف بهذه النسبية الزمانية في مجال تكفير الذنوب عن العبد المؤمن في قوله ﷺ الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان ، كفارات لما بينها ، أذا إجتنبت الكبائر ٠

وهذا يوضح النسبية الزمانية في صور البعدية والقبلية ، ويؤكد المرة تلو الأخرى ان هذه وتلك مخلوقات لله تعالى ومردها إليه جل علاه ، بدليل أنه في مجال الترغيب ، جاءت إشارات قرآنية حاثة على إقتناص الفرص الليلية في العبادة، يدل عليه قوله تعالى ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً ﴾ (٢) ، وهذا مما يدل على النسبية الزمانية ، وانها واقعة في كتاب الله تعلى من الناحية التي تحقق لمصلحة العامة للفكر الإنساني ٠

وفي مجال النسبية الكونية وإنفصال العالم سفليه عن علوية ، وظهور الأكوان ، وإنتشار الحياة بين الكائنات ، جاء قوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (٣).

---

(١) سورة الحاقة : الآية ٧ ٠
(٢) سورة الإسراء : الآية ٧٨ ٠
(٣) سورة الأنبياء : الآيات من ٣٠ - ٣٣ ٠

وفي مجال الحديث عن الكونيات الليلية والنهارية ، جاء قوله تعالى ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (١) ، **بحيث يتداخلان طولا وقصرا ، بما يوضح النسبية العامة ، بدليل أن ساعات النهار في الصيف أطول عنه في الشتاء ، وساعات الليل في الشتاء تكون أطول عنها في الصيف .**

وهذا يؤكد أن توالج كل منهما مع الآخر على صورة من الصور التي تجيء منها سنن الله الكونية ، والتي يمكن التعرف عليها من خلال السنن الإلهية ، وكذلك جاء قوله تعالى ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾ (٢) .

وفي مجال التقسيم للشهور والأعوام . جاءت آيات قرآنية محدده من مثل قوله تعالى ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٣) .

بل يمكن القول بأنه كلما تأمل المرء المسلم آيات القرآن الكريم ، وصحيح سنة البشير النذير ، أمكن له استخراج إشارات عديدة للنسبية العامة والخاصة (٤) **، بما يؤكد أن النسبية الطبيعية بشقيها ليست خالقة وإنما هي مخلوقة ، ليست فاعلة وإنما هي مفعولة ، والفاعل لها المالك شئونها ، العالم بها وغيرها ، هو الله الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ، ولا يقع أصغر من ذلك ، ولا أكبر إلا في كتاب مبين ، قال تعالى** ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (٥) .

---

(١) سورة الحج : الآية ٦١ .
(٢) سورة الزمر : الآية ٥ .
(٣) سورة التوبة : الآية ٣٦ .
(٤) راجع كتابنا : المدخل لدراسة الحكمة الإسلامية ، صـ ٢١٥ ، وما بعدها ، ستلاحظ جهودا مستقلة مهمتها بيان أن القرآن الكريم قد أفاد منه الفكر الانساني عامة ، والإسلامي خاصة ، وأنه حقق في ذلك أعلى النتائج
(٥) سورة سبأ : الآية ٣ .

أهم المصادر والمراجع
للفصل الخامس
حسب ورودها بأسفل الصفحات

١ -	القرآن الكريم	
٢ -	قطر المحيط	العلامة لويس المعلوف .
٣ -	المعجم الوجيز	
٤ -	الطبيعة ومشكلاتها الأساسية	جورج فلنت .
٥ -	النسبية والقوانين الرياضية	ادوارد كينث .
٦ -	المعجم الفلسفي	جميل صليبا .
٧ -	فلسفتنا	الدكتور محمد باقر الصدر .
٨ -	قضايا حثيثة في الفلسفة الحديثة	الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي .
٩ -	قضايانا الفلسفية	الدكتور عبد العزيز أدريس .
١٠ -	النظرية النسبية الخاصة	د. على مصطفى مشرفة .
١١ -	الغزاليات في منطق التصورات	الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي .
١٢ -	مناهج البحث بين التقليد والتجديد	الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي .
١٣ -	المواقف	القاضي عضد الدين الأيجي .
١٤ -	حاشية الجلبي على المواقف	الشيخ حسن جلبي .
١٥ -	بواتق وأنابيق قصة الكيمياء	برنارد جافي .
١٦ -	الفيزياء والميكروفيزيا	دي بروليه .
١٧ -	قياسات الزمن المتطور	روبرت توفسكي
١٨ -	ديوان الأطلال	الشاعر إبراهيم ناجي .
١٩ -	الإيمان بالغيب وأثره على الفكر الإسلامي	الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي .
٢٠ -	الغزاليات في الإلهيات	الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي .

٢١ - النسبية والقوانين العلمية — جوراند فاكل .
٢٢ - نظرية النسبية — البرت انيشتاين ، ترجمة رمسيس شحاته .
٢٣ - الف باء النسبية — برتراند راسل .
٢٤ - لماذا إنتشر الإسلام — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي .
٢٥ - شرح المواقف — الإمام الشريف الجرجاني .
٢٦ - النسبية وجوانبها العملية — دافيد فوكر .
٢٧ - النسبية وتطبيقاتها العملية — جورج دافيد بلانت .
٢٨ - نحو فلسفة علمية — الدكتور زكي مجيب محمود .
٢٩ - النسبية والعلوم الفيزيائية — فوكاند .
٣٠ - الفلسفة الحديثة والتقنية العلمية — جورج فوكر .
٣١ - طريق الفيلسوف — جان فال .
٣٢ - المعرفة عند مفكري المسلمين — الدكتور محمد غلاب .
٣٣ - النسبية وتطبيقاتها — الدكتور أحمد السيد رمضان
٣٤ - النظريات العلمية والصبغةالسياسية — جورج نورمان .
٣٥ - النسبية والقوانين العلمية — البرت فود كان .
٣٦ - الزمن الفيزيائي والتطورات العلمية — جورج كراوس .
٣٧ - البحث العلمي مسائله ومشاكله — انطوان جيفر .
٣٨ - تسع رسائل في الحكمة والطبيعيات — الشيخ الرئيس ابن سينا .
٣٩ - النسبية الخاصة والتطورات العلمية — كوانز رينز .
٤٠ - تنوير الأذهان من تفسير روح البيان — الإمام الشيخ اسماعيل حقي البروسوي .
٤١ - تيسير الكريم الرحمن — الشيخ عبد الرحمن السعدي .
٤٢ - تفسير مفاتيح الغيب — الإمام فخر الدين الرازي .
٤٣ - تفسير الكشاف — الإمام الزمحشري .
٤٤ - تفسير روح البيان — الإمام الألوسي .
٤٥ - المنتقى المختار من كتاب الأذكار
٤٦ - متشابه القرآن — القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني .





الفصل السادس

النسبية الفلسفية ومشكلاتها

الأولى : إنعدام وجود المطلق

الثانية : إنكار وجود الغيب

الثالثة : إنكار وجود حقائق مطلقة

الرابعة : إنعدام وجود أحكام مطلقة

وهذه النسبية تحمل عبء ظهور مشكلات عقدية ، وأخرى كلامية ، وثالثة أدبية ، بجانب العديد من المشكلات المعرفية الأخرى ، وهذا من شأنه بث القلق في النفوس ، وبعث الخوف من المجهول ، مع إبقائه أطول مدة داخل القلوب [١] ، حتى إذا نظر مفكر إلى النسبية الفلسفية ، كأنه ينظر إلى مصدر المشاكل ، وقد يطيل النظر في إتهامها حتى يصل إلى اعتبارها مبعث الإلحاد ، ومن هنا سأحاول تناولها من خلال ما يلي :

أ ـ تعريفها

كثرت التعاريف والمفاهيم التي تعلقت بالنسبية الفلسفية ، نظرا لمحاولة كل فرد التمسك بالجانب الذي تناولها من ناحينه ، والغرض الذي يسعى لتحقيقة ، والغالية التي هدف لإبرازها ، ابتداء من المفكرين القدماء مرورا بالمحدثين وإنتهاء بالمعاصرين ، ومن ثم فسألتقط بعض هذه التعريفات على النحو التالي :

١ ـ أنها مذهب فلسفي يعني بالبحث في الموجودات المشاهدة على سبيل الإثبات ، وغير المشاهدة على سبيل الشك والتردد[٢] ، وهذا من شأنه توسيع موضوع البحث ، وتعدد الوسائل ،بجانب الحاجة إلى كثرة المناهج والغايات ، وإعلان عن عدم قبول الغيب من الناحية العقدية والمعرفية ٠

٢ ـ أنها إتجاه يتعلق به البحث في المطلق ، ومحاولة التعرف عليه من خلال طرائق معرفية تبلغ به درجة اليقين العلمي[٣] ، ومن ثم فهي تمثل صورة تصنيفية لكل من المطلق والنسبي ، وفصل كل منهما عن الآخر ، ثم السعي لمعرفة كل واحد منهما على حدة، أو الإنفراد ببحثه من الناحية التي يقف عليها ذلك الفيلسوف ٠

٣ ـ هي عمل عقلي يقوم على بحث العلاقة بين المطلق والنسبي ، عن طريق اليقين

---

(١) ومادامت النسبية الفلسفية بذات المثابة ، فقد كشفت عن وجه غير مقبول ، وهو الذي نبه إليه الكثيرون من علماء أهل الإسلام ، وقد يظهر ذلك أثناء الحديث ههنا إن شاء الله تعالى ٠

(٢) بيتر جورج ـ فيسنك : النسبية والأهداف العلمية،صـ ٥٥، ترجمة د./ زكريا صابر، سنة ١٩٨٧

(٣) ادوارد بينز: المدارس الفلسفية والمذاهب العلمية ، صـ ٧١ / ٧٢ ، ترجمة عادل طه ، سنة ١٩٨٩ ٠

القائم في المحسوسات[١]، بحيث إذا تطرق للمعقولات أمكنه ضبط اتجاهها العام مع النتائج التي تترتب على بحث هذه العلاقة،وهذا مما يؤكد أن النسبية الفلسفية تتعلق بالجوانب المعرفية،وغايتها إسقاط كل صور التناقض ، وإزالة ملامح التضارب ٠

ولا مانع عندي من تعريفها بأنها التي تعني بالبحث عن حقائق الأشياء وعلاقتها ببعضها ، مع الإعتقاد بأن الأفكار كلها تدور في محور عماده المكان والزمان والمعرفه الإنسانية [٢] ، وقد رجح هذا التعريف من جانبي لشموله موضوعات النسبية الفلسفية على النحو الذي سيرد فيما بعد إن شاء الله تعالى ٠

ب ـ موضوعها

ترتبط النسبية الفلسفية بحزمة من الموضوعات تؤدي كلها إلى التركيز على علاقة أي حقيقة موجودة بالحقائق الأخرى ، ارتباطا ليس من الصواب فصل أطرافه عن بعضها ، فهي ترتبط بالموضوعات الأفقية نفس إرتباطها بالحقائق الرأسية ، ولذا فصل الدارسون للنسبية الفلسفية بين أنواعها تفصيلات كثيرة ، وذكر واحد لها مسائل بحثية متعددة [٣]، وقد تم ذلك من خلال تسمية كل جزء منها بما يتناسب معه ٠

ويعتقد " باكت " أن موضوع النسبية الفلسفية في الوقت احاضر هو الحقيقة المجردة وعلاقة أجزائها ببعضها على نحو عضوي تصنيفي ، بحيث تظهر فيه المتقاربات بالعلاقات والموضوعات من خلال النسق العام[٤]، والقاعدة التي يجب إلتزامها ، ومن ثم ،

---

(١) ذهب الكثير من العلماء إلى أن التواتر في المحسوسات ينتهي إلى اليقين المعرفي ، بينما التواتر في العقليات قد يصل بصاحبه إلى اليقين النسبي ، وقد يوقفه عند شاطئ الشك وحده ، راجع للشيخ محمد منصور عبد العظيم : الفكر الإنساني والنقل المنزل ، صـ ١٥٣ ، ط. الدار الميمنية ، سنة ١٣١١هـ ٠

(٢) هذا التعريف هو الذي غلب عندي كتعريف لها عند القائلين بها ، لا على أن هذا التعريف يصلح بالنسبة لي ، أو يصلح أن يكون معبرا عن وجهة نظري الخالصة ٠

(٣) يرى البعض ان أنواعها عديدة ، ليس من السهل حصرها ، ويرى غيرهم أنها تنحصر في أربعة أنواع ، ومنهم من أزاد على ذلك العدد، أو قلل، ولكل وجهة وقف عليها ، أوعني بها ، والله المستعان ٠

(٤) جورج مندل باكت : الإتجاهات الفلسفية الحديثة والمعاصرة ، صـ ٩٥ / ٩٦ ، ترجمة خالد صبحي ، ط. دار الجيل ، سنة ١٩٩١ ٠

فإن موضوعها يشمل المطلق ، كما يشمل النسبي ، بل يتعدى ذلك إلى طريقة البحث في كل منهما ، ومن هنا كثرت المشكلات التي تعلقت بها .

بيد أن " بلانت " قد ذهب إلى أن موضوع النسبية الفلسفية عام بحيث يشمل ما تقوم عليه النسبية الطبيعية أيضا ، بإعتبار أن الفلسفة هي الأم وما سواها ، إنما هو تبع لها ، ومن ثم قرر شمول الموضوع وعمومه ، يقول أن النسبية الفلسفية لا تقف عند حد موضوع بذاته ، طالما كانت الفلسفة هي المحور الأساسي الذي تقوم عليه المعارف [٣] ، وبناء عليه فقد صار موضوع النسبية الفلسفية متسعا شاملا على ما سلف بيانه .

وعندي أن موضوعها يجب أن يكون فاتحا في الجزئيات التي تقبل الدراسة ، ويمكن الوقوف معه على نتائج تصير مقبولة ، بإعتبار أن الفلسفة هي البحث المجرد حول حقائق الأشياء ، بغرض إدراك العلاقات القائمة بينها ، وفي النهاية يجب أن تكون الغاية العليا ، أو الغاية المطلقة هي التأكيد على أن هذه الكائنات ، بل جميع الموجودات لها خالق عظيم هو الله رب العالمين .

ولما كان شأن الدراسات العلمية المقبولة ترجيح الآراء التي تدعمها أدلة علمية صحيحة [٤]، فإني أرى إمكانية عرض الآراء المطروحة في الموضوع على ذات الناحية ، ثم أترك للقارئ الفاضل عملية النقد الموازنة ، وأدعوه إلى الترجيح ، حتى أشحذ همته ، بل وأنفخ في صدره من روح الأمل الحالمة ، ففي ذلك خير للبحث العلمي ، وفائدته نحو تقدم العلوم ، كما هو مفيد في معالجة قضية المنهج المقارن .

جـ - انواعها

تنوعت الدراسات العلمية حول أنواع النسبية الفلسفية ، حيث تبين أنها متعددة ، بإعتبارات مختلفة ، من أبرزها :

---

(١) ادوارد بلانت : التفكير العلمي في العصر الحديث ، صـ ١٣٧ ، ترجمة ناهد شكري .

(٢) عمية الترجيح بين الآراء تمثل إحدى صور النضج الفكري ، وتعبر عن إتجاه فلسفي له طابع استقلالي ، وفي نفس الوقت ، فإن هذه العملية العقلية تكون بمثابة الإعلان عن إمكانيات القائم بها،أو هى شهادة ميلاد بكونه مفكرا له سمة خاصة،ويملك القدرة على القيام بواجبات علمية .

تنوع بإعتبار الرأسي والأفقي

لأنه لما كانت هذه النسبية الفلسية يتعلق بها البحث في المطلق والنسبي من نواح عديدة ، بعضها يقع على ناحية العقول ، وبعضها الآخر قد يجيء من جهة الرفض [١] ، فقد تنوعت الدراسات من هذه الناحية إلى :

النوع الأول : النسبية الفلسفية الرأسية

أ - اطلاقاتها وتعريفها

ويطلق عليها أيضا اسم النسبية الفلسفية العمودية ، لأنها تدعى إرتباط الحقائق ببعضها من أعلى إلى أسفل ، من ثم تعرف بأنها ما يقتضي أن تكون الحقيقة الأساسية مرتبطة ارتباطا وثيقا بحقائق أخرى ، داخل نسق فكري معين ، يمنحها معناها ، ويسبغ على مضمونها صلغة هامة [٢] ، مصدرها قائم من الإتجاه العلوي ، او الناحية الرأسية .

بيد أن هذه النسبية الفلسفية الرأسية ، أو العمودية ، توجد بينها وغيرها جملة متقاربة مصدرها الأصلي هو العمود الساقط ، أو الرأسي ، القائم في النسق المحدد ، بإعتبار أن فكرة الأنساق العلمية تعبر عن فلسفة العلم ، ويذهب " عبد القادر بشته " إلى أن النسبية العمودية هي التي تستلزم أن تكون الحقيقة المدروسة مرتبطة بحقائق أخرى داخلة في نطاق نسق فكري معين يعطيها معناها ومضمونها [٣] .

في نفس الوقت ، فإن هذا النوع من النسبية الفلسفية تجيء معه إرتباطات لها علاقات وطيدة بالموضوع الذي يطرح ، وتستند إلى جملة من النتائج الترتيبية ، ومن ثم ذهب الكثيرون إلى أن هذا النوع يؤكد على ضرورة إرتباط الأسباب بالمسببات إرتباطا لا

---

(١) يدعي أصحاب النسبية الفلسفية أنهم يقومون عليها وحدهم لأنها تنهض في بحث المطلق والنسبي ، ولكن ،هل كلهم على قلب جل واحد في الإعتراف بوجود المطلق ، وتحديد مفهومه، وكيفية التعامل معه؟ أم ان هناك من ينكر وجود المطلق ولا يعترف به .

(٢) راجع كتابنا : الحثيث في المنطق الحديث ، صـ ٤٥٣ ، الطبعة العاشرة ، وكتابنا : التطور والأحياني بين الدين والفلسفة ، صـ ٧١٥ .

(٣) الدكتور عبد القادر بشته : الفلسفة والعلم ، صـ ١٣٧ ، ط. دار الطليعة ، بيروت .

مكان فيه للإستثناء [١] ، وهذا بدوره يؤدي إلى القول بأن الكون ليس بحاجة إلى خالق عظيم ، وهذا مما يعبر عن الكفر والإلحاد ، لأن الأسباب والمسببات كلها راجعة إلى الله تعالى لا إلى غيره بحال من الأحوال ٠

ب ـ موضوعها

موضوع النسبية العمودية هو الحقيقة الثابتة المرتبطة بغيرها من الحقائق المتقاربة من خلال نسق معين مرده إلى الأسباب وحدها ، نظرا لذات المعطيات [٢] ، ولهذا ، فإن ذلك الموضوع يضم بين جنباته العلوم الرياضية والفلكية بجانب الفيزيائية على سبيل التناسب لا على جهة الإطلاق ، وهذا من شأنه الإنتهاء أيضا إلى القول بأن النتائج القائمة في الموضوع نسبية هى الأخرى ، اما لماذا ؟ فلأن مصدر هذه المعرفة مرتبط بالموضوع ، ويتسم بخواص حسية أو عقلانية ، و هو معنى الضرورة العقلية أو الطبيعية وسريانها في الكون وعلى كافة المستويات ، مهما كانت طبيعة هذه المخلوقات ٠

أجل ، لم يتفق هؤلاء الفلاسفة حول الصورة التي تظهر فيها النسبية العمودية ، بدليل ذهاب أصحاب الإتجاه التجريبي إلى رفض وجود الضرورة العقلية الأوليه بين الأسباب والمسببات ، أو بين النسبية العمودية وما هو من موضوعاتها حتى وإن اتسمت المعرفة بسمات حسية ، وكان كل من " كانودي وهيوم " من أشد القائلين برفض الضرورة العقلية الأولية [٣] ، مؤكدين على أن الذي يحسم الموقف إنما هو التجربة الحسية لكونـها تمثل المصدر اليقيني لكل الأفكار ٠

---

(١) الإستثناء الذي نتحدث عنه هو القائم في جملة خوارق العادات ، وهي كلها مما لا يعترف به أصحاب الإتجاه المعرفي الإضطراري الإضطرادي ، ونحن نعتقد بإمكانية وقوعه ، بينما ينظر إليه هؤلاء على أنه فكرغير سليم ٠

(٢) تعدد المعطيات يمثل أهمية بحثية ، وفي ذات الوقت يكشف عن عمق في الفكرة ، لكنه يستلزم أن تكون هذه المعطيات مقبولة ، وإلا كانت إضاعة للوقت وإهدارا للجهد ٠

(٣) أصحاب الإتجاه المثالي - العقلي - يؤكدون على أن وجود النسبية العمودية ، عمادها الضرورة العقلية الأولية ، وبهذا يفسرون كل الظواهر الموجودة في الكون دون أن يحيلوا الأمر للخالق العظيم جل علاه ٠

وعلى الجانب الثاني من الشاطئ ذهب اصحاب الإتجاه المثالي العقلي ، حيث أكدوا على أن موضوع النسبية الفلسفية إنما هو عقلي خالص ، يقوم على التجريب ، ثم التجريد ، الذي يمثل قمة العقلانية ،ويكشف عن العلاقة القائمة بين النسبية العمودية والإتجاه العقلي التجريدي ، وليس لديهم استعداد لقبول الرأي المخالف(١) .

لست أبالغ إذا قلت أن كلا من أصحاب هذين الإتجاهين قد أسرف في أستعمال الحق الذي خوله لنفسه ، وظهر ذلك في الأحكام الصادرة عنهم ، إذ يعلق " موريس صوفر " عن إعتقاد " هيوم " في الفلسفة العمودية والحكم عليها بقوله . إن هيوم رفض فكرة وجود ضرورة عقلية أوليه تلزمنا بقبول نتانجها كما يدعي العقليون ، وإننا نكون جادين عند إستعمال التجربة الحسية لكي نفسر بها العلاقة بين العلة والمعلول(٢) .

ونفس الفكرة يعرضها الدكتور " هويدي " حيث يذكر رفض هيوم للفكرة برمتها ، حيث يقول رفض هيوم أن تكون هناك ضرورة عقلبة أوليه كما يدعي العقليون ، وقال أننا لكي نفسر الضرورة العقلية القائمة بين العلة والمعلول يجب أن نلجأ إلى التجربة الحسية ، لأنها تمثل المصدر اليقيني لكل أفكارنا (٣) ، وهو يعولون عليها وليس لديهم استعداد لقبول غيرها (٤) ، وهو شأن أصحاب الإتجاهات المادية على وجه العموم ، وهم في كل الحالاتع لا يعتقدون بوجود ما ليس بمحسوس أبدا .

كما أن المثالين ، هم الآخرون قد أكدوا على ضرورة أن تكون العلاقة بين العلة والمعلول ، أو السبب والمسبب . إنما هي الضرورة العقلية ، من غيرأن يسمحوا لوجود مكانا للعاديات ، ولا مجال للإستثناءات ، يقول " هوزان " لقد أعتبر العقليون التجربة العقلية

---

(١) ألمحت إلى هذه الأفكار أثناء الحديث عن المثل المعلقة ، وقد حرصت على أن تكون مفردات الكتاب مطروحة للجميع ، وبدرجة واحدة تقريبا .

(٢) موريس صوفر : ملامح الخصومة بين الحسيين والمثالين ، صـ ١٧٣ ، ترجمة زكريا صادق، ط. دار الجيل ، سنة ١٩٨٧ .

(٣) الدكتور يحي هويدي : مقدمة في الفلسفة العامة ، صـ ١٤٧ ، دار الثقافة والنشر للتوزيع .

(٤) تناولت شبهاتهم عرضا ومناقشة ، راجع كتابنا : الإيمان بالغيب وأثره على الفكر الإسلامي ، الباب الثالث ، كذلك كتابنا اوراق متناثرة في التيارات الفكرية المعاصرة ، صـ ٣٧٧ ، الطبعة الخامسة .

بمثابة العلامات الأولى لمن يريد أن يتعلم القراءة والكتابة ، اما الناتج العقلي فهو الحاكم الأصلي ، والقاعدة العامة ، ولذا فهم لا يقبلون آية تفسيرات أخرى للنسبية العمودية سوى أنها من ناتج الضرورة العقلية[١] ، وهم يتمسكون بها كوحدة فاعلة ، وليس لديهم دليل يمكنه مقاومة أوجه النقد التي توجه إلى أفكارهك تلك .

أضف إلى ما سبق أن النسبية الفلسفية إنما تتعلق بالوجود والمعرفة والقيم ، وهذا من شأنه التأكيد على أن النسبية العمودية تبدوا فيها الأفكار كأنها ساقطة من عالم غير مرئي هو أقرب إلى عالم الأرواح عند الروحانيين ،والأشباح لدى أصحاب الفكر الغنوصي.

النوع الثاني : النسبية الفلسفية الأفقية

ويطلق عليها اسم " النسبية الفلسفية التاريخية الأفقية " نظرا لكونها تقوم على أن الأفكار كلها غير أزلية [٢] ، وإنما هي نسبية في الوضوح واليقين والتحصيل ، ولذا فهي ترتبط بفترة زمانية محددة ، وتقوم على معرفة محددة أيضا ، ومن ثم ، فقد ركزوا على أن النسبية الأفقية ذات أهمية في البناء الفلسفي ، لكن قد ظهرت بعض المشكلات المعرفية في التحصيل ، كما برزت أخرى بإعتبار الخفاء والوضوح ، وثالثة بإعتبار الظن واليقين [٣] ، ومن ثم ظهرت مجموعة من العناصر التي يمكن تناول النسبية الأفقية من خلالها ، أبرزها ما يلي :

أ ـ تعريفها

بلغت التعريفات التي ذكرت للنسبية الأفقية التاريخية ، مبلغا كبيرا من التعدد ، حتى أن المرء قد يظن أنها وحدها المقصودة بالبحث من الناحية التعريفية أو علة ناحية خاصة ، وهذا يدل على مدى عناية المفكرين بها ، والتفافهم حولها [٤] ، ولما كانت هذه التعاريف فيها تباين من حيث الظاهر لكل ذي فكر فقد أعمد إلى التقاط بعضها على النحو

---

(١) جورج هوزان: الفلسفة الحديثة والمعاصرة ، صـ ٢٩٧، ترجمة وليد الطويل، سنة ١٩٩٥ .

(٢) فكرة الأزلية في الفلسفة الحديثة والمعاصرة ، غير الأزلية التي تحدث عنها المتكلمون ، بالرغم من اشتراكها في المنطوق اللغوي من باب الإشتراك اللفظي .

(٣) هذه الجوانب يمكن الوقوف عليها في سهولة ويسر ، طالما استطاع المرء التفرقة بين ما هو من قبيل البحث الرياضي ، وما هو من طبيعة الفكر الفلسفي الخالص .

(٤) وهذا الإلتفاف ممايمهد لظهور أفكار تجيء متوازية مع الفكر القديم ، ويدعم فكرة ثابتة ، وهي إمكانية استفادة الأبحاث العلمية من بعضها متى كانت صحيحة .

التالي :

١ - عرفها " توماس كون " بأنها إتجاه معرفي يمضي في إتجاه واحد يغرض دراسة العلم المشاهد وعلاقته بغير المشاهد ، ثم فرض النتائج عن هذه الدراسة على أرض الواقع، بحيث يصير هو القاعدة العامة ، والإتجاه الذي يجب العمل به[١] ، وذلك من شأنه الإستغناء عن القواعد الثابتة مادامت لم تقم على إتجاه معرفي ، حتى وإن كان مصدر ذلك هو الوحي نفسه ٠

٢ - وذهب " راندال " إلى أنها حركة عقلية تسير متوازية مع الإتجاهات العامة في تناول كل من المعرفة والوجود ، وإحداث صور بينية تهدف إلى تحقيق الأمل العلمي المترقب [٢] ، وهذا يدفع إلى تقديس العلم الحادث وإعلان الإحتياج لكل من العلم اللدني والوحي ، ما دام العلم هو مناط هذه الحركات الفكرية وأساسها الذي تقوم عليه ، أو ترتد إليه ، ولا يكون لهذا وجود فعلي إلا إذا تم ذلك على وجه دقيق ٠

٣ - يعتقد " ميتس " أن النسبية الفلسفية التاريخية هي إنعكاس الصورة العلانقية بين الواقع الفكري والواقع الخارجي ، على أساس من التاريخ ذاته ، مع ضرورة مضيها في إتجاه أفقي يحفز التاريخ المعرفي ، ولا يمانع من إحداث إتصالات بالتاريخ الطبيعي [٣] ، ومن ثم فهي مفهوم يقوم في المعرفة الجامعة بين القاعدة العلمية والإتجاهات التاريخية ، مع ملاحظة الفوارق الكثيرة بين الإتجاهين ٠

٤ - يقرر " هونيك " أن نظرية النسبية الفلسفية الإفقية ، إنما هي تعديل مقصود لما كان سائدا في المناهج الفلسفية ، وتحول عن النزاع الحاد بين أصحاب المطلق الموجود، والمعدوم [٤] ، ومن ثم فهي فلسفية نظرا لإرتباطها بموضوعات الفلسفة [٥] ، ونسبية

---

(١) توماس كون : بنية الثوارت العلمية ، صـ ٢٣ ، ترجمة شوقي جلال ، ط. سلسلة عالم المعرفة بالكويت ، سنة ١٩٩٢ ٠

(٢) جون هيرمان راندال : تكوين العقل الحديث ، جـ ٢ ، صـ ٧٣ ، ترجمة جورج طعمة ، دار الثقافة ، بيروت ٠

(٣) رودلف ميتس : الفلسفة الإنجليزية في مائة عام ، صـ ١٧٧ ، ترجمة الدكتور فؤاد زكريا ، ط. دار النهضة العربية ، سنة ١٩٨٧ ٠

(٤) ادوارد هونيك : الإتجاهات الفلسفية الحديثة ، صـ ٨١ ، ترجمة عبد العظيم فؤاد ، ط. دار النيل ، سنة ١٩٨٧ ٠

(٥) موضوعات الفلسفة العامة الأساسية هي جملة النظريات الوجود ، المعرفة ، القيم ، أما موضوعات الفلسفة الإسلامية ، أو الحكمة الإسلامية فهي الله ، العالم و الإنسان ٠

لكونها جاءت بين طرفين يحكمهما عنصر التباعد ، وأفقية بالنظر إلى اسماء الموضوعات المطروحة على بساطها البحثي ، وتاريخية من حيث أن لها تعلقا بالزمان التاريخي في جانب من جوانبه البحثية .

وعندي أن هذا النوع يمكن تعريفه بأنها: حركة عقلية سعت لصياغة الأفكار المطروحة صياغة تتفق مع الإتجاه الفكري المسيطر على تركيز أصحابها الذهني ، وإرتباطهم التراكمي ، ثم تفسير الظواهر الكونية تفسيرا معرفيا له إرتباط بالأساس الذي قام عليه من غير إحتياج لشيء آخر ، وكأن المنظومة الكونية يتم التعامل معها من خلال النظر العقلي الذي يقوم في الوجود والمعرفة والقيم ،بدلالة متفق عليها .

ب ـ موضوعها

كان المفترض ان يصير موضوع النسبية الأفقية هو ذاته الذي يتعلق بالكون والمعرفة والقيم على ناحية خاصة تختلف عن الأخرى التي تتعلق بالزمان والمكان والفيزياء ، وأيضاً بالجواهر الفردة أو المركبة [١] ، لكن الأمر إختلف ، إذ بدا أن موضوع النسبية الفلسفية الأفقية هو ما يقع في التحولات التي تمثل الوجود والمعرفة والقيم من ناحية ، والتحولات التي طرأت على كل من الفيزياؤ والمكان والزمان ، أما لماذا ؟

فلأنه في الماضي كان السائد لدى القدماء المصريين ، وأهل الصين ، بل واليونان ، وجمهرة الأشوريين [٢] ، إن الزمان والمكان من الأمور الثابتة التي لا بد من الرجوع إليها عند إصدار حكم من الأحكام ، فلما تمت الدراسات العلمية وتقدمت الأبحاث في ظل حماية الأنشطة الفلسفية لها تبين أن الزمان والمكان أفكار متنقلة بين الأعراض والأضافات ، ولا ثبات لها على سبيـل الإطـلاق[٣] ، كل مايمكن الإعتقاد فيه هو أن الحقائق التي ترد من

---

(١) الجوهر الفرد،هو الجزء الذي لا يقبل الإنقسام ، وبالتالي فهو أصغر جزء في منظومة الجوهر المادي ، أما الجوهر المركب فهو يتكون من مجموعة أجزاء تمثل في مجملها الجواهر الفرد، لمزيد من التفاصيل راجع كتابنا : حبو الوليد في علم التوحيد ، صـ ١٢٧ .

(٢) كانت هذه البلاد في مجملها تؤله الآيات الكونية ، لمعرفة هذه وتلك راجع كتابنا : تأليه الديانات الوثنية للآيات الكونية ، جـ ١ ، صـ ١٧٣ /٢٩٥ و الطبعة السابعة ، سنة ٢٠٠٦ .

(٣) وبالتالي فما كان يظن حقائق لم يعد إلا جملة من القضايا الإجتماعية أو القضايا ذات النتائج الظنية ، وهكذا حدث تطور في تبادل المعلومات والحكم على النتائج والمقدمات .

جهتهما إنما هي أمور نسبية ، ومن ثم فقد تم تعديل الإدراك للأشياء عن طريق النسبية الأفقية ٠

على أن الموضوع الذي يجب أن يناط به البحث في النسبية الفلسفية الأفقية قد إمتد إلى المنظومة الفيزيائية والأخرى الميكانيكية[١] ، ثم تمدد داخل إطار نظري خالص أو تجريبي مزدوج ، ولما سعى كل تيار فلسفي للتعامل معه فقد كثرت جزئيات الموضوع التي أنتهت إلى ضرورة شمول هذا الموضوع لكافة الحقائق التي تم تكوينها تكوينا علميا و بجانب النتائج النظرية المنتزعة من كافة الحقائق [٢] ، التي أمكن تغيير أوجه النظر العلمي فيها ، وطريقة التفكير العلمي بشأنها ٠

يقول الدكتور " فوكر " لقد أستطاعت النسبية الأفقية أن تجمع أغلب الموضوعات العلمية ، مما مكنها من تقديم فوائد عديدة نالت من المفكرين عناية كبيرة ، لا لأنها موضوعات بحثية وكفى ، وإنما لأن ما فيها من حقائق جعلت تذوق الناس لها طبيعيا ، وفي ونفس الوقت لم تشب ذلك التذوق الرائع ما يشوب غيره [٣] ، وهذا في حد ذاته يكفي للقول بأنها نالت الثقة ، وحازت كل الإعجاب ٠

جـ ـ علاقتها بفلسفة العلم

تعدد الوجوه التي تجيء فيها ذات العلاقة ، ومن أبرزها ما يلي :

الأول : وحدة الرأي العلمي

النسبية الأفقية تمثل رأيا علميا لأصحابه ، يمكن قبوله متى كان صائبا ، أو وفضه على ناحية علمية، كالحال مع نسبة الحقائق التاريخية في علم الأحياء ، والوقائع العلمية في السياسة ، بل يدخل في هذا النطاق مايتعلق بالزمان والمكان بإعتبارهما موضوعات بحثية تمثل أراء علمية لها الحق في التعبير عن نفسها [٤] ، والقيام بالمهام الموكلة إليها

---

(١) المقصود بالميكانيكية الحركة المنتظمة على أساس أن الميكانيكا علم يضم كلا من الديناميكا وهو علم الحركة ، والأستاتيكا وهو الإنتظام ، وليس المقصود مايتعلق بالآليه وما شابه ذلك ٠

(٢) كلما كانت النتائج قائمة على جملة من الحقائق الثابتة ، حازت القبول ، كما أنها تستطيع مواجهة كافة الإنتقادات التي يسعى أصحابها إلى القيام بها ٠

(٣) جين فوكر: الفلسفة الحديثة والإتجاهات العلمية المعاصرة، صـ ١٥٧، ترجمة عبده الطويل ٠

(٤) راجع كتابنا : مناهج البحث بين التقليد والتجديد ، صـ ٣١٤ ٠

في شيء من السهولة واليسر •

وكذلك الحال مع فلسفة العلم التي تبحث موضوعات علمية خالصة ، وتعالج أوجه القصور القائمة فيها ، كما تعمل على إبراز الدور الحيوي للأنشطة العلمية ، وآية ذلك أن الوجود فكره فلسفية ، وهو في ذات الوقت إتجاه علمي لتفسير ظاهرة علمية ، كلاهما يتفق مع الآخر في كونه رأيا علميا له العديد من الأنصار والكثير من الخصوم •

لقد كانت وحدة الرأي العلمي ، وما تزال ، عاملا مهما في الأبحاث العلمية ، وبخاصة عندما يتحول الباحث العلمي إلى الصورة المثالية التي تعتمد على الحقائق الموجودة ، وتلتمس المعارف الثابتة اليقينية ، بدليل أنه عندما تم إستخدام الرياضيات في التعرف على العمليات الصناعية وتحليلها إلى عناصرها الأولى انفتح باب علمي أدى إلى ظهور نوع جديد لم يكن معروفا من قبل ، وقد أطلق عليه اسم الصناعة الآلية[١] •

ولما أدرك الأحيائيون أن استخدام الرياضيات في العلوم الصناعية أدى إلى هذا التطور الهائل ، سارعوا إلى التعرف عليها ،وحاولوا تطبيق الكثير من تحليلاتها على صفات الكائن الحي ، وقد أدى ذلك إلى إيجاد نوع جديد من الفهم العميق للبنية الإحيائية ، كما كشف عن وجود صورة من الألية التي تعمل بها، ويمكن إجراء التعديلات المتكررة عليها [٢] •

كما أن أصحاب الفكر الفلسفي هم الآخرون قد حاولوا الإستفادة مما تقدمه الرياضيات بغية الوصول إلى حقائق جديدة ، أو إمكانية التعبير عنها في صور إختزالية تكون شاملة لما يمكن إختزاله من المعارف ذات الإمتداد الطولي والعرضي ، وقد مكنهم ذلك من إعادة النظر في العديد من القضايا المثارة [٣] ، كما ساهم في تقديم بعض الحلول العديدة للمشكلات الفلسفية القائمة •

---

(١) وهذا مما يؤكد وحدة البحث العلمي ، مادامت العلوم تؤدي كلها إلى خدمات متوازنة ، وتحقق مصالح مشتركة ، ويمكن توظيفها لأداء خدمة مشتركة•

(٢) راجع كتابنا : التطور الإحياني بين الدين والفلسفة صـ ٧١٥ ، وكتابنا : أوراق متناثرة في التيارات المعاصرة صـ ٣٩٥ •

(٣) من أبرز القضايا المثارة في الفلسفة إمكانية تحويلها من نظري إلى عملي ، أو الإستفادة من نتائجها النظرية في الوقائع الحياتية •

أضـف إلى ما سبـق أن أصحـاب الفكـر التجريبي قـد أنطلقوا ناحيـة الرياضيـات ، فساعدتهم على التقدم البحثي ، ومكنتهم من الوصول إلى تفسيرات محسوبة شاملة لما يحيط بكل الوقائع والظواهر التي يقوم العلماء في معاملهم بدراستها ، فأدى ذلك إلى إكتشاف العديد من النظريات العلمية التي تحولت فيما بعد إلى معارف مباشرة تارة ، وغير مباشرة تارة أخرى[١] .

ويقرر " كراوثر " أن وحدة الرأي العلمي التي تتمثل في الإستخدام المشترك للرياضيات قد حرك خيال العلماء ، ليس إلى الحقائق الجديدة فقط ، وإنما في طرح مشكلات جديدة ماكان لهم أن يعرفوا عنها شينا لو أعتمدوا على المعرفة التجريبية وحدها، وكلما كانت الوقائع التجريبية التي يتم بحثها قليلة العدد ومحددة بشكل دقيق كلما كانت فرصة العلماء في الإستفادة من الرياضيات في تفسيرها ، والتنبؤ بما ستكون عليه مستقبلا أكبر وأضمن ، حينئذ نستطيع أن نعتمد عليها في تكوين تصورات صحيحة ودقيقة عن الطريقة التي ستتطور بها هذه الوقائع فيما بعد [٢] .

وإذا طالعنا وحدة الرأي العلمي هذه ، في كل من فلسفة العلم والنظرية النسبية الفلسفية ، أمكن لنا القول بوجود علاقة بحثية مشتركة ، كشف عنها التقدم العلمي في المجال البيولوجي أبان القرن العشرين ، حيث بدا علم الجينات Genatx رافعا رأسه مفارقا غيره ، وبخاصة بعد أن تعرف العلماء على الجينات ووظائفها ، وتأكدوا أنها تتكون أساسا من حامض ديوكس رايبو نوكليك ذي البنية اللولبية ، وأشاروا إليه بالرمز D.N.A. .

ثم توصلوا إلى أنه من أهم الأحماض النووية [٣] ، وأن وزنه الجزئي كبير جدا قد

---

(١) تتمثل المعارف المباشرة في نتائج التجارب والوقائع التجريبية ، وتتمثل في الوقائع التي يمكن أستخراجها مما تنطوي عليه المعارف والنتائج الأولى .

(٢) ج ج كراوثر : قصة العلم صـ ٢٨٧ ، ترجمة د. يمنى طريف الخولي ، الهيئة المصريةالعامة للكتاب ، سنة ١٩٩٩ .

(٣) فكرة الأحماض النووية قائمة في الخلية الحية على أساس أن الإنسان العادي يتكون من خلايا جسدية ، وأخرى غير جسدية ، وأن الجسدية يبلغ عددها ثلاثة تريليون خليه ، كل خلية منها بها ستة وأربعون كروموسوما - زوجا صبغيا - وبكل واحد من هذه الكروموسومات مائة ألف جين وراثي ، في كل جين وراثي كمية هائلة من الأحماض الأمينية والنووية والبروتينية المسئولة عن كل ما يتعلق بهذه الخلية .

يصل إلى حد المليون ، وأن وجوده يكون في نويات الخلايا [١] ، ويمثل الجزء الأكبر من مادتها الجافة ، وهو مركز التحكم الرئيسي في نقل الصفات الوراثية بالنسبة للكائنات الحية من خلال تواجده في مراكز تكوين البروتينات [٢] .

ثم أجروا العديد من التجارب عليه ، فإنتهوا إلى أنه إذا تمت عملية فصل هذا الحامض من مزرعة ميكروب مرضي ، ثم أضيف إلى مزرعة ميكروب سليم غير مرضي ، فإنه يصاب به ويتحول إلى ميكروب مرضي ، ومن ثم يجب إستعمال الوسائل الواقية في إنسان التجارب حتى لا يتحول إلى مريض [٣] ، وبناء عليه فقدمت هذه الأبحاث قاعدة مشتركة .

وقد أمكن تطويع هذه النتيجة في المجال الإحيائي بصفة عامة ،إنسان ـ حيوان – نبات ،فبان أن وحدة الرأي العلمي مما يقع بين النسبية الفلسفية وفلسفة العلم ، ولا يمكن أن يكون أصلا او أساسا في أحدهما ، ولا أساسا في الأخرى ، وليس ادل على تلك العلاقة من القول بانه ليس من الصعب إدراك وجه التشابه بين الآليه الوراثية والآلية التي يعمل بها أي حاسب آلي ، فكلاهما له برنامج يغذى به [٤] .

وكما ان الحاسب الآلي لا بد له من برنامج لكي يحل مسألة معينة ، كذلك تقوم الآلية الجينية في الخلية ببرمجة المادة الكيميائية التي في بيئتها بحيث توجهها لبناء الكائن العضو بمواصفات معينة ، وهكذا يتشابه الحاسب الآلي مع الكائن العضوي من حيث ذاكرته الآلية وقدراته التنبوية الصادقة [٥] .

---

(١) نويات الخلايا هي أكبر من عضيات الخلية ، وهي تحتوي تقريبا على كل المادة الوراثية للخلية، راجع للدكتور: Mohamad Fathi Saad–Hiatology v.one,p.36 -2007

(٢) ولذا ، فإن التعرف على هذا الحامض قد مكن من الوصول إلى نتائج عديدة أفادت في التقدم العلمي ، كما ساهمت في كشف العديد من الجرائم والتعرف على أصحابها ، فقدم ذلك للبحث العلمي خدمات متوالية .

(٣) تستخدم المراكز البحثية عدة خطوات تجريبية قبل أن تقوم بها على الإنسان ، وأبرز هذه الخطوات ما يتم على حيوانات التجارب التي تم ترتيبها لهذا الغرض ، ويتم التعامل معها لتحقيق ذات الفائدة .

(٤) صورة التغذية في كل منهما قد تختلف عن الأخرى ، لكن القاعدة المشتركة هي وقوع كل منهما في هذه الدائرة ، كما أن كلا منهما يقوم على برنامج يغذى به ولا يحيد عنه .

(٥) أوجه التشابه المرادة هي الظاهرة ، لكن الفروق بينهما كبيره من حيث أن الأولى من صنع الله مباشرة أما الثاني فهو من صنع الإنسان الذي وفقه الله لصنع هذه الآله ، وبالتالي ، فهو راجع لله تعالى على ناحية أخرى ، وفي الحديث الشريف أن الله صانع كل مصنوع وصنعته .

وفي نفس الوقت ، تتشابه آليات الداخلية للكائنات الحية مع الحاسبات الآلية بشكل مدهش ، هذا التشابه يدفع إلى الإعتقاد بانهما معا يتطورا عبر خطين متقاربين ، ومن يدري ، فلعل المستقبل يحمل لنا مفاجأة ، هي أنهما كلاهما يقومان على نفس المبدأ الواحد [١] ، الذي لا غنى لأحدهما عنه ولا يوجد بدونه •

بل أن الدراسات العلمية الحديثة في المجال الحيوي سعت لمطاردة العائلة الفيروسية الكبدية A - B - C - D ، وقدمت مجهودات واضحة أكثرها شيوعا في المجال الدوائي ما عرف بإسم الانترفيرون ، والريبافرين ، حيث أمكن الإستفادة منهما في مقاومة الفيرس C ، وإمكان تحقيق العديد من الإنتصارات التي تحد من نشاطه [٢] ، وتقلل من خسائره ، وتعمل على تلافي أخطاره ، وهناك دراسات أكثر دقة ما تزال تمارس على حيوانات التجارب ، ولما تمت تجربتها على الشمبانزي أدت إلى نتائج سليمة مائة في المائة ، وما تزال عملية التجارب على بني الإنسان تأخذ طريقها في خطا بطينة نظرا لقلة الراغبين في أجزاء هذه التجارب عليهم •

من ثم يمكن القول بأن وحدة الرأي العلمي تمثل قاسما مشتركا بين فلسفة العلم والنسبية ، وأن صورها متعددة نظرا لتعدد الموضوعات والمناهج التي تم التعامل بها ، مع إمكانية القول بوقوع النسبية الخالصة داخل وحدة الرأي العلمي هذه ، وهو ما أكدته الدراسات العلمية الحديثة ، وكشفت عن قناعة الباحث العلمي بأن كلا منهما يمكن التأكد من خلال منهجه البحثي والنتائج التي وقف عليها وإمكانية المراجعة الدائمة لقضايا كل منهما ومشكلاته ، وهذا كله داخل في نطاق وحدة الرأي العلمي على نحو من الإنحاء •

الثاني : وحدة البحث عن النتائج

أجل ، النسبية الفلسفية تبحث عن نتائج تتمسك بها حتى تقيم عليها بعض القواعد ، كالحال مع نسبية كل من الزمان والمكان والحركة ، وكذلك نسبية الكتلة التي تمثل المكون المادي ، وقد سعى لتأكيد هذا الجانب كل من أصحاب النسبية وذوي الإتجاهات

---

(١) ج. ج. ذراوثر: قصة العلم ، صـ ٢٩٣ / ٢٩٤، وهذه النتيجة تؤكد وحدة الرأي العلمي أيضا •

(٢) والقاعدة العلمية القائمة لديهم هي أنه كلما لم توجد نسبة تليف كبدي ، أو كانت قليلة ، فإن إمكانية نجاح الدواء تكون عالية ، فالمسألة بين العلاج والفيرس هي النسبية المنعكسة •

المعاصرة في فلسفة العلم[١] ، بدليل أن الزمان عند الفلاسفة الوجوديين ، إنما هو وجود مستقل لا يقبل العدم أبدا ، بينما الزمان لدى المتكلمين عرض يقبل الوجود والعدم ٠

ثم أن نسبية الإتجاه المادي في الفكر الفلسفي ، قد تلاقت مع مجالات فلسفة العلم من حيث استفادتها من نتائج العلوم المختلفة ، يقول الدكتور " قنصوة " تستفيد فلسفة العلم من كل نتائج العلوم ، وكذلك المعارف ، بل وجميع الممارسات في عصرها ، لكي تستخلص منها دلالات مشتركة تجاوز في تجريدها حدود تلك المعارف والممارسات ، لتضمها وتسلكها في خيط واحد يزودنا بنظرة مستوعبة تكون بمثابة الإفتراضات الواسعة التي ليس لعلم بعينه أن يلم بالتحقق منها [٢] ٠

بيد أن البعض يذهب إلى إعتبار وحدة البحث عن النتائج مما يمكن النظر إليها عن طريق نظرية الوجود التي هي قاسم بين النسبية الفلسفية وفلسفة العلم ، أما كيف ذلك ؟ فلأن نظرية الوجود يبحث الفيلسوف فيها طبيعة الوجود وأنواع الجوهر والأعراض كما ينظر فيها بإعتبار الوحدة أو الكثرة ، وما إذا كان العالم الموجود قائما أساسه على الجانب الواحدي[٣]، أم على الإثنيني ، ويعنون بهما المادة والروح ،أم جاء من عناصر ثلاثة٠

في نفس الوقت ، فإن صاحب النظرية النسبية الفلسفية معني بما قام في الأولى ، أنه يبحث عن الصورة المادية التي لها وجود ظلي مرتبط ومعبر عن الصورة الغير مادية ، والتي هي الأساس والأصل الذي قامت عليه النظريات الفلسفية منذ زمن بعيد [٤] ، فإذا

---

(١) هذا القاسم تبدو ملامحه في جهود كل من الفلاسفة وأصحاب فلسفة العلم، بل أن الموضوعات التي يتناولها كل منهما لها جوانب شتى ، من ثم فقد كانت وحدة البحث عن النتائج من أهم أغراض البحث عن النتائج في كل منهما ٠

(٢) الدكتور صلاح قنصوة : فلسفة العلم صـ ٤١ ، وهو بهذا يعترف أن وحدة البحث في النتائج قائم مشترك بين فلسفة العلم والنسبية الفلسفية ٠

(٣) تختلف المدارس الفلسفية في تفسير نشأة العالم الموجود إختلافا كبيرا ، حتى بين أصحاب الإتجاه الواحد العددي ، كالحال مع القائلين بأن العالم قائم على عنصر واحد ، فإختلفوا ، هل هو مادي ؟ أم روحاني ؟ ، راجع للدكتور توفيق الطويل : أسس الفلسفة ، صـ ٣٤ / ٤٠ ٠

(٤) الفلسفة المادية تحصر موضوعها البحثي في كل ما هو مادي ، بل وترفض الإعتراف بوجود غيره ، وهذا قد أدى إلى وجود نوع من الخلل في الأدوات والنتائج البحثية ، راجع كتابنا : التطور الإحياني بين الدين والفلسفة ، صـ ٦٥٧ ٠

عرضنا ذلك على فلسفة العلم وجدناها في صورتها الحيادية تبحث عن النتائج التي سلف القول بها ، ثم تعيد النظر فيها ، وتعمل على تعديل ما يحتاج إلى تعديل [١] ، وهو في حد ذاته كاشف العلاقة بين النظرية الفلسفية في جانبها النسبي [٢] ، وبين فلسفة العلم.

يقول الدكتور " هويدي " أن حياة المرء في ثلاثة مستويات ، يظهرأولها في إنصراف الفرد إلى تدبير أمور حياته العملية ، بجانب معالجة مشكلاته اليومية الجارية ، ومن أهم صفات هذا المستوى أن مشكلاته جزئية ، وتدور حول حياة الفرد الخاصة ، وما يعترضها في أمور المأكل والمشرب والملبس ، أو تدبير أمور المعاش [٣] .

ثم يأتي المستوى الثاني الذي يتمثل في جملة المعتقدات والمبادئ الخاصة التي يسترشد بها في حياته الخاصة ، وهذه المبادئ تكون فلسفته الخاصة في الحياة ، فلسفته التي يدين بها ويسترشد بهديها ، ويمارس حياته علىضونها ، واعتقاد مجموعة هذه المبادئ يمثل مستوى آخر من مستويات الحياة يختلف عن المستوى الأول من حيث إتساع أفق الفرد فيه ، وأصطباغه بصبغة كلية تختلف عما نجده في المستوى الأول من إغراق في الجزئية التي تمهد لمرحلة المعتقدات والمبادئ [٤] .

أما المستوى الثالث ، فهو الذي يسعى المرء فيه إلى تأصيل المبادئ والمعتقدات ، وتكوين الناحية النظرية ، حيننذ يصبح هذا الفرد باحثا في علم الفلسفة ، وفي الفلسفة العامة ، بعد أن كان في المستوى الثاني ذا فلسفة خاصة فحسب ، أو صاحب وجهة نظر في الحياة التي يحياها ، إن المرء في المستوى الثالث يتحول إلى صاحب تفكير كلي خالص [٥] ، يحاول تقديم وجهة نظر قائمة .

---

(١) فكرة التعديل قاسم مشترك بين النظرية النسبية الطبيعية والفلسفية وبين فلسفة العلم أيضا ، بل يعتبر التعديل الملائم أحد السمات البارزة في كل منهما .

(٢) جوانب الفلسفة متعددة ، فإذا جاء الحديث عن أحد الجوانب تكون الحاجة داعية إلىهذا التخصص ، بل تكون من الضرورات البحثية ، راجع كتابنا : الغزاليات في منطق التصورات، صـ ٢٠٦ .

(٣) هذا المستوى يوشك أن يكون قاسما مشتركا بين جميع بني النوع الإنساني من ذوي العقلاء .

(٤) فكرة التباين في المدارك والمستويات الفكرية تجد لها العديد من الأنصار ، ومن ثم فالدراسات بشأنها عديدة وتحتاج إلمزيد منها .

(٥) الدكتور يحي هويدي : حياد فلسفي ، صـ ٨ / ١٠ ، المكتبة الثقافية ، العدد ٨٣ أبريل سنة ١٩٦٣ ، حيث حاولت الوفاء بالفكرة دون التقيد بجميع الألفاظ .

وما دمنا قد ذهبنا إلى أن التفكير الفلسفي يجب أن يكون واقعيا ، ملتزما بالنصوص الشرعية ، والقواعد العلمية ، فإن عملية البحث عن النتائج تصير قاعدة مشتركة بين الفلسفة في جانبها النسبي ، والفلسفة بالمعنى العام ، بل الأكثر أن فلسفة العلم قد خاضت وحدة البحث عن النتائج نفس خوض النسبية الفلسفية[١] ، مع ان كلا منهما ربما تكون قد عنيت بجملة من الألفاظ حتى تعد وسائلها لبلوغ غايتها ، وتحقيق أهدافها ٠

الثالث : وحدة الوصول للحقيقة

الحقيقة ضالة المؤمن ينشدها إني وجدها، لا يبالي من أين جاءت ، ومبحث الوجود من المباحث ، أوالنظريات الأساسية في البحث الفلسفي، وقد بذل الفلاسفة في بلوغه الجهد المضنى ، بحجة البحث عن الحقيقة ، أو السعي للوقوف عليها ، بل أن النسبية الفلسفية ، رأسية كانت أم أفقية ، يدعي أصحابها أنهم مازالوا يبحثون عن طريق للوصول للحقيقة ٠

يقرر " ريشنباخ " أن النسبية الفلسفية تعني الوصول للحقيقة ، ويقرر أن ذلك يفتح الباب لقبول نتائج نسبية ، لكنها صحيحة على الناحية العلمية ، مع ان السمة البارزة في فكر ريشنباخ هي بالإلتزام بالقضايا العلمية اليقينية ، لكن القارئ ، أو المطالع لموقفه من النسبية الفلسفية يراه زاعما بلوغ الحقيقة أو السعي إليها [٢] ٠

وإذا سلمنا أن علم الفلسفة هو العلم الذي يبحث في الأسس النظرية التي تدعم مجموعة المعتقدات التي يعتقدها كل منا في حياته الخاصة ، وتمثل مايسميه الناس عادة الفلسفة الخاصة بكل شخص منا في الحياة فقط ، تأكد لنا أن الفلسفة هي البحث في تعميق هذه الحياة ، والنفاذ إلى أعمق أعماقها عن طريق الإهتداء إلى المبادئ الكلية العامة التي تقوم عليها ، وهو مايعرف بإسم الوصول للحقيقة [٣] ٠

---

(١) أوجه التشابه بين الطرفين عديدة ، وصور الإشتراك متعددة الجوانب ، وهو ما يعني أن وحدة الوصول للحقيقة يمكن إعتبارها أحد القواسم المشتركة بينهما ٠

(٢) راجع هانز ريشنباخ : نشأة الفلسفة العلمية ، الفصل التاسع و صـ ١٣٣ / ١٣٥ ، ترجمة الدكتور فؤاد زكريا ٠

(٣) الدكتور يحي هويدي : حياد فلسفي / صـ ١١ ٠

لست هنا أتحدث عن وظيفة فلسفة العلم ، ولا وظيفة علم الفلسفة [١] ، وإنما أحاول التعرض للقواسم المشتركة بين فلسفة العلم والنسبية الفلسفية ، وهذا في حد ذاته يسمح لمثلي بالإنتقال السريع بين المقدمات ، والسعي الجاد نحو الوصول إلى الحقيقة التي يتغياها الفلاسفة والمفكرون [٢] ، ثم حقيقة الحقائق ، وهو الله رب العالمين ، التي فطر الله الناس عليها ، وجاء الأنبياء والمرسلون المكلفين إليها ۰

بيد إنه لما كانت الحقيقة الثابتة واحدة ، فإن عملية الوصول إليها قد يقع فيها عمل النسبية ، نظرا للباحثين عنها ، بإعتبار الملكات والإمكانيات ، بجانب للفروق الفردية[٣]، التي هي عامل حاسم في مثل هذه المسائل ، و هذا في حد ذاته أمر مهم أيضا ۰

الرابع : وحدة التأثر والتأثير

لما كان العلم الإنساني تراكميا ، كل فرد يفيد منه ويستفيد به ، فقد صارت العلاقة بين أجزاء هذا العلم هي التأثر بالسابق ، ثم التأثير في اللاحق ، لأن العلم يزاوج بعضه بعضا ، فيأتي عن هذه المزاوجة العديد من الثمرات التي تنقل بعض الملامح ، أو تمهد لها وذلك من شأنه تعزيز فكرة التأثر والتأثير ۰

وحيث تقرر أن النسبية الفلسفية رأي علمي ، والفلسفة بحث علمي ، فقد استفادت النظرية النسبية من مهمة الفلسفة[٤] ، وتأثرت بهاإلى حد بعيد ،ثم قامت النسبية فيما

---

(١) هناك فوارق عديدة بين فلسفة العلم وعلم الفلسفة ، وقواسم متعددة بينهما ، وقد ألمحت إلى ذلك في الكثير من المواقع العلمية ، راجع كتابنا : قراءات في العقيدة وفلسفة العلم ، كتابنا : مناهج البحث بين التقليد والتجديد ، كتابنا : الحثيث في المنطق الحديث ۰

(٢) هذه الحقيقة يمكن تسميتها بالحقيقة الجزئية ، أو الحقيقة المخلوقة ، أو الحقيقة المعرفية ، أما حقيقة الحقائق والأساس لكل ما وراءه ، فهو معرفة الله عز وجل ، ومعرفة ما يرضيه جل شأنه ، وقد بذل مفكرو الإسلام في إقامة الأدلة عليها جهودا كبيرة يمكن مراجعتها في الفكر الإسلامي من خلال جوانبة المختلفة ، كالحال مع مفكري الصوفية ، وعلماء الكلام ، بجانب علماء التفسير والحديث والفقهاء وغيرهم ۰

(٣) الفروق الفردية لم يكن لها في الماضي شأن كبير ، لأن الناس ما كانوا يعيرونها هذا القدر من الإهتمام ، أما في العصر الحديث ، فقد نالت عناية كبيرة ، بل صارت نظرية في علم النفس تعرف بنظرية الفروق الفردية ، راجع كتابنا : التفكير الإنساني أصوله ومستوياته ، صـ١٧٠ / ١٩٥ ۰

(٤) هذه الإستفادة تبدو ملامحها في العديد من الجوانب الفكرية ، ومن اليسير الوقوف عليها ، متى وضع المرء في حسبانه هذا الغرض ۰

بعد بالتأثير في الكثير من التصورات الفلسفية ، أدى إلى ظهور بعض النتائج الفلسفية التي تحمل ملامح هذه النظرية ٠

لكن ربما يقال ، أيهما الذي مارس العملية الأولى على الثاني ، أهي فلسفة العلم ، أم النسبية الفلسفية ، وبعبارة أخرى ، يمكن أن يقع تساؤل مؤداه ما الذي سبق الآخر فأثر في اللاحق ، وهل هي على الدوام والإطراد ، أم على سبيل النسبية أيضا ؟ [١] ، وما هو الدليل على ما نعتبره نتائج دراسية ، او بحثية ؟

والجواب على الأول : أيهما الذي سبق فأثر أو تأخر ، فتأثر ، يجيء من الناحية التاريخية تارة ، والواقعية أخرى ، لأن التاريخ العلمي يقرر سبق فلسفة العلم في الوجود من ناحية التأليف والدراسة والبحث والإستنتاج على النسبية العامة [٢] ، وهذا في حد ذاته يمثل إحدى المقررات الأساسية في المسألة ، يدل عليه أننا استعملنا مصطلح فلسفة العلم على الحركة النقدية الواعية التي تسعى لتقديم نتائج صحيحة يمكنها الدفاع عن قضاياها ، وتمهد لأحداث تطورات علمية تقدم خدمات متعددة ، ومن ثم ، فالتاريخ حاكم بأن فلسفة العلم أسبق وجودا من النظرية النسبية[٣] ، ويكون التأثير للسابق على اللاحق من المسائل التي إنتهى النزاع بشأنها ٠

كما أن فلسفة العلم تهمس في أذن القارئ ، بل وعقل السامع ، وتتحسس اماكن الهدوء والراحة للباحث ، ثم تواصل مهامها مع طلاب الحقيقة في الوصول إليها ، والنسبية جزء من الحقيقة التي يسعى إليها هؤلاء، متى كانت قائمة على أسس سليمة ، وتحميها قواعد صحيحة [٤] ، فمثلا ، حررت فلسفة العلم ذاتها من قيود التبعية للأحكام

---

(١) فكرة الإطراد والنسبية في التأثر والتأثير، محل بحث ما يزال قائما ، وهذا في حد ذاته كفيل بتوجيه العديد من الدراسات نحو تلك العلاقة ،لأن هذا إتجاه جديد تدفع إليه فلسفة العلم أيضا ٠

(٢) راجع هذه الجزئية في الفصول السابقة من صدر هذا الكتاب ، وبخاصة أثناء الحديث عن فلسفة العلم من الناحية التأليفية ، فهناك تفاصيل يمكن أن تفيد في هذا الشأن ٠

(٣) راجع كتابنا : مناهج البحث بين التقليد والتجديد ص ٢٩٧ ، وكتابنا : الحثيث في المنطق الحديث أثناء الحديث عن فكرة الاستقراء العلمي وتاريخها ٠

(٤) من ثم كانت النسبية المقبولة لديهم هي التي تتعلق بالحقيقة ، مع ملاحظة أن النسبية التي يمكن أن تكون مقبولة عندنا هي التي تمت الإشارة إليها في الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، وبخاصة تلك التي تتعلق بالزمان والمكان ، بل وكثير من العبادات التي ارتبطت بالتكاليف العملية على وجه العموم٠

المسبقة ، وقررت ان تبدأ كل جزئية بحثية بمراجعة النتائج ، حتى إذا إنتهت إلى كونها صحيحة أخذت بها ، ولم تعد إلى إختيارها من جديد .

ونفس الشيء قامت به النسبية الفلسفية ، إذ كان السائد من أفكار حول المادة أنه لاتوجد بينها رابطة نظرا لكثرتها ، حيننذ قرر " ديكارت " مراجعة هذه النتائج [١] ، حتى إذا إنتهى إلىأن الأجسام المادية لا توجد إلا في مكان أوإمتداد ، تسلم هذه النتيجة " نيوتن " وأقام أبحاثه حولها حتى إنتهى إلى فكرتي الزمان المطلق والمكان المطلق [٢] .

كذلك تحدثت النظريات الفلسفية عن العلة ، وأختلفت فيها إلى أبعد مدى ، وظهر معها كم هائل من النتائج ، كلها كانت محل قبول من البعض ، وعدم قبول من بعض آخر [٣] غير ان فلسفة العلم قامت بمراجعة هذه النتائج ، ثم أنتهت إلى أن العلة تنحصر في الأثر الميكانيكي الصادر عن كمية محدودة من الحركة منبعثة عن المادة نفسها[٤] ، وقد أكد ذلك " ديكارت " حينما قرر أن العلة عبارة عن مدرك آلي ميكانيكي يتضمن الكون كله بمافيه مما يتناوله ، وما سادت فيه الفوضى ، ولا يخريج عن تلك الآلية شيء من الأفكار إلا من خلال النوع الإنساني وحده [٥] .

ومن ثم كانت المادة في طبيعتها ، والعقل الإنساني في شكله وكيانه ومدركاته ، هما معا ، مما مهد لنيوتن في إنشاء جملة من المبادئ والقوانين التي إنتهت إلى أن

١ - الزمان المطلق في ذاته ، وبحكم طبيعته الخاصة به يفيض بنسب متعادلة[٦] ، إذ لا شيء من الأشياء الخارجة عنه أدنى صلة به .

---

(١) لمعرفة ما قام به ديكارت في هذا الشأن ، راجع كتابنا : خواطر حثيثة في الفلسفة الحديثة صـ ٤١٥ ، الطبعة الثامنة .

(٢) فكرة الزمان المطلق غير فكرة المكان المطلق ، ولذا أود أن تقوم دراسة علمية حول هذه المسائل من الناحية الفلسفية والكلامية .

(٣) كثرة النظريات الفلسفية حول العلة ، يدل عليه ما لها من تعريفات وأقسام وانواع وتفرعات ، ويمكن الرجوع إلى هذه كلها في كتابنا : الإلهيات عند ابن سينا ، صـ ٣٧ / ٤١ .

(٤) هذا يعتبر صورة توظيفية لمفهوم العلم والفلسفة التقليدية التي تجيء في الدراسات الفيزيائية وهذا في حد ذاته إتجاه أفادته طبيعة العلاقة بين فلسفة العلم والفلسفة التقليدية .

(٥) الدكتور محمد زكي عبد العظيم : الفلسفة الحديثة والمعاصرة ، صـ ٩٥ ، وراجع للدكتور على مشرفه : النسبية الخاصة ، صـ ٤١ / ٤٢ .

(٦) ادوارد جيمس : الحركة النقدية في الفلسفة الحديثة ، صـ ١٣٤ ، ترجمة زكريا فاضل ، ط. الثانية ، سنة ١٩٨٧ .

٢ - إن المكان المطلق ، يظل هو الآخر في طبيعته، وماهيته ، وإستقلاله ، واحدا لا يتغير ، ولا يتحرك ، ما لم يكن له إتصال بشيء خارج عنه ، فإذا وقع ذلك الإتصال تغير الوضع[١] ، بل لم يعد المكان المطلق جديرا بهذا الوصف ، وهذا في حد ذاته مما يؤكد أن كلا منهما يؤثر في الآخر تارة ، ويتأثر به أخرى ، بل لا مانع عندي من أن يكون كل منهما مؤثر ومتأثر في ذات الوقت ، لكن على جهات مختلفة ٠

مثال آخر على علاقة التأثر والتأثير ، ما يعرف بإسم الهندسة الإجتماعية الجزنية، التي كانت الفلسفة التقليدية تحلم بها ، ولا تملك أكثر من هذا الحلم اللذيذ، ثم جاءت فلسفة العلم ، فجعلت لهذه الهندسة دورا كبيرا في تخليص البشر من الشرور التي يعانون منها ، والأخرى المتوقعة [٢] ، ولم تزف البشرى فقط ، لأنها نظرت إلى البطالة ، والفقر ، والجهل ، و المرض ، والإضطهاد ، ثم عمدت إلى مجابهتها على أرض الواقع ، حتى إذا قلت آثارها السلبية بدأت الفلسفة تنظر إلى نتائجها نظرة إحترام وتقدير٠

بل كانت الهندسة الإجتماعية الجزنية تستند إلى التكنولوجيا كمنهج علمي ، من خلال غايه تتحق معها مصالح البشر ، ومن خلاله ، يذوق الفقير المحروم طعم المتعة ، ويشعر المضطهد بأنه صاحب قرار يتعلق بأمنه وأمانة ، ويحقق له جملة من مصالحة وأهدافه ، ويوفي طموحاته [٣] ٠

لقد صارت الفلسفة الكلاسيكية تحلق في الفضاء الحالم بعض الوقت ، ولم تكن تعرف أرض الواقع إلا قليلا ، أو يمكنها أن تلمسه ، فجاءت النسبية الفلسفية ، وأكدت أن

---

(١) هذا يتعلق بتجريد المكان والزمان من المفاهيم التي ألفها الناس ، وترددت على الأسنة الفلاسفة التقليديين ، ولا شك أنه جهد يحتسب لفلسفة العلم ، ويفيد كلا من الباحث العلمي النظري والباحث المعملي الذي يسعى لتحويل القضايا النظرية إلي صور عملية واقعية ٠

(٢) الهندسة الإجتماعية الجزنية تفيد قيام المفكر بدور بارز في حل المشكلات واحدة تلو الآخرى بحيث يتمكن المرء من تقديم أفضل النتائج الإيجابية على المستوى العلمي في الجانب النظري والعملي معا ٠

(٣) راجع كتابنا : منهج البحث بين التقليد والتجديد ، صـ ٢٥٣ ، وراجع لجورج هيومان : أعلام الفلسفة الحديثة والمعاصرة ، صـ ٣٧٥ ، ترجمة هادي بشر ، سنة ١٩٩٨ ٠

المشكلات اليومية نسبية ، وإذا أمكن لنا أن نقلل من حجم المشكلات ، أمكننا بنفس المقدار توفير أكبر قدر من السعادة [١] ، وهنا نخلص العالم من الشرور التي تزاحم الناس ساعات نهارهم ، وتقض مضجاعهم سويعات ليلهم •

إن فلسفة العلم قد اعتبرت المشكلات الفلسفية جزءا من موضوعاتها البحثية ، ثم تبين لها وجود مشكلات متوهمة صنعها خيال أصحابها ،وجاءت تعبيرا عن ظروفهم النفسية والإجتماعية، أو كانت بمثابة النافذة التي يطلون من خلالها على العالم الخارجي فيلقون حزمة الأفكار الإنهزامية التي يعانون منها ، ومن ثم استنفذت طاقتهم في هذا الميدان ، حتى إذا إنتهت منه ، رجعت بأفضل النتائج [٢] •

والنسبية الفلسفية هي الأخرى جعلت الناس يلامسون أرض الواقع من بعيد ، عن جملة الأحلام ،وبدل أن كان الفلاسفة يعيشون في المدن الخيالية ويطلقون على أنفسهم اليتوبيون ، صاروا يبحثون عن وسائل تخلصهم من الشرور ، بدل أن كانوا يبحثون عن عالم المثل الخيالي [٣] ، الذي غلبهم عليه الخير والحق ، والعدل والجمال ، وفي إتخاذهم هذا الطريق منهجا فلسفيا ، تمكنوا من تحمل مسؤلياتهم ، ومن هنا قالوا أن الهندسة الجزئية كفيلة بإكتشاف ومقاومة أعظم الشرور ، وأكثرها إلحاحا في المجتمع ، وهذا أفضل من مجرد إكتشاف الخير الأقصى الذي يصعب الوقوف عليه ، فضلا عن تحقيقه [٤] •

وإذاكانت الفلسفة الكلاسيكية قد عاشت ردحا طويلا في البحث عن المنهج المثالي و وكيفية تحقيقه على أرض الواقع ، فإنها قد تأثرت بفلسفة العلم ، حينما تأكدت أن ما

---

(١) راجع كتابنا : السعادة في الفكر الإنساني ، جـ ٢ ، صـ ٣٥٣ ، وقد تحدث عنها الكثير من العلماء ، وأتت بها الدراسات العديدة ، فراجعها تظفر بها •

(٢) راجع كتابنا : قضايا حثيثة في الفلسفة الحديثة ، صـ ٨٣ ، وبالتالي كان دور فلسفة العلم هو التنقية لكل النتائج واستبقاء ما يصلح منها ، والتخلي عن الفاسد منها ، وهو دور مهم ومفيد ففي تقدم العلوم والمعارف •

(٣) راجع كتابنا : المثل المعلقة في الفكر الإنساني ، حيث ترى أنواع المثل بوجه عام ، ودور المفكر المسلم في بنائها ، بل وكيفية المحافظة عليها ، بجانب إستقلاله التام عن التبعية لغيره في المسألة •

(٤) جورج كيمن : الفلسفة والمعرفة ، صـ ١٥٣ ، ترجمة هاني ويصا ، ط. دار النيل ، سنة ١٩٩٥ •

لايدرك كله لا يترك كله ، وأن الصراع لم ينقطع ، وأن عمليات المد والجزر بين الخير والشر أبدية (١) ، ومن ثم عاد الفلاسفة إلى أرض الواقع ثم بذلوا جهودهم في إصلاح ما يمكن إصلاحه ، وتقديم ما يمكن إعتباره أفضل النتائج •

وبناء عليه ، أمكن القول بوجود علاقة التأثر والتأثير بين فلسفة العلم والفلسفة بالمفهوم العام ، ولم يعد كجرد إتجاه نظري خالص ، يمكن إغفاله •

الخامس : التعديل في المفاهيم

عرفت الفلسفة بأنها صاحبة مفردات محددة ،ومفاهيم متحركة ، بحيث تستوعب مستجدات العصر ، وهذا من شأنه أن يجعلها ذات ميزات أمكن لكل فيلسوف الأخذ منها ، أو الإهتداء بها ، وكانت فكرة المدينة المثالية ، أو المجتمع الفاضل (٢) ، من أكثر المفردات تحديدا وثباتا ، إلى الحد الذي جعل جمهرة الفلاسفة يضعونها في حسبانهم من الوهلة الأولى ، سواءأكان ذلك لدى فلاسفة اليوتوبيا الذين سجلوا آمالهم وأحلامهم حولها في شيء من التفصيل ، أم كان من جملة هؤلاء الذين جعلوا تناولها هدفا (٣)، وحالت ظروفهم عن بلوغ أهدافهم •

فقديما تحدث " سقراط " عن المجتمع المثالي ، وبان ذلك في كثير من المؤلفات التي نسبت إليه ، وكان " أفلاطون " من أكثر الذين كتبوا عنها في عالمه المثالي ، وقد برز هذا في محاوراته(٤)، أما أرسطو فقدم صورة لهذا المجتمع المثالي على غرار ما هو قائم في وجدانه ، ومااستطاع التعبير عنه ، أو الغوص خلفه ، ثم سجل القديس" أوغسطين " هو الآخر هذه الأحلام في كتابه مدينة الله (٥)، والفارابي كتب عن المدينة الفاضلة ، وكذلك الشيخ الرئيس ابن سينا في أثره الرائع حي ابن يقظان •

---

(١) راجع كتابنا : تأملات غزالية في الأفكار الفلسفية صـ ٢٥١ ، وكتابنا رياض الأشواق في الميتافيزيقا والأخلاق صـ ٢٣٤ •

(٢) تعتبر فكرة المجتمع المثالي أو المدينة الفاضلة من أكبر القضايا الفلسفية إلحاحا على عقل الفيلسوف لما لها من تأثير فعال بجانب إنها تمثل محاولة جادة لنتائج الفكر الفلسفي نفسه •

(٣) راجع في هذه المسائل لدى الدكتور محمد سيد أحمد المسير : المجتمع المثالي في الفكر الفلسفي ، وهي رسالته التي نال بها درجة الدكتوراه من جامعة الأزهر •

(٤) راجع لأفلاطون : محاورات أفلاطون ، ترجمة د. / زكي نجيب محمود ، طبعة لجنة التأليف والنشر سنة ١٩٤٥ ، وكذلك كتاب المدينة الفاضلة •

(٥) اسم مدينة الله عنوان لكتاب أوغسطين، وكلهم حاول استعمال الأسم الذي يراه مناسبا لفكره •

ولم تتوقف الجهود إلى يومنا هذا ، حول نشداف الأمل في وجود عالم خال من الشرور ، وتكون القيادة فيه للفلاسفة أو الحكماء[١].

وفي ظل وجود فلسفة العلم ، بان للفيلسوف أن أحلامه إنزعاجية ،ونزعته خيالية ، ومن ثم ادرك أن هذه الأفكار غير قابلة للتنفيذ ، فقرر تنحية هذه الألفاظ من مفاهيمها الفضفاضة إلى أخرى قابلة للتطبيق ، حتى إنتهى إلى ان فكرة إنشاء مدن مثالية إنما هو مشروع يوتتوبي غير قابل للتنفيذ[٢]، أو أنه يقبل التنفيذ ، لكن بنفقات لايمكن تحملها، أو قبولها ،حيننذ قرر النزول إلى أرض الواقع ، وأعلن إمكانية استعمال مصطلح عالم منشود بدل من مصطلح عالم يوتوبي ، وإنتهى إلىأن العالم المنشود إذا كان قابلا للتنفيذ بنفقات مقبولة ، ومن خلال إجراءات محددة ، فإنه يتحول من خلالها الواقع الراهن إلى النموذج المنشود [٣]، وفي هذا نوع من التنازل عن طبيعة المفهوم الذي كان له وجود ثابت داخل الألفاظ المستعملة ، أو المتداولة في الماضي القريب •

بل أن فلسفة العلم أثرت في البناء الفلسفي العام ، وإستطاعت تحريك الكثير من مفاهيمه الثابتة ، إلى جانب توظيفي ،يمكن أن تظهر ملامحه على أرض الواقع في صورة واضحة وسريعة أيضا ، بدليل أن فكرة البرامج الشاملة لإعادة البناء الإجتماعي قد برزت معالمها داخل الفكر الفلسفي الحديث والمعاصر [٤]، وهو ما يعني استقطاب فلسفة العلم لبعض المفاهيم ثك تفريغها من رائحتها القديمة وغرسها داخل الأطر الفلسفية التقليدية ، معبرة عن نزعة تجديدية عمادها تعبئة المصطلحات القائمة ، بما يمكن أن

---

(١) هذا التحصيص قائم على أساس أن الفلاسفة هم أقدر الناس على بناء هذه المدن ، وهم الأكثر قدرة على صيانتها وتنفيذ المشروعات الفكرية التي وضعت كأساس لها ، راجع كتابنا : تقدم الفلسفة في المشرق وتأخرها في المغرب

(٢) معيار قبول المشروع للتنفيذ من عدمه ليس في نظر الناس إليه ، وإنما في قدرة المفكر على تحقيقه ، وإستجابة المجتمع للنتائج المترتبة عليه •

(٣) أنطوني دي كرسيني ، كينيث مينوح / اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة ، صـ ٨١ ، ترجمة نصار عبد الله ، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب ،القاهرة سنة ١٩٨٨ •

(٤) تقوم هذه الفكرة على النظرية الهندسية الجزئية ذات الأبعاد الإجتماعية والتاريخية ،وكان بوبر من أكثر الذين تحمسوا لها ، وكتبوا عنها ، وطالبوا بإعادة بناء المجتمع خطوة خطوة حتى يسهل الوصول إلى العالم الأمثل أوالمنشود في الفكر الفلسفي •

يحقق المنفعة العلمية على أرض الواقع الفكري و العملي معا ٠

مثال آخر ، حيث كانت الفلسفة التقليدية تحرص عليه أشد الحرص ، وهو العمل السياسي الذي ظل خاضعا في بنائه وغاياته لمجموعة من الموجهات والمحددات التي ترسم صورة نهائية للمجتمع الأمثل ككل (١)، ولكن هذا التوجه لم يحقق أدنى منفعة ، بل إنما إدى إلى نتائج غاية السوء ، فتم استبدالها بهندسة إجتماعية جزئية قائمة على سياسة الخطوة بعد الخطوة ، وهي سياسة تستهدف مواجهة المساوئ والمشكلات الإجتماعية الراهنة ، ومحاولة إصلاحها دون التقيد بإطار مثالي يستهدف إعادة تنظيم المجتمع بأكمله(٢)، دون أن تحقيق أدنى غاية واقعية ٠

ومن ثم وقع تأثير لفلسفة العلم على النسبية الفلسفية العامة (٣)، بحيث يمكن إعتباره علاقة صورية بين النسبية الفلسفية من جهة ، وفلسفة العلم من جهة ثانية ، وله مردود علمي يفيد في تقدم العلوم وتحويل الفلسفة النظرية إلى وقائع عملية ذات طرائق معيارية ٠

السادس : خاصية التكامل (٤)

الفلسفة العامة بوجه عام والنسبية الفلسفية ، تسعى للتكامل البحثي ، لأنها حين تناقش الجزئيات ، إنما تعمل على إثبات الحقائق ، وتبين علاقة كل منها بالآخريات ، حتى إذا إنتهى الأمر إلى التعرف على جملتها لم يعد هنالك مجال لإصدار أحكام غيز صحيحة ، لأن الفلسفة التي تبحث عن هذه الغايات لا بد ان يكون لديها استعداد حتى تصل لذات النتائج ، ومن ثم فلا بد أن تكون لديها القناعة بإمكانية حدوث التلاقي بين

---

(١) هذه الصورة الكلية تمثل النظرة الأساسية للفكر الفلسفي التقليدي ، لكن فلسفة العلم تبلغ ماتريده من خلال تناول كل هذه الظواهر والمشكلات واحدة تلو الآخرى بنظام التخلص من المشاكل والمعضلات واحدة تلو الآخرى ، وهذا من شأنه تقديم نتائج إيجابية رائعة ٠

(٢) Popperk the poverty. Of historicism - pp,٧٣,٤

(٣) التماس أوجه التأثر أو التأثير لا يجد المرء فيها صعوبة ، طالما وضع في حسبانه الوقوف على الأصول العامة ، ورغبة الوصول إلى الحقيقة ، وهذا من شأنه التأكيد على إمكانية إحداث تعديل في الإتجاه الفكري ، مادام ذلك يحقق مصلحة عامة للفرد والجماعة في الدين والدنيا ٠

(٤) أقصد أن كلا من الفلسفة بالمفهوم العام ، وفلسفة العلم ، لايمكنها أن تمثل إتجاها معرفيا استقلالا،وإنما لا بد من تكاملها مع غيرها في صورة خدمية تحقق فوائد عديدة للبحث العلمي٠

الأفكار الصحيحة وتكاملها مع بعضها٠

والنسبية الخاصة إنما تبحث في الأجسام أو المجموعات التي تتحرك مع بعضها ، بحيث تكون حركتها مع بعضها بنسب ثابتة إنها مجموعات تتحرك حركة منتظمة بدون عجلة ، ولكونها ترتبط بالأجسام أو المجموعات ذات الإرتباط النوعي ، فقد سميت خاصة ، لكنها تسعى إلى التعامل مع غيرها ، مما يحقق ذات المنفعة ، وحينئذ يمكن أن يضاف إليها شيء آخر ، ولو في التسمية والإطلاق ٠

كما ان النسبية العامة تبحث في الأجسام والمجموعات التي تتحرك مع بعضها بنسب ثابتة، لكن من خلال حركة منتظمة، إنها مجموعات تتحرك حركة منتظمة بدون عجلات، ومن ثم فإنها تعم الخاصة ، لأن النظرية الخاصة هي في الواقع حالة خاصة من حالات النظرية العامة [١]، أما لماذا ؟

فلأن المجموعات في النسبية الفيزيائية وفلسفة العلم تتحرك بسرعة ثابتة يمكن النظر إليها على انها تتحرك بعجلة مقدارها صفر ، ومع كل ، فالمجموعات التي تتحرك بسرعة منتظمة أسهل في دراستها من المجموعات التي تتحرك بسرعة متغيرة ،ولذا أمكن الإهتداء إلى النظرية الخاصة أولا ، هذا من الناحية العلمية ، أما من الناحية المنطقية والفلسفية ، فإن نظرية النسبية العامة لم تخل أبدا عن أي من المبادئ الابستمولوجية الأساسية للنسبية الخاصة [٢]، وهو ما يؤكد وجود خاصية البحث عن التكامل داخل هذه المباحث من الناحية المعرفية ٠

ونظرا للأبحاث العلمية التي إنتهت إلى نتائج يقينية في المجال الرياضي ، فقد سلمت النسبية بفرضين أساسيين ، هما :

أولا : استبعاد فرض الأثير تماما [٣]، ثانيا : إثبات سرعة الضوء بصورة مطلقة ،

---

(١) الحركة الثابتة المنتظمة غير الحركة المتغيرة ، كما أن الحركة الثابتة في الإتجاه المطرد أسهل من ناحية الدراسة ، وأيسر في الوصول إلى نتائج حاسمة ، سواء على الناحية الفيزيائية أو الميتافيزيقية ٠

(٢) الدكتورة يمنى طريف الخولي : العلم والإغتراب والحرية ، صـ ٣٥٢ ٠

(٣) في النسبية العامة يبدو مبدأ التكافؤ بين الحركة ذات السرعة المتغيرة وبين قوى الجاذبية ، وقد عرف أنه عند أي نقطة في الفضاء تتكافأ الآثار الناتجة عن قوى الجاذبية بعجلة ذات السرعة المتغيرة ٠

وهذا هو الشيء الوحيد المطلق في الكون النسبي ، وليس المقصود ثبات سرعة الضوء فقط وإنما المقصود السرعة الكونية لجميع الظواهر الكهرومغناطيسية ، فكلها تتحرك بالسرعة نفسها ٠

بيد أن الذي أريد ان أنوه إليه هنا ، هو أن كلا من فلسفة العلم والنسبية الفلسفية ، تسعى للتكامل مع الأخرى ، وأنها تجيء في آخر المطاف معبرة عن قصور وتناه ، وهذا في حد ذاته مما يؤكد إحتياجها إلى الخالق العظيم جل علاه ، ومن ثم نعود إلى القول بأن الكائنات والمفاهيم يجب أن يكون إرتدادها إلى الأصل ، وأن تكون في عمل دائم ، على الأمر الذي يرضيه جل شأنه ، وأنها إذا خرجت عن هذا الإتجاه فقدت تكاملها ، بل لم يعد لها وجود [١] ٠

ثم ان خاصية التكامل ، إنما هي قاسم مشترك بين أطراف العلم الحادث ، إذ لا يستغنى علم عن آخر ، لأنها جميعا تنفصل عن أصل واحد ، هو الذي وهبه الله تعالى لبني بالإنسان ، بدليل أن العلوم النظرية كلها تسعى للتكامل فيما بينها حتى تكون مجموعة معرفية نوعية ، وكذلك الحال مع العلوم التجريبية [٢]، ولم تقف العلوم الرياضية بعيدا عن هذا الميدان ، بل جاءت هي الأخرى ساعية لذات الغرض ٠

ثم أن المفروض هو سعيها جميعا لتجقيق مصلحة مشتركة ، وفوائد تتلاقى بما يحقق السعادة للبشرية ، وهو معنى من المعاني التي يجيء التكامل فيها ، أو بعيدا عنها ، ومن هنا كانت الحكمة القائلة بأن العلم يخدم بعضه بعضا ، والعلم النافع هو المقرون بتحقيق السعادة ، وتوفير الرفاهية ، وإشاعة الأمن والأمان بين الناس [٣] ٠

على أن ما يمكن الإلتفات المتواصل إليه هو فكرة تنوع النسبية الطبيعية إلى خاصة وعامة ، وتنوع النسبية الرياضية إلى ذات التنوعات ، وكذلك الحال مع النسبية التي

---

(١) إن الذي تعتقده في صحة أي تكامل ، قيامه على الدليل الذي يجيء معه عند الله تعالى في غاياته وفوائده بجانب الأحكام الشرعية المتعلقة به ، فإذا خرج عن هذا لم يعد مقبولا ٠

(٢) لمزيد من التفاصيل ، راجع كتابنا : مناهج البحث بين التقليد والتجديد ، صـ ٢٢٩ / ٢٣٥ ، حيث تناولت فكرة التكامل بين العلوم من الناحية المنهجية ٠

(٣) راجع كتابنا : السعادة في الفكر الإنساني ، جـ ٢ صـ ٧١ / ٧٣ ٠

عمادها الأفكار الفلسفية ، لأن هذه الفكرة القائمة على التنوع توحي بوجود علاقة ربطية بين أجزاء العلم المختلفة ، كما تؤكد وجود العديد من العلاقات والروابط النسبية بينها وفلسفة العلم ، وإن ذلك قد أدى إلى تعديل في كثير من النتائج [١]، بجانب تحقيق كثير من الأهداف ٠

فمثلا ، إستخدام العلم الحديث مصطلح الماكروكوزم ، ويقصد به العالم الأكبر الشامل للعالم المشاهدة وغيره ، إذ قد يقصد به الكون الكلي [٢]، وفي نفس الوقت ظهرت له علاقة بمصطلح الكوانتم ، الذي يقصد به ، وهو لدى البعض مفهوم الفيزياء الذرية ـ ميكانيكا الكوانتم [٣] ، وصارت هذه العلاقة وسيلة لهدم فكرة الحتمية، ورفض ذات المبدأ، وكل مايلزم عنه ، وقد ترتب على هذا أن صار المفكر حرا ، يجادل في مبدأ الحتمية العلمية والعقلية الذي كانت له السيطرة التامة على عقول الناس فترة من الزمان ، حتى جعلهم أسراه ، يلهبهم بسياطه متى شاء ٠

بل أن هذه العلاقة الحميمة بين فلسفة العلم والنسبية مهدت لظهور مبدأ اللاحتمية[٤]، الذي ينتهى إلى ضرورة الإعتماد على سنن الله الكونية ، ويفتح الأمل واسعا أمام أولئك الذين شغلتهم أنفسهم ووقعوا في المعاصي ، أو كانت خطواتهم نحو الهوى تنقاد بهم ، إنهم جميعا قد فتح الله أمامهم باب التوبة ،وناداهم بأن رحمة الله قريب من المحسنين ٠

---

(١) التعديل في النتائج البحثية من مجالات فلسفة العلم ، ولذا اعتبرت مهمة التعديل في النتائج من فوائد الفلسفة التي لا تقتنع بالقائم ، وإنما تسعى دائما للتأكد من صحتها وسلامتها ، بجانب إمكانية تعميمها ٠

(٢) فكرة الكون الكلي ، أو العالم الأكبر ، يشترك فيها الفكر الفلسفي النظري مع الفكر العملي التجريبي ، وكل يتناولها من الجانب المعرفي ، ومن هنا إختلفت المقدمات البحثية طبقا للمناهج الدراسية ، وإختلفت النتائج تبعا لإختلاف المقدمات ٠

(٣) هذه المصطلحات من وظائف فلسفة العلم ، ولذا ، فإن العثور عليها يكون أمر ميسور في المصادر ذات الصبغة العلمية ٠

(٤) مبدأ اللاحتمية يسمح لتحمل الإنسان مسئولية ما يصدر عنه ، بل وتتم محاسبته عليه من الناحية الشرعية ، كما أنه يمهد للإنسان في القيام بواجبه حتى يسعى لتنمية العالم الذي يعيش فيه ويحاول أن يكون عضوا فعالا ، له إهتمام بكل ما يحيط به ٠

يدل عليه قوله تعالى ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ (١) .

مشكلات النسبية الفلسفية

ليس لدى أدنى شك في أن العقل منحة ربانية ، ونعمة نورانية علوية إلهية ، وأنه تعالى جعلها حجة على عباده ، فبه يحاسبون ، ومن خلال إحكامه يتحاورون ، وهم عن تفهم شرع الله واتباعه مسئولون ، يدل عليه أنه تعالى رفع القلم عن فاقد العقل حقيقة أو حكما، فلا يحاسب على ما صدر عنه ، طالما كان على ذات الوضع ، وفي الحديث الشريف يقول الرسول ﷺ رفع القلم عن ثلاثة النائم حتى يستيقظ ، والصبي حتى يبلغ ، والمجنون حتى يفيق (٢)، أو يعقل ، ولو كان حساب الخلق على غير العقلاء ما كان للعقل قيمة ٠

ودلت نصوص الشريعة الإلهية على أن الله تعالى لا يكلف العباد إلا ما يطيقون ، فإذا خرج عن طاقتهم لم يقع عليهم تكليف به ، تفضلا منه تعالى ، ورحمة بعباده ، فهو الذي خلقهم ، وهو جل شأنه العليم بهم . وأنه سبحانه وتعالى الذي يعلم ما يقدرون عليه وما لا يقدرون ، قال تعالى ﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٣) .

ثم ان هذا العقل المنعم به على البعد ، قد يسر الله تعالى له أسباب اكتساب المعارف ، بل وكيفية توظيفها على الوجوه المختلفة ، ولما كان ميدان عمل العقل واسعا ، فقد

---

(١) سورة الزمر : الآيات ٥٣ - ٥٥ ٠
(٢) الإمام ابو داود : سنن أبي داود ، كتاب الحدود ، باب في المجنون يسرق أو يصيب حدا الحديث ، جـ ٤ ، صـ ١٣١ ، رقم ٤٣٩٨ ، ط. دار الفكر ، بيروت سنة ١٩٩٤ ٠
(٣) سورة البقرة : الآية ٢٨٦ ٠

كفل الله له إرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، نعمة وتفضلا [١]، وبين له أن إمكانيات العقل محدودة في المسائل الغيبية ، حتى وإن لم تكن محدودة في العالم المشاهد .

ثم أن واجب العقل إلزام نفسه بعدم الخوض في كل ما لامعرفة له به ، ولا إمكانية في السباحة بداخله ، حتى لا يضل أو يشقى ، وجاء ذلك في توجيهات واضحة ، من ذلك قوله ﷺ فيما رواه أبو ثعلبة الخشني ؓ أن النبي ﷺ قال : إن الله حد حدودا فلا تعتدوها ، وفرض لكم فرائض فلا تضيعوها ، وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وترك أشياء في غير نسيان رحمة لكم فأقبلوها ولا تبحثوا عنها [٢] ، ولكونها أعلى من إمكانيات العقول ، فقد أبعد الله تعالى العقول عن التفكير فيها .

بيد انه ما خلا الشيطان عن الوسوسة لبني الإنسان ، والتسلط على عقله ، حتى يدفعه إلى مخالفة القاعدة العامة فيما يجب الإلتزام به ، بل أنه أخذه من ناحية رأسه وعقله إلى دائرة التفكير البعيد عن إمكانياته ، حيننذ تقع له الشقاوة القائمة على الضلال [٣].

ومن هنا تبدأ رحلته مع المشكلات المعرفية التي تبدو اول مرة بسيطة ، أو على الأقل ، كأنها ثمار الحركة العقلية ، ثم لا يلبث في زحزته عن الأرض التي وقف عليها ، ويظل به حتى يبلغ معه الشك جميع المسائل العقدية [٤] ، ومن ثم يتناولها كما يتعرف على معارفه، فيتحول بها من القلب والوجدان إلى العقل الذي تقبل إحكامه الزيادة

---

(١) إرسال الرسل من نعم الله على العباد ، ومنها فوائد عديدة ، راجع كتابنا : الغزاليات في النبوات ، حيث تناولتها في شيئ من الشرح البسيط الذي أعانني الله تعالى عليه .

(٢) العلامة الحاكم : المستدرك على الصحيحين ، جـ ٤ ، صـ ١٢٩ ، الحديث رقم ٧١١٤ ، وللإمام الشوكاني: فتح القدير، جـ ٢، صـ ١٢٠، وفي كنز العمال للعلامة المتقي الهندي قوله ﷺ " أن الله عز وجل فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدودا فلا تعتدوها ، وحرم أشياء فلا تقربوها ، وترك أشياء ، غير نسيان رحمة لكم فلا تبحثوا عنها " الحديث في الباب الثاني في الإعتصام بالكتاب والسنة ، رقم الحديث ٩٨ .

(٣) من ثم فالدخول إلى دائرة المشكلات العقدية إنما يبدأ من متابعة الشيطان والتخلي عن تعاليم الرحيم الرحمن ، وهذا من شأنه وقوع المرء في كل ألوان الفساد والضلال .

(٤) وفي الحديث الشريف إشارة إلى ذلك ، حيث قال الرسول الكريم ﷺ : يأتي الشيطان أحدكم فيقول له من خلقك فيقول خلقني الله ، فيقول له ومن خلق الله ، فيتحول إلى الكفران .

والنقصان [١] ، وهنا نصل إلى قلب الأحداث ، أو لب المشكلة ، او نكون قد وصلنا إلى خارطة الطريق •

فإذا استمر ذلك الإنسان سادرا في ذات الإتجاه ، مستنكفا الإرتداد عنه إلى ما هو خير له وأبقى ، فقد قدرته التميزية ، وصار رصيده المعرفي المختلط بالصواب والخطأ . والباطل باليقين ، والظن هو رفيق دربه ، والمعبر عن عقيدته ، ومثله لا يرجى من ورائه إلا ما قد صوره القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [٢]، وقال تعالى ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [٣].

حينئذ ، تبدو مشكلات عديدة ، ترتبط بموضوعاتها ، وأسبابها ، وتتعلق جزئياتها السببية بنتائجها الترتيبية إلى الحد الذي يجعل كثافة المشكلات تزداد ،وصورها تأخذ في التنوع ، كالحال مع كل فكر بشري لا يقوم على قواعد صحيحة ، ولا تحكمه أسس قويمة ،ولا يعرف أصحابه أو القائمون به الغاية السليمة •

ولما كانت النسبية هي الرأي القائل بأنه لا توجد حقيقة موضوعية ، أو مطلقة نهائية ، وأن الحقيقة دائما نسبية، تبعا للمكان أوالزمان أو الجماعة والفرد [٤]، فقد أفرزت الحديث عن جملة من المشكلات التي يقع بينها التزاحم لدى القارئ العادي ، فما بالنا إذا نالت هذه المسألة عقل المثقف فضلا عن المؤمن الملتزم ، كما أن لفظ النسبية متى أطلق [٥] ، فهم منه انه المقابل للمطلق ، وهذا في حد ذاته يمثل مشكلة أولى ، من الناحية المعرفية على أقل تقدير •

---

(١) أحكام العقل في المسائل الغيبية ليست يقينية ، لأنها لا تنال به ، وأحكامه لا تبلغها على درجة سليمة ، ما لم يستفد من الشرع الشريف •
(٢) سـورة الفرقان : الأيتان ٤٣ و ٤٤ •
(٣) سـورة الجاثية : الآية ٢٣ •
(٤) هنتر ميد : الفلسفة أنواعها ومشكلاتها ، صـ ٤٣٣ ، ترجمة الدكتور / فؤاد زكريا ، طبعة مكتبة مصر ، سنة ١٩٩٧ •
(٥) مذهب النسبية الفلسفية غير النسبية الأخلاقية الذي يرى صحابه أن الخيرية أوا لفضيلة نختلف من عصر إلى عصر ، ومن جماعة إلى آخرى •

ثم تأتي مشكلة أخرى ، قائمة في كون النسبية مذهب يقف على طرفي نقيض مع كل ما هو أساسي في النزعة المطلقة ، فبينما النزعة المطلقة واحدية ، فإن النسبية تميل بشدة إلى التعددية ، وبدلا من قانون اخلاقي واحدا شامل ثابت ، تقول النسبية بعدد كبير من هذه القوانين ، وبدلا من خير واحد ، نجد هنا عددا لا حصر له من حالات الخير (١) ، وهي مشكلة أخرى تتبعها مشكلات كثيرة ٠

والذي يمكن قوله هنا ، إعتبار أصحاب النسبية ممن يرون أن كل شيء نسبي ، ونسبيته ترجع إلى حكم واحد من ثلاثة ، أحدها ما ترى ذات الجماعة أنه صواب (٢) ، ثانيها ما يشعر الفرد أنه صواب (٣) ، ثالثها ما يمكن الإحتكام فيه إلى طبيعة النوع البشري ، وحاجات الكائن العضوي الفردي في داخل هذا النوع (٤) ، ولذا ، فمن المناسب عرض المشكلات المتعلقة بالنسبية الفلسفية ، ثم مناقشتها على النحو التالي :

المشكلة الأولى : إنعدام وجود المطلق

الله واحد في ذاته ، وصفاته وأفعاله ، لا أول له ولا أخر ، ولا يستطيع أحد أن يحد من سلطانه جل شأنه ، او يتخيل شيئا من ذلك ، لأنه صاحب قدرة مطلقة لا تتناهى ، وإرادة لا تقف عند حد ، وعلم محيط شامل لا حدود له ، ومن ثم فهذا الفهم للألوهية يعبرعنه المطلق من كل ناحية ، وفي القرآن الكريم إشارات لهذا الفهم ، من ذلك قوله تعالى ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (٥) ، وبالتالي فلا أحد يماثل الله تعالى ، أو

---

(١) هنتر ميد : الفلسفة أنواعها ومشكلاتها ، صـ ٢٦٩ / ٢٧٠ ٠

(٢) وفي هذا إتجاه لتدعيم فكرة التبعية والتقليد ، وفي الحديث لا تكن معه لقول أن أحسن الناس أحسنت ، وإن أساؤا أسأت ، ولكن ظنوا أنفسكم أن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساؤا فلا تظلموا ٠

(٣) وهذا يدعم فكرة إعتبار الفرد مقياس الحقيقة ، ومعيارها ، لم يعد هناك وجود للقضايا العامة التي تقوم في أحكام كلية ٠

(٤) والوجوه الثلاثة تعبر عن إتجاه غير مقبول ، لأنها تمثل الأوهام الأربعة التي نبه القرآن الكريم إلى فسادها في قوله تعالى ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ سورة الأنعام : الأية ١١٦ ٠

(٥) سورة الشوري : الأية ١١ ٠

يشابه الخالق جل علاه أبدا .

والله سبحانه وتعالى هو صاحب الخير المطلق ، وبالتالي ، فهو الفاعل له ، طبقا لقاعدة شرعية عامة ، هي أن أفعال الله تعالى محكمة ومطلقة من حيث الحقيقة ، وإلا ماكانت قدرته جل علاه عامة شاملة ، وكل ما يتعلق بالأفعال الإلهية يوصف بالإطلاق [١] . لأنه لا يوجد مبرر شرعي يناقض هذه الحقيقة ، أو يقلل من الإعتماد عليها .

بل ذكر التاريخ الإنساني العام ، والفكري على وجه الخصوص ، أن بعض العقول الصحيحة إنتهت إلى نتيجة عامة ، أو قاعدة لها صفة الثبات ، وهي أن الكون تكله لما كانت سوده فكرة الخير المطلق ، فقد أمكن أن يسمى الخير الكوني[٢] ، على أساس أن الخالق للكون هو الله تعالى، وكل أفعاله خير ، ولا يوجد خير حقيقي أو أساسي إلا منه جل شأنه .

ولما كان الله تعالى واحدا من كل الوجوه ، قادرا على كافة الجوانب ، عالما بكل ما كان ، وهو كائن وما سيكون من كل النواحي ، لا حدود لذاته ، وتكيف لصفاته ، فهو مطلق الإرادة والأفعال ، لا راد لقضائه ، ولا ناقض لقدرته ، ولا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب ، لا أول له ولا آخر ، ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾[٣] ، وهي عقيدتنا التي نلقى الله عليها ، وندين بين الخلائق بها .

وكل الأنبياء وجميع المرسلين قد جاؤا بهذه العقيدة الإلهية [٤] ، وكافة العقلاء من ذوي القلوب النيرة التمسوها وقاموا عليها ، بل لم يفكروا أبدا في الخروج عنها ، ولم يحاولوا الإلتفاف إلى جهة لا تقوم على تنفيذها في الوجدان بنفس القدر الذي هو لهافي الشعور بأن ذلك صحيح الإيمان ، ومن ثم سأعرض لمشكلتهم الولى على النخو التالي :

---

(١) راجع كتابنا : الغزاليات في الإلهيات ، صـ ٩٧ ، وكتابنا : تعليل أفعال الله بالأغراض بين المثبتين والنافين ، صـ ٨٥ .

(٢) نظرية الخير الكوني تقوم على أن ما يجري في الكون كله خير ، حتى وإن بدا للبعض من حيث الظاهر أنه بخلاف ذلك ، وهذه النظرية نتمسك بها نحن أهل الإسلام على ذات المعنى ، لأن الكون من خلق الله ، وما يجري فيه إنما هو واقع بقدرته وحكمته جل علاه .

(٣) سورة الأنبياء : الأية ٢٣

(٤) وأجزاء العقيدة الإلهية ستة يكمل بعضها الآخر ، وهي : الأيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر ، ونصوص القرآن الكريم والسنة النبوية قد ذكرتها إجمالا وتفصيلا ، راجع كتابنا : الأيمان بالغيب وأثره على الفكر الإسلامي .

١ـ أن زعماء النسبية الفلسفية من القدامى والمحدثين ، أعلنوا أنه لا وجود لشيء مطلق أبدا ، وكان شكاك اليونان الأقدمين يقولون أنه لا توجد صورة للمطلق بل لا يوجد مطلق أبدا ، فالإله عندهم قدرته محدودة ، وإرادته نسبية ، كما أن رغباته يمكن التعديل فيها، فضلا عن قراراته التي تدور مع التعديل بالزيادة والنقصان ، ومن ثم فالإله فكرة إنسانية،والألوهية مسألة معرفية لا يمكن أن تكون حقيقة عقدية مطلقة[١].

وراح السوفطائيون يتناقلون بين الناس ذاكرين لتلاميذهم ضرورة إنعدام وجود المطلق على آية ناحية ، بل تمادوا في غيهم حينما زعموا أن المطلق فكرة خيالية صنعها العقل فترة من الزمان ليرضي رغبات نفسه ، لكنه عاد عنها ، ولم يعد يقبل الوقوع فيها [٢] ، كما أنه صار يستنكف السير فيها ، أو ترديدها •

لقد عبر السوفطائيون عن هذه المشكلة بقولهم لا شيء موجود وجودا مطلقا [٣] ، وإنما هو وجود نسبي يتعلق بالفرد المدرك له ، الحاكم عليه ، فإذا انتهى إلى أنه موجود كان له الحكم بهذا الوجود ، وإذا إنتهى إلى أنه غيرموجود كان له أيضاالإلتزام به ، فهو في كل حالاته مقياس الحقيقة ، ومعيار الصدق ، ولما كان هذا الفرد المعياري غير مطلق فإن كافة الأحكام التي يقول بها تكون كذلك •

ويعلل " هنتر ميد " أسباب وجود النسبية القديمة في اليونان ، بوجود السوفسطائين الذين كانوا أكمل مفكريين نسبيين عرفتهم الفلسفة حتى الآن [٤]، وهم في ذات الوقت رفضوا الإعتراف بوجود المطلق ، وأعتبروا القول به من باب المستحيل ، لأنه

---

(١) راجع كتابنا : تأملات غزالية في الفلسفة اليونانية ، صـ ٧٣ ، وإعتتبار الألوهية فكرة تمثل خروجا على العقيدة الإلهية التي يجب أن تكون حقيقة قلبية إيمانية •

(٢) راجع كتابنا : تأملات غزالية في الأفكار الشرقية ، صـ ١٤٠ ، لأن السوفطائية فكرة تحولت من عمل فردي مع بعض اهل اليونان إلى واقع يمارسه كل من يقلدهم ، أو يتصف بنفس تصرفاتهم ، بغض النظر عن الهوية أو محل الإقامة •

(٣) عمل السوفسطائية على دعم ثلاثة قضايا هي : أ - لا شيء موجود ، ب - إذا وجد لا يمكن معرفته ، جـ - إذا أمكن معرفته لا يمكن إبلاغه إلى الغير ، وقد نتج عن هذه القضايا جميع الأفكار التي قال بها السوفطائية ، أو أنها ترتد إليها •

(٤) هنترميد : الفلسفة أنواعها ومشكلاتها ، صـ ٢٧٠ ، ويؤكد ذلك عند يتحدث عن الأسس التاريخية للنسبية ، وكيف نفذت إلى السياسة والأخلاق بعد أن رفضت الدين •

يناقض طبيعة النوع الإنساني ، و يتجاهل حقيقة الإهتمامات الفردية المميزة للبشرية ٠

٢ - أن بعضا ممن إنتسبوا إلى طبقة هؤلاء المفكرين نظروا إلى عقيدة الألوهية نظرتهم للقضايا المعرفية ، التي يمكن قبولها او رفضها ، كما يمكن ان تقع الأحكام عليها بالصواب أو الخطأ[١] ، وفوق ذلك ، فإنها لا تخرج عن الإطار المعرفي إلى غيره ، مهما كانت الأدلة المحيطة بها ، وقادهم إلى ذلك سلطان عقلي وقع ضحية الشيطان ، حين ظن أنه قادر بعقله على إصدار الأحكام النهائية في القضايا الغيبية ، والمسائل العقدية ، فضلوا ، وأضلوا، وكان جزاؤهم النار ، قال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[٢] ٠

ثم أن المكلفين على أربعة ، الأول قوم خلقهم الله تعالى لخدمته وجنته ، وهم الأنبياء والأولياء ، والمؤمنون الصالحون ، الثاني قوم خلقهم الله تعالى لجنته دون خدمته، وهم الذين عاشوا كفارا ، ثم ختم لهم بالإيمان ، أو فرطوا مدة حياتهم ، وإنهكموا في العصيان، ثم تاب الله عليهم عند الخاتمة ، فماتوا على حسن الخاتمة والتوبة ، والإحسان كسحرة فرعون موسى ، الذين جاء طرف من الحديث عنهم في القرآن الكريم [٣] ٠

والقسم الثالث قوم خلقهم الله تعالى لا لخدمته ، ولا لجنته ، وهم الكفار الذين يموتون على الكفر ، فإنهم حرموا في الدنيا نعيم الإيمان ، وفي الآخرة يعذبون بالعذاب والهوان ، والقسم الرابع قوم خلقهم الله تعالى لخدمته دون جنته ، إذ كانوا عاملين بطاعة الله ، ثم وقع عليهم التبديل حسب مكر قلوبهم ، فطردوا عن باب الله تعالى وماتوا على

---

(١) يلاحظ ذلك لدى كافة الجماعات التيتعتبر الفكر الإنساني حاكما على قضايا الإيمان بالله رب العالمين، وتؤكد قدرته على ذلك، وتدعوا للإلتزام بأحكامه ، وتعتبر المخالف لها غير عاقل ٠

(٢) سورة فصلت : الآيات ٤٠ – ٤٢ ٠

(٣) لأن سحرة فرعون كانوا كافرين ، فلما بان لهم الحق ، قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون ، ثم عللوا ذلك ما حكاه القرآن الكريم عنهم ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ سورة الشعراء : الآية ٥١ ٠

الكفر [١] ، ومنهم من جاءت الإشارة إليه في القرآن الكريم ، كقوله تعالى ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ سَاء مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴾ [٢] .

٣ ـ في نفس الوقت ، سعى أصحاب القول بالنسبية الفلسفية إلى التأكيد على أن فكرة المطلق تمثل صورة داعية إلى الجبر والإكراه ، أو على أقل تقدير تعبر عن الحتمية [٣] ، وهذا يؤدي بدوره إلى تقييد الحرية الإنسانية ، وتحويل الفرد من إنسان إيجابي يمكنه المشاركة في إنماط الحياة المختلفة إلى آخر مربوط من عقله بقيود هولامية داعية إلى التأخر بدل التقدم[٤] ، بل والزحف للخلف في صورة مهينة بدل الإنطلاق للأمام في ثقة تقوم عليها الحضارة التي تنشدها الإنسانية .

كما انهم كرروا فكرة القول بأن فكرة المطلق لم يقم دليل علمي عليها ، وأن القائلين بها يعوزهم تقديم أدلة صحيحة يمكن قبولها ، فضلا عن ان تكون صالحة للإستخدام ، أو تكفي لرد خصوم المطلق ، أو حتى تساهم في تشكيكهم حول مواقفهم منها ، بل على العكس قامت الأدلة الكثيرة التي تهزم وجود فكرة المطلق ،وتدفع القائلين بها إلى الوراء آلاف الخطوات [٥] .

٤ ـ ويعتقد أصحاب النسبية الفلسفية أن التقدير العام والتعبئة اللا شعوريه لفكرة المطلق هو الذي جعلهم يعيشون في أصفادها لا يخرجون عنها ، مع العلم أنهم لو تم

---

(١) العلامة الشيخ أحمد بن الشيخ حجازي الفشني: شرح الفشني على الأربعين النووية ، صـ٢٠ ط. محمد على صبيح ، وبالهامش كتاب السبعيات للشيخ أبي نصر محمد الهمنداني .

(٢) سورة الأعراف : الآيات ١٧٥ ـ ١٧٧ .

(٣) الحتمية نوعان : الأولى شرعية جاءت بها النصوص الدينية ، والثانية عقلية عليها العديد من الإعتراضات ، بجانب الكثير من النقودات .

(٤) هكذا يتصور أصحاب الفكر غير المستقيم كلما دفع بهم أحد إلى العودة للإيمان ، والإنطلاق نحو ما يرضي الرحيم الرحمن .

(٥) وفي ذات الوقت ، فإن هذه الشبه التي يقولون بها ، يمكن ردها في سهولة مع الكثير من اليسر متى وضعت أمام البحث العلمي .

فيها التأمل الدقيق لهم ، لما كانت هناك حاجة للتمسك بها ، ومن ثم فليست أجزاؤها صحيحة بذاتها ، وإنما الإتجاه العام هو الذي قاد إليها تحت ستار سلطان العقل الجمعي [١]، ولو تم تفريغ العقل جيديا من أثار هذا السلطان، وأمكن مراجعة فكرة المطلق على آية ناحية ، فسوف يظهر للجميع أنها خيالية ، وغير واقعية ، وأن القائلين بها أكثر ضعفا من أن يدافعوا عنها [٢] .

٥ ـ أضف إلى ما سبق أعتقاد اصحاب النسبية الفلسفية ، بأن فكرة وجود المطلق لدى القائلين بها ، تمثل عملا غير منضبط ، وتقوم بوظيفة تبريرية لا تتمكن من إقامة آية علاقة تغيرية ، ومهما بذل أصحابها من جهد فستظل ضائعة ، وفي النهاية لن يكون لها طريق سوى الإستسلام للقاعدة القاضية بإنعدام وجود المطلق [٣] ،

ولا يخفى النسبيون إعجابهم الشديد بما آلت إليه الأمور معهم ، من إنكار وجود المطلق ، إعتقادا منهم أن ذلك سيؤدي إلى تصدع نظرية الحق الإلهي التي اعتبرت أساسا للنظرية السياسية فترة طويلة من الزمان ، وهي في ذات الوقت تقوم على أن أصل السلطة السياسية إلى الله بإعتباره المالك الحقيقي للأرض ، بكل ما عليها ومن عليها ، وأنه المدبر الأول لشئونها ، والمنظم لسير الحياة فيها [٤] ، فصارت الإنسانية غير جديرة بتحمل مسئولياتها التي يجب عليها القيام بها .

٦ ـ بل أن أصحاب النسبية الفلسفية استعملوا مصطلح الإقتصاد الفكري[٥] ، ليكون

---

(١) العقل الجمعي ، أو الجماعي ، هو الحركة التي تصدر عن البعض طبقا لما رسمة الآخرون تقليدا لهم ، مع تأكيدهم عليها ، كأنهم الذين صنعوها ، أو صاغوها ، مع أنهم مجرد حفنة من المتلقين لها ، راجع كتابنا : التفكير الإنساني أصوله ومستوياته .

(٢) جورج ب ـ كونجر : دراسات في الفلسفة ، صـ ٢٥٣ ، ترجمة نادر زكي ، وراجع له أيضا : منهج دراسي في الفلسفة ، صـ ١٤٣ .

(٣) الواضح أن أصحاب النسبية بينهم وبين الفكرة خصومة مسبقة ، ورغبة في تصفية الحسابات من كل ناحية ، بدليل انهم يتوسلون إلى آية شبهة حتى يقيموها في مواجهتها ، ولو لم تكن لها بها أدنى علاقة .

(٤) أنطوني دي كرسبني ، وكنيث فينوج : أعلام الفلسفة السياسية المعاصرة ، صـ ٨ ، ترجمة د. نصار عبد الله ، ط. الهيئة العامة للكتاب .

(٥) الإقتصاد الفكري يقوم على أن بناء النظريات العلمية يتم بطرق متشابهة ، مؤداها أننا نحاول ترتيب الظواهر ثم اسنادها بطريقة ما إلى ما هو أيسر ، وبهذه الطريقة يمكننا فهم مجموعة كبيرة من الظواهر بإستخدام بضع مصطلحات قليلة ـ د. فيرنر هينز نبرج ـ الجزء والكل محاورات في مضمار الفيزياء الذرية ، صـ ٨٧ / ٨٨ ، الهيئة المصرية للكتاب ، ترجمة محمد أسعد عبد الرؤوف ، سنة ١٩٨٦ .

في مواجهة الحديث عن وجود المطلق الذي يمثل الحديث فيه قمة الإسهاب اللغوي اللفظي ، بجانب الفكري ، وقرروا القول بأن النسبية تمثل عملية الإقتصاد الفكري أصدق تمثيل ،وعلى أساسها تقوم النظريات العملية التي تقف فوق أرضها الحضارات الشامخة .

في نفس الوقت ، فإن التنازل عن وجود المطلق يعطي الإنسان حماسا أثناء القيام بالأعمال التي تناط به ، وما ذلك إلا لأنه يرى من نفسه القدرة على الإبداع التام ، والإرادة الحرة ، بجانب الحماس المتجدد والقائم في تنوعات الطبيعة ، وهي تفيض داخل النظام الترحالي للداخل الإنساني ، وإن المرء حينما يثق بنفسه ، ويعتقد إمكانية تصرفه بما يريد من غير ضغط عليه ، أو إكراه ، فإنه يؤدي أعمالا رائعة النتائج لا محالة [١] .

٧ ـ ومن المؤكد أن ظهور هذا النوع في الكائنات التي تملأ العالم الطبيعي ينتهي إلى القول بإنعدام فكرة وجود المطلق ، إذ لو كان لها أدنى وجود لما كان هذا التباين الغريب الذي يملأ تمتلئ به الحياة في أشكالها المختلفة ، فالإنسان فيه تباين بين أفراده الذكور والإناث ، الصغار والكبار ، المرضى والأصحاء ، وعالم الحيوان ، كذلك ، ولا يخرج كل من عالم النبات ، وعالم الجمادات عن ذات التباينات ، وهذا في حد ذاته هادم فكرة وجود المطلق من أساسها ، إذ لو كان لها أدنى وجود خالق ، لكان الناشيء عنها مثلها ، ما في ذلك ادنى شك [٢] .

موقفنا منها :

أجل ، إذا كان أصحاب النسبية الفلسفية قد أعلنوا إنعدام وجود المطلق ، وكم حاولوا الوصول بهذا الإعلان إلى نتائج لكنها كانت غير صحيحة ، كما أنهم لم ينالوا أي إحترام علمي ، وفوق ذلك فلم يتمكنوا من إحراز أي نصر أخلاقي ، والنتائج أكدت أنهم على إستعداد لقبول هذه النتائج الفوضوية التي تترتب على فكرة النسبية [٣]، في

---

(١) راجع لجاكوب برونوفسكي : التطور الحضاري للإنسان ، صـ ١٧٣ / ١٧٤ ، ترجمة د. أحمد مستجير ، ط. الهيئة المصرية العامة ، سنة ١٩٨٧ .

(٢) الملاحظ أنهم يعكسون الأدلة التي تثبت وجود الله تعالى ، لأن هذه التباينات دليل على وجود الله الخالق العظيم ووحدانيته .

(٣) هنترميد : الفلسفة أنواعها ومشكلاتها ، صـ ٢٧٣ .

الفلسفة والدين والسياسية والأخلاق ، وهذا يستدعى مناقشة كل فكرة بعد عرضها على النحو الذي ترونه في مؤلفات أصحابها ، وكأني بهم من عناهم القرآن الكريم ورد في قوله تعالي ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً ﴾ (١) .

المشكلة الثانية : إنكار وجود الغيب مطلقا

الغيب هو ما لا يدرك استقلالا بالعقل والحواس ، وإنما تأتي الأخبار بة عن رب الناس ، ويكون دور العقل دراسة طرائق الاستدلال عليه ، وكيفية الوصول المتوالي إليه ، والغيب بالمعنى الشرعي أعم من السمعيات (٢) ، من حيث أن السمعيات قد جاء الحديث عنها إجمالا وتفصيلا في لسان الشرع ، ثم نكون قد وعينا ما بلغتنا من الناحية التي أعان الله تعالى عليها .

كما أن الغيب أقسام بإعتبارات مختلفة ، وكل منها يتنوع بإعتبارات مختلفة ، وذلك من شأنه القول بأن الغيب أعم مطلقا والسمعيات أخص مطلقا ، من ناحية أن الغيب منه ما أخبرنا الله تعالى به فعلمناه عنه ، وصار سمعيا ، ومنه ما لم يخبرنا الله تعالى عنه ، ومازال علمه عنده جل شأنه (٣) ، قال تعالى ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً ﴾ (٤) .

والإيمان بالغيب يمثل القاعدة الإيمانية لأهل العرفان بالله رب العالمين ، ولذا امتدحهم الله تعالى في كتابه الكريم ، وزكاهم من خلال الأحاديث التي هي جزء من سنة

---

(١) سورة الكهف : الآيات ١٠٣ - ١٠٦ .

(٢) لمعرفة هذه الجوانب من العلاقة بين الغيب والسمعيات، راجع كتابنا: الغزاليات في السمعيات صـ ٣٥ / ٤٥ ، الطبعة الثامنة .

(٣) تناولت هذه المسائل في شيء من التفصيل في كتابنا : الإيمان بالغيب وأثره على الفكر الإسلامي ، صـ ٨٨ / ١٥١ .

(٤) سورة الجن : الآيات ٢٦ - ٢٨ .

النبي الخاتم العظيم سيدنا محمد ﷺ ، من ذلك قوله تعالى ﴿ ذَلكَ الْكتَابُ لاَ رَيْبَ فيه هُدًى لِّلْمُتَّقينَ الَّذينَ يُؤْمنُونَ بالْغَيْب وَيُقيمُونَ الصَّلاةَ وَممَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفقُونَ والَّذينَ يُؤْمنُونَ بمَا أُنزلَ إلَيْكَ وَمَا أُنزلَ من قَبْلكَ وَبالآخرَةِ هُمْ يُوقنُونَ أُوْلَـئكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهمْ وَأُوْلَـئكَ هُمُ الْمُفْلحُونَ ﴾[1] .

ثم أن الإيمان بالغيب يعبر عن قلب صادق، وعقيدة سليمة، ونفس في الله مطمئنة، بجانب روح نقية متعلقة برب البرية و ومن ثم فقد كان الأنبياء والمرسلون والأولياء العارفون ، وأهل الله تعالى من الأولين والآخرين ، يؤمنون بالغيب الذي جاءهم من عند الله ولا يجادلون فيه إثباتا او نفيا [2] ، لأن ما جاء به من عند الله أغناهم عن البحث في هذا كله ، وبالتالي ، فأهل الإيمان بالغيب هم اهل الرضوان ، وهم في ذات الوقت قاعدة المحبة والعرفان ، وأنوار المولى الكريم تجيطهم من كل مكان ٠

موقفنا منها :

أما الذين ينكرون الغيب ، ويجحدونه ، ويتعللون بانهم لا يدركونه، ولا يعرفونه ، فما هم إلا ثلة من أهل الإلحاد والكفران ، وحزمة من جند الشيطان الذين عبدوا الهوى ، وسبحوا مع الشيطان ، وفيهم ، وأمثالهم ، قال الله تعالى ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَله فَرَآهُ حَسَناً فَإنَّ اللَّهَ يُضلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إنَّ اللَّهَ عَليمٌ بمَا يَصْنَعُونَ ﴾[3] .

وأصحاب النسبية الفلسفية يعتقدون في وجود كل من الزمان [4] والمكان والحركة ،

---

(١) سورة البقرة : الآيات ٢ - ٥ ٠

(٢) كما أن الجدال في الغيبيات بالنفي أو الإثبات إنما هو طريق إلى الإلحاد ، وبخاصة إذاكان من ذوي العقول المتواضعة ، والإمكانيات البسيطة، والجميع منهى عنه ، لأنه نوع من المراء المهلك ، نسأل الله السلامة٠

(٣) سورة فاطر: الآية ٨ ٠

(٤) حكى صاحب المطالع أن من الناس من أنكر وجود الزمان ، محتجا بأن الزمان لو كان موجودا لكان إما قار الذات أو غير قار الذات ، فإن كان الزمان قار الذات إجتمع الحاضر والماضي معا فيكون يوم الطوفان العظيم مع اليوم ، فالحادث اليوم حادث يوم الطوفان ، ولا يخفى فساده ، وإن لم يكن الزمان قار الذات لزم تقدم بعض أجزائه على بعض تقدما لا يتحقق إلا مع الزمان ، لأنه حاصل يقتض العقل بأن جزء منه كان موجودا ولم يبق الآن ، وأن جزء منه حاصل الآن ، والماضي والآن هو الزمان ، فيلزم منه وقوع الزمان في الزمان ، ويتسلسل ، وأجيب بأن تقدم الماضي بذاته بزمان اخر ، فإنه لو كان الزمان غير قار الذات لم يبق جزء منه عند حصول جزء آخر ، فلا يلزم أن يكون للزمان زمان آخر ، لأن التقدم والتأخر لأجزءا الزمان لذاتها ، فيكون جزء منه مقدما على جزء لا بزمان غيرهما بل لذاتهما، ولا يلزم منه التسلسل ، ثم تحدث عن مثبتي وجود الزمان ، وبالتالي فالزمان الذي يعول عليه أصحاب النسبية محل نزاع ، راجع للعلامة أبي الثناء شمس الدين بن محمود الأصفهاني: مطالع الأنظارعلى طوالع الأنوارصـ ١٧٢ ،وراجع طوالع الأنوار للبيضاوي صـ١٧٢ /١٩٧ ٠

من حيث أنها مجسمات تقع فيها النسبية ، وبالتالي فهم ينكرون وجود الروح لأنها غير مجسمة ، ولا تقع فيها النسبية ، إذ هي من الغيبيات ، ولا علاقة لها بما يمكن قبوله ، بل أنه لا علاقة لها بشيء مما ذكر ، ثم أن الخلود ، في الآخرة هو الأخر يلقى نفس الحكم ، وينال ذات الإعتراضات ، من حيث أنه غير قابل للنسبية ، وهذا يمثل مشكلة عقدية ، لأنه يترتب على الإعتقاد في وجوده الإيمان وأما إنكار الخلود فيمثل الإلحاد ، وهذا مما لا يقره صاحب عقل سليم ، لخروجه على الفطرة الإلهية التي فطر الله الناس عليها ، لقوله تعالى ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

ثم أن إنكار وجود الغيب إنما هو إعلان عن إفلاس هذا الفكر ، وخيبة ذات المفكر ، أما لماذا ؟ فلأن طبيعة الغيب داعية للبحث في المحيطات به ، وهذه الدعوى قائمة على الدوام (٢) ، بدليل أن الروح وهي من العالم الغيبي ، جاء الحديث عنها في النقل المنزل ، لا على سبيل الكف عن تناولها ، وإنما بغرض التحري المطلوب لها ، ومحاولة التحدث مع الذات عن كل ما يحيط بها ، ويستشهد له بقوله تعالى ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ (٣) .

يقول العلامة " فخر الرازي " المختار عندنا أنهم سألوا النبي ﷺ عن الروح ، وأنه ﷺ أجاب عنه على أحسن الوجوه ، وتقريره إن المذكور في الآية أنهم سألوه عن الروح ، والسؤال عن الروح يقع على وجوه كثيرة ، أحدها أن يقال ما هذه الروح ، أهو متحيز ، أو حال من المتحيز ، أو موجود وغير متحيز ،. ولا حال في المتحيز (٤) ، وثانيها أن يقال الروح

---

(١) سورة الروم : الآية ٣٠ .

(٢) دعوى تناول الغيبيات من الناحية الشرعية ما تزال قائمة في النصوص النقلية ، وتظهر متعلقة بأثار مفكري المسلمين ، راجع كتابنا : الإيمان بالغيب وأثره على الفكر الإسلامي .

(٣) سورة الإسراء : الآية ٨٥ .

(٤) هذه الوجوه تجيء على سبيل الحصر الإضافي لا الحصر الحقيقي ، وإلا فمن الممكن أن تضاف وجوه أخرى عندما يراد التوسع في تناول المسألة .

قديمة أو حادثة ، ثالثها ان يقال الأرواح هل تبقى بعد موت الأجسام ، أو تفنى ؟ [١] ، ورابعها أن يقال ما حقيقة سعادة الأرواح وشقاوتها [٢] ، وبالجملة ، فالمباحث المتعلقة بالروح كثيرة [٣] ، وكلها قائمة على ظواهر واشارات نقلية بجانب العديد من الجهود العقلية التي يجب أن تكون في حماية هذه النصوص الشرعية ·

ولما كانت الروح من الأمور الغيبية مع أنها من أول أمرها حادثة ، فإنها تكون خالية عن كل العلوم ، وكافة المعارف ، ثم تأخذ في تحصيل هذه العلوم ، وهنا يقع لها التغير ، ويتم فيها التبديل ، وهي في ذات الوقت غير معروفة من حيث حقيقتها ، مع أنها موجودة داخل كل إنسان بهاحياته ، وعند مفارقة بدنه تكون وفاته ، لأن الموت مفارقة الروح للبدن [٤] ·

فكأن قوله تعالى ﴿ وماأوتيتم من علم إلا قليلا ﴾ فيه دليلان ، أحدهما أن الروح غيبية ، وأنها مخلوقة لله تعالى ، وأن حياتها داخل البدن إنما تكون بقدرته جل شأنه ، ومفارقتها للبدن إنما يتم بقدرة الله تعالى ، وكل من الملابسة للبدن والمفارقة مسألة غيبية ثابتة في الغيب ، ونحن لا ندرك منها إلا آثارها المترتبة عليها في حالة الملابسة أو حالة المفارقة [٥] ، وهذا الإدراك ليس على حقيقتة وإنما بحسب فهمنا نحن ·

الدليل الثاني أن الغيبيات متعددة ، وانها مطوية في علم الله تعالى ، وهي موجودة بهذا الإعتبار ليست معدومة من ناحية أنه يحدث للغيب المخلوق تبديل وتعديل ، وهو ما

---

(١) هذه القضايا التي دار حولها البحث واستفرغت جهود كثير من العلماء ، وما تزال عملية البحث قائمة ، راجع كتابنا : أوراق منسية في النصوص الفلسفية ، حيث تناولت هذه المسالة أثناء الحديث عن البعث ·

(٢) الصواب تفويض الأمر في ذلك كله إلى الله تعالى ، لأن ذلم من الغيبيات ·

(٣) العلامة الفخر الرازي : مفاتيح الغيب ، المجلد العاشر ، جـ ١٩ ، صـ ١٧٧ ·

(٤) الموت مخلوق ، ومن ثم فهو وجودي ، لقوله تعالى ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ سورة الملك:الآيتان ١و٢ ·

(٥) راجع كتابنا : الإيمان بالغيب وأثره على الفكر الإسلامي ، الباب الثالث ، حيث تناولت هناك هذه المسائل في كثير من التفصيل ·

يفهم من عبارات الإمام " الفخر الرازي " حيث يقول ان الأرواح في مبدأ الفطرة تكون خالية من العلوم والمعارف ثم يحصل فيها العلوم والمعارف ، فهي لا تزال تكون في التغير من حال إلى حال [١] .

وفي التبديل من نقصان إلى كمال ، والتغيير والتبديل من إمارات الحدوث ، وأن الروح واقعة بتخليق الله تعالى وتكوينه ، وهو المراد بقوله تعالى ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [٢] ، ثم استدل على حدوث الأرواح بتغيرها من حال إلى حال ، وهو المراد من قوله الله تعالى ﴿ وماأوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ [٣].

ثم أن إنكار الغيب يترتب عليه إنكار كل من البعث ، والجنة والنار ، بجانب الثواب والعقاب ، حيث لا يكون للآخرة في عقول هؤلاء آية صورة تذكر ، وهو الحاد في دين الله ، وكفر بآياته لقيامه على إنكار البعث ، وهو أحد أجزاء العقيدة الإلهية ، ومن ثم تتجدد مشكلات أصحاب النسبية الفلسفية ، إذ لا يمكن تطبيق هذه الأفكار الشيطانية على ما جاء من عند رب البرية

بل أن الإيمان بالغيب يعبر عن العقيدة الإلهية ، وهي ـ التصور الذي أنزله الله سبحانه وتعالى لينشئ العلاقة الواعية ، أو الحقيقة الكاملة مابين الخلق جميعا ، وليتم التناسق مع الكون للإستفادة منه ومن تسخيره ، ومن هنا فلا يتصور أن يتعارض ، أو يتناقض منهج الله عز وجل مع خلقه ، فالعقل والفطرة يقضيان بإنسجام هذه الأمور طالما أنها تصدر عن أصل واحد [٤] ، ولا يتم ذلك كله إلا من خلال قاعدة الإيمان بالغيب على وجه العموم.

---

(١) يمكن أن يستدل بتغيرها من حال إلى حال ، على أنها موجودة ، وهذا جانب آخر لا يمكن لمنكري الغيب القفز فوقه ، أو تجاهله.

(٢) سورة الإسراء : الأية ٨٥ ، هذا وجه يدخل فيه ما يتعلق بخلق الروح وتكوينها ، ونؤخذ منه الحديث عن عالم الأرواح ، وما يتعلق به ولمزيد من الحديث عن هذه الجوانب راجع للشيخ محمد حسين : مخلوق الروح وأثارها الكونية ، للإمام الفخر الرازي : النفس والروح وللإمام ابن القيم : الروح ، وللدكتور محمد سيد أحمد : الروح بين الإسلام والفلسفة .

(٣) العلامة الفخر الرازي : مفاتيح الغيب ، المجلد العاشر ، جـ ١٩ ، صـ ١٧٨ .

(٤) الدكتورخضر سوندك : مدخل جديد إلى عقيدة التوحيد ، صـ ٢٠ ، ط. مكتبة المنار بالأردن .

ليت شعري ، إلى من يقع الولاء ، إذاتم إنكار الغيب ، أن العقل والفطرة والمنطق يعلنون عن ضرورة إرتداد الولاء الكامل ، وتوقفه على الخالق العظيم الله رب العالمين ، يقول الإستاذ " سيد قطب " أنه منطق الفطرة العميق ، نداء العقل السليم ، حين يردد لمن يكون الولاء ، ولمن يتمخض ؟ لمن أن لم يكن لفاطر السموات والأرض الذي ، خلقهما وأنشأهما ، إن لم يكن ذلك الولاء لرازق من في السموات والأرض ، الذي يطعم ولايطلب طعاما [١] ، قال تعالى ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكَينَ ﴾ [٢] .

ثم يتساءل قائلا : أي منطق يسمح بأن يتخذ غير الله تعالى وليا ؟ إن كان يتولاه لينصره ويعينه ، فالله هو فاطر السماوات والأرض ، فله السلطان في السموات والأرض [٣] ، وإن كان يتولاه ليرزقه ، فالله هو الرازق [٤] ، المطعم لمن في السموات ومن في الأرض ففيم الولاء لغير صاحب السلطان الرزاق [٥] ، وهذه التساؤلات كلها تجيء طالبة تقديم لاجابات من داخل نفوس أصحابها .

كما أن إنكار الغيب يقفز فوق عنق صاحبه ، ويشده من أذني عقله ، فيصمه عن قول الحق ، ويرده نحو الضلال ، مع أن فطرته تناديه :

أنظر إلى الغيم فمن ∴ أنزل منه مطره
فصير الأرض به ∴ بعد أغبرار خضره
وأنظر إلى المرء وقل ∴ من شق فيه بصره
كمن ذا الذي جهزه ∴ بقوة مقستره

---

(١) الأستاذ / سيد قطب : في ظلال القرآن ، جـ ٣ ، صـ ١٥٨ .
(٢) سورة الإنعام : الآية ١٤ .
(٣) والله تعالى وعد بالنصر في الدنيا والآخرة الأنبياء والمرسلين ، وأهل الإيمان بالله رب العلمين ، قال تعالى ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ سورة غافر : الآيتان ٥١ و ٥٢ .
(٤) يستدل عليه بآيات عديدة ، منها قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ سورة الذاريات : الآية ٨٥ .
(٥) الأستاذ / سيد قطب : في ظلال القرآن ، جـ ٣ ، صـ ١٥٨ .

ذاك هـو الله الـذي ∴ أنعمـه منهمـره
ذو حكمـة بالغـة ∴ وقـدرة مقتـدره [١]

وكلما أناخت فطرته رجالها عند أجزاء العقيدة الإيمانية ، تمسكت بالغيب إيمانا واعتقادا ، ثم أصغت إلى قول الحق تعالى ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُون أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [٢] .

قال العلامة " الزمخشري " أمر الله رسوله أن يتلو هذه الآيات الناطقة بالبراهين على وحدانيته وقدرته على كل شيء وحكمته ، وأن يستفتح بتحميده والسلام على أنبيائه والمصطفين من عباده ، وفيه تعليم حسن ، وتوقيف على أدب جميل ، وبعث على التيمن بالذكرين ، والتبرك بهما ، والإستظهار بمكانهما على قبول ما يلقى إلى السامعين وإصغائهم إليه ، وإنزاله من قلوبهم المنزلة التي يبغيها المسمع [٣] ، وفي الآيات إلزام للمعاندين وتبكيت على خروجهم عن القاعدة الفطرية التي يجب الإلتزام بها

وبعد أن يستعرض القرآن الكريم مشكلة منكري الإيمان بالغيب ، يؤكد لهك حقيقة ثابتة يقينية ، وهي أن معرفة الغيب على حقيقته مما أختص الله سبحانه وتعالى ذاته ،

---

(١) العلامة الشيخ عبد العظيم بن عبد القوي المنذري : الترغيب والترهيب من الحديث الشريف ، جـ ٢ ، صـ ٥٤٥ ، جريدة صوت الأزهر ، وقد أحال المعلق الشيخ مصطفى عمارة على كتاب المحفوظات المختارة ٠ جـ ٣ ، صـ ٢٠ ٠

(٢) سورة النمل : الآيات من ٥٩ إلى ٦٤ ٠

(٣) العلامة الزمخشري : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، المجلد الثالث ، صـ ٣٧٥ ، ط. دار الريان للتراث ٠

لأن علم ذلك مردود إليه وحده على وجه الإجمال والتفصيل في السماوات والأرض ، سواء أدرك الخلائق ذلك أم لم يدركوه ، وسواء أتفق لهم معرفة ذلك على وجه اليقين ، أم لا ، قال تعالى ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ [١] .

فمن الغيب الذي لا يعرفونه على وجه اليقين مهما بلغت معارفهم ، اجتمعوا معرفة جميع ما في السماوات والأرضيين ، ومعرفة البعث أيضا من ناحية الموعد والحقيقة ، وقد قرن النقل المنزل بين إدراك علم من السماوات والأرض ، بموعد البعث حتى يوقن الجميع أن هذا مما لا مجال لمعرفته ، أو الحديث عنه إلا من خلال الدليل الذي جاء به من عند الله [٢] ، وأعني به ما بلغ به المرسلون عن رب العالمين .

قال العلامة " الزمخشري " أدراك علمهم معناه إنتهى وتكامل وهو على وجهين

أحدهما ان أسباب استحكام العلم وتكامله بأن القيامة كائنة لا ريب فيه ، قد حصلت لهم ، ومكنوا من معرفته ، وهم شاكون جاهلون ، بل هم في شك منها ، بل هم منها عمون ، ثم أنه تعالى لما ذكر أن العباد لا يعلمون الغيب ، ولا يشعرون بالبعث الكائن ، ووقته الذي يكون فيه ، فكان هذا بيانا لعجزهم ، ووصفا لقصور علمهم ، وصل به أن عندهم عجز أبلغ منه ، وهو أنهم يقولون للكائن الذي لا بد أن يكون ، وهو وقت جزاء أعمالهم ، لا يكـون ، مع أن عندهم أسباب معرفة كونه ، واستحكام العلم به [٣] .

الوجه الثاني أن وصفهم بإستحكام العلم وتكامله ، فيه تهكم بهم ، كما تقول لأجهل الناس ما أعلمك ، علي سبيل الهزؤ ، وذلك حيث شكوا وعموا عن إتيانه ، مع أن الطريق إلى علمه مسلوك ، فضلا عن أن يعرفوا وقت كونه الذي لا طريق إلى معرفته [٤] .

---

(١) سورة النمل: الآيتان ٦٥ / ٦٦ .

(٢) قال تعالى ﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ سورة الاعراف : الآية ١٨٨ .

(٣) وفي هذا الوجه من الإنكار عليهم ما فيه ، بجانب أنه فضح أقرهم ، من حيث أقرهم بمعرفة الغيب وإعلانهم ذلك ، ثم إنكارهم له مع انهم يعرفونه ، فقد أضاعوا عقولهم ، وهدموا قواعد الإيمان من نفوسهم ، وهي مشكلة الذين ينكرون الغيب ، ولا يحاولون التراجع عن هذه الأفكار الشيطانية ، ويعتقدون أن التراجع يمثل جريمة فكرية .

(٤) العلامة الزمخشري : الكشاف ، المجلد الثالث ، صـ ٣٧٩ .

إن إنكار الغيب مشكلة تقضي على القائلين بها هلاكا ، لأن الله سبحانع وتعالى فطر العقول الصحيحة على الإيمان به ، وهو أصل الغيب ، ثم هو سبحانه وتعالى الذي منح الوجود لكل موجود ، وقد غبر القرآن الكريم عن هذه الحقيقة في رد نبي الله موسى الكليم على فرعون اللعين حينما سأله الأخير عن الرب الذي يلجاون إليه ، قال تعالى مصورا هذه المحاورة ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىقَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى ﴾ (١) .

قال الشيخ " البروسوي " في معنى الأية الكريمة ، إذا كنتما رسولي ربكما ، فأخبرا عن ربكما الذي أرسلكما إلىّ (٢)، قال موسى ربنا الذي من محض رحمته أعطى كل شيء من المخلوقات خلقه ، بإعتبار صورته وشكله اللائق به(٣) ، مشتملا علىخواصه ومنافعه ، ثـم هدى وجه كل واحد منها إلى ما يصدر عنه ، وينبغي له طبعا كما في الجمادات ،و إختيارا كما في الحيوانات ، وهيأه لما خلق له ، فما من مخلوق إلا وقد هدى إلى معرفته تعالى (٤) .

---

(١) سورة طه : الآيات ٤٩ - ٥٤ .

(٢) في كلام فرعون ما يظهر رغبته في العلو بجانب البغي والقوة ، كما تبدو أحلامه الطاغية على عقله ووجدانه الطافية فوق سطح بحر الأوهام التي صنعتها خياله المريض، وتمسك بها وجدانه المضطرب، بل لم يكن لديه أدنى أستعداد للتخلي عن هذه الصور الكاذبة ، وهي في ذلك الوقت تمارس ضغوطها على عقله ، بدليل أنه في لحظة من الكبر المتنامى نادى على هامان وبصوت عال ، ولهجة قاسية ما حكاه القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ سورة غافر: الآيتان ٣٦ و ٣٧ .

(٣) وقد دلت على ذلك آيات الذكر الحكيم ، حيث أكدت أن الإنسان قد خلق في ذات الهيئة من غير تعديل او تطوير ، وأن ذات الانسان لم يحدث له أي تعديل ، فقد قال تعالى ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ سورة التين : الآية ٤ .

(٤) الشيخ اسماعيل حقي البروسوي : تنوير الأذهان من تفسير روح البيان ، المجلد الثاني ، صـ ٤٣٢ .

ونحن إذ تأملنا في قوله تعالى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، تبين لنا أن معرفة أصل الغيب مما هدى الله الخلائق إليه ، وهيأهم للإقرار بذات المعرفة ، وما من مخلوق إلا وهو يمضي طريقه نحو الإقرار بوجود الخالق العظيم ، عالم الغيب والشهادة قال تعالى ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ (١) ،

وفي ذات الوقت يعلن الإعتراف بأن عالم الغيب أكبر بكثير من عالم الشهادة ، على أساس أن عالم الشهادة محصور في موجوداته ، أو وسائل التعرف عليه وإدراكه ، إما عالم الغيب فإنه غير محصور ولا يحيط به إلا الرب الغفور ٠

بل أن الإنسان الذي يتباهي بعض افراده بإنكار الغيب (٢)، إنما هو من آيات الله التي تحمل صورة عالم الشهادة في الهيكل الجسماني ، وتعبر عن عالم الغيب فيما يحمله قلبه وعقله ووجدانه من النور الرحماني ، والعفو الرباني ، داخل الهيكل الروحاني(٣) ، ومن أنكر هذه الحقائق ، فإنما يجاهر بالخروج على قاعدة عقله ،ويفضح في ذات الوقت تركيبة فهمه وفكره ٠

يقول الإستاذ " سيد قطب " أن هذاالمخلوق الإنساني هو العجيبة الكبرى في هذه الأرض ، ولكنه يغفل عن قيمته ، وعن أسراره الكامنة في كيانه ، حين يغفل قلبه عن الإيمان ، وحين يحرم نعمة اليقين (٤) ، وحيثما وقف الإنسان يتأمل عجائب نفسه ،التقى

---

(١) سورة الرعد : الآيات ٧ / ٩ ٠

(٢) الغيب ثابت ، ومن يحاول إنكار الثابت إنما يجادل مكابرة ، ومثله لايكون صحيح العقل ، ولا سليم الفكر، ومثله لا يلتفت إليه ، راجع كتابنا: الإيمان بالغيب وأثره على الفكر الإسلامي الباب الثالث ، تجد شبهات المنكربن ومناقشتها ٠

(٣) والهيكل الروحانب يشبه الهيكل الجسماني الخارجي، والعلاقة بينهما ظاهرة في الصورة الهيكلية من غير التفات إلى الحقيقة الذاتية٠

(٤) فهذه الغفلة مصدر الخسران لأنها تحول بين الإنسان في صورة الإلهية ، حيث يكون في موضع رضوان الله تعالى ، وبين صورته الشيطانية حين يقع في مواضع الكفران بالله تعالى والإستهداء بالشيطان الرجيم ، وهذا الفارق الكبير يمثل ميدان الغفلة ويعبر عن ميزان الإنفلات ٠

بأسرار تدهش وتحير ، فمن تكوين اعضائه وتوزيعها إلى وظائف أدائها ، إلى عملية الهضم والتنفس والإحتراق ، إلى دورة الدم في القلب والعروق ، إلى الجهاز العصبي وتركيبه وإدارته للجسم ، ثم الغدد وإفرازها وعلاقتها بنمو الجسد ونشاطه [١] ، وإنتظام وتناسق هذه الأجهزة وتعاونها ، وتجاوبها الكامل الدقيق ، وكل عجيبة من هذه تنطوي تحتهاعجائب ، وفي كل عضو ، وكل جزء ، من عضو خارقة تحير الألباب [٢] ٠

إن منكري الإيمان بالغيب ، يعلنون عن كونهم من ذوي الغفلة ، وما أكثر الغفلى الذين إذا جاءهم ذكر الله أعرضوا عنه ، وإذا مر بهم ذكر الشيطان التفتوا إليه ثم تمسكوا به ، أنهم في لهوهم يعمون [٣] ، وعن أسرار الحياة يتعامون ، وحول موضوعات الغيب يجادلون ، ويآيات الله سبحانه يكفرون ، مع أنهم عما قريب يموتون ، وعلى ربهم حتما يعرضون ، وسوف يجازيهم بما كانوا يعملون ٠

قال تعالى ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ [٤] ٠

ثم إن روح اللهو تسري فيهم ، وروح الغفلة تحكم أمرهم ، وتفرض عليهم الاستجابة لها ، ومن ثم فهم لا يخرجون من مشكلة إلا ويدخلون إلى ما هو أكثر منها أعاصة وأصعب استعاصة ، كأنها تجري من خلفهم حتى تأخذ بأعناقهم من كل ناحية ، وهم في ذات الوقت ما برحوا خائضين في زخارف الدنيا ومتعها ، منغمسين داخل لذاتها ، وتعلقوا بأردافها، وأكتافها تعلق التائه الذي فقد عقله ، فلما أدركته شجرة شمطاء ظنها أمه ، فبلغ تعلقه بها المبلغ الذي لا تجدي معه مقاومة ، ولاينفع معه أي رجاء ٠

---

(١) راجع : أسرار خلق الإنسان في الصلب والترائب ، للشيخ محمد صالح عبد النبي ، صـ ٤٥ / ٧٨ ، ففي ذلك تفاصيل كبيرة وأسرار عديدة ٠

(٢) الأستاذ / سيد قطب : في ظلال لقرآن ، جـ ٧ ، صـ ٥٧٩ ، ويمكن مراجعة تفسيره لآيات خلق الإنسان وتكوينه ، فقد امتع القارئ بالعديد من الصور الجميلة الرائعة٠

(٣) العمة هو التحير والتردد في كل أمر ، حيث لم يعرف وجه الصواب فيه ، راجع القاموس المحيط ٠

(٤) سورة الأنبياء : الآيات ١ - ٣ ٠

يقول " الشيخ السعدي " هذا تعجب من حال الناس الذين لا ينفع فيهم تذكير ، ولا يرعون إلى نذير ، مع أنهم قد قرب حسابهم ومجازاتهم على أعمالهم ، وفي غفلة عما خلقوا له ، وأعراض عما زجرو به ، كأنهم للدنيا وحدها خلقوا ، وللتمتع بها ولدوا ، وأن الله تعالى لا يزال يجدد لهم التذكير والوعظ ، ولا يزالون في غفلتهم وإعراضهم[١] ، وأنهم لذلك يسارعون في اللهو ، ويكثرون منه ، ويتباعدون عن الجد والإستقامة ، مع أنهم في ذات الوقت ، يدعونه فبئس ما يفعلون ٠

إن حقيقة الإيمان تقوم على الإيمان بالغيب ، وطبيعة الإلحاد عمادها إنكار الغيب ، ولا يمكن ان يتلاقى الطرفان ، ومن ثم كانت مشكلة النسبية الفلسفية في إسقاط الحديث عن الغيب من قاموس أفكارهم ، بمثابة إعلان واضح عن دخول هذه الفلسفة دوائريمكن أن تكون مستحكمة الأطراف والحلقات [٢] ، وتعبر عن قصور في التفكير العقلي ، وضيق عن القيام بالواجبات ، وجملة التكاليف الشرعية ، أما لماذا؟ فلما يلي :

١ ـ أن الإيمان بالغيب هو العقيدة السليمة في الله رب العالمين ، و بالتالي ، فإنكار الغيب هو ذاته العقيدة الفاسدة ، وهذا مما تتعلق به المسئولية والجزاء ، نظرا لإرتباطهما بالنظم الدينية للأمة ، وإنتظام جميع المسئوليات المنبعثة من تعاليم الدين[٣] ، سواء ما تعلق منها بالعبادات ، وما تعلق منها بالمعاملات ٠

وسواء أكانت متصلة بشئون العبد مع ربه ، أم بشئونه مع نفسه ومع غيره من أفراد مجتمعه، وأفراد المجتمع الإنساني وسائر المخلوقات الأخرى[٤]، كما تنظم جميع انواع

---

(١) الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، صـ ٥٥٨ / ٥٥٩ .

(٢) هذا الإستحكام هو الذي رسمته تلك الفلسفات التي لا تعتمد على شرع الله ، وإنما تعتمد على المنتج العقلي وحده ، بما فيه من قصور وعوز وإحتياج ، وما فيه من خروج على قاعدة المسئولية والإنفلات من طبيعة الجزاء ، راجع كتابنا : تأملات غزالية في الأفكار البراجماتية صـ ١٥٢ / ١٦٩ ٠

(٣) تعاليم الدين الإلهي محددة ، وواضحة ، وما يترتب عليها يجوز نفس الصفات ، وتقع له نفس النعوت طالما كان الأصل الذي قامت عليه هو ذاته الذي جاء من عند الله جل علاه ٠

(٤) راجع للدكتور / محمد عبد الله دراز : دستور الأخلاق في القرآن ، حيث تناول كلا من المسئولية والجزاء في دراسة مستقلة تعتبر من أفضل ما كتب في ذات الوقت٠

الجزاء المترتبة على هذه المسئوليات ، سواء ما كان منها ثوابا عن طاعة ، وما كان منها عقابا على معصية ، وسواء أكان حدوثها واقعا أو إفتراض حدوثها متوقعا في الحياة الدنيا أم في الآخرة ، أم فيهما معا [١] .

٢ - إن إرتباط المسئولية بالجزاء ينتهي مع أصحاب الإيمان بالجنة ، تفضلا من الله تعالى ونعمة ، وثوابا من الله ومغفرة ورحمة ذلك الفضل من الله ، وكفى بالله عليما، أما مع أصحاب إنكار الغيب ، فإن النار تكون هي دار الخلود لهم عدلا من الله تعالى ، ووفاء لأهل الشقاوة والخسران ، قال تعالى ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [٢] .

ولما كانت المسئولية في إطارها العام تعرف بأنها صلاحية الإنسان لأن يتحمل تبعات مايصدر عنه من أفعال [٣] ، طبيعية وقانونية وإجتماعية وخلقية ، واقتصادية و غيرها ، فإن هذه المسئولية يتبعها شعور داخلي يفرض على ذات الفرد اعتباره مسئولا أمام قوة خارجة عن ذاته ، هذه القوة الخارجة عن الذات إنما هي مصدر ذات الشعور ،ولا يمكن حسبانها إلا من الله تعالى ، فهو خالق الكل ، وصانع الجميع ، وكل شيء عنده بمقدار [٤].

فالشعور الداخلي أمر غيبي ، من حيث أنه غير مرئي ، ولا مشاهد ، والقوة التي تفرضه غي رمرئية ولا مشاهدة ، وإنما هي من العالم لغير مرئي ، إنها تمارس على ذات الفرد العديد من الأنشطة ، وفي نفس الوقت ترتبط بالأنشطة صور المسئولية ، ويتعلق بها الجزاء [٥]، وهذا من شأنه وضع الإيمان بالغيب الموضع اللائق به في أعلى مقام .

---

(١) الدكتور على عبد الواحد وافي : المسئولية والجزاء ، صـ ٣ ، ط. الحلبي سنة ١٣٣٦٨ هـ / ١٩٤٨ م. ، والكتاب في مجمله يعبر عن فكر رائع استطاع المؤلف من خلاله تقديم نظرتي المسئولية والجزاء في شكل إجتماعي له استقلال تام عن الدراسات الأخلاقية والفلسفية .

(٢) سورة هود : الآيات ١٠٦ - ١٠٨ .

(٣) الدكتور محمود محمد مزروعة : دراسات في علم الأخلاق ، صـ ٤٥ و ط. مكتبة الرياض سنة ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م. .

(٤) سورة الرعد : الآية ٨ ، وفيها دليل على وجود الله تعالى وقدرته الكاملة وإرادته التامة العاملة ، وعلمه الواسع المحيط ، بجانب حكمته البالغة .

(٥) يدل عليه قوله تعالى ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ سورة المدثر : الآية ٣٨ .

٣ - إن إنكار الغيب ، فيه خدعة يقوم بها أصحابها مع سبق الإصرار والترصد ، أما كيف ؟

فلآن النسبية الفلسفية مجرد فكرة لا وجود لها على ناحية الطول والعرض ، والعمق والإمتداد [(١)]، إنها تفتقد الأبعاد التي عليها مدار الكلام في الأمور المحسوسة ، ومن ثم فهي إلى العالم غير المرئي أقرب ، ومن طبيعته أكثر يسرا ، والذين يرفضون الإيمان بالغيب ، إنما يمارسون ألوانا عديدة من الخداع العلمي بل والمعرفي ، ولا مانع من القول بإمتداد ذلك عندهم إلى الأخلاقي والعاطفي •

٤ - إن إنكار الغيب يمثل إنتهاكا صريحا لقواعد العلم وقفزا متواليا على كافة الأصول العامة للمعرفة ، فضلا عن أنه يسم أصحابه بالعديد من أوجه القصور[(١)]، كما ينعتهم بالعنف الإجتماعي والأخلاقي ، ويجعلهم ينخرطون في جملة المتجاوزين للآداب العامة ، على أدنى تقدير •

المشكلة الثالثة : إنكار وجود حقائق مطلقة

قديما قال العلماء حقائق الأشياء ثابتة ، أما العلم بها فهو الذي يقع عليه التغير ، إذ قد يتحقق العلم بحقائق الأشياء على درجة اليقين ، وقد تحدث عملية الإدراك بإعتبار الظن ، أو الشك ، ومن ثم ، فالعلم بالأشياء يمكن أن تقع فيه النسبية التي تجيء بين اليقين والظن ، أو الإحتمال ثم الشك •

فإذا كان الظن يمثل إدراك الطرف الراجح ، فإن الشك يعبر عن تساوي الطرفين ، واستواء الكفتين ، وهذا من شأنه الإفضاء إلى قاعدة عامة ، هي محاولة الوصول بالمعرفة إلى درجة اليقين المطلق الذي يتوفر في كل ما يجيء من عند الله تعالى ، لأن ما يجيء من عند الله في كتابه الكريم ، وعلى لسان رسوله الخاتم العظيم ، فيه الصدق كله ، وهو اليقين المطلق •

قال تعالى ﴿ وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَى

---

(١) الأفكار في الأصل أعراض تجيء وتزول ، ولا تقوم بذاتها إنما تقوم بها غيرها ، ولا تشغل حيزا من الفراغ والألفاظ المعبرة عنها إنما هي أعراض سيالة تنفض بمجرد النطق بها •

(٢) تعدد أنواع القصور يؤكد أن المتصف بها يفتقد اهم الأصول العامة •

كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً اللّهُ لا إِلَـــهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ حَدِيثاً ﴾ (١) .

قرر " العلامة النسفي " أن الله تعالى كان على كل شيء حسيبا ، حيث يحاسبكم على كل شيء ، من التحية وغيرها ، وهو سبحانه وتعالى يجمعكم يوم القيامة حشرا ، حيث تقومون من القبور ، ثم تنتصبون للحساب يوم يقوم الناس لرب العالمين ، ولا أحد أصدق من الله تعالى في أخباره ، ووعده ، ووعيده ، لإستحاله الكذب عليه جل شأنه لقبحه ، بإعتباره اخبارا عن الشيء بخلاف ما هو عليه (٢) .

ثم أن كل خبر يحتمل الصدق والكذب لذاته ، إلا ما جاء من عند الله تعالى ، فإنه لا يحتمل إلا الصدق اليقيني لذات المخبر به ، وهو الله سبحانه وتعالى ، وذات المبلغ به وهو الرسول الصادق عن الله تعالى ، ومن ثم ، فالصدق لذات الكلام أيضا على سبيل التبع ، لأنه جاء من عند الله الصادق ، وبلغ به النبي المصدق من الله ، وهي الجهة التي يقوم عليها الصدق أصلا ، فإن هذه الصفة تجيء مع ذات الكلام أيضا ، ومن ثم فهو الأصدق والأحسن من جميع الوجوه .

يدل عليه قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللّهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلاً ﴾ (٣) .

ولما كانت هذه الحقائق مطلقة يجب الوقوف عندها ، والتسليم بها فإن الذي يخرج عنها ، ويعلن إنكارها ، لا يمكن إعتباره صاحب إتجاه سليم ، فإذا أدركنا أن النقل المنزل قد ذكر حقائق عديدة بعضها على سبيل التصريح ، مع الذكر والتخصيص كعدد السماوات والأرضين منها قوله تعالى ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾ (٤) ، **وقوله تعالى** ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ

---

(١) سورة النساء : الآيتان ٨٦ و ٨٧ .
(٢) العلامة الإمام أبو البركات عبد الله بن أحمد النسفي : تفسير النسفي ، جـ ١ و صـ ٢٣٨ ، مطبعة محمد على صبيح .
(٣) سورة النساء : الآية ١٢٢ .
(٤) سورة الطلاق : الآية ١١ .

الشَّمْسَ سِرَاجاً ﴾ [١] ، وبعضها على سبيل التلميح كأنواع النعيم لأهل الجنة ، وصنوف العذاب الأليم لأهل النار ، منها قوله تعالى ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ ﴾ [٢] ، وبالتالي ، فقد أبان عن وجودها ، وطبيعتها ، كما أكد على ضرورة الإقرار بها •

أما أصحاب النسبية الفلسفية ، فقد ذهبوا إلى أن حقائق الأشياء نسبية ، وليست مطلقة ، وأكدوا أن وجود الحقائق المطلقة مستحيل ، بينما وجود حقائق نسبية له يعتبر أمرا ممكنا [٣] ، كما قرروا أن الحقيقة إذا أردنا أن نجعلها مطلقة فلا بد أن تنقي من الشوائب الذاتية [٤] ، ولما كان الذي يقوم بعملية التنقية هو العقل الإنساني ذو الطبيعة المحدودة ، فإن عملية البحث عن حقيقة مطلقة يعتبر صورة من صور إثبات المستحيل •

يقول " فايزر " أن الإقرار بوجود حقائق مطلقة يتوقف عليها وجود عقول يمكنها تحقيق ذات الهدف ، ولما كان الفكر الإنساني لم يظفر بها بكرا ، بحيث تعبر عن معرفة ثابتة يقينية ، فإن المعرفة التي تجيء عنها نسبية لا محالة ، وأي دفع بغير ذلك إنما هو قتال في معركة [٥] ، ومن ثم ، فعملية الإقرار بوجود حقائق مطلقة فيها نوع من الخروج على المألوف لدى أصحاب النسبية الفلسفية •

وهكذا تصيب العقول أصحابها ، ويقع ضيقوا الأفق بين ثالثة الأثافي ، وبخاصة عندما تشتد بهم العواصف الفكرية ،حيثما تقذف بأوهامهم الذاتية، وكأني بأمير الشعراء

---

(١) سورة نوح : الآيتان ١٥ / ١٦ •
(٢) سورة محمد : الآية ١٥ •
(٣) سوف أعرض لهذه الجزئيات على أساس أن ذلك يمثل جانبا معرفيا من ناحية ، ويعبر عن إتجاه فكري غير قائم على أسس شرعية من ناحية ثانية •
(٤) فكرةالشوائب الذاتية أقيمت عندهم على أساس أن كافة المعارف ليست صحيحة ، وإنما فيها الصحيح والفاسد ، والعقل الذي يسعى لتخليص الأولى من الثانية ليست لديه قدرة إبداعية بحيث ينشيء علوما استقلالية تحقق أهدافا يقينية •
(٥) جورج فايزر : الفلسفة النسبية ، صـ ١٥٧ ، ترجمة عبد العاطي فاضل ، ط. أولى سنة ١٩٨٧ •

قد عناهم حين قال :

تجري العقول بأهلها فإذا جرى ∴ كبت العقول وزلت الأحلام

ما كنت أعلم والحوادث جمة ∴ أن الحوادث مقلة وقوام

جنيا على كبدي وما عرضتها ∴ كبدي عليك من البرئ سلام

ولقد أقول لمن يحث كؤوسها ∴ قعدت كؤوسك والهموم قيام

لمن تجر بين جوانحي إلاكما ∴ جرت الدنا بها وسال الجام [١]

١ ـ لقد زعم أصحاب النسبية الفلسفية ان الحقيقة والخطأ أمران يرادن على الذهن البشري بدرجة واحدة ، وكل منهما يقع له النمو والتطور بنسب متفاوتة ، غير أن الحقيقة هي التي يمكن أن تعكس نمو الواقع وتطوره، أما الخطأ فإنه يعبر عن قصور الواقع وتضاء له ،وكان أصحاب النظرية الماركسية هم من اكثر القائلين بهذا الزعم [٢] ، فالحقيقة ، هي فهم إنعكاس الطبيعة في فكر الإنسان لا كشيء جامد بدون حركة ، وإنما بإعتباره عملية تطور أبدية للحركة ، بحيث يمكن من خلالها ولادة التناقضات وإيجاد حلول لها [٣] .

ثم انهم أعلنوا عن جملة من الحجج التي يبررون بها تأكيدهم على ذات المشكلة ـ استحالة وجود حقائق مطلقة ـ ومنها أن الحقائق التي تمثل النتاج الفكري لا تخرج عن الصور التطورية التي تنمو وتتكامل بالتوافق مع قوانين الجدل الديالكتيكي [٤] ، ولذا فهي حقائق نسبية عمادها الحركة المستمرة .

٢ ـ أضف إلى ما سبق ، إعتبارهم أن الإنسان مقياس معرفة الحقيقة ، أما معيار

---

(١) أمير الشعراء أحمد شوقي : الشوقيات ، الجزء الثاني ، صـ ١٦٧ ، شركة فن الطباعة ، سنة ١٩٤٨ ، المكتبة التجارية الكبرى .

(٢) راجع للينين : الدفاتر الفلسفية ، صـ ١٧٥ .

(٣) راجع للعلامة محمد باقر الصدر : فلسفتنا ، وقد أحال إلى الدفاتر الفلسفية ، صـ ١٦٨ .

(٤) تعتبر قوانين الجدل ، أو الديالكتيك بمثابة إعلان واضح وصريح عن رغبة البعض في الوقوف أمام الحق بصورة فيها الكثير من الشك والريبة ، ويمثل الإتجاه نحو السفسطة في أشكالها المتعددة .

قبولها ، أو رفضها ، فهو العمل والتجربة ، فمتى صدق العلم العمل ، فهو حقيقة لكونها صحيحة ، وإذا لم يصدق العمل العلم فليست حقيقة ، وإنما هي صورة من صور الخطأ [١] ، التي يقع فيه بنو البشر على الدوام ، وهذا يؤدي إلى إنكار وجود حقائق مطلقة نسبية كما يزعمون ٠

وكان " وليم جيمس " يعتقد انه لا توجد حقائق مطلقة ، أما لماذا ؟ فلأن المعارف لا ترد على أصحابها دفعة واحدة ،وإنما تأتيهم على الناحية التدريجية ، وإن كان كل فرد يمكنه العمل على إتمام معرفته ، أو انقاصها ، كما يمكنه أن يطور فيها ، ولا يتم ذلك كله إلا بالتجربة ،وهي في حد ذاتها غير صحيحة مطلقا ، وإنما صحتها تأتيها عندما يتم التحقق من نتاجها على أرض الواقع[٢] ، وحينئذ تكون حقائق عامة ٠

٣ ـ ولما كانوا قد قرروا رفض وجود حقائق يقينية ، أو معارف مطلقة ومن ثم أنتهى الأمر بهم إلى إعلان النسبية ، فكأنها لهم الأمل والسلوى ، مع هذا مخالف للعقيدة الإلهية ، أما لماذا ؟ فلأن البعد من الناحية الطبيعية هو الكمية التي تستخدم في القياس ، ومما لا شك فيه ، ان العملية الطبيعية يجب أن تقام على القياس الذي هو عملية مقارنة مقدار بمقدار من نوعه ، أو كمية بكمية أخرى من نوعها ، لمعرفة عدد مرات إحتواء الأولى على الثانية ، أو العكس ٠

ومن ثم فقد وجب الإتفاق على الوحدة المعيارية [٣] ، وهذه حقيقة علمية ، وليست فكرة نسبية ، كذلك قرر النسبيون ان كل فكرة لا تعتبر حقيقة موكدة مهما كانت صادقة ، وإنما هي حقيقة بالنسبة لمن أدركها [٤] ، لأن الإنسان المدرك يرتبط بمجموعة عناصر أساسية ، هي :

---

(١) راجع في هذا كتابنا / تاملات غزالية في الأفكار البراجماتية ، صـ ١٩٨ / ١٩٩ ، حيث أن هذه الشبهات كثيرا ما يقع لها التكرار عندهم ، مع أنها تحمل القصور من كل ناحية عند تأملها ٠

(٢) راجع لويم جيمس : البراجماتية ، وكتابنا : تاملات غزالية في الأفكار البراجماتية حيث أن هذه المشكلة يتقاسمها أصحاب الوضعية المنطقية والطبيعة ، كما يكرر القول فيها أغلب دعاة الفلسفة الحديثة في الغرب والشرق على السواء ٠

(٣) الأستاذ / أحمد محمد فتحي : توحيد قوانين الكون ، صـ ٤ ٠

(٤) ومادامت كل حقيقة يرجع فيها لمن أدركها ، فقد عاد الأمر إلى ما كان عليه السوفسطائية القدامى ، وما يقوله هؤلاء إنما هو صورة مما تردد ذكره في الماضي ٠

أ - ذات مفكر مدرك ، ولا بد فيه من أن يكون سليم القوى والملكات ، صحيح الآلات[١]، قادرا على التمييز بين المتقاربات ،وإدراك الفروق بين المتناقضات من كافة الوجوه .

ب - بيئة مكانية يعيش فيها هذا المفكر ، لأن البيئة المكانية التي عاش فيها إنسان الأسكيمو ليست هي ذات البيئة التي عاش فيها الهندي القديم ، بل أن المصري في عصوره القديمة كانت بيئته المكانية ذات تأثير فعال بالنسبة له ، وإنها استطاعت ان تؤثر فيه تأثيرا أمتد إلى جميع أنشطته الذهنية والنفسية والجسمانية[٢] بل أنها شملت جميع أقطاره وجهاته .

جـ - بيئة زمانية استطاعت أن تحتوي هذا المفكر ، بدليل أن إنسان العصر البداني الحجري ليس هو ذات الإنسان الذي عاش عصر التقدم العلمي ، وليس إنسان القوى المادية البدائية هو إنسان عصر البخار والكهرباء والمغناطيسية [٣] ،فجميع المعارف التي وردت لا يقع فيها التساوي بينهم أبدا لأختلاف العصور الزمانية .

د - الحالة السياسية ، لأنها التي تدفع المفكر إلى إختبار أي الطرق يسلك ، فإن كانت البلاد آمنة مستقرة، جاءت الأبحاث في تلك الفترة تحمل الهدوء والمعرفة الصحيحة، بجانب الصدق ، ومحاولة الوصول إلى الحقيقة ، أما إذاكانت تعاني من إضطرابات سياسية ، وتقلبات عسكرية ، فإن الظروف الإجتماعية سوف تفرض أداءها على الناس وهنا يتحول هذا المفكر إلى صورة من المشكلات التي تعاني منها بلاده [٤] .

---

(١) ادوارد بيتر : التفكير ومسؤلياته ، صـ ٧٧ ، ترجمة د. / عادل زكي ، سنة ١٩٩٩ .

(٢) الدكتور فيصل محمد نصر : الإنسان في العصور التاريخية ، صـ ٩٤ ، مطبعة المهدي ، سنة ١٩٨٥ .

(٣) لا شك أن هذه العناصر لهاتأثير على ثقافة الفرد ، لكنها لا تقف حائلا ، أو عائقا عن بلوغ الحقيقة ، أو الوقوف عليها ، إذ الحقيقة لا يقع الإختلاف في شأنها ، لكن قد يقع الخلاف في طريقة ، أو كيفية الوصول إليها ، والفرق بين إنكار الحقيقة والإقرار بوقوع الخلاف حول إدراكها أمرا كبيرا جدا ، بل هو واسع إلى حد كبير .

(٤) راجع كتابنا : التفكير الإنساني أصوله ومستوياته ، صـ ١٨٥ ، وكتابنا : حلف الفضول عندالعرب وأثره في العصر الحديث ، صـ ٧٩ ، وكتابنا : الفكر السياسي بين الغزالي والأنظمة الحديثة ، صـ ٦٩ .

هـ ـ الفروق الفردية ، وهي ما يمتاز به بعض الأفراد عن البعض الآخر ، وما يختلف كل فرد فيها عن مساويه ، كالنواحي الجسمانية والعقلية ، والمزاجية والإجتماعية ، بعضها وراثي وبعضهاإكتسابي ، وبعض آخر جامع بين الوراثي والإكتسابي ، وهي قاعدة مشتركة بين جميع أفراد النوع الإنساني[1] ، وما دامت هذه الفروق في كل أفراد النوع الإنساني ، فإن المعارف التي يتحصل عليها منهم لا تكون حقائق مطلقة أبدا ، بقدر ما يمكن الحكم عليها بأنها معارف ، أو حقائق نسبية •

ولما كانت المعارف متنوعة ، والأفراد بينهم تفاوت في إدراكها ،فليس من الصواب المغامرة بإدعاء وجود حقائق مطلقة [2] ، بل يجب الإصغاء إلى الصوت القادم من بعيد ، المنادي بالنسبيه ، ففي ذلك تقدير للواقع ، وإعلان صريح بأحقية الإنسان في التفكير ، وحريته في إختيار أحكام صحيحة ، وهو معنى حرية التفكير وحرية التعبير

وحيث ان هذه الوجوه مجتمعة ، تمثل الأساس الذي تقوم عليه عمليات بحث حقيقية ما ، وهي تختلف من فرد لآخر ، ومن مجتمع آمن لآخر غير آمن ، فإن الحقيقة لن تكون مطلقة أبدا ، كما أن المعارف التي تبلغ حد الإطلاق ليس مسئولة عن شيء ، وإنما ستظل في جوار النسبية تبحث لها عن مكان ، وتسعى لإختراق الحاجز ، وهي في كل حالاتها نسبية أيضا •

موقفنا منها :

لقد فات هؤلاء أن الإنسان منذ فجر التاريخ ،و هو يحاول تدريجيا الإنتقال بالمعارف من الوصف الكيفي إلى الوصف الكمي ، وأن هذه المحاولة قام بها في الأشخاص والأشياء والأحداث على قدر سواء ، وأنه في الوصف الكيفي كان يستخدم الصفات-أو النعوت اللغوية ، وأضدادها ، وأن هذا النوع من الوصف قد يكون دقيقا بسبب إعتماده الكبير على الإعتماد الشخصي ، و التقدير الذاتي ، وما يصاحبها من أخطاء الحكم [3] ، وهذا

---

(١) الدكتور فؤاد أبو حطب : الفروق الفردية ، صـ ٣ ، ط. الثانية ، سنة ٢٠٠٠ •
(٢) جورج براون : القدرات العقلية والفروق الفردية ،صـ ٧٣، ترجمة فايز ناشد ، سنة ١٩٩٧ •
(٣) الدكتور فؤاد أبو حطب : القدرات العقلية ، صـ ٦٥ ، مكتبة الأنجلو المصرية •

ليس بمقصود لنا حينما نتحدث عن وجود حقائق مطلقة ، ومن ثم فإعتمادهم على صور ومظاهر فردية أو لغوية لا يؤدي إلى إنكار وجود حقائق مطلقة يقينية •

١ ـ اعتمد النسبيون على أن كل فكرة أو حقيقة إنما هي رأي لمن قال به ، أو إعتمد عليه ، وكان " فرنكل " يقول في كل شيء رأي ، والمسألة في أي شيء إنما هي مسألة رأي ليس إلا [١] ، ومادامت مجرد رأي يقبل الصواب والخطأ ، ويأتيه الإحتمال من كل ناحية ، فإن النسبية تكون هي المعيار الذي يحكم به المنكرون على هذه الفكرة ، وكونها حقيقة إحتمالية صادقة او كاذبة •

٢ ـ أضف إلى ماسبق وهو أن إنكار وجود حقائق يقينية لم يكن وليد لحظة بذاتها ، وإنما هو إتجاه معرفي ، ركز على الجانب الفكري في الإنسان المدرك ، ولم ينظر للأشياء الثابتة فالسماء حقيقة ثابتة ، وكذلك الأرض [٢] ، ثم ان النجوم في ذاتها تعبر عن حقائق ثابتة التي خلقها الله تعالى ، لكن الذي ينظر للسماء فلا يدرك إلا لونا أزرقا بعيدا تماما عن هذه الحقيقة الثابتة ، وكذلك الحال مع النجوم ، ففي إنكار إدراك كون السماء حقيقة ، أمر يتعلق بذات الرائي لا بذات المرئي ، بذات المدرك لا بحقيقة الذي وقع عليه الإدراك •

وإذا حاولنا تقييم الأساس الذي قام عليه إنكار وجود حقائق ثابتة مطلقة لدى هؤلاء ، أمكننا بسهولة أن نقف على دعمهم لفكرة الوجود الخارجي الواقعي على حساب الوجود الواقعي غير الخارجي [٣] •

---

(١) تشارلز فرنكل : أزمة الإنسان الحديث ، صـ ٦٤ ، ترجمة نقولا زيادة ، مكتبة دار الحياة ، بيروت •

(٢) وثباتها لكونها قد جاء بها النقل المنزل ، لأنها من الغيبيات التي لا يعلمها إلا الله تعالى ، من حيث هي جسم ممتد ، ليس فيه شقوق ولا ثقوب ، إلى غير ذلك من النعوت التي تحدث عنها النقل المنزل بالنسبة للسماوات والأرض •

(٣) فكرة الوجود الخارجي الواقعي تعبر عنها لديهم الجواهر المادية ، بينما الوجود الواقعي غير الخارجي تعبر عنه فكرة الأعراض ، كما تعبر عنه بعض مظاهر روحانية أو وجدانية، راجع كتابنا: قضايا حبيسة في الفلسفة الحديثة ، صـ ٧٧ •

وبعبارة أخرى ، ترجيحهم فكرة الوجود المشاهد على غير المشاهد كانت الأساس الذي بنوا فوقه أن الإنسان مقياس الحقيقة ، وأن الحقائق نسبية وليست مطلقة ، وأن فكرة المعيارية لا تقبل وإلا توقفت عجلة البحث العلمي عند أول درجات سلم المعرفة الإنسانية ٠

٣ ـ لقد القت بهم أفكارهم في جب عميق ، وطوحت بأحلامهم ناحية معالجة الكيفيات الخاصة ، وعلاقتها بالقوى الإدراكية من خلال الظروف الزمانية والمكانية [١] ، وباتت كل فكرة تطارد سابقتها ، حتى تلحق بها ، وتقبض عليها من عنقها تبغي إهلاكها ، وكأنها غلقت الأبواب ، ثم أعلنت هيت لك ، فما كان من متابع أفكارهم إلا إعلان معاذ الله ، فالإنسان معارفه مصادرها متنوعة ، بين حسية وعقلية وإلهامية ونقلية ، ونتائجها متنازعة[٢] ، ولا عاصم لهاإلا عند التمسك بماجاء منه جل علاه ٠

كان بعض النسبيين قد أعلنوا عن بناء مذهب نقدي للمعرفة ، يقوم على الشك في كل المعارف الموجودة ،وسحب بساط الإعتراف بوجود حقائق ثابتة[٣] ، وقد نتج عن جهود هؤلاء ثلاثة مذاهب فرعية ، أحدهما يتعلق بالمعرفة ، بينما الثاني ارتبط بالحقيقة ، أما الثالث فقد تمدد داخل نطاق القيم الخلقية ، وكان " هيدسون " يعلن أن مذهب النقد الشكي استطاع تجاوز الآراء اللاهوتية التي أجبرت العقل على قبولها ، ولم تعطه أدنى فرصة للتأمل فيها أو توجيه النقد لها [٤] ٠

أما " جيرار " فقد أعلن في سفور واضح أن النسبية تجري في دمائنا وعقولنا ، وتتسلل داخل أجسادنا ، وهي من طبيعتنا الإجتماعية ، وتفكيرنا ،بل هي الممثل لدياناتنا

---

(١) فكرة الظروف المتلائمة تجد متسعا لها في العديد من المؤلفات التي لها إرتباط بالفلسفة الحديثة ، ومن الأجدى قيام دراسة جامعية تحت هذا العنوان " فكرة الظروف الملائمة بين الدين والفلسفة " ٠

(٢) هذا التنوع والتنازع ، مما يفضي إلى القول بأن المعارف الإنسانية نسبية ، أما المعرفة التي طريقها الوحي المنزل فإنها حقيقة مطلقة ، لكونها من عند الله تعالى جاءت ٠

(٣) مذهب النقد الشكي غيرمذهب الشك النقدي ، ولكل منهما أنصار وخصوم ، وهما غير المذهب التقوي من كل ناحية ٠

(٤) أدمون جيرار : الفلسفة والنسبية ، صـ ١٤١ / ١٤٢ ، ترجمة ناهد خالد ، سنة ١٩٩٨ ٠

وفلسفتنا ، إنها كل شيء بالنسبة لنا ، إنها التعبير الحقيقي لكل متطلبات الشعور ، وهي قمة النتائج التي تفرضها شهواتنا بجانب الغرائز المختزنة داخل أعماقنا ، ولا شك انها أوهام لعبت بعقول أصحابها ، لأن وجود أحكام مطلقة مما جاءت به الشريعة الإلهية حتى يتحقق السلام والأمان للبشرية ، وفي نفس الوقت فإن التكاليف الشرعية قامت على ذات الأحكام المطلقة التي تساوي بين جميع المكلفين ، وتكشف على الدوام صور الحكمة التي جاءت في ذات التكاليف من حيث أن القيام بها على وجه صحيح يحقق رضوان رب العالمين ٠

والحركة النسبية في الفلسفة ذات تاريخ حلقاته متعددة ، ومراحله متواصلة ، فقدماء اليونان كانوا يقولون بالتغير الدائم في الأشياء ، حتى يصلوا إلى القول بعدم وجود حقائق ثابتة ، بل كان الواحد منهم يقرر الرأي صباحا ، ثم يعدل عنه مساء ذات اليوم ، ولا يرجع هذا التردد إلى ذاته هو لمفكر له رأي يقف عنده ، وإنما يجعل الأمر مشروطا بالمصدر النسبي[١] ، ومن ثم فقد ظهرت لديهم أفكار عديدة ، منها فكرة التغير النسبي ، والثبات النسبي ، والتوتر القائم

بيد أن المصريين القدماء حينما تمسكوا بنظرية الحبل المشدود ، إنما كانوا يتناولون النسبية بطريقة عملية ، فها هم يرفضون المعيار الثابت ، ثم يلفظون الفكر القائم ، ويعلنون ان كل شيء نسبي حتى الدين الذي جاء به رجال اللاهوت [٢] ، وما يقوم به الكهنة كل ذلك ، لا يمكن أعتباره حقيقة مطلقة ، بل الصواب أن يسمى بالفكر النسبي ٠

إن المعرفة هى الحاكم على الحقيقة ،و المعرفة مصدرها الإنسان بما له من طبيعة خاصة ذات نزعة محددة ، ويرى النسبي أنه من المستحيل بوجه خاص تجاهل طبيعة النوع الإنساني ، والإهتمامات الفريدة المميزة للبشرية [٣] ، وهي قاضية بأن كل معرفة نسبية، وكل حقيقة نسبية ، بل تعدى ذلك إلى الدين والقيم والأخلاق ، وهو مما أضاف إلى فكر

---

(١) فكرة المشروط النسبي ذات بعد فلسفي ورياضي أيضا ، بل أنها دخلت إلى ميدان العلوم الطبيعية ، ولذا تعددت الصور والمصادر التي تعني بتناولها ، وتكثر من تداولها ، راجع لإدوارد جينز : البعد الذي نعيش فيه ، صـ ١١٥ ، ترجمة زكريا حسن ٠

(٢) راجع كتابنا : تأملات غزالية في الفلسفة المصرية القديمة ، صـ ٣١ ٠

(٣) هنتر ميد : الفلسفة وأنواعها ومشكلاتها ، صـ ٢٧٠ ٠

هؤلاء الفلاسفة العديد من المشكلات ، وجعلهم يقفون على شفا جرف هار [١] .

ونحن عندما نحاول تأمل هذه المشكلة ، نجد أن الذين صنعوها ، هم أنفسهم أصحابها ، فهم الذين بنوا هذا العبد ، ثم لما استوى بناؤه سارعوا إليه فهدموه فوق رؤس الجميع ما نجا منهم أحد ، ولا طمع في النجاة من كان تحت الجدار ، لقد ولعوا بالجدل إلى أبعد مدى ، وجاوزوا كل سبل وزبد بدا ، وكانوا لابليس تبعا ، وأضحى فيهم سيدا .

بدليل أن ابليس أفتى ودل في مسألته فإنقطع في مجادلته ، وخسر من أول كرته ، خيث بان فساد تعليله ، وإذاغته عن الصواب في تأويله أنه قال ما حكاه القرآن الكريم ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ [٢]، ومعناه أن النار جوهر شفاف ، له قوة الإشراق وسلطان الإحراق ، والطين جسم مظلم كثيف ، ليس باللطيف ولا الخفيف ، والسجود خدمة ، يتضمن تعظيم المسجود له ، والأولى بها الأعلى منهما ، هذا منتهى كلامه [٣] .

ولكن هذا القول الشيطاني ، والتفكير العدواني ، مردود عليه من وجوه عديدة منها :

١ - أنه عارض النص بالقياس ، وهو فساد في الإعتبار ، وعدم استبصار ، لأن العمل بالنص مقدم على القياس [٤] ، كما أن سهام القياس تصيب مرة وتخطيء مرة أخرى ، وكلام المعصوم ، منزه عن الغلط والزلل ، ولا يخطيء أبدا .

---

(١) وقد ضرب الله لهؤلاء الأمثال ، فقال تعالى ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىَ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ سورة التوبة : الآيتان ١٠٩ / ١١٠ .

(٢) قال تعالى ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ سورة ص: الآيات ٧٥ / ٧٨ .

(٣) قام الشيخ ناصر الدين الشلبي بتصوير هذه الصورة من الجدال ، وقد نقلتها لك عسى أن تستفيد بها ، وتنتفع بما فيها ، ففي ذلك الخير إن شاء الله تعالى .

(٤) علاقة النص بالقياس مما أكثر تناوله أصحاب أصول الفقه من القدامى والمحدثين ، راجع للإمام الغزالي المستصفى ، والمنخول ، وللإمام الجويني : الكافية في الجدل ، وللإمام الشاطبي : الموافقات في أصول الشريعة .

٢ - أن الماء والهواء والتراب والنار أصول الأجسام ، ومواد المركبات [١] ، فلا يقوم جسم إلا بإجتماعها ،وإذا كانت متكافئة في التأثير فإختصاص أحدها بالأفضلية لا دليل عليه ، ومهما بذل أصحابه ، فإن شبهاتهم ساقطة ٠

٣ - أن الطين إشتمل على أصلين من الأصول الأربعة ، وهما الماء والتراب [٢] ، فكيف يكون أصل واحد منها خير من أصلين متكافئين ، وعلى تقدير تسليم التفاضل ، فالماء أفضل ، لأن سلطانه يقهر سلطان النار إذا التقيا ٠

٤ - على تقدير صحة قياسه جدلا ، فالترجيح للسجود على غيره [٣] ، من وجهين :

أحدهما : أن مصلحة أمتثال الأمر راجحة على الإمتناع ، لأن الإمتثال للأمر آمن من العقاب المترتب على المخالفة ٠

ثانيهما: ان الإمتناع من السجود بهذا التعليل المذكور من جهته يلزم منه تخطئة الأمر إلى وضع الشيء في غير موضعه ، وذلك في غاية الجناية على الإله الحكيم [٤] ٠

وفي تقديري، أن أصحاب النسبية الفلسفية كانوا يستغلون جدل إبليس بأوسع ما في الكلمات من معنى ، أما لماذا ؟ فهذا ما سوف نحاول القيام به عرضا ومناقشة على النحو التالي ، وعلى الله قصد السبيل ٠

---

(١) ويطلقون عليها اسم العناصر الأربعة ، أما في الفلسفة فيسمونها الاستطقساب الأربعة ، وكل يقدم وجهة نظره في المسألة ٠

(٢) دليل ذلك قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ سورة المؤمنون الآية ١٢ ، وسلالة الطين هي متكون الماء والتراب ، ومجتمع تلاقيهما ٠

(٢) ومادام الترجيح للسجود ، فلا شك ان مسألة الجدل لم تقدم جديدا ، ولم تحقق منفعة ، بل أنها في ذات الوقت قد ضيقت على أصحابها وأحكمت قيدها حول أعناقهم ، وعقبى الظالمين النار ٠

(٣) العلامة أبو الفرج عبد الرحمن بن نجم بن عبد الوهاب الأنصاري ابن الحنبلي : كتاب استخراج الجدل في القرآن الكريم ، صـ ٧ ، والكتاب قد حوى ثمانية أبواب ، الأول في ذكر الجدل وأنواعه من حيث المدح والذم ، والثاني في أول من سن الجدل ، اما الثالث فكان عن جدال الأنبياء مع اممهم ، والرابع في ذكر الأدلة وأنواعها على وجود الصانع سبحانه وتعالى، والخامس حول ذكر الأدلة على وحدانية الله تعالى ، أما السادس فقد كان عن أدلة البعث ، والسابع الأدلة على رسالة سيدنا محمد ﷺ من القرآن ، أما الثامن والأخير فقد جاء في السؤال والجواب ، ونكت من الجدال ٠

١ - زعموا أن حقائق الأشياء نسبية ، وهذا الإعلان ينفي وجود الحقائق الثابتة ، وكلامهم لا يلتفت إليه ، لما هو معلوم من أنه إذا كان المثبت ثقة لم ترد حجته ، بإنكار غيره ، لأن المنكر ينفي ، والأول يثبت ، والإثبات مقدم على النفي ، كما أن مع المثبت زيادة علم [١] ، بينما النافي يتعلق بالكثير من حبال الجهل ، حيث يتغنى بالأوهام ، ويقطع كل صلة تجيء فيها المودة ، أو تتعلق بصلة الأرحام •

قال صاحب المسامرة الأصل الأول العلم بوجوده تعالى ، وأولى ما يستضاء به من الأنوار ، ويسلك من طرق الإعتبار ما اشتمل عليه القرآن الكريم ، فليس بعد بيان الله تعالى بيان [٢] ، وهو دليل سمعي عقلي قائم على أصول نقلية وتوسعات عقلية ، وهو من الحقائق المطلقة ، والقواعد الثابتة •

ومن ثم فإنكارهم وجود حقائق مطلقة يتناول ما جاء من عند الله تعالى ، وما جاء من عند غيره ، وفي هذا مساواة ظالمة لما جاء من عند الله تعالى ، وما جاء من غيره وإلحاد بالله ، وكفر بآياته لقوله تعالى ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [٣] .

ثم إن فكرة إنكار وجود حقائق مطلقة لو أخذت على جانب المعرفة الإنسانية التي تكون مصدرها الإنسان العادي الذي لم يأته الوحي السماوي ، فإن هذا قد يقبل وتساهم فيه فكرة الفروق الفردية ، والعقلية الجمعية ، بجانب القدرات العقلية ، وربما شاركهم هذا الإتجاه أصحاب الأبحاث النظرية، أما أن يطلقوا مفردات لغوية عامة من غير تحديد كلنا هيمها فتلك مأساتهم [٤] ، بل هي القيد الذي أغلقوه حول أعناقهم ، ثم تعلقوا به بعد أن ثبتوه في سقف أوهامهم ، فباؤا بغضب من الله ، ولهم عذاب عظيم •

---

(١) العلامة الشيخ ابراهيم بن على بن يوسف الشيرازي أبوا اسحق:المعونة في الجدل، صـ ٢٩ •

(٢) العلامة الكمال بن أبي شريف : كتاب المسامرة بشرح المسايرة ، للعلامة الكمال بن الهمام في علم الكلام ، صـ ١٥ ، ط. الأولى سنة ١٣١٧ هـ •

(٣) سورة محمد : الآيتان ٢٣ / ٢٤ •

(٤) كثيرا ما أنادي ، وما زلت أطالب بتحديد المصطلح في كل علم ، لأن تحريره من اوجه الإشتراك تعطي المرء فرصة لإختيار أفضل الحلول ، بل أن انسبها سيكون هو المستهدف ، ومن ثم فإن أغلب مؤلفاتي أضع في صدرها تحديد المصطلح ، وهو منهج علمي وطنت نفسي عليه •

٢ ـ زعموا أن الحقائق نسبية ، لأن كل حقيقة تحمل الصواب والخطأ ، وهذا خلط واضح ، إذ الذي يحمل الصواب والخطأ إنما هو الخبر المجرد ، العاري عن اليقين ، بدليل ما ذهب إليه البلاغيون في تعريفهم الخبر بأنه ما احتمل الصدق والكذب لذاته ، فهو في هذه الحال يكون مجرد خبر ، أما الحقائق فلها وضع ثابت ، ومظهر يقيني ، وإتجاه يأخذ بها حتى تقع الإستفادة على كافة الوجوه الممكنة ، اما هؤلاء فقد قال الله تعالى فيهم وأمثالهم ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ [(١)] .

وهم ليسوا ممن قال فيهم الحكيم :

أعمى إذا ما جارتي برزت ∴ حتى يوارى جارتي الخدر
وأصم عما كان بينهما ∴ أذني وما في سمعها وقر [(٢)]

وقد تأخي خلطهم المعارف الإنسانية بالعقيدة الإلهية ، كما خلطوا بين الصواب والحق ، فكانوا بذلك من ذوي الإتجاهات التي تمهد لأصحابها في النار ، قال تعالى ﴿ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاء مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً ﴾ [(٣)] .

قال صاحب التحرير والتنوير صار كل واحد منهم كالأصم الأبكم الأعمى ، فجمع كل واحد هذه الأصناف كلها ، وليس المعنى على التوزيع ، بحيث يفهم أن البعض كالأصم ، وبعض كالأبكم ، وبعض كالأعمى [(٤)] ، وما ذلك إلا لإنطماس بصائرهم ، وإنعدام عقولهم وضمائرهم ، وتحولهم نحو نداء الشيطان وإغراءاته ، لا نداء الرحمة ورحماته .

ثم أن غاية ما يمكنهم الوصول إليه هو إعلان عدم قدرتهم على إدراك حقائق يقينية مطلقة ، وفيه إعتراف منهم بالعجز الذاتي ، وذلك يمثل إقرارا بما في النفس

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٨ .
(٢) فأصحاب النسبية الفلسفية يتعامون عن رؤية الحق ، ويتجادلون في رده ، وهم في ذات الوقت صم لا يسمعون به ، ولا يتكلمون عنه ، ومن ثم فتحوا لأنفسهم ابوابا في غضب الله تعالى ، كما وطنوا لأنفسهم في النار دركات ، وهم في كل الأحوال ليسوا من الأسوياء ، لأنهم بجدلهم قد خرجوا عن الفكر الصواب الذي مدح الله تعالى به أولي الألباب .
(٣) سورة الإسراء : الآية ٩٧ .
(٤) الإمام الأكبر الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور : تفسير التحرير والتنوير ، ط ١ ، صـ ٢٩٩ / ٣٠٠ .

الإنسانية من قصور ، وما يحيط بها من عوز تحتاج معه إلى الإستكمال والزيادة ، وشأن النفس الإنسانية السليمة النهوض لطلب المعالي (١) ، ومن المعالي ما يتعلق بمعرفة النفس إمكانياتها وعدم الخروج عليها ٠

لكن هؤلاء جعلوا الحق يلبس ثوب الباطل ، وتوهموا أن الباطل يمكن أن يلبس ثوب الحق ، فوقع التبديل بينهما عن قصد إلى تلك الجريمة ، مع إصرار عليها ، فكانوا داخلين في نطاق من وقع عليهم الذم ، في قوله تعالى ﴿ وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ (٢) ٠

قال صاحب البحر المحيط لا يناسب من كان عالما أن يكتم الحق ، ويلبسه بالباطل ، لإرتباط ذلك بحقيقة العلم والبعث والجزاء كما أن من علم الحق ، وكتمه كان كتمانه له أشد معصية وأعظم ذنبا ، لأن العاصي على علم أعصى من الجاهل العاصي (٣) ، وفي ذلك ضلال يعايشه ، وإضلال للغير يمارسه ونفرة من الحق ، ورغبة في قبول الباطل وإذاعته ٠

لقد نصب هؤلاء أعواد سركهم على رفض الحقيقة المطلقة بينما كل حديثهم عن طالب الحقيقة ولا شك أن الحقائق الأساسية ثابتة وعليها تقاس النظائر والأشباه ، اما الأشخاص الذين يتلقون هذه المعارف شأنهم وقوع الثبات الكطلق ، وإنما هم ممن يأتيهم الثبات النسبي القابل للتعديل والتأير ، إذ الخصائص الإيمانية المؤثرة في القلوب والعقول ينالها المد والجزر ، لأن الإيمان يزيد وينقص ، كما أن قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن ، ولهذا ، فالنفوس تتغير ، والقلوب تنقلب والخصائص تتبدل (٤) ، ومن

---

(١) طلب المعالي من مهام النفس الإنسانية في موضعها الراقي ، ولذا فلا تترك منقصة في ذاتها إلا سعت لإستبعادها ، ولا مذمة إلا ابتعدت عنها ، فهي ساعية للمقاومة بعيدة عن النتائج ، ط. لحلبي الأولى ، سنة١٣٨٤ هـ / ١٩٩٤ م. ٠

(٢) سورة البقرة : الآيات ٤١ - ٤٣ ٠

(٣) العلامة محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي : البحر المحيط في التفسير ، الجزء الأول ،صـ ٢٩١ ، ط. دار الفكر ، بيروت سنة ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م. ٠

(٤) الأستاذ / محمد أحمد الراشد ، الدكتور عادل الشويخ : مجموعة رسائل العين ، صـ ١٥٨ ، ط. دار البشير للثقافة والعلوم ، سنة ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م. ٠

ثم فهناك فرق بين الحقيقة المطلقة ، وبين طالب ذات الحقيقة ، والخلط بينهما يمثل تجاوزا لخطوط فاصلة ، وإهدارا لأصول قائمة ٠

بل أن العلامة " ابن القيم " ذهب إلى أن الفتوى مع أنها تستند إلى دليل شرعي ثابت ، إلا أن تغير الفتوى وإختلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد [١]، المر مسلم ، ومن ثم فالذي يتغير هو فهم النص لا لذات النص ، والذي يقع عليه التعديل هو المفكر الذي يسعى إلى طلب الحقيقة لا ذات الحقيقة الثابتة ، التي هي هبة من الله تعالى ٠

ويقرر في كتابه " مفتاح السعادة " عند قوله تعالى ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ ﴾ [٢] .

إن هذا مثل ضربه الله تعالى للعلم حين تخالط بشاشته القلوب ،فإنه يستخرج منها زبد الشبهات الباطلة ، فيطفو على وجه القلب ، كما يستخرج السيل من الوادي زبدا يعلو فوق الماء ، وأخبر سبحانه وتعالى أنه راب يطفو ويعلو علىا لماء ، إذ لا يستقر في ارض الوادي زبدا ، كذلك الشبهات الباطلة إذا أخرجها العلم ربت فوق القلوب ، وطفت ، فلا تستقر فيه، بل تجفى وترمى فيستقر في الوادي الماء الصافي ، ويذهب الزبد جفاء ، وما يعقل عن الله أمثاله إلا العالمون [٣] ٠

قال الله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [٤] .

٣ ـ زعموا أن الإعتراف بوجود حقائق مطلقة ، يغلق الباب أمام البحث العلمي ، وهي

---

(١) العلامة ابن القيم : إعلام الموقعين عن رب العالمين ، جـ ٣ ، صـ ٥ ٠
(٢) سورة الرعد : الآية ١٧ ٠
(٣) الإمام ابن القيم : مفتاح دار السعادة ، جـ ١ ، صـ ٦١ ٠
(٤) سورة العنكبوت : الآيات ٤٢ ـ ٤٤ ٠

خدعة نصبوا شباكها حول عقولهم بأنفسهم ، وأحاطوها بكل ما فيهم من قوة ، أما لماذا ؟ فلأنه لو لم تكن هناك حقائق ثابتة مطلقة ، ابتداء كل باحث الطريق من أوله ، ولن يتقدم العلم خطوة واحدة ، لأن كل فرد متى بحث عن قاعدة يستند إليها فلن يجدها [١] وإذا حاول الوصول إليهاأعياه البحث والطلب حولها [٢] ، وفي هذا إضاعة لجهود كافة العلماء ، وإهدار لطاقات كل الباحثين .

ثم ان كل علم بشري توجد فيه بدهيات ومسلمات ، أو ضروريات ومسلمات ، والبدهيات او الضروريات إنما هي حقائق ثابتة مطلقة ، وإلا ما كانت بدهية ولا ضرورية ، ولا شك أن هذا يدل عليه ما ذهب إليه أهل العلم حين قسموا العلم الحادث إلى قسمين :

أحدهما البدهي : وهو الذي يحصل المرء عليه من غير كسب وإجتهاد ، ويسمى الضروري ، وإن كانت التسمية بالضروري راجعة إلى ناحية ثانية [٣] ، ككون الكل أكبر من أي جزء من أجزائه ، والاب من له ابن ، والأربعة تنقسم عند متساويين إلى زوج .

ثانيهما الكسبي : وهو الذي يحصل للمرء بكسب ومذاكرة ، وطول جد ومثابرة ، وكل ذلك واقع للعبد باقدار الله تعالى له ، وهما معا غير العلم اللدني الوهبي ، والعلم الإلهامي [٤] .

ومن زعم أنه قادر بذاته فقد وقع في المحظور ، وعاند الرب الكريم الغفور ، ككون حروف الهجاء العربية ثمانية وعشرون ، والأرقام الحسابية المعتد بايجابيتها تبدأ من رقم واحد ، وأن الأعداد الحسابية بدأت تجريبية ثم إنتهت إلى التجريد المطلق [٥] .

---

(١) ارى أن اتجاههم هنا يقوم على الجدل والمغالطة ، وليس البحث العلمي ، لأن البدهيات لا يجادل فيها عاقل ، ولا ينكرها إلا ماكر جاحد ، وإذا لم توجد قواعد ثابتة تقوم على حقائق يقينية ، فلن يوجد علم ، ولن يتقدم للأمام فكر .

(٢) لأن العلم الإنساني يخضع للتراكمات التي تقع بالإستفادة المتوالية ، وهذا من شأنه تحقيق مصلحة عامة نظرا لإرتباطه بالعلم الكسبي .

(٣) راجع كتابنا : مناهج البحث بين التقليد والتجديد ، صـ ٢٧٣ وما بعدها .

(٤) وهي عقيدتنا الدينية التي نلقى الله تعالى عليها ، لأن العبد لا يقدر على شيء بذاته ، وإنما يتم له ذلك بعون الله تعالى وإقداره ، ولذا فإن العبد يحاسب على ما كسب ، وما إكتسبت يداه قال تعالى ﴿ إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَاباً ﴾ سورة النبأ الآية ٤٠ .

(٥) راجع فكرتي التجريب والتجريد في كتابنا : الحثيث في المنطق الحديث .

أضف إلى ماسبق أن الحقائق الثابتة بذاتها إنما تعلن عن نفسها ، ويقف لها أهل العلم موقف المدرك لها ، المقدر لما فيها من معرفة و وما يحيط بها من فوائد ، فمن ينكر حقيقة أن مصر حباها الله بالنيل ، وأن مكة زينها الله تعالى بالبيت الحرام ، وأن المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين ، الذين تشد إليهم الرحال في قوله ﷺ ﴿ لا تشد الرحال إلا لثلاثة، المسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، ومسجدي هذا ﴾ [١] ٠

بل من يجهل ان كل ما له بداية له حتما نهاية ، صحيح قد يستبعدها ، نظرا لصحته ، أو كثرة ماله ، أو وقوعه بين زينات الحياة الدنيا ، لكنه في كل الحالات لن يتمكن من إنكار هذه النهاية ، أو إنها ستأتيه لا محالة ، وأنه مهما أمتد به العمر فلا بد له من موت بحصده ، ونهاية تودعه ٠

والله عز وجل يقول ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [٢] ، **وقال تعالى** ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [٣] ٠

وقوله تعالى ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـــذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـــذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ فَمَا لِهَـــؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيداً ﴾ [٤] ، **وقوله تعالى** ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [٥]

---

(١) ومعنى لا تشد الرحال على سبيل القصد للثواب الخالص ،إذ كل مسجد تشد إليه الرحال في الصلاة والإعتكاف ، ولكن هذه الثلاثة لها إعتبارات خاصة ، لما لها من مزيد فضل على غيرها٠

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٨٥ ٠

(٣) سورة الأنبياء : الآيتان ٣٤ / ٣٥ ٠

(٤) سورة النساء : الآيتان ٧٨ / ٧٩ ٠

(٥) سورة الجمعة : الآية ٨ ٠

وهذه حقائق ثابتة ، لا ينفع فيها جدل ،ولا تحتاج إلى برهان ، ولذا فقد أعد العقلاء انفسهم لها، ثم وطنوا قلوبهم على ما يمكن أن يأتي بعدها ، فمن احسن استقبال الأمر الإلهي نجا ، ومن لم يكن على هذا الإستعداد والإستقبال ضل وغوى ، ومن ثم فلا يمكن إنكار وجود حقائق ثابتة ، لها اليقين المطلق الذي جاءها مما خلقها العظيم وعو اللع الذي خلق ذات اليقين وجعلها مهيأة لقبوله والإتصاف به ، فتبارك الله رب العالمين ٠

المشكلة الرابعة : إنعدام وجود أحكام مطلقة

شريعة الله تعالى لعباده ، إنما جاءت لمصالحهم ، وحيث تكون المصلحة فثم شرع الله تعالى ، ومن ثم أكثر علماء أصول الفقه من التأكيد على أنه حيث تكون مصلحة العباد ، تكون شريعة الله تعالى ، لأنها جاءت لتعريفهم به ، وتبصيرهم بما يجب عليهم نحوه جل شأنه ، وبيان ما به صلاح حياتهم ، وإستقرار أمرها ، ثم نجاتهم في آخرتهم ، بحيث يظفرون بالسعادة والنعيم عند رب العالمين ٠

يقول الإمام " الشاطبي " كل علم شرعي ، فطلب الشارع له ، إنما يكون من حيث هو وسيلة إلى التعبد به لله تعالى ، لا من جهة أخرى ، فإن ظهر فيه إعتبار جهة أخرى فبالتبع والقصد الثاني لا بالقصد الأول [١] ، ومن ثم تكون الشريعة قد هدفت تعريف الخلق بطرائق عبادة الخالق ، حينئذ ،تصح العقيدة ، وتسلم لهم العبادة ، قال تعالى ﴿ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [٢] ٠

ثم أن العلم الذي يعرف الخلق بالخالق ، هو الذي يعتبر شرعا ، لأنه الباعث على العمل الذي لا يخلي صاحبه جاريا مع هواه ، كيفما كان ، بل هو المقيد لصاحبه بمقتضاه ، الحامل له على قوانينه ، طوعا أو كرها [٣] ، وهذا العلم يقدم أحكاما عملية مطلقة لا

---

(١) الإمام أبو اسحاق الشاطبي : الموافقات في أصول الشريعة ، جـ ١ ، صـ ٤٥ ، تحقيق الشيخ عبد الله دراز ٠

(٢) سورة غافر : الآية ٦٥ ٠

(٣) العلامة الشاطبي : الموافقات في أصول الشريعة ، جـ ١ ، صـ ٥١ ، وقسم أهل العلم بإعتبار طلبه وتحصيله إلى مراتب ثلاث : الأولى الطالبون له ، ولما يحصلوا على كماله بعد . الثانية الواقفون فيه علىبراهينه إرتفاعا عن حضيض التقليد المجرد واستبصارا فيه . الثالثة الذين صار لهم العلم وصفا من الأوصاف الثابتة بمثابة الأمور البديهية في المعقولات الأولى، أو تقاربها ٠

تختلف بإختلاف الأفراد ، ولا البيئات ، كما لا علاقة لها بالزمان أو المكان ، وهي في ذات الوقت حقائق يقينية .

كما أن العلم قد نظم أحكام العقل في ثلاثة :

أحدها الواجب : وهو الثابت الذي لا يقبل العدم أصلا ، على وجه من الوجوه ، ومن ثم فهو ينال الحكم على كل ما يرد من هذا الجانب ، وتوصف أحكامه بأنها أحكام مطلقة لكونها متعلقة بالواجب .

ثانيها المستحيل : وهو المعدوم الذي لا يقبل الوجود أبدا بوجه من الوجوه ، وهو من هذه الناحية يمثل حكما مطلقا ، على سبيل العدم لا على سبيل الوجود .

ثالثها الممكن ، أو الجائز : وهو الذي بتساوى وجوده وعدمه ، بالنسبة لذاته ، فإذا وجد كان وجوده من غيره ، وهو المرجح ، وإذا عدم كان عدمه من غيره ، وهو المرجح[1] ، لكل من الوجود أو العدم على الآخر ، فهذه الأحكام العقلية مطلقة .

في نفس الوقت ، فإن الأحكام الشرعية خمسة :أحدها الحلال ، الثاني الحرام ، الثالث المباح ، الرابع المندوب ، الخامس المكروه [2] ، وهذه الأحكام من ذات الناحية الشرعية مطلقة ، فالقول بإنعدام وجود احكام مطلقة يمثل مشكلة من المشكلات التي أفرزتها النسبية الفلسفية ، ومن ثم فسأحاول عرض هذه المشكلة عندهم من خلال مصادرهم التي تنقل جملة آرائهم ، وأناقشها بقدر ما يعين الله تعالى :

١ ـ قرر النسبيون أن الأحكام كلها وليدة الحقائق المعرفية ، ولما كانت الحقائق غير مطلقة ، فإن الأحكام التي تقوم عليها لا تكون مطلقة أيضا ، إذ كل حقيقة يمكن الوقوف عليها بالبحث العلمي ، إنما هي حقيقة نسبية لا مطلقة ، بل هي جزئية لا كلية ، إنها

---

(١) هذه الأحكام العقلية محل أتفاق بين الدارسين في أنواعها وأعدادها ومفاهيمها ، إلا إذا وجد صاحب رأي بعيد فلا يلتفت إليه . .

(٢) وتسمى الأحكام التكليفية ، لأن الأحكام الشرعية قسمان : أحدها يرجع إلى خطاب التكليف ، ويتنوع إلى هذه الخمسة ، ثانيهما يرجع إلى خطاب الوضع ، ويسمى الأحكام الوضعية ، وتنحصر في خمسة أيضا ، هي الأسباب والشروط والموانع والصحة والبطلان والعزائم والرخص ، راجع العلامة الشاطبي : الموافقات في أصول الشريعة ، جـ ١ ، صـ ١٤٩ وما بعدها أثناء الحديث عن الأحكام الوضعية .

مجرد إحتمال رجح على غيره فحاز الصدق عنده[١] ، ومن ثم فالأحكام التي تقوم على ذات الحقيقة النسبية تكون هي الأخرى نسبية أيضا ٠

كما إننا إذا نظرنا إلى الأحكام التي سبق القول بها ، وإعتبارها صادقة مطلقة بان أنها ليست كذلك ، فالناظر إلى ألفاظ الفوق والتحت ، والمتحرك والساكن يرى أنها غير موجوده على وجه اليقين ، بحيث يصدر عنها حكم مطلق او كلي ، ويؤكد ذلك أن العالم الذي نعيش فيه مازالت الشموس والكواكب الموجودة به آخذة في الدوران لم توقف ولن ... أنها لم تعرف أي مركز ثابت تركن إليه ، ومن ثم فإن إصدار أحكام مطلقة مثل الزمان ...طلق ، والمكان المطلق ، إنما هي من قبيل الخيال [٢] ٠

٢ ـ ان القول بوجود أحكام مطلقة يدفع إلى الإقرار والإعتراف بأن جهود الباحثين ...ستجدة لم يكن لها داع ، لأنها تكرار لأحكام مسبقة نالت في نفوس أصحابها منزلة ...لية ، حتى فرضت ذاتها على عقول الآخرين فرضا ، وذلك مايعول عليه الكثيرون ، ...جب النظر إليه بعين الإعتبار ٠

إذ التسليم بوجود أحكام مطلقة يعبرعن التبعية والتقليد في عصر تناسى الناس الأحكام المسبقة ، لأنها لم تحقق لأصحابها سوى جملة من الإمنيات التي ماتت في ...ها ، والأحلام التي لم تبلغ درجة القبول لدى واحد ممن يعتد بهم في دنيا ...فة [٣] ، وأكثر هذه الأحكام ليس مطلقا، مع ان المزاعم لم تنقطع حول كونها مطلقة، ...ما يؤكد وجود تناقض بين الواقع الحقيقي[٤] ، والدعاوي الفارغة ٠

٣ ـ إن العلم في تاريخه الطويل لم يجد حرجا من الإعلارن عن عدم وجود أحكام ... ، بدليل أن كافة الأبحاث العلمية إنما تسعى لإصدار أحكام جديدة قد تكون لها ...قة بالقديمة من الناحية الإيجابية الإستبقانيـة ، وقد تتـخلى عنها جميـعا على

---

(١) ...د فيكتور : الفيزياء والميكروفيزياء ، صـ ١٧٧ ، ترجمة خالد صابر ، سنة ١٩٨١ ٠

(٢) ... جيمس جينز : الفيزياء والفلسفة ، صـ ٨٦ ، ترجمة جعفر رجب ٠

(٣) ...ن هامر : ثقافة فلسفية ، صـ ٧٩ ، ترجمة زامر راشد ، وهو هنا يعبر عن وجهة نظر ...لفة لما هو سائد في الفكر الفلسفي بوجه عام، فالخصومة هنا قائمة على الإتجاه الذاتي ٠

(٤) ...جود التناقض الذي يدعونه يمثل إصطلاحا خاصا بهم لا علاقة له بالبحث العلمي ٠

الطريقة الإسقاطية [١] ، وهذا من شأنه إعلان أن الأحكام كلها نسبية .

بديل أن المفكرين والفلاسفة لم يتفقوا على إصدار حكم مطلق بشأن الكون ما هو ، والمغناطيسية ما هي ، والجاذبية ما هي ، والكهرباء ما هي ، بل إنك تجد فوارق عديدة عندما يتاح لك الوقوف على هذه الأحكام التي صدرت ، والملاحقات التي تمت عليها [٢] ، وهو ما يؤكد أن فكرة الأحكام المطلقة غير صحيحة ، بل أنها تعبر عن رغبة في السيطرة التي يعني بها رجال اللاهوت ، وكان ذلك ديدنهم إلى وقت طويل .

٤ ـ إن الذين يصدرون هذه الأحكام بشر ، فأي ميزة لهم على غيرهم حتى ينصاعوا لأفكارهم ، أو يقبلوا منهم ذات الأحكام ، مع أن الإنسان العاقل يدرك من تلقاء نفسه أنه قد يصدر حكما اليوم في مسألة ما ، ثم يعود إليه فيجد الحاجة ضرورية للتنازل عنه كليا، او جزئيا ، وأحيانا يرى أن الحكم الذي أصدره واقع في دائرة الخطأ ، ولا يسانده الصدق [٣] ، وهذا في حد ذاته يكفي للتدليل على أن فكرة إصدار أحكام مطلقة إنما هي فكرة ساذجة ولا تقوم على أسس معرفية .

لقد كانت المدارس العلمية في الماضي تقرر أحكاما مطلقة تتعلق بالوجود وطبيعة الكون ، ومصادر النشأة الأولى ، وإمتدت أحكامهم إلى كل مناحي الحياة ، وقد لقنوا تلاميذهم الحفاة والعراة هذه الأحكام [٤] ، وكثيرا ما عقدوا لها جلسات إلقاء وأخرى استماع ، وبعد مضي فترة من الزمان وجد هؤلاء انفسهم تقف وحيدة تحت مظلة الشك

---

(١) فكرة الإستبقانية غير فكرة الإستباقية ، وهما معا غير فكرة الإسقاطية ، وقد نبه إلى هذه المفاهيم مفكرو الإسلام عند الحديث عن طريقة السبر والتقسيم في المؤلفات الأصولية .

(٢) ادوارد فيشر : النسبية من منظور فلسفي ، صـ ١٤٥ ، ترجمة وفيق خالد .

(٣) جون هامر : ثقافة فلسفية ، صـ ٨١ ، وفكرة مراجعة النفس فيماتصدره تحدث عنها الإمام الأصفهاني ، وغيره ، وجاءت عباراتهم رائعة تعبر عن ما في النفس من قصور وحاجتها إلى الكمال .

(٤) يطلق لفظ الحفاة على الفلاسفة المشائين في الأمة اليونانية ، أما العراة فمصطلح يطلق على فريق من فريقي الجانتينية ، حيث كان أحدهما اسمه فريق أصحاب الأردية البيضاء ، وبينما كان الثاني يطلق عليه اسم فريق العراة ، راجع كتابنا : الجانتينية عقائدها وفلسفتها ، صـ ١٢٣ .

والقلق والإضطراب ، فتخلوا عن أفكارهم السابقة ، وأحكامهم المطلقة ، وعاودوا الحنين إلى الحركة العقلية التي لا حدود لها ، وأكدوا على أن النسبية هي القضية الحاسمة والحقيقة الثابتة [١] .

وفي العصور الوسطى ، ظهرت جملة من الأحكام المطلقة التي أصدرها اللاهوتيون لصالحهم ، ثم ما لبثت أن توارت ، إذ بان أنها تحمل الأخطاء من كل ناحية ، يقول " أرينز " كان الآباء اللاهوتيون يصيغون أحكاما تتعلق بالميتافيزيقا ، مع علمهم أنها غير صادقة ، لقد كانوا يتجادلون حولها ، ويتجادلون بغية إثبات أنها صادقة وصحيحة ، والمؤسف له أنهم الذين وضعوها وصاغوها ،وتجادلوا حولها ، وبالتالي ، بان أن هذه الأحكام شخصية ، ذاتية ، وقتية ، ليس فيها إلا النزعة التقويه غير الخالصة [٢] .

٥ - إن فكرة الأحكام المطلقة رائعة إذا أقترنت بالتجربة العملية ، وقامت على الخبرة والتجارب العقلية ، أما أن يكون مصدرها النظر المجرد ، فهذا مما يردده الكثيرون دون أن تكون لديهم مساحة واحدة للتأكيد على صدق قضاياهم ، ثم حسمها لصالح إجتهاداتهم ، أونتانجهم [٣] .

ومن هنا كان ضروريا الرجوع إلى الأصل ، وهو في كافة القضايا والأحكام نسبية شخصية ، بل أن كل ما في الكون خاضع لذات النسبية .

موقفنا منها :

أجل إن الوقوف على حقيقة هذه المشكلة الرابعة ،يحتاج نوعا من الروية ، بجانب الكثير من الأناة ، أما لماذا ؟ فلآن المبررات التي قدمها زعماء النسبية الفلسفية يمكن أن تغري الغر العجول لأنها تحمل الصيغ التبريرية ، وتعمل على خلط الأوراق [٤] ، إذ توحى

---

(١) ادوارد فيشر : النسبية من منظور فلسفي ، صـ ١٧٣، وهو يتناول القضية من طرف واحد ، ولو تناولها من طرفيها لكان له موقف آخر .

(٢) جورج أرينز : اللاهوت والسياسة والعلم ، صـ ٢٤١ ، ترجمة صابر عفيفي ، ط. الثانية ، سنة ١٩٩٨ .

(٣) أدموند جيفنر : الفلسفة والعلم ، صـ ١٥٢ / ١٥٣ ، وهو يؤكد على ضرورة متابعة الإتجاه التجريبي الحسي ، كالحال مع البراجماتية .

(٤) هذه العملية تعبر عن رغبة في إعلان الإفلاس العلمي ، لأنه كلما وجد نوع من الإفلاس ، وقع الكثير من الجدل ، وتبنى الديالكتيكيون مناهج هزلية .

للقارئ العادي بأنها تعتمد الحق ،وتسعى لليقين ، وتعمل لبناء فكري قوامه النسبية الحاكمة ، لا الحتمية المفرطة ، ومن ثم ، سأحاول مناقشة كل جزء من أجزائها على النحو التالي :

١ ـ قامت الجزئية الأولى على فكرة الإحتمال الراجح الذي هو العوض أو البديل عن الحقيقة المطلقة ، غير ان فكرة الإحتمال العلمي إذا رجحت ، وتمت التجربة عليها ، وأمكن إختبارها عدة مرات ، فإنها تعتبر حقيقة علمية تعبر عن حكم مطلق في ذات الواقعة ، او نفس التجربة ، وبإجتماع جملة من نتائج هذه الإحتمالات العلمية تتكون جملة من الأفكار ذات الصبغة المعيارية ، وهو ما يسمى بالأحكام المطلقة (١) .

وبالتالي فهم مجبرون على الإعتراف بوجود حقائق مطلقة قامت عليها التجربة ، ويلزمهم أيضا الإقرار بوجود جملة أحكام مطلقة عقلية ، بل أنهم يكونون قد أعترفوا بصحة الأحكام المطلقة التي جاءت بها الكتب السماوية من قبل الله عز وجل ، والله تعالى يقول ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٢).

وقال تعالى ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٣) ، وفي الحديث الشريف ﴿ إن أشد الناس عذابا يوم القيامة ، عالم لم ينفعه الله بعلمه ﴾ (٤) .

ثم ان إقرارهم بكون الأحكام المطلقة وليدة الحقائق المعرفية ، يمثل حجر الزاوية بالنسبة لنا ، ولا يساهم في دعم جدران النسبية التي يعولون عليها ، أما لماذا ؟ فلأنهم قدموا الأحكام المطلقة على الحقائق المعرفية عندما أرادوا هدمها ، وإنكار وجودها ، ثم إعتبروها وليدة الحقائق العلمية عندما هموا بإخراجها من سلم المعارف الصحيحة (٥) ،

---

(١) راجع كتابنا : البحث في المنطق الحديث ، صـ ١٢٧ ، وكتابنا : الوضعية بين المعقول واللامعقول ، صـ ٣٨٢ .
(٢) سورة النمل : الآية ١٤ .
(٣) سورة القصص : الآية ٥٠ .
(٤) الإمام مسلم : صحيح مسلم ، جـ ٣ ، صـ ١٥١٣ ، حديث ١٩٠٥ .
(٥) المعارف الصحيحة تبدأ من الأحكام المطلقة التي تحمل الضروريات والبدهيات ، كما تنقل المسلمات ، وهي في كل ذلك قائمة على إشارات النقل المنزل ، وتهدف لغاية مشروعة .

وهذا في حد ذاته يمثل القرار الكاشف لعداوة هؤلاء للعلم اليقيني الذي مصدره النقل المنزل ، والبديهيات العقلية ، ويعبر عن ثقافة ليست لهاأصول سليمة ، أو قامت على قواعد يمكن البناء عليها ، فهدموا ما ظنوه قائما ، ولا يظلم ربك أحدا ، وهذا ينتهي إلى ضرورة الإعتراف بوجود أحكام مطلقة ٠

أضف إلى ماسبق أن الألفاظ التي استعملوها لتكون ميدانا تطبق فيه تجاربهم من أمثال لفظ الفوق والتحت، المتحرك والساكن، إنما هي ألفاظ توافق الناس على استعمالها في ذات المعاني ، ومن ثم صارت أحكاما مطلقة وحقائق يقينية [١] ، لأن إنكارها يمثل إنكارا للعلم كله ، من جهات عديدة أبرزها المفهوم والدلالة ، إذ لا ينكر عاقل أن لفظ الفوق قد وضع بما يتفق مع مفهومه ومعناه ، وأن لفظ التحت على العكس منه ، بإعتبار المنطوق والمفهوم والدلالة ، وهي كلها أحكام مطلقة [٢] ، وتعبر عن معارف صادقة ٠

٢ ـ إعتراضهم على وجود الأحكام المطلقة بأنه يهدم جهود الباحثين من حيث أن هذه الجهود لا يكون لها من داع ، إنما هو إعتراض غير علمي ،ويؤكد فشل إتجاه قائليه ، إذ أن كل جهد علمي ، فردي أو جماعي ، متى كان صالحا وصادقا ، فإنه يعبر عن حقيقة واقعية، ويحمل في ذات الوقت دلالة على أن العلم الإنساني تراكمي ، وأن جهود الباحثين الصحيحة تتكامل مع بعضها ،وأنها تساهم في إيجاد ، او بناء أحكام مطلقة معيارية [٣] ، تصلح في الأغراض التي جاءت من أجلها ، وتحقق في ذات الوقت لانفع المرتبط بها ٠

ثم أن الأحكام المطلقة لا تفرض على عقول الناس ، وإنما تفرضها المصلحة العامة ، فمثلا الأحكام العلمية التي تقوم عليها الرياضة من مبادئ ونظريات وقوانين ، كلها تمثل بناءات علمية يمكن أن تضاف إليها في البناء المعرفي ما يحقق التقدم العلمي ، ويدفع بالأبحاث العلمية إلى المزيد بغية الوقوف على حقائق جديدة ، تعبر عن كشوف علمية ،

---

(١) راجع للعلامة جلال الدين السيوطي : المزهر في علوم اللغة ، صـ ١٦ / ٢١ ، لمعرفة كون الألفاظ اتفاقية إصطلاحية ، أو توقيفية ، ومدى دلالتها على معانيها ، وإعتبارها حقائق وأحكاما مطلقة ، ورأي العلماء في المسألة ٠

(٢) إذا وقع نزاع في دلالة هذه الألفاظ على المعاني المتداولة ، والأحكام القائمة ، فلا يلتفت إليه ، لأن الإسقرار القائم يقطع أي نزاع ، ويكشف في ذات الوقت عن أحكام مطلقة أيضا ٠

(٣) فكرة الأحكام المطلقة المعيارية وردت في كثير من مؤلفات علماء أصول الفقه ، وكذلك في الفقه المذهبي ، من خلال تناول أحكام البيع والشراء ، وباقي المعاملات ، بل الوحدود أيضا وأحكام الجنايات ٠

وتمثـل قـراءة جديدة لأفكار الآخرين [١] ٠

أضف إلى ما سبق أن التطور العلمي القائم في المجال البيولوجي ، والتغير المستمر في المجال الأخلاقي ، حتى وإن كانا يعلنان عن وجود النسبية ، إلا أنهما في نفس الوقت لا يلغيان وجود أحكام مطلقة ، لأن كلا منهما ـ البيولوجيا والأخلاق ـ تقوم أسسها على أحكام مطلقة [٢] ، أما عملية التطور فهي تحتاج النسبية ، وهذا في حد ذاته إعتراف بضرورة الحاجة إلي الأحكام المطلقة أكثر من الحاجة للنسبية ذاتها ٠

ثم أن الأحكام الشرعية والتكليفات بصفة عامة، إنما تمثل صلب الأحكام المطلقة ، لوقوعها عامة شاملة في جميع المكلفين ، والإستثناء الذي يلحق ذوي الأعذار ، إنما يتعلق بذات المكلف بالحكم الشرعي ، أو التكليف [٣] ، بل وجود هذه الأحكام المطلقة أوجب على ذوي الوراثة عن الأنبياء ، والإستخلاف في الأرض بذل المجهود المتواصل بغية الوقوف على الأحكام الإستنباطية لصالح هذه المعارف الشرعية ، ولولا هذه الأحكام العامة الثابتة ما وقع القياس ، بل وما تحقق الإستنباط ٠

يقول الأمام " الشاطبي " فالوراثة العامة في الإستخلاف على الأحكام المستنبطة ، وقد كان من الجائز أن تتعبد الأمة بالوقوف عند حد من غير استنباط ، وكانت تكفي العموميات حسبما قال الأصوليون ، ولكن الله تعالى من على العباد بالخصوصية التي خص بها نبيه ﷺ إذ قال تعالى ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً ﴾ [٤] ٠

وقال تعالى في الأمة المسلمة ﴿ وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [٥] ، وهذا واضح فلا يطول به الكلام [٦] ٠

---

(١) راجع كتابنا : قراءات في العقيدة وفلسفة العلم ، أثناء الحديث عن دور فلسفة العلم في بناء الأنساق العلمية ، صـ ٨٣ ، كتابنا : الحنيث في المنطق الحديث ، ص، ١٩٧ وما بعدها ٠

(٢) راجع لادوارد جيفر: البيولوجيا ومشكلات البحث، صـ ١٧١/١٤٣، ترجمة هادي عبد العظيم٠

(٣) الإستثناء لا يلحق الحكم لأنه قاعدة ثابتة ، وأمر إلهي ، إنما يلحق المكلف لأنه الذي يقوم به الأمر التكليفي في حدود الطاقة التي جعل الله تعالى الحكم مرتبطا بها٠

(٤) سورة النساء : الآية ١٠٥ ٠

(٥) سورة النساء : الآية ٨٣ ٠

(٢) الإمام ابو اسحاق الشاطبي : الموافقات في أصول الشريعة ، الجزء الثاني ، صـ ٢١٣ ٠

فقوله تعالى بما أراك الله قد جاء مترتبا على قوله جل شأنه ﴿ إنأ أنزلنا إليك الكتاب بالحق ﴾، فصار إنزال القرآن الكريم بالحق حكما مطلقا ، وقاعدة عامة ، لا يمكن أن ينال منها نزاع ، أو يقلل من الإحتكام إليها جدال ، قال العلامة " النسفي " لتحكم بين الناس بما عرفه الله وأوحى به إليك ،و قال الشيخ " أبو منصور " رحمة الله بما ألهمك بالنظر في أصوله المنزلة ، وفيه دلالة على جواز الإجتهاد في حقه ﷺ [١] .

٣ ـ المستقر في الأصول تقسيم العلم إلى ما هو صلب العلم ، وإلى ما هو ملح العلم لا من صلبه ، وإلى ما ليس من صلبه ولا ملحه ، أما ما كان من صلب العلم فهو ما كان قطعيا او راجعا إلى أصل قطعي والشريعة المباركة المحمدية ، منزلة على هذا الوجه ، ولذلك فهي محفوظة في أصولها وفروعها ، لقوله تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [٢] ، لأنها ترجع إلى حفظ المقاصد التي يكون بها صلاح الدارين ، وهي الضروريات والحاجيات والتحسينات [٣] .

وما هو مكمل لها ومتمم لأطرافها ، وهي أصول الشريعة ،وقد قام البرهان القطعي على إعتبارها ، وسائر الفروع ، مستندة إليها ، فلا إشكال في أنها علم أصل راسخ الأساس ، ثابت الأركان [٤] ، وأحكامه مطلقة من غير نزاع في ذلك بين العقلاء وأهل العلم .

كان من أصل العلم فله خواص ثلاثة يمتاز بها عن غيره ، إحداها العموم والأطراد [٥] ، ثانيها الثبوت من غير زوال .... وهكذا ، جميع الأحكام ، فلا زوال لها ولا تبدل[٦] ، ثالثها كون العلم حاكما لا محكوما عليه ، بمعنى كونه مفيدا لعمل يترتب عليه

---

(١) الإمام أبو البركات عبد الله بن أحمد النسفي : تفسير النسفي ، الجزء الأول ، صـ ٢٤٦ .
(٢) سورة الحجر : الآية ٩ .
(٣) لمعرفة هذه الثلاثة في صورة تفصيلية، راجع الموافقات في أصول الشريعة للشاطبي ، وأصول التشريع الإسلامي للدكتور على حسب الله ، والأحكام في الأحكام لإبن حزم ، والأحكام في الأحكام للإمام الأحدي والمستصفي للإمام الغزالي .
(٤) الأمام الشاطبي : الموافقات في أصول الشريعة ، ، جـ١ صـ ٥٨ .
(٥) وهذا في حد ذاته كاشف عن ضرورة وجود الأحكام المطلقة ، إذ لا يمكن أن يستقيم أمر العلم بدونها .
(٦) ومادامت ثابتة لا تزول ، فإن النسبية لايكون لها من وجود فيها ، ومهما حاول النسبيون ، فإن جدالهم منقطع ولا مكان له فيها .

مما يليق به ، فلذلك ، إنحصرت علوم الشريعة فيما يفيد العمل ، أو يصوب نحوه ، لا زائدا على ذلك ، ولا تجد في العمل أبدا ما هو حاكم على الشريعة ، وإلا إنقلب كونها حاكمة إلى كونها محكوما عليها ، وكل علم حصل له هذه الخواص الثلاث فهو من صلب العلم[١] .

وأما ما هو في ملح العلم وليس في صلبه ، فهو ما لم يكن قطعيا ولا رجعا ، إلى أصل قطعي ، بل إلى ظني ، أوكان راجعا إلى قطعي إلا أنه تخلف عنه خاصة من تلك الخواص أو أكثر [٢] من خاصة واحدة ، فهو مخيل ، وما يستفز العقل ببادئ الرأي والنظر الأول من غير أن يكون فيه إخلال بأصله ، ولا بمعنى غيره [٣] .

وبناء عليه ، فماكان من ملح العلم إذا استوفى شروطه ، فقد صار إلى صلب العلم أقرب ، وتكون إحكامه إلى الإطلاق أمضى وأكسب ، فالعبرة بإستيفاء الشروط لا بشيء آخر .

وأما ما هو لا من صلب العلم ولا من ملحه ، فهو ما لم يرجع إلى أصل قطعي أو ظني ، بل أن أصله بكر عليه ابطالا مستمرا [٤] ،أو كان منهضا إلى إبطال الحق ، وإحقاق الباطل على الجملة ، فهذا ليس بعلم ، لأنه يرجع إلىأصله بالإبطال ، كما أنه غير ثابت ولا حاكم ولا مطرد [٥] ، ولا هو من ملح العلم على أساس أن ملح العلم هي التي تستحسنها العقول السليمة ، وتستملحها النفوس الصحيحة ، كما أنه لا يصاحبها منفر ، ولا هي مما تعادى العلوم [٦] .

---

(١) الإمام الشاطبي : الموافقات في أصول الشريعة ، جـ ١ ، صـ ٥٨ / ٥٩ .
(٢) الخواص التي ذكرها هي الثلاثة التي في صلب العلم ، وهي الأطرد والثبوت وكونه حاكما ومبنيا عليه .
(٣) راجع للعلامة أبي اسحاق الشاطبي : الموافقات في أصول الشريعة ، الجزء الأول ، صـ ٦٠/ ٦٥، حيث تناولها بذكر الأمثلة العديدة ، والتوضيحات المفيدة .
(٤) استمرار الكر عليه بالإبطال يمثل الطعن المستمر ، ويؤكد أنه يعادي نفسه ، ويعادي أيضا الذين يتلقتونه ، او إليه يرجعون ، وعليه يعتمدون ، ويمثل مشكلة بحثية معرفية ، وعقدية بالنسبة لهم ، ولا ينال ذلك أحد غيرهم .
(٥) وهي خواص القسم الأول التي يعبر عنها صلب العلم ، أو تعبر هي عنه ، ولا يمكن النظر في العلم وأصله من غيررجوع إليها ، راجع للإمام الغزالي : المستصفى في أصول الفقه ، جـ ١ صـ ٢٣٧ ما بعدها .
(٦) راجع للإمام أبي اسحاق الشاطبي : الموافقات في أصول الشريعة جـ ١ ، صـ ٦٥ / ٦٦ .

وأصحاب النسبية الفلسفية إنما تقوم مشكلاتهم على هذا القسم الأخير ، الذي لا هو من صلب العلم ، ولا من ملحه ، حيث استحسنوه ولشبه عارضه طلبوه ، واشتباه بينه وبين سابقه عدوده ، وهو ما يظنه الأغبياء قائما على أصل وليس كذلك ، ويتعلق به أصحاب العقول الضعيفة ظنا منهم أنهم به يبلغون ذرى المجد ، وينالون ثريا العلم ، وما هم في كل ذلك إلا بين طبقات الثرى يتعثرون ، وفي أذيالهم يتخبطون ، وبين أحلام الكري يستهمون ، وفي ظلالات الهوى يبسحون ، وهم في كل حال عن حقيقة شرع الله تعالى غافلون ، وفي صحيح الكتاب والسنة يتمارون ،وبدين الله يلحدون ،وسوف يجازيهم الله عندما عليه يعرضون ، قال تعالى ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاء ﴾ (١) .

ثم أنهم قد مكروا في دين الله ، ومكروا به ، فإستحقوا ما توعدهم الله تعالى به وقد قال الله تعالى فيهم وفي أفعالهم ، وما يترتب عليها في الآخرة ﴿ فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمْ النَّارُ لِيَجْزِي اللّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ هَـذَا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ وَلِيَعْلَمُواْ أَنَّمَا هُوَ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة ابراهيم : الآيتان ٤٢ / ٤٣ .
(٢) سورة ابراهيم : الآيات ٤٧ - ٥٢

أهم المصادر والمراجع
للفصل السادس
حسب ورودها بأسفل الصفحات

١ - القرآن الكريم

٢ - المدخل لدراسة الحكمة الإسلامية الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي •

٣ - النسبية والأهداف العلمية بيتر جورج فيلك •

٤ - المدارس الفلسفية والمذاهب العلمية ادوارد بيتر •

٥ - الإتجاهات الفلسفية الحديثة والمعاصرة جورج مندل باكت •

٦ - التفكير العلمي في العصر الحديث ادوارد بلانت •

٧ - الفلسفة والعلم الدكتور عبد القادر بشته •

٨ - الحثيث في المنطق الحديث الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي •

٩ - مقدمة في الفلسفة العامة الدكتور يحي هويدي •

١٠ - ملامح الخصومة بين الحسين والمثاليين موريس صوفر •

١١ - أوراق متناثرة في التيارات المعاصرة الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي •

١٢ - الفلسفة الحديثة والمعاصرة جورج هرمان •

١٣- بنية الثورات العلمية توماس كون •

١٤ - تكوين العقل الحديث جورج هرمات راندال •

١٥ - الفلسفة الإنجليزية في مائة عام رولت مينس •

١٦ - الإتجاهات الفلسفية الحديثة ادوراد هونيك •

١٧ - تأليه الديانات الوثنية للآيات الكونية الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي •

١٨ - التطور الإحياني بين الدين والفلسفة الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي •

١٩ - قصة العلم ج. ج. كراوثرترجمة د. يمنى طريف الخولي

٢٠ - فلسفة العلم — الدكتور صلاح قنصوة ٠
٢١ - أسس الفلسفة — الدكتور توفيق الطويل ٠
٢٢ - حياد فلسفي — الدكتور يحي هويدي ٠
٢٣ - نشأة الفلسفة العلمية — هانز ريشنباخ ٠
٢٤ - الفلسفة والمعرفة — جورج كيمن ، ترجمة هاني ويصا ٠
٢٥ - المثل المعلقة في الفكر الإنساني — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي ٠
٢٦ - محاورات أفلاطون — ترجمة د. زكي نجيب محمود ٠
٢٧ - أعلام الفلسفة السياسية المعاصرة — انظوني دي كرسبي ، وآخر ، ترجمة عبد الله نصار ٠
٢٨ - العلم والإغتراب والحرية — د. / يمنى طريف الخولي ٠
٢٩ - سنن أبي داود — الإمام ابو داود ٠
٣٠ - المستدرك على الصحيحين — للإمام الحاكم ٠
٣١ - فتح القدير — العلامة الشوكاني ٠
٣٢ - كنز العمال — العلامة المتقي الهندي ٠
٣٣ - الفلسفة أنواعها ومشكلاتها — هنتر ميد ٠
٣٤ - الغزاليات في الإلهيات — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي ٠
٣٥ - تعليل أفعال الله بالأغراض بين المثبتين والنافين — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي ٠
٣٦ - تأملات غزالية في الفلسفة اليونانية — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي ٠
٣٧ - شرح الفشني على الأربعين النووية — الشيخ أحمد الفشني ٠
٣٨ - دراسات في الفلسفة — جورج ب. كونجر ٠
٣٩ - الجزء والكل محاورات في الفيزياء الذرية — فيرنر هينزبرح ٠
٤٠ - التطور الحضاري للإنسان — جاكوب برونوفسكي ٠
٤١ - الغزاليات في السمعيات — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي ٠
٤٢ - الإيمان بالغيب وأثره على الفكر الإسلامي — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي ٠
٤٣ - مطالع الأنظار على طوالع الأنوار — العلامة أبو الثناء الأصفهاني ٠
٤٤ - طوالع الأنوار — العلامة البيضاوي ٠
٤٥ - مفاتيح الغيب — العلامة الفخر الرازي ٠

٤٦ - في ظلال القرآن — الأستاذ سيد قطب .
٤٧ - مدخل جديد إلى العقيدة ـ ٢ ـ — خضر سوندك .
٤٨ - الترغيب والترهيب — العلامة الشيخ عبد العظيم المنذري .
٤٩ - الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل — العلامة الزمخشري .
٥٠ - تنوير الأذهان من تفسير روح البيان — الشيخ اسماعيل البروسوي .
٥١ - القاموس المحيط — العلامة مجد الدين الفيروابادي .
٥٢ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان — الشيخ عبد الرحمن السعدي
٥٣ - أساس البلاغة — العلامة الزمخشري
٥٤ - عبد الكريم الخطيب وأراؤه الكلامية — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي .
٥٥ - خصائص التصور الإسلامي ومقوماته — الأستاذ سيد قطب .
٥٦ - دستور الأخلاق في القرآن — د. محمد عبد الله دراز .
٥٧ - دراسات في علم الأخلاق — د. / محمود محمد مزروعة .
٥٨ - تأملات غزالية في الأفكار البراجماتية — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي .
٥٩ - تفسير النسفي — للعلامة أبو البركات النسفي .
٦٠ - الشوقيات — أمير الشعراء أحمد شوقي .
٦١ - الدفاتر الفلسفية — لينين .
٦٢ - فلسفتنا — العلامة محمد باقر الصدر .
٦٣ - البراجماتية — وليم جيمس .
٦٤ - توحيد قوانين الكون — الأستاذ أحمد محمد فتحي .
٦٥ - التفكير ومسئولياته — ادوارد بيتر .
٦٦ - الإنسان في العصور التاريخية — الدكتور فيصل محمد نصر .
٦٧ - التفكير الإنساني أصوله ومستوياته — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي .
٦٨ - الفروق الفردية — الدكتور فؤاد أبو حطب .
٦٩ - القدرات العقلية والفروق الفردية — جورج براون .
٧٠ - القدرات العقلية — الدكتور فؤاد أبو حطب .
٧١ - أزمة الإنسان الحديث — تشالرز فرنكل .

٧٢ - الفلسفة والثورة — ادوراد هيدسون .
٧٣ - قضايا حبيسة في الفلسفة الحديثة — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي .
٧٤ - الفلسفة والنسبية — ادموند جيرار .
٧٥ - العصر الذي نعيش فيه — ادوارد جيفر .
٧٦ - كتاب استخراج الجدل في القرآن الكريم — العلامة أبو الفرج الحنبلي .
٧٧ - المعونة في الجدل — الشيخ إبراهيم الشيرازي أبو اسحاق .
٧٨ - المسامرة بشرح المسايرة — العلامة الكمال بن أبي شريف .
٧٩ - تفسير التحرير والتنوير — الإمام الأكبر الشيخ محمد الطاهر أبن عاشور .
٨٠ - البحر المحيط في التفسير — العلامة محمد بن يوسف الشهيربأبي حيان الأندلسي .
٨١ - رسائل العين — الأستاذ محمد أحمد الراشد ، عادل الشويخ .
٨٢ - أعلام الموقعين — العلامة الإمام ابن القيم .
٨٣ - مفتاح دار السعادة — العلامة ابن القيم .
٨٤ - مناهج البحث بين التقليد والتجديد — الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي .
٨٥ - الموافقات في أصول الشريعة — الإمام أبو اسحاق الشاطبي .
٨٦ - ثقافة فلسفية — جون هامر ، ترجمة زامر راشد .
٨٧ - النسبية من منظور فلسفي — ادوارد فيشر ، ترجمة توفيق خالد .

الفهرس